

حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية

مجلة علمية محكمة تعنى ببحوث الآداب والعلوم الإنسانية

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية، محكمة، سنوية، تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط العصرية * تهتم المجلة بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى إلى إتاحة الفرصة للباحثين للإطلاع على أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث. وتستوعب

المجالات التالية:

- دراسات وبحوث أساسية

- وثائق ونصوص

- نصوص مترجمة

- دراسات ميدانية وعروض بيبليوغرافية

- عروض لمختلف الكتب والمجلات

* تخضع البحوث والمقالات والعروض والدراسات للتحكيم والتقييم العلمي الذي يتولاه أساتذة باحثون مختصون، ولا تعاد البحوث والأعمال التي لم تنشر إلى أصحابها

* تنشر البحوث والأعمال المجازة، في العدد المناسب وفق خطة هيئة التحرير

* يشترط في الأعمال والأبحاث المقدمة أن تكون أصيلة ومبتكرة ولم تنشر من قبل وألا تكون جزءا من أعمال أكاديمية سابقة (رسالة ماجستير، دراسات عليا أو أطروحة...)

* يراعى في المساهمات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية المتعارف عليها

يمكن اعتماد المواقع الإلكترونية المعترف بها علميا مع الإشارة إلى عناوينها والجهة التي تسيرها.

* يفضل ألا يقل العمل عن 10 صفحات وألا يزيد على 30 صفحة.

* يجب أن يكون العمل مراجعا من قبل صاحبه عند طباعته أو يحمل في قرص أو يرسل على البريد الإلكتروني.

* توجه المراسلات إلى سكرتيرية التحرير:

على العنوان الخاص بالكلية: FLSH@univ-nkc.mr

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إدارة المجلة

المشرف العام

الشيخ سعد بوه كمر

إدارة التحرير

مدير التحرير: محمد الراظي ولد صدفن

سكرتيرية التحرير: محمد عبد الرحمن بن عمار

محمد ولد الشيخ سيد أحمد

مريم بنت الشيخ

ممدو ولد دحمد

لجنة القراءة:

محمد ولد الشيخ سيد أحمد

محمد المختار ولد سيدي محمد

أحمد حبيب الله

محمد عبد الرحمن بن عمار

مريم بنت الشيخ

ممدو ولد دحمد

اللجنة الاستشارية:

أحمد الشكري: جامعة محمد الخامس، المغرب

شريف دحه با: جامعة الشيخ آنتا جوب، السنغال

محمد السیدی: جامعة محمد الخامس، المغرب

عبد الله ولد السيد: جامعة انواكشوط العصرية، موريتانيا

عبد الودود ولد عبد الله: جامعة انواكشوط العصرية، موريتانيا

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

.....	مقدمة في علم الأدب: الأطروحة والأدوات.....
1	أ.د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم.....
.....	شذرات نقدية في مذكرات محمد فال الخير الشنقيطي (1293 - 1351هـ)
13.....	يحيى محمد الهاشمي.....
31.....	شعر التبراع: من مشاعر الأنثى إلى هموم الإنسان فاطمة عبد الوهاب.....
.....	تجربة الحداثة في الشعر الموريتاني (التعايش مع الشفاهية)
47	المختار الجيلاني
63	"ثقافة البيئية" في الدراسات النفسية المعاصرة جمال ولد خليل
83	النقد الثقافي/ النظرية والمنهج الشيخ ولد باباه
.....	بناء القصيدة الصوفية في الشعر الموريتاني في القرنين 13/14هـ (من خلال نصوص مختارة) ..
97	المصطفى بن مَعَا
.....	شعر القرن الرابع عشر الهجري في موريتانيا و" إشكالية التصنيف"
115	أم كلثوم منت المعلي
137	السرد الموريتاني: القضايا والأسئلة زينب بنت عابدين
.....	ليالي ألف ليلة لنجيب محفوظ: نموذج للرواية العربية التأصيلية
145	عبد الرحمن ولد محمد سيديا.....
157	من أدوات تحليل النص السردى: الشخصية الروائية أحمدو بن اكبيد
.....	الكتابة الصوفية عند الشيخ التراد بن العباس ديوان (نيل المراد) نموذجاً
169	شيخنا ولد إدوم
.....	الرواية الموريتانية والبحث عن الجذور التمهصلات الزمنية الكبرى في دروب عبد البركة.....
197	الحافظ ولد محمد الفتح
.....	تحليل رواسب الكتبان الهلالية في إقليم انواكشوط كمال إبراهيم صيدم وبشيري
209	ولد محمد.....
227	الحدود الموريتانية المالية ومراحل تعيينها الشيخ محمد ولد انجاي
253.....	الخدمات التعليمية بولاية لعصابه الواقع والتحديات محمد الأمين ولد لمات

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- التمدد المجالي لمدينة نواكشوط أسبابه ونتائجه كواد ولد سيدي 273
- فقهاء شنقيط والاستعمار الفرنسي 1850-1960: مسار التعبئة وبيادر الجهاد المسلح عند منطري
قطب الرفض حامد ولد محفوظ 299
- الموروث السلطاني بين الواقع والمتخيل من خلال مفهوم الجماعة الشرعية عند الفقهاء الشناقطة
..... باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا 313
- نشأة الاستعمار وتطوره آدب ولد سيد امحمد 331

مقدمة في علم الأدب: الأطروحة والأدوات¹

أ. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة انواكشوط العصرية

إهداء

إلى أستاذي المرحوم جمال ولد الحسن،
وطلابي الذين أصبحوا زملاء.

0.0 . تسعى هذه المقدمة في مقاصدها النظرية والمنهجية إلى إضاءة نشاط معرفي وعلمي من العلوم الإنسانية هو علم الأدب، شهد في الربع الأخير من القرن الماضي تطورا ملحوظا في البيئات العلمية الغربية ونشاطا علميا متزايدا، وعرف في العقد الأول من هذا القرن، حضورا ضعيفا في أغلب البيئات العلمية العربية ونشاطا علميا محدودا، لم تنتع دوائر فعله في الجامعة، وظل تأثيره في الحياة العلمية والثقافية ضامرا، نتيجة لظروف استقبال هذا العلم وتمسك دوائر الوعي النقدي في الجامعة بالمناهج النقدية الممهدة لقيامه، ومناهضتها للوعي النقدي بنظرية علم الأدب وأدواتها، علي نحو تأخر معه ظهور علم الأدب في بعض الجامعات العربية، وجاء حضوره العلمي في البعض الآخر محدودا وتأثيره في الحياة الثقافية بسيطا، وهو ما سنسعى إلى إضاءته في هذه المقدمة، بتقديم النظرية النقدية لعلم الأدب وأدواتها المنهجية، والتوقف عند التطورات النقدية والمنهجية، التي عرفها النقد الأدبي ومناهجه، قبل أن يظهر علما من العلوم الإنسانية له نظريته حول الأدب، وأطروحته التي يختبر، ومنهجه الذي يطبق، وأدواته التي يستخدم من مصطلحات وتفكير منهجي وذهنية نقدية.

1.0 . لقد كان للتطورات النظرية والمنهجية، التي عرفها النقد الأدبي في الجامعات ومراكز البحوث الغربية في الربع الأخير من القرن الماضي أثرا البارز في ظهور ما يعرف اليوم في أقسام

¹ - قدم هذا البحث ضمن نشاط مختبر الأدب واللغة والمجتمع (ألم) بالكلية، 09 مارس 2017

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الاختصاص ومخابر البحث ومراكز الدراسات بعلم الأدب، تميزا له عن النقد الأدبي وإبرازا للحظة مهمة من لحظات تطور النظرية النقدية ونضج أدواتها وقدرتها علي إضاءة النص الأدبي ووصف خطابه، أصبح معها الخطاب حول الأدب علما محققا للشروط العلمية في دراسة الأدب، له منهجه العلمي في الوصف والتحليل والاستنتاج وأدواته النظرية والمنهجية الخاصة به، الملائمة لدراسة ظواهره والقادرة علي إضاءة نصوصه والكاشفة لمكامن الحسن والدلالة فيه، بما يكفل الاتفاق في الرأي ويقر الحكم في النقد، ويوحد الفكر الأدبي ويطور المعرفة الأدبية ويقيم علما بالأدب له نظريته وأدواته.

النظرية الأدبية: الاختلاف والاتفاق

1.1 - تتحد "نظرية المعرفة" بأنها النظرية التي يحصل بها العلم بالشيء دون الاتفاق عليه، وهي لذلك تغني الفكر وتثري التصور وتوسع مدارك العقل، لكنها تظل نظرية تعبر عن رأي أو تصور يمثل وجهة نظر صاحبه ولا يلزم الآخر، لإستناد الرأي والتصور فيهما إلي ضوابط المعرفة، بينما تحد "نظرية العلم، " بأنها النظرية التي يحصل بها العلم والاتفاق، وهي من ثم تغني الفكر وتأسس للتصور وتقدم الأطروحة القابلة للتطبيق والاختبار عبر منهج وأدوات، وتصدر الحكم أو القانون المعبر عن وجهة نظر الجميع، لإستناد الحكم والقانون فيهما إلي منهج العلم .

2.1 - لقد أدت التطورات النظرية والمنهجية، التي مرت بها النظرية الأدبية، في النصف الأول من القرن العشرين إلي بروز نظرية نقدية لعلم الأدب، تميز في تصنيفها المعرفي وضبطها المنهجي للأفكار والمعارف بين النظرية الأدبية والنظرية النقدية (العلمية)، مستندة في ذلك إلي التفريق بين المعرفة والعلم، فالنظرية الأدبية تتأسس علي الاختلاف في الرأي والتصور والنظرية النقدية علي الموافقة والاتفاق. وينشأ الاختلاف في الأولي من إنشاء النظرية علي تصور منسجم ومتسق غير قابل للتطبيق، له ضوابطه المعرفية في إبداء الرأي والاستدلال وإقامة الحجة، ويفتقر الي المنهج الذي يثبت الفرضية ويختبر طرح، بينما ينشأ الاتفاق في الثانية من إنشاء النظرية على تصور منسجم ومتسق قابل للتطبيق ومنتج للمعرفة، له منهج يبرهن على فرضيته ويختبر أطروحته ويحمي استنتاجه، ويجعله مصدرا لإنتاج المعرفة، ويدخله دائرة التداول العلمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

2.2 – لقد عرفت النظرية الأدبية في العصر الحديث تحولا معرفيا ملحوظا، فبعد أن كانت نظرية معرفية، تبني تصوراتها " للأدب " علي أسس نظرية ومنهجية مرجعها الفلسفة واللغة والمنطق، أصبحت نظرية علمية تبني تصورها " للأدبي " وتشيد خطابها حول الأدب علي أسس نظرية ومنهجية مرجعها التاريخ ومناهج العلوم الإنسانية، مما أدى إلي ظهور النظرية النقدية الحديثة، التي مثلت في تاريخ النقد قطيعة إستمولوجية مع الممارسة النقدية انكلاسيكية الموجودة في تراثيات الآداب القديمة عامة والقائمة علي الذوق والتأثير والانطباع والذاتية في الرأي والحكم. النظرية النقدية: الرأي الأدبي والرأي النقدي.

1.3 – ولئن قامت نظرية الأدب في تراثيات الآداب القديمة عامة والآداب العربية إحدى حلقاتها، علي الذاتية والانطباع في الرأي، والتأثر والذوق في الحكم، فجاءت نظريتها في الأدب نظرية في عموم طرحها نظرية معرفية، تستند في تصنيفها المعرفي وضبطها المنهجي للأفكار والمعارف علي منهج يعتمد علي الذوق والتأثر وأدوات اللغة والمنطق في بناء تصورها، فإن نظرية الأدب في العصر الحديث فرقّت في خطابها بين الرأي الأدبي والرأي النقدي:

1.1.3 – ففي الأول وهو خطاب حول الأدب ونصوصه، لا يصدر الرأي عن منهج من مناهج النقد الأدبي، فهو رؤية أو نظرة أو نظرية ليست لها أدوات منهج ولا لغته الواصفة، ومن ثم كان الرأي الأدبي رأيا حرا لا يحقق شروط الاتفاق والعلم، بل شروط المعرفة والتعرف، وكان المتلقي إزاءه حرا في أن يقبل به أو لا يقبل، ومن هنا صنعت الآراء الأدبية في خانة النظرية الأدبية، لكونها معارف، يتأسس القول فيها علي التنظير المعرفي، الذي يغني التصور ويثري الأفكار الأدبية حول الأدب ونصوصه.

2.1.3 – وفي الثاني وهو أيضا خطاب حول الأدب ونصوصه، يصدر هذه المرة عن منهج محدد ومعروف عند أصحاب العلم والاختصاص، له نظريته أو نظريته النقدية، القابلة للتطبيق والمنتجة للمعرفة القائمة علي الاتفاق، وله أدوات ولغته الواصفة المستمدة من المفاهيم والمصطلحات، ولذا يوصف الرأي النقدي بأنه رأي علمي، ليس المتلقي فيه أمام الاختيار أو الرفض، فهو إما عارف بنظرية المنهج الذي صدر عنه الرأي أو التصور أو الحكم، حاذق بأدواته متمكن من ناصية لغته الواصفة، وهو حينئذ لابد أن يحصل له العلم والاتفاق، لاشتراكه مع صاحب الرأي في المنهج

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المطبق وصدور الاثنين عن رؤية نقدية واحدة، وإتقان لأدوات منهجية واحدة، واستخدام اللغة واصفة وحيدة، أو هو جاهل بالمنهج وأدواته، أو غير ملم بجوانب دقيقة منه وتتقصه المعرفة والخبرة، فهذا لا ينفي صحة الرأي وعلميته ولا يبطل الحكم، ومن ثم صنفت الآراء النقدية، في خانة النظرية النقدية لتأسس القول فيها علي المعارف العلمية الصادرة عن تطبيقات لمناهج، تمتلك النظرة الموضوعية والعلمية والعدة المنهجية ذات الكفاءة المنهجية والعلمية، المحققة لشروط العلم وتفكيره المنهجي وذهنيته النقدية، التي اكتسبها علم الأدب مع تطور مناهجه، في ما يعرف في تاريخ النقد بحلقات تطور علم الأدب، في لحظاته الثلاث : لحظة المناهج السياقية والمناهج البنيوية والمناهج ما بعد البنيوية، حين استقر النقد الأدبي في البيئات الجامعية والحواسن المعرفية ومراكز البحث العلمي علما للأدب.

النظرية النقدية ومراحل تطور المنهج: الأخذ والاعتماد

1.4 - لقد تطورت النظرية النقدية بتغير أدوات المنهج النقدي في ثلاث لحظات أساسية، تغيرت فيها النظرية وتبدلت الأدوات المنهجية المحققة لها، فمثلت كل لحظة منها مرحلة لظهور منظومة من المناهج النقدية، في ما يعرف اليوم في تاريخ النقد بالمنظومة التاريخية والمنظومة البنيوية، اللتان مثلتا تاريخا لظهور علم الأدب، وأدت تطوراتهما النظرية والمنهجية إلي استقرار مكونات المنهج النقدي وقيام علم الأدب.

النظرية النقدية: الأخذ بمناهج العلوم الإنسانية

1.5 - لقد درست النظرية النقدية في البيئات الجامعية الغربية منتصف القرن التاسع عشر واختبرت مناهجها وأدواتها في قدرتها علي إنتاج معرفة عن الأدب وتاريخه والنصوص وأصحابها، وكفاءتها في تحقيق شروط المعرفة العلمية القائمة علي الموضوعية والأخذ بالمنهج العلمي في دراسة الأدب والحكم عليه، في ما يعرف اليوم في تاريخ النقد الأدبي بالنقد العلمي مبتدأ المعرفة النقدية، وهي المعرفة التي ستؤدي تطوراتها النظرية والمنهجية والتطبيقية إلي الظهور المتتابع لمناهج الدراسات الأدبية المرتبطة بالسياق، وكلها مناهج ارتبطت في نظرتها إلي الأدب ونصوصه بالسياق، وفي مناهجها ودواتها بمناهج العلوم الإنسانية.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1.1.5 - ولئن ظلت النظرة النقدية لهذه المناهج أسيرة المنظور التاريخي والاجتماعي والثقافي، الذي تصدر منه رؤية الدارس، فجاء المُبَصِّر الأدبي فيها مرهونا بالتاريخي والاجتماعي والثقافي غير منفصل عنه، فإن اعتماد مناهج هذه العلوم والاستئناس بأدواتها في دراسة الأدب ونصوصه، كان إبدالاً معرفياً ومنهجياً مهماً أصبحت معه المعرفة الأدبية مداراً للاختبار المنهجي وموضوعاً للدراسة ومحللاً للتوافق والاتفاق، الأمر الذي أدخل المعرفة الأدبية دائرة التداول العلمي والاتفاق المنهجي، أصبح معه الأدب موضوعاً للوصف والتحليل، تُتَبَّع فيه مناهج مأخوذة من العلوم الإنسانية لدراسة الأدب وتقييمه والحكم عليها، وهي مناهج وظفت أدواتها في الدرس الأدبي فنشأت عن مستويات نظرها إلى الأدب تصورات أدبية ونظريات نقدية حول الأدب وسياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي شكلت نظرية النقد العلمي ونتجت عن آليات مقاربتها وطرائق وصفها وتحليلها مناهج الدرس الأدبي المعروفة اليوم في تاريخ النقد بالمناهج السياقية.

2.1.5 - لقد مثل ظهور النظرية النقدية للمناهج السياقية مرحلة أساسية من مراحل تطور مناهج النقد ونضج أدواته، فقد كانت كل لحظة من لحظات تمحّض منهج من مناهج العلوم الإنسانية منهجاً نقدياً في دراسة الأدب مع جيل الرواد، تُكسِب النظرية النقدية للنقد العلمي تنوعاً في النظر والمنظور وخبرة منهجية في الدرس الأدبي، مما ساهم في نضج الأدوات النقدية، وجعلها أكثر خبرة في الارتباط بالأدب ومواءمة مع السياق، وهو ما سيؤدي مع نهاية مرحلة النقد العلمي قبيل منتصف القرن العشرين، إلى استقرار مكونات المنهج النقدي وتحديد عناصر خطابه ولغته الواصف وإلي وضوح فكره الأدبي واتساع رؤيته و تعميق مداركه، وإلي بروز تفكيره المنهجي وحضور ذهنيته النقدية، مع جيل السوسيولوجيين الجدد وعلماء الاجتماع المنظرين للأدب وأنواع، وسيكون لاستقرار مكونات المنهج النقدي وتحديد عناصر خطابه وظهور نظريات أدبية لأنواع الأدبية خاصة منها السردية كالرواية دور أساسي في الإبدال المعرفي والمنهجي الثاني للنظرية النقدية للممهد لقيام علم الأدب، في ما يعرف في تاريخ النقد بلحظة ظهور المناهج البنيوية وتطبيقاتها على النص الأدبي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

النظرية النقدية: واعتماد مناهج علوم اللسانيات

1.6 - مع منتصف القرن العشرين، ونتيجة للتطورات اللسانية التي عرفها الدرس اللساني (ظهور اللسانيات البنيوية) والدرس البلاغي (الأسلوبية التعبيرية)، ومن قبلها ما أحدثته حركة الشكلانيين الروس من طرح جديد للأدب (الأدبية) وما جاء به النقد الإنكليزي من فهم للإبداع (النقد الجديد) - تغير سؤال المنهج من سؤال ينشغل بأسئلة النقد إلى سؤال يطمح إلى أسئلة النقد، ومدخله إلى ذلك هو اعتماد مناهج علوم اللسانيات، باعتبارها أكثر مواءمة للنص الأدبي، فكانت استعارة المناهج اللسانية بحثاً عن مزيد من المواءمة والكفاءة المنهجية، مما مكن من بروز نظرية نقدية جديدة تأسس على الشكل والتعبير، باعتبارهما مدخلا جديدا للكشف عن طرائق تشكل النص الأدبي.

2.6 - وسيمكن المنهج النقدي، من توظيف تراث اللسانيات البنيوية في وصف اللفظ، والكشف عن طرائق الانتظام ومستويات الاتساق ومظاهر الانسجام في النص، وكلها مظاهر من الوصف والتحليل في المنهج البنيوي ستمكن منهج الأدب في هذه اللحظة من الاقتراب أكثر من النص، ومن الوقوف على مشارف جماليات " الأدبي ". كما سيمكن توظيف تراث الأسلوبية في وصف اللفظ في دلالاته على المجاز، والكشف عن الصور والاستعارات، من ملامسة طبقات القول الأدبي، وخصوصيات تعبيره.

3.6 - إن كل هذه التطورات المنهجية - في كفاءة منهج الأدب وقدرته على الوصف والتحليل، باعتماد ثنائيات: التشابه والاختلاف والتفسير والفهم - سيكون لها الدور البارز في تجذير طرائق البنيويين والأسلوبيين في التعامل مع النص ونقل خبرتهم المنهجية في الوصف والتحليل والاستنتاج، مما سيثري النظرية النقدية ويحسن من كفاءتها المنهجية في التعامل مع النص، غير أن سؤال المنهج الذي سيطرح مع نهاية سبعينيات القرن الماضي، سيكون سؤال مواءمة المنهج مع النص الأدبي وملاءمة الوصف والتحليل مع " الأدبي والجمالي ".

النظرية النقدية ونحطة الإبدال المنهجي:

1.7 - ومع نهاية سبعينيات القرن العشرين، ونتيجة للتحويلات النظرية والمنهجية التي عرفتها النظرية النقدية، وما رافق هذا تطور ومن إبدالات معرفية أبرزها ظهور علم الخطاب ونظريات تحليله، التي أحدثت فعلها في منهجيات التحليل، وطرائق وصف مكونات المنطوقات، وطرق ضبط الأفكار

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والسيطرة عليها. وقد كان لهذا الإبدال المعرفي والمنهجي أثرهما، البارز في الإجابة على سؤال المنهج الذي طرحه اعتماد المناهج اللساني في النقد، في بعده التطبيقي والتحليلي، فكيف لمنهج معد أصلا لوصف وتحليل نص لغوي عادي له خصوصيته من القول في التعبير والدلالة أن يتلاءم مع نص إبداعي؟ وهل من الملائم أن نصف أدبية الأدب في النص الأدبي، بما نصف به الحقيقة والمجاز في النص اللغوي العادي؟ وهل الأدوات المنهجية المعدة لهذا النص (المنهج اللساني)، قادرة على الكشف عن خصوصية نص لم تُعد له أصلا؟. في أفق البحث عن الإجابة على سؤال المنهج كانت النظرية النقدية تتغير نحو البحث عن خصوصيات للقول الأدبي، ليس موضوعها البنية أو الأسلوب، كما انشغل به أصحاب البنيوية والأسلوبية، وإنما الخطاب مع الشعرية والسيمبولوجيا الاختصاصيين المشكلين لعلم الأدب.

2.7 - مع علم الأدب تطورت النظرية النقدية ونضجت أدوات إنتاجها للمعرفة الأدبية، بتطور المنهج النقدي في قدرته على ضبط الأفكار وتنظيم المعارف، وتحسين كفاءته النظرية والمنهجية: في وصف النص وتحليله وإضاءة مختلف مكوناته التعبيرية والدلالية المحققة لأدبيته والمنتمية لدلالاته، وفي الكشف عن مصادر إمتاعه وموانسته، وفي مواءمة هذا المنهج مع موضوعه، وملاءمة أدواته مع خصوصية القول الأدبي: مواءمته مع موضوعه، باعتباره منهجا يدرس ظاهرة أدبية مختلفة عن بقية الظواهر الإنسانية واللسانية من جهة، وملاءمة أدواته مع خصوصية القول الأدبي من جهة ثانية، باعتبارها أدوات منهجية تصف نصا أدبيا وتحلله وتضئنه وتكشف عن مآتي الحسن فيه، وهو نص يستعصى على التحليل اللساني، لأنه ليس نصا لغويا عاديا قَدَرَت اللسانيات الوصفية على وصف مكوناته اللغوية، ويتمنع عن الإضاءة والتكشاف لأن المضاء فيه، ليس اللفظ في دلالاته على الحقيقة والمجاز والمكتشف فيه ليس سر البلاغة والتركيب، التي قَدَرَت اللسانيات الأسلوبية على إضاءة تعابيره واكتشاف أسرار بلاغته ومكامن دلالاته، وإنما جماليات القول الأدبي فيه ومآتي الحسن فيه ومصدر الإمتاع والأنس فيه، وغيرها من مكونات الخطاب الأدبي.

3.7 - بقيام علم الأدب سيتحدد موضوع النقد ومنهجه وأدواته، وتتضح ملامح النظرية النقدية:

1.3.7 - فعلى مستوى الموضوع، لم يعد التشكل اللغوي للنص الأدبي في صورته التركيبية أو البلاغية (البنية، الأسلوب) هو موضوع الوصف والتحليل والاستنتاج والرأي، وإنما أصبحت

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكونات النص الأدبي الجمالية والأدبية، المحققة لما به يكون النص نصا أدبيا، ولمأتي الحسن والدلالة فيه (الخطاب الأدبي)، هو موضوع الوصف والاستنتاج والرأي. أما المنهج والأدوات فلم يعد اعتماد مناهج علوم اللسان في الكشف عن جماليات التشكل اللغوي والدلالي للنص، وإنما أصبح وصف مكونات الخطاب الأدبي وطرائق اشتغالها هو الكاشف عن شعرية النص أو دلاليته. وسياخذ علم الأدب من علم الخطاب منهجه وطرائق تحليله، باعتبار الأدب من المنظومات، التي يطالها علم الخطاب ومنهج تحليله، الذي يركز في منهجه علي وصف مكونات الخطاب وتحليل أجزائه، وجعل تلك المكونات والأجزاء هي موضوع الوصف والتحليل والاستنتاج.

2.3.7 - وقد مثل استثناس علم الأدب في ضبطه المنهجي من منهج علم الخطاب ونظريات تحليله خطوة أساسية في استقلال منهج علم الأدب وأدواته عن مناهج علوم الإنسان واللسان، وهي الخطوة التي ستحدث فعلها في تطور النظرية النقدية بتغير أطروحتها وتبدل أدواتها، وسيكون هذا التطور العلامة الفاصلة، في تاريخ تطور هذه النظرية بين لحظتين : لحظة ظهور النقد الأدبي، التي بدأت بالنقد العلمي في البيئات العلمية الغربية نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت مع تطور مناهج النقد الأدبي وتطبيقاتها في الجامعات الغربية منتصف القرن العشرين. ولحظة قيام علم الأدب، التي بدأت بإبدال معرفي شهادته النظرية النقدية، في الربع الأخير من القرن العشرين، تغيرت معه الأطروحة النقدية للنقد الأدبي ومنهجه وأدواته، نتيجة لما عرفته البيئات جامعات الغربية، من مراجعات فكرية ومنهجية للنظريات النقدية وتطبيقاتها المنهجية، مع علماء سوسيولوجيا الأدب والبنويين الجدد والأسلوبيين البلاغيين الجدد في وحدات التكوين العليا والمخابر ومراكز البحث بالجامعة ومؤسسات البحث العلمي الغربية.

3.3.7 - ويمثل ما تحدد موضوع النقد ومنهجه وأدواته، اتضحت أيضا، بقيام علم الأدب ملامح نظريته النقدية، فلم تعد نظرية في التشكل اللغوي للنص الأدبي، وانبنائها علي أبنية وأساليب من القول الأدبي، وإنما هي نظرية في جماليات الخطاب الأدبي، تحدد لكل نوع من الأنواع أدبية مكونات خطابيه، وتكشف عن طرائق اشتغال هذه المكونات المحددة لشعرية الخطاب ودلالته، وتقدم للأنواع والأشكال الأدبية نظرية للأجناس الأدبية، تبين شعرية الشعر وسردية السرد ومسرحية المسرح، وتبسط للأدب تاريخا لأنواعه وأشكاله، هو تاريخ تشكل خطابيه وصيرورة أجزائه.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

4.3.7 - وقيام علم الأدب وتحديد موضوعه ونظريته ومنهجه وأدواته نهاية سبعينيات القرن الماضي في البيئات العلمية الغربية، تكتمل حلقات نضج منهج علم الأدب، وتتضح مراحل تطور نظريته، وتتضح مراحل نضج منهجه، التي مثلت المناهج السياقية [المنهج النقدي التاريخي، المنهج النقدي الاجتماع، المنهج النقدي الأنثروبولوجي، المنهج النقدي النفسي] والمناهج النصية [المنهج النقدي البنوي، والمنهج النقدي الأسلوبي] تاريخ ظهوره، والشعرية والسيميولوجيا لحظة قيامه، باستواء نظريته واستقرار منهجه.

النظرية النقدية: ومنهج علم الأدب.

1.8 - يتحدد المنهج في علم الأدب من خلال مكونات منهجية محققة لشروط المنهج العلمي، ولأن ظهور المنهج في جميع العلوم " اقترن بنمو الفكر العلمي التجريبي ووقع التزاوج بين طرائق العلماء والمنهجيين... فتعددت الشروط والمواصفات، التي تحدد طبيعة المنهج العلمي"¹، كان نصيب علم الأدب من هذا التطور استقرار منهجه علي مكونات منهجية شكلت جهازه المنهجي في ضبط الأفكار وإنتاج المعرفة، تم اختبارها وتطبيقها عبر ثلاث مراحل أساسية، مثلت تاريخ تطور المنهج النقدي، قبل أن تتحقق شروط مواعمتها مع النص الأدبي وملاءمتها مع "الأدبي"، وتختبر كفاءتها المنهجية في وصف جماليات الأدبي: بالكشف عن مآتي الحسن فيه، ومستويات الإمتاع والمؤانسة، و تبيان أسرار معانيه، ومستويات دلالاته، وتعدد آفاق تلقيه. مما مكن منهج علم الأدب نهاية سبعينيات القرن العشرين من عدة نقدية وأدوات منهجية خاصة به، غير مستعارة من مناهج علوم الإنسان [علم التاريخ، علم الاجتماع، علم الأنثروبولوجيا، علم النفس] ولا مأخوذة من علوم اللسان [اللسانيات، الأسلوبية] وإنما معدة من علم الخطاب ومناهج تحليله، باعتباره العلم المنشغل بالمنطوقات وطرق وصفها وتحليلها، وخصائص مكوناتها وطرائق اشتغالها.

مكونات منهج علم الأدب:

2.8 - يتألف المنهج النقدي لعلم الأدب من خمس مكونات، لكل منها دورها المنهجي في ضبط الأفكار وإنتاج المعرفة، وهي مكونات برزت في مختلف مراحل تطور المنهج ونضج أدواته، وإن تفاوتت في الأهمية والحضور، ويمكن وصفها بإيجاز في ثلاث مكونات أساسية واثنين ثانويين:

¹ صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1997، ص 9

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1.2.8 - أما المكونات الأساسية فهي: النظرية والمنهج واللغة الواصفة (المفاهيم والمصطلحات)،
- **النظرية:** وتحدد بأنها زاوية النظر إلى الأدب، أو المنظور الذي ينظر منه إلى النص الأدبي، سواء كان نصاً منتهياً (معلقة) أم غير منتهى (الشعر الجاهلي)، " فكل منهج لا بد له من نظرية في الأدب، ونظرية الأدب هذه تطرح أسئلة جوهرية، وتحاول إقامة بناء متكامل للإجابة عن هذه التساؤلات، وأهم هذه الأسئلة هو، ما الأدب؟¹. وتقدم النظرية الأدبية للمنهج تصوراً متسقاً ومتناسكاً، يجيب على سؤال ما الأدب؟ من منظور هذا المنهج، ولذلك تنوعت النظرية الأدبية بتعدد زوايا النظر، وكل نظرية أدبية يشتمل تصورها على جزأين، جزء غير قابل للتطبيق، هو النظرية الأدبية للمنهج، وآخر قابل للتطبيق والاختبار، هو النظرية النقدية للمنهج وتسمى بالأطروحة، وتوصف بأنها قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة.

- **المنهج:** ويعرف بأنه الأداة التي تختبر الأطروحة، والجزء من المنهج المنتج للمعرفة، " وكل نظرية تسفر عن مجموعة من السبل، التي ينبغي أن نسلکها للبرهنة على تحقيقها بمقايير مختلفة، هذه السبل والإجراءات، التي يتخذها أصحاب أية نظرية لتحليل الأعمال الأدبية، هي التي يتمثل فيها المنهج المصاحب للنظرية الأدبية.² وفي هذا المكون يتم وصف الأطروحة وتحليلها لانتهاه إلى الرأي النقدي، ولكل منهج من المناهج النقدية طريقته في الوصف والتحليل والاستنتاج.

- **اللغة الواصفة:** وهي المكون الثالث من مكونات المنهج النقدي، ويمثل المفاهيم والمصطلحات التي يصف بها الدارس ويحلل النص، فكل منهج نقدي له مفاهيمه ومصطلحاته التي يستخدم، هي لغته الواصفة وجهازه المفهومي.

2.2.8 - يضاف إلى المكونات الأساسية، مكونان ثانويان هما: **التفكير المنهجي والذهنية النقدية**، وهما مكونان يتعلقان بطبيعة النشاط الفكري للنقد ونمط الفكر الأدبي الخاص بالأدب، فالمناهج النقدية في مجملها تصدر إما عن التفكير السببي (مناهج السياق) أو التفكير العلمي (المناهج البنيوية وما بد البنيوية). أما **الذهنية النقدية:** فهي القدرة على النقد والكفاءة الذهنية في التعامل مع الأطروحة ونقيضها، وهو النشاط الذي ظهر عبر مراحل تطور المنهج النقدي في

¹ - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، المرجع السابق، ص، 10

² - صلاح فضل: المرجع السابق، ص، 11

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

العلاقة ما بين الأجيال والأساتذة والطلاب، فداخل كل منهج من المناهج النقدية كانت توجد نقاشات ومراجعات، تصنف على أساسها الأجيال والأساتذة إلى جيل أول وجيل ثان (بنيويون أول وبنيويون جدد، سرديون أول وسرديون جدد...)، وهو ما أعطي للنقد حيوية منهجية مكنته من تطوير نظريته (اختبار الأطروحة) وتحسن كفاءة أدواته (المنهج واللغة الواصفة). وهو ما مكن في النهاية من قيام منهج علم الأدب.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

شذرات نقدية

في مذكرات محمد فال الخير الشنقيطي (1293 - 1351هـ)

يحيى محمد الهاشمي
أستاذ الأدب واللسانيات
جامعة نواكشوط العصرية

منهج البحث:

☞ تأطير

☞ تقديم المذكرات

☞ كلمة عن المؤلف

☞ شذرات تتضمن مواقف وأحكاما نقدية

☞ تعليق في ملاحظات

أولاً: تأطير:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مادة أدبية نقدية كانت إلى وقت قريب مجهولة لم يطلع عليها الباحثون؛ لكونها كانت، ولمدة قرن، مخطوطة مضمورة في المشرق العربي، نعتي بعض الآراء والأحكام النقدية عند محمد فال الخير الحسني الشنقيطي الواردة في مذكراته التي مرت اليوم (1436هـ) على كتابتها 99 سنة هجرية في عترة بالمملكة العربية السعودية.

وكانت كتابة هذه الشذرات النقدية متزامنة مع كتابة ما تضمنه كتاب: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط الذي كتب ونشر بالقاهرة سنة 1911م.

ولو أتيح لهذه الشذرات النقدية عند محمد فال الخير الحسني ما أتيح من النشر والتداول والإعلام لكتاب صديقه أحمد بن الأمين العلوي الوسيط لتكاملت صورة الشعر الشنقيطي ومدى مشاركته في نهضة الأدب العربي المعاصر واتضح المزيد من ملامح البواكير الأولى لنشأة نقد الشعر عند الشناقطة في القرنين 13 والقرن 14هـ.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ونحن في هذه الدراسة نتناول موضوعا جديدا قديما معا، جديدا، لأنه أكتشف حديثا في الساحة الأدبية¹. قديما، لأن صاحبه كتبه قبل قرن من اليوم وفي بلاد الغربية في المشرق العربي إبان معمران الحرب الأوروبية العالمية الأولى (1914 - 1918م)، وهنا تكمن أهميته وطرافته بالنسبة للقراء والباحثين جميعا، فلم يعد من المقبول في عصر التقنيات الحديثة بقاء جزر معرفية مطمورة خارج التداول، بعيدا عن أيدي الباحثين والمهتمين، كما أنه لم يعد من المناسب كتابة تاريخ العلوم والمعارف بالصورة المجترأة التي كانت تكتب بها قبل قرن أو قرنين لاختلاف الأحوال وتغير المعطيات وتوفر ما لم يتوفر آنئذ مما يتوفر اليوم من المعلومات ووسائل تحصيلها وتداولها، وزوال العذر في جهلها أو عدم الاطلاع عليها...

ومع ذلك، بل من أجل ذلك، نقدم إحدى تلك اللبنيات الأساسية لنشأة النقد الأدبي في موريتانيا، لجعلها مع غيرها من لبنات النقد العربي في العصر الحديث حتى يكون الأساس الذي تبني عليه الأحكام الأدبية والنقدية لدى الناقد الأدبي الموريتاني، أقرب إلى الحق والعدل والاستقامة. فبعد تناولنا لعينية سيدي محمد ولد الشيخ سيديا (ت 1289هـ) بالدراسة، قبل عقد من الزمان² ها نحن نقدم شذرات نقدية وردت في فقرات كانت كتابتها متزامنة مع نشر تلك العينية النقدية، أو جاءت بعدها مباشرة كالامتداد للاهتمام بالنقد³ يومئذ، فما هي مصادر هذه الشذرات؟

¹ استطعنا الحصول على صورة من النسخة الوحيدة من هذه المذكرات زودنا بها مشكورا الدكتور عبد العزيز سعود البابطين رئيس مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري بالكويت مطلع العام 2014 بعد جهود من البحث والتتقيب شارك فيها الدكتور عبد الرحمن الشبيلي فلهما منا جزيل الشكر والعرفان بالجميل.

² نشرت تلك الدراسة في مجلة التعليم بالمعهد التربوي الوطني العدد 35 السنة 29، 1425 الموافق 2004، ص 49-65

³ سبق أن تناول الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر د. أحمد جمال ولد الحسن في كتابه الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر دراسة في الأساليب، كما نشير إلى ما نشر مؤخرا من دراسات أدبية ونقدية موريتانية متخصصة من أساتذة جامعة نواكشوط ولم يرد في مؤلفات هؤلاء ولا غيرهم - لحد الآن حسب علمي - ما تضمنته مذكرات الشنقيطي محمد فال الخير من ومضات نقدية، وذلك لعدم الاطلاع عليها.

ثانياً: تقديم المذكرات¹

1 - توثيق النسخة المصححة من المذكرات

أصل النسخة المعتمدة نسخة نادرة مصورة عن نسخة مؤسسة البابطين للإبداع الشعري المرقونة على الآلة الكاتبة (القديمة) مؤرخة في نهايتها 1967م، أمدنا بها سماحة الدكتور عبد العزيز سعود رئيس مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري / بالكويت، الذي نسدي إليه هنا جزيل الشكر وصادق العرفان بالجميل على ما تفضل به من إهدائنا هذه النسخة الفريدة، لحد الآن، من مذكرات الشيخ محمد فال الخير الشنقيطي؛ لنشرها ضمن أعمال الندوة²، فاعتمدناها أصلاً و أساساً لإعدادنا لهذه النسخة المصححة الجاهزة للنشر، والشكر موصول لأخينا الدكتور عبد الرحمن الشبيلي بالمملكة العربية السعودية على سعيه معنا في تحصيل هذه المذكرات وما قدمه في سبيل التعريف بأعمال الشنقيطي الثقافية والإصلاحية.

ونظراً لتباين مستوى صفحات النسخة المصورة، في مدى المقروئية، حيث كانت في غالبيتها مقروءة وفي باقيها تتعذر القراءة أحياناً، كان لزاماً على المصحح البحث عن الوسائل الممكنة لتكميل الناقص وفهم غير المقروء وتصحيح الأخطاء المطبعية... ونظراً لعدم العثور على نسخة كاملة، حتى اليوم، فقد استعنا بثلاث وسائل:

أ - الفقرات المطبوعة التي أوردها عبد اللطيف الدليشي³ في كتابه عن الشيخ الشنقيطي: من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة، نقلاً عن مخطوطة مقابلة مع مخطوطة المؤلف.

¹ كنا قد أعدنا هذا التقديم للنشر مع المذكرات ضمن أعمال ندوة عن إسهام أربعة من العلماء الشناقطة في النهضة العربية بالمشرق.

² وهي الندوة التي نظمتها، جامعة شنقيط العصرية، بالتعاون مع جمعية بلاد شنقيط للثقافة والتنمية في 13 / 14 - 11 2013 بنواكشوط عن إسهام أربعة من علماء الشناقطة في النهضة الثقافية والأدبية بالمشرق العربي بمناسبة مرور مائة عام على وفاة أحمد بن الأمين الشنقيطي.

³ عبد اللطيف الدليشي الخالدي/ من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة/ الشيخ محمد أمين الشنقيطي من 1293 إلى 1351هـ / 1876 إلى 1932م طبعة أولى 1401هـ / 1981م بغداد - العراق

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ب - بضع ورقات من أول المذكرات مصورة من خط المؤلف - وهنا تكمن أهميتها رغم قلة عدد صفحاتها - توجد في مكتبة الأستاذ عبد الله ولد بوبوه الحسني من أسرة المؤلف، وقد أمدنا بصورة منها الشيخ حبيب الله بن لبي جزاهم الله خيراً¹.

ج - الاستعانة بإجراء لقاءات مع بعض أهل الذكر وخاصة من أسرة أهل الشيخ فال خير لتوضيح بعض الإشارات أو تصحيح بعض الأسماء غير المقروءة من النسخة المعتمدة (نسخة البابطين). ورغم ضغط الوقت فقد استطعنا إعداد نسخة غير كاملة ولكنها مصححة تصحيحاً أولياً، وهي مؤلفة من هذه النسخ جميعاً، وبالتالي فهي تحتوي - رغم نقصها - ما ليس في واحدة من أصولها منفردة. ولتمييز هذه النسخة المصححة عن أصولها سنسميها نسخة مكتبة التقوى من الزاوية الحسنية (مكتبتنا الأهلية) ريثما يعثر على النسخة الأصلية الكاملة.

بعض المضامين:

أ - هذه المذكرات تدخل في أدب الرحلة، حيث كتبها صاحبها محمد فال الخير "عجالة" فيها تعريف بنفسه وبمحيطه الذي هاجر منه (الجنوب الغربي الشنقيطي)، وكانت كتابتها تلبية لطلب من المحيط الذي هاجر إليه (الخليج العربي) طلبها منه أحد تلامذته في عنيزة هو: عبد الله بن عبد العزيز البسام، كما تضمنت المذكرات خلاصة اللقاءات والمناظرات والمجالس الأدبية والعلمية والفكرية خلال الرحلة أخذاً وعطاء؛

ب - نشير إلى أن هذه النسخة من المذكرات كتبها صاحبها في فترة متوسطة من الرحلة هي مدة إقامته في عنيزة²، منفياً أو متخفياً، من الإنجليز بعد مشاركته في معارك العراق ضد الإنجليز إبان

¹ هذه الورقات موجودة منها نسخة مصورة بمكتبة التقوى من الزاوية الحسنية - نواكشوط (بحوزتنا)

² الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي/القواعد الفقهية - تحقيق د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل/ ط2 1429هـ - 2008م الرياض، ص 17. (حيث أورد المحقق محمد الأمين فال الخير صاحب المذكرات ضمن مشايخ عبد الرحمن السعدي قائلاً: "الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير، لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس؛ قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية كالنحو والصرف ونحوهما، (ت 1351هـ)، كما أورد الدكتور فريد بن عبد العزيز الزامل السليم، في دراسته عن الشيخ عبد الرحمن السعدي، وشيوخه في العدد 476 من المجلة الثقافية فضاءات الصادرة بتاريخ 18 محرم 1437هـ قوله: "الشيخ محمد بن الأمين بن عدي الشنقيطي رحمه الله الذي طوف البلاد الإسلامية، وجاهد الإنجليز في البصرة، وأقام في عنيزة أربع سنين).

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الحرب الأوروبية العالمية الأولى (كتبها من سنة 1336 إلى 1338هـ) أي بعد مرور نحو عشرين سنة على بداية الرحلة 1317، فكانت ،بذلك التأخير في التدوين، أقرب إلى ذكريات منها إلى مذكرات، ولو لم ينقلها من عنده اثنان من طلابه في مدينة عنيزة لضاعت، كما أن ما بعد هذه الفترة من عمر الشيخ وهو زهاء 12 عاما لم نجد عنه شيئا في المذكرات، وإن كان أحد طلابه المتخرجين من مدرسة النجاة وخليفته عليها الشيخ ناصر الأحمد¹ لخص أهم منجزاته بعد كتابة ما كتبت من المذكرات، فإما أنه توقف عن كتابة المذكرات أو كتبها وما تزال مفقودة؛

ج - تعتبر مذكرات الشيخ محمد فال الخير وثيقة ثقافية، في نسيجها ومضات أدبية لغوية وتاريخية تحمل بصمات اجتماعية وفكرية مندمجة.

فعلى سبيل المثال جاء في هذه المذكرات بعض الشذرات الأدبية والنقدية التي تضمنتها اللقاءات والمجالس العلمية والأدبية مع مشاهير علماء عصره وأدبائهم كلقائه بالشيخ سيدي بابا الذي استنشده من شعره فأنشده وأخبره بأن أديب الحجاز عبد الجليل برادة أرسل إليه يريد منه شعر الشناقطة وتراجم شعرائهم، وطلب الشيخ سيدي بابا من محمد فال الخير (وهو يومئذ شاب في العشرين من عمره) أن يعينه على هذه المهمة قائلا: إن هذا الكتاب عن شعراء شنقيط إذا تم سيكون معظمه منكم فالشعر قد بنى خيمته في الحسينيين وفرق أولاده في القبائل الأخرى، وكلقائه كذلك مع الشيخ ماء العينين الذي استنشده، فأسمعه من إنشاده وإنشائه ولقائه مع ابنه أحمد الهيبية الذي سألته عن أشعر شعراء الحسينيين، فذكر له المؤلف أن أشعر شعراء القبيلة يومئذ هو المختار بن المعلى، فقال أحمد الهيبية: إذن هو أشعر الناس، فقال المؤلف: أنا لا أقول ذلك وإنما أقول: إنه أشعر قبيلتنا فقال أحمد الهيبية أثبت لي أنه أشعر قبيلتكم أثبت لك أنه أشعر الناس على الإطلاق، وأخيرا قولة محمد محمود ولد التلاميذ التركي للمؤلف ما تحفظ من شعر ابن عمك شاعر الدنيا محمد بن حنبل؟ .. إلى غير ذلك من المناظرات المتضمنة لمواقف وآراء أدبية أو نقدية دالة على المستوى الرفيع لوعي الناشئة الأدبية عصرئذ.

وفي المذكرات طرافة تتجلى في روحها العفوية، وأسلوبها المباشر في الغالب، ونقلها لصورة واضحة من تاريخ المجتمع العربي الإسلامي في المغرب والمشرق هي فترة ما قبل مجيء

¹ الدليشي الخالدي/ مرجع مذكور/ ص 290

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الاستعمار إلى الوطن العربي (من شنقيط للخليج)، كما توضح تطور وعي صاحبها وكيف رصد هو تطور وعيه بنفسه بسبب تأثير الرحلة ولقاء الرجال من مختلف البلدان والمذاهب، وكيف كان الشيخ إلى وقت كتابة الذكريات المذكرات، وفيما لثابت هويته العربية الإسلامية، متطور الوعي والفكر من حصر العمل في المذهب المالكي (العمل بالفروع) إلى تبني العمل بالحديث (العمل بالأصول)، وكيف تعلم وتربى في محيطه تربية عربية إسلامية نقية في صحراء موريتانيا (محضرية: شعرية شرعية، بصرية مالكية)، ثم أضاف إليها ما أضاف من مجالس علمية ومناظرات أدبية ولغوية أثناء تطوافه المديد (نحو 20 عاما): شمل أوطانا كثيرة، أهمها المغرب ومصر والحجاز والهند وعمان والأحساء والبحرين والكويت... ليلقي بعصا التسيار والرحلة في العراق متفرغا للعمل بما علم، مجاهدا بنفسه في ميدان مقاومة الاحتلال الإنجليزي للعراق والكويت، ثم مرشدا ومدرسا ومؤسسا لجمعية النجاة ومدرستها في الزبير بضاحية البصرة صحبة آخرين من رواد الإصلاح النهضة العربية كالثعالبي والدكالي ورشيد رضا وغيرهم من من كان معه في الحجاز والخليج¹، فتلاقى أفكارهم الإصلاحية، فكانوا جميعا يشكلون ثلثة من رواد النهضة الثقافية والإصلاحية في الوطن العربي²، إلى أن توفي على ذلك رحمه الله تعالى في البصرة 1351هـ الموافق 1932م تغمده الله برحمته الواسعة.

¹ حيث شارك، في معارك مقاومة الاحتلال الإنجليزي للجنوب العراقي وفي تأسيس جمعية النجاة ومدرستها التي تحتفل بعد سنتين بمرور قرن على تأسيسها حيث تجلى فيها فكره الإصلاحي في التربية والتعليم، وحيث أفتى بتدريس البنات وعمل على نشر التعليم الأصيل لأفواج الشباب والأطفال من الروضة إلى أعلى درجات التعليم حينئذ، مع التركيز على نشر الوعي العربي الإسلامي السليم بالرجوع إلى الكتاب والسنة، منطلقا لتجديد الأمة وإنهائها: بالعلم والعمل وعلاج أمراضها من جهل وخرافات وبدع وانحرافات، واسترجاع قوتها أمام الغزاة والطغاة.

² من الأسماء البارزة الذين ذكرهم الدليشي مع الشنقيطي روادا للنهضة الثقافية بالمشرق الشيخ حافظ وهبة المصري، محمد. الإزميري بالكويت، محمد خراشي الأزهرى، عبد العزيز الرشيد، عبد العزيز أحمد المبارك الأحسائي، الشيخ نور الموصلي، الأديب عبد الوهاب الزباني البحريني، رشيد رضا صاحب المنار، محمد خليفة النبهاني، نور الدين الشيرواني، علي البدران، عبد العزيز الناصري التكريتي، محمود المجموعي، مصطفى المفتي، محمد سليم العماري، هاشم النقيب، محمود الحوراني، محمد بن عوجان، إبراهيم العبد الله آل إبراهيم، محمد الريح المغربي... وغيرهم،

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ونختم تقديمنا لهذه الشذرات النفيسة بتحقيقنا لأهم محطات رحلة محمد فال الخير الحسني الشنقيطي على شكل عناوين¹:

أهم المحطات في المذكرات

1 - ما قبل الرحلة من 1293 - 1317 هـ / 1900م

2 - بداية الرحلة: محطة المغرب 1318 هـ / 1901م

مع الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل

مع ابنه أحمد الهبيبة

3 - المرحلة المصرية: آخر 1318 وأول 1319 هـ / 1902م

مع الإمام محمد عبده

مع محمد محمود ولد التلاميذ التركي

4 - الحج والحجاز من 1319 إلى 1327 هـ / 1908م

5 - في الخليج والعراق: تأسيس مدرسة النجاة 1327 - 1351 هـ

وفي هذه الفترة كتب مذكراته بعناية وقام بأهم أعماله الإصلاحية

6 - تكملة المذكرات من قبل ناصر الأحمد بأهم إصلاحات الشنقيطي.

ثالثاً: كلمة عن صاحب المذكرات

ولد محمد فال الخير الحسني بمنطقة "العُفْل" عام 1293 هـ حيث نشأ وترعرع في الجنوب الموريتاني، وبعد تحصيله العلمي والأدبي، في المحاضر الحسنية، قام برحلة الحج التي امتدت بقية حياته. يقول في مذكراته: "حفظت القرآن غيباً (عن ظهر قلب) قبل البلوغ وحفظت في السيرة النبوية بعض مناهج، وابتدأ تعلقي بطلب العلم على خالي محمد بن عبيد الله، ثم قرأت على يد مشايخ غيره، أكثرهم لي نفعاً محمد بن بنيامين وعبد الله بن حمين وعبد القادر بن محمد سالم، فقرأت من النحو الأجرومية ومواضع من الألفية، ومن الفقه منظومة ابن عاشر وبعض رسالة ابن أبي زيد القيرواني

فإنهم من أعلام الجيل الثاني للنهضة العربية بعد الأفغاني ومحمد عبده والشيخ ماء العينين. المرجع/الدليشي

الخالدي/ من أعلام الفكر الإسلامي بالبصرة / ص 200 وما بعدها

¹ شرعنا في تحقيق هذه المذكرات فور حصولنا على صورة منها زودنا بها شكورا الدكتور عبد العزيز سعود

النباطين رئيس مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، مطلع العام 1435 هـ / 2014م

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومواضيع متفرقة من مختصر خليل، وأخذت العروض عن خالي وشعر الشعراء الستة وقرأت المقصور والممدود لابن مالك، وجميع مشايخي ما عدا عبد القادر بن محمد سالم هم تلاميذ محمد بن حنبل الحسني. وسنكتفي هنا بفقرات من ما كتبه عنه بعض الكتاب والباحثين المشاركة لمعرفتهم به أكثر من غيرهم، ولكنهم يمثلون حقل أعماله الميدانية وخريجي مدرسته الإصلاحية.

يقول عنه الدكتور علي با حسين: "هو ذلك الطفل الذي سيكون له شأن في تطور العلم والجهاد في سبيل الله وإرساء سفينة النجاة في كل بلاد يحل بها"¹.

"درس الشنقيطي في مجموعة من الخيام الناصعة البياض في الهواء الطلق والشمس الدافئة، في الطبيعة يتلقفها الطلاب دروسا في الدين واللغة والحساب وأخبار الأمم وسير الملوك..." في هذه البيئة تلقى العلوم والآداب حيث لا حدود ولا جدران تحدد التفكير ولا أبواب تمنع من الخروج بل الحرية في طلب العلم في أسنى مظاهرها دون قيود أو حدود... كأنهم في معسكر كشفي تربطهم رابطة العلم فيما بينهم."

"وهو من بني الحسن، وهي قبيلة ظهر منها شيوخ أجلاء وعلماء أعلام خدموا العلم وأهله ومنهم الشيخ محمد الأمين فال الخير الشنقيطي".

"ولما حان وقت الترحال بعد أن زود نفسه بالعلم، ركب الشيخ الجليل سفينة النجاة من شنقيط التي حمل اسمها وخلدها عبر التاريخ في بلاد المغرب مع جملة ممن خرجتهم تلك الفساطيط والخيام فسارت بعلمهم الركبان"

"ورحل الشيخ محمد أمين فال الخير إلى الحج وفي مصر أخذ عن رجال الأزهر وجلس هناك في رواق المغاربة شابا يتلقى المزيد من العلم..."

ثم "تصدر للتدريس في دار الدعوة والإرشاد في مصر وممن أخذ عنه أبناء آل شاكر"²، وبعد الحج شرع في تحصيل وتكميل وتعميق العلوم والمعارف ونال الإجازات من بعض علماء الحدجاز والأحساء.

¹ مجلة الدارة (السعودية)، السنة 13 العدد 1، يولييه 1987، ص 105

² مجلة الدارة، السنة 13 العدد 1 — يولييه 1987، ص 106

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كانت أمنية الشيخ الشنقيطي في قوله:

"الذي أتمناه في حياتي أن يكون في الحرم المكي إمام واحد"¹ ثم بدأ ينشر العلم لطلابه في الحرمين قبل استئناف الرحلة إلى الهند والعودة إلى الكويت والعراق.
أخلاقه:

"... كان رحمه الله تعالى يتصف بالرجولة والأخلاق العالية... حجة في الحديث والتفسير واللغة العربية مثالا للاستقامة والتضحية أنموذجا في المثابرة والصلابة والتخلق بخلق القرآن".

بعد المشاركة الفعلية في الجهاد ضد المستعمر الانجليزي في العراق والكويت، نفي في عيزة حيث كتب مذكراته وعند انتهاء الحرب العالمية الأولى، "عاد الشيخ الشنقيطي إلى بلدة الزبير، ليرسي أسس مدرسة سيكون لها شأن ونصيب في التاريخ، وكانت الأذهان مستعدة لتلقي العلوم فأخذ ينشر فكرة تأسيس مدرسة تعنى بالنشء منذ حدثتهم فتزودهم بالعلوم التي تصلح بها دنياهم فيتخرج جيل صالح يسائر الركب الحضاري معتزا بدينه مفتخرا بقوميته"².

فاستجاب لهذه الفكرة نخبة من رجال العلم والأئمة في الزبير والبصرة حيث أنشأوا جمعية النجاة ومدرستها برئاسة الشيخ محمد أمين فال الخير الشنقيطي، سنة 1339هـ - 1920م.

مشاركته في الجهاد والمقاومة ضد الانجليز في العراق والكويت:

".. ثبت أن الشنقيطي كان يقاتل في معركة الشعبية بيندقيته قتال المستميت في سبيل الله، كما كان لا يفتأ يحث المجاهدين على نيل إحدى الحسنيين: إما الانتصار وإما الشهادة، شأنه شأن فريق كبير من رجال الدين الذين أفتوا بالجهاد واشتركوا بالمعركة"، "فاشتراك الشنقيطي في معركة الشعبية مقاتلا ومفتيا ومشجعا أمر ثابت بالتواتر تدعّمه الأحداث والروايات. أما مشاركته في معارك كوت الزين وسيحان ومعارك الساحل، فتتضارب المصادر حول حقيقتها"³.

¹ المرجع السابق.. حيث كان في الحرم المكي أربعة أئمة يؤمنون المسلمين في صلواتهم حسب المذاهب الأربعة... وتحققت أمنيته في عهد المغفور له صقر الجزيرة العربية عبد العزيز آل سعود... نفس المرجع، ص 108.

² نفس المصدر، ص 109

³ عبد اللطيف الدليشي الخالدي من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة، الشيخ محمد أمين الشنقيطي، ص 125

رابعا -شذرات تتضمن مواقف وأحكاما نقدية:

شذرة (1) - " إن هذا القرن قرن الشعر":

مقولة قالها (في موريتانيا) عبد الله بن حمين الحسني في النصف الثاني من القرن 13هـ

السياق الذي وردت فيه في المذكرات:

".. وقال لي مرة (يعني محمد محمود بن التلاميذ في مصر مخاطبا محمد قال الخير): " إني بعيد عهد بالبلاد وقل أن يأتيني مثلك، فأخبرني عن حال الناشئة التي نشأت بعدي من قبيلتكم ومن غيرها"، فقلت له: "أما قبيلتنا، فلم يزل في ناشئتها النبوغ بالشعر حتى إنه بلغني عن شيخنا عبد الله بن حمين الكريمي_ ولم أسمع منه_ أنه قال: "إن هذا القرن قرن الشعر" (يعني القرن الثالث عشر للهجرة)، وقد جرت منذ ثلاث سنين¹ مساجلة بين فتية من قبيلتنا بعضهم على سني وبعضهم أصغر وبعضهم أكبر أنا أسمعك بعضها..".

وبعد إيراد أمثلة من تلك المساجلات بنصوصها الشعرية المتنوعة يختم محمد قال الخير بقوله: وجرت بينهما أشعار على هذا الروي خرجا فيها من جادة الأدب إلى جادة البذاء والسفه ولا أحب أن أذكر شيئا من ذلك، ثم قام (ثار) عليهما الجماعة، فأسكتوهما، فتتاركا (...) وانتهت المسألة بعد أن كادت توغر صدور الأفخاذ بعضها على بعض".

فقلت له: هذا من أحدث ما جرى في قبيلتنا. وأما غير قبيلتي فلم يحصل لي تجول في القبائل ومن أقربهم إلينا بنوديمان وبينهم في هذه المدة الأخيرة أيضا مساجلة بلغني منها (شيء) ... وسألني عن أشياء كثيرة من أحوال بلادنا، فأفدته عن بعضها وبعضها لم أفده عنه².

شذرة (2) - إن الشعر بنى بيته في بني حسن وفرق أولاده في القبائل:

مقولة قالها الشيخ سيدي بابا ولد الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي الكبير في بوتلميت مطلع القرن 14 للهجرة نهاية القرن 19 للميلاد.

السياق الذي وردت فيه في المذكرات:

"ولما اجتمعت بالشيخ سيديا بن محمد بن الشيخ سيديا الكبير التندغي وهو عندي كما قال الشاعر:

¹ يوافق 1315هـ / 1897م

² المذكرات، ص 44 - 46

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إذا قالت حذام فصددقوها فإن القول ما قالت حذام

جعل يسألني عن شعراء قبيلتنا ويستشدني أشعارهم، فأسمعته جملة مما أحفظ، وأنشدته قصيدة لي أولها:
أبكائك عذري الهوى يوم النوى وهل البكاء دواء عذري الهوى؟
بان الجواء من اللوا فغدا اللوى إذ بان منه الحي مسلوب اللوا

وكان ممن سمعته يقول: " إن الشعر بنى بيته في بني حسن وفرق أولاده في القبائل".
وذكر لي أنه جاءه كتاب من الشيخ عبد الجليل براده، أديب الحجاز ولغويه في وقته، يطلب منه أن يدون له أشعار شعراء الشناقطة ويكتب له تراجمهم، ثم قال لي: " ومعظم ذلك سيكون منكم"،
(ثم قال: " وعزمني أن أكتب إلى كل بطن من بطون بني حسن أن يدونوا لي شعر شعرائهم ويكتبوا لي تراجمهم"¹،
شذرة (3) - "أشعر الناس على الإطلاق هو أشعر قبيلتكم"

مقولة قلها الشيخ أحمد الهيبة ولد الشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل في مراكش سنة 1318هـ/ 1900م.

السياق الذي وردت فيه في المذكرات:

"ولما اجتمعت ب(أحمد) الهيبة بن الشيخ ماء العينين الحوضي في مدينة مراكش وعرف بي جعل يسألني عن قبيلتنا عموما وخصص منها أناسا منهم المختار بن المعلى، وكان قد بلغه ببعض شعره، واستشدني من شعره، فأسمعته أشياء منه كما سيأتي وقال لي: "كيف ترون درجته في الشعر"؟ فقلت له: "نرى أنه اليوم أشعر القبيلة"، فقال: "إن أشعر الناس"، فقلت له: أنا لا أقول ذلك وإنما أقول إنه أشعر قبيلتنا، فقال: "أثبت لي أنه أشعر قبيلتكم أثبت لك أنه أشعر الناس على الإطلاق"، وبالجمل كونهم يفوقون غيرهم من القبائل في الشعر أمر معلوم عند الخاص والعام من أهل تلك الناحية، وإنما ذكرت هذين الرجلين لمكانتهما عند الذين يعرفونهما، فإنهما من رؤساء أهل شنقيط ومن أهل العلم والمعرفة وليس من قبيلتنا وهذا كلامهما كما ترى، مع أنه يوجد أفراد من شعراء القبائل يفوقون بعض شعرائنا (عبد الله) ابن رازكه و(محمد) بن بدي العلويين و(محمد) بن الطلبة² ومولود (بن أحمد الجواد) اليعقوبيين، ومحمد بن الشيخ سيديا التندغي وغيرهم إلا أنه في قبيلتنا أعم وأكثر"¹.

¹ المذكرات، ص 14

² في الأصل طلبه

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

شذرة (4) - "شاعر الدنيا هو محمود بن حنبل الحسني"

مقولة قالها محمد محمود بن التلاميذ التركي في القاهرة 1318 - 1900

السياق الذي وردت فيه في المذكرات:

".. رجعنا إلى خبر التركي قال لي: "هل تحفظ لوحية ابن عمك شاعر الدنيا محمد بن حنبل؟" هذا لفظه، قلت: نعم، قال: "اسمعيها" فأنشدها إياها فلما بلغت قوله:

في عقود النضار والدر منها جيد جيداء من طباء رماح

قال أعد على هذا البيت، فأعدته، فقال لي: ما تقول في هذا البيت؟ قلت: وماذا عسى أن أقول؟ قال: "إن فيه غلطاً"، قلت: ما هو؟ قال: "نسبة الأطباء إلى رماح ورماح إنما تنسب إليه المها" قال الشاعر: وفي الأظعان شبه مها رماح ...

وذكر بيتاً أظنه لذي الرمة، وقال: "وأما الأطباء، فإنها تنسب إلى وجرة وإلى كذا": موضع سماه ونسبته، فقلت له: "نسبة المها إلى رماح لا تمنع لنسبة الأطباء إليه كما أن نسبة الأطباء إلى وجرة وكذا موضع لا تمنع نسبة المها إليها" فقال: "هذا ليس بشيء، لأن العرب هكذا قالت. ولا يترك ثابت النقل لتجويز العقل"، فلحققتي العصبية من كثرة اعتراضه، وأحمد الله أنني ملكت نفسي، فلم يظهر علي شيء...².

شذرة (5) - "هل يستعمل الشعراء الالتفات في المطالع بغير ضمير الخطاب؟"

مجال حوار أدبي بين عبد الله بن الأديب اليعقوبي ومحمد فال الخير في مراكش 1318 - 1900

السياق الذي وردت فيه في المذكرات:

".. واعترض علي عبد الله بن الأديب اليعقوبي من تلامذة الشيخ (ماء العينين) بأن الشعراء لا يستعملون الالتفات في المطالع إلا بضمير الخطاب نحو:

طحا بك قلب في الحسان طروب..

ونحو: تناول ليلك بالأثم...

¹ المذكرات، ص 15

² المذكرات، ص 39

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فقلت له: لعل ذلك أغلبي، وأما كونه لا يكون إلا كذلك، فلا أسلمه إلا بنص من كلام أهل الفن، وقلت له: مع أني الآن لا أستحضر في شعر فصحاء المتقدمين إلا مثل الذي ذكرت ولكني أعرف استعماله بضمير الغيبة في شعر أناس من أهل الصنعة والخبرة ينشدون وينشد بحضرتهم ولم يعترضوا عليه بشيء، من ذلك قول بعض شعراء قبيلتنا المتقدمين وأظنه غالي البنعمري في لامية له مشهورة أولها:

ما باله كلما لا مته عذاله
يزيد في طفحات الجهل ما باله

ومنه قول (محمد) بن بدي العلوي في قصيدة له مشهورة أولها:

ردته بعد تمام الحلم والنبه
إحدى الجواري رهين الشوق والوله

إن امرأ سفته بعد كبرته
بنات عشر لمعذور على السفه

فقتع مني بذلك..¹

شذرة (6) - ثنائية فخر الخاصة بفحولة الشعر ونعي ذائقة الشعر عند العامة²:

الشيخ محمد بن حنبل الحسني أواسط القرن 13 هـ 19م

قالها شعرا في معلقته البائية المعروفة الواردة في المذكرات:

وَقَرِيضٍ بِتُّ أَبْنِي فَعَدَا
مِثْلَ نَظْمِ الْغَيْدِ تَقْصَارَ الدَّهَبِ³

أَخِذَا مِنْ لَحْنِ أَقْحَاحِ اللَّغَى
مُضْغِ الْفَيْصُومِ وَالشُّيْحِ النَّحْبِ

مِنْ لَالِي خَاضِرِيهِمْ أَصْطَفِي
وَمِنْ الْأَعْرَابِ رُشَافِ الْعَلَبِ

مَا تَعَاطَى اللُّسُنُ فِي أُنْدَائِهِمْ
وَتَعَاطَوْهُ بِأَفْوَاهِ الْقَلَبِ

وَأَذَارُوهُ عُصْرًا بَيَّيْنَهُمْ
لِابْتِئَاءِ الْفَخْرِ أَيَّامَ الْعَلَبِ

¹ المذكرات، ص 30 - 31.

² يذكرني هذا بما ورد في عينية سيدي محمد ولد الشيخ سيديا النصف الثاني من القرن الثالث عشر عن أزمة الإبداع في الشعر العربي.

يا معشر البلغاء هل من لودع يهدي حجاج لمطلع لم يبدع!¹

³ الفخر بامتلاك ناصية الشعر العربي امتلاكًا مطلقًا كان سمة من سمات الفخر في عصر ازدهار الثقافة الشنقيطية عند ابن حنبل وابن الطلبة وولد محمدي وابن الشيخ سيديا، وغيرهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

هاجس نعي الشعر عند العامة:

وَلَوْ أَرْسَلْتُ عَنْانِي فِي مَدَى	مَا بَدَا لِي مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ
وَمِنْ الْحَثِّ لِأَرْبَابِ النَّهَى	لَقَرَيْتُ الْأَذْنَ مِنْهَا بِالْعَجَبِ
لَكِنْ الشُّعْرُ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ	لَا تَرَى الْيَوْمَ إِلَيْهِ مُتَّعِدِبِ
غَيْرَ رَأَوْ خَافِضٍ مَرْفُوعَهُ	نَاصِبٍ مَخْفُوضَهُ أَوْ مَا انْتَصَبِ
وَنُزُوحِ الْفَهْمِ عَنْ مِيزَانِهِ	لَيْسَ يَدْرِي كَامِلًا مِنْ مُقْتَضَبِ

الشذرة (7): حكم الشيخ سيديا الكبير بتفضيل شعر محمد بن حنبل على شعر الأحول في محفل أدبي في بوتلميت منتصف القرن 13 الهجري - 19 الميلادي.

السياق الذي ورد فيه الحكم في المذكرات:

" ومنهم (أحمد) الهيبية بن الشيخ ماء العينين وحصل لي معه مجلس طويل يسألني عن قبيلتي ويستشدني أشعارهم، وكنت حديث عهد بالبلاد أحفظ جملة شعر شعراء تلك الناحية ولا سيما الذين هم من قبيلتنا، فمن ما أنشدته نونية محمد بن حنبل التي أولها:

عج بي على دمن النقا فمغاني نهى القضاة فمرقب الصيران

وهي طويلة يمدح بها شيخه الشيخ سيديا الكبير، وكذلك أنشدته مقصورته التي أولها:

زارتك إذ زار الجفون كراها من بعدما مل المطي سراها

وهي طويلة يمدح بها الأمير سيدي بن (محمد ل) حبيب التروزي،

وأنشدته غيرها من شعره أيضا، وأنشدته جملة من قصائد، كالدالية التي أولها:

هذي مغان حوت دعدا وذا بلد كانت تحليه أيام الصبا دعد

وهي طويلة، وأنشدته جملة من اللامية التي أولها:

حي ربعا بالتوأمين أحالا بعد أحيائه دهورا طوالا

وهي طويلة، وأنشدته غير ذلك،

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وقال لي: "أيهما أشعر عندكم: الأحول أم ابن حنبل"، فقلت له: "إن محمد بن حنبل نقل عن شيخه (الشيخ) سيدنا الكبير أنه فضل شعره على شعر الأحول في محفل ونظم ذلك بقوله:

لا أبالي بمن يذم قريضي من ذكي الحجا ومن عريضي
وعلى الأحول البليغ المجلي في الملا فضل الكمال قريضي"

فقال (أحمد) الهيبة على وجه المزح: "ذلك، لأنه يكثر مدحه"، فضحك الحاضرون..¹

الشذرة (8): حكم الشاعر محمد فال الخير الحسني على نفسه في مدى ملكته الشعرية والنقدية مطلع القرن 20.

السياق الذي ورد فيه الحكم في المذكرات:

"وصارت لي ملكة في الشعر في الجملة إلا أن قريحتي في نقده ومعرفة حسنه من رديئه أحسن منها في إنشائه، ولذلك لم أكثر منه، لأن الذي تسمح به قريحتي لا يرضيني من كل وجه، وما ليس بمرض لا ينبغي الإكثار منه، وربما قلت مع ذلك بعض الأبيات أو القطعة أو القصيدة إذا اقتضى الحال ذلك..²

تعليق في ملحوظات:

لست بصدد تحليل ودراسة هذه الشذرات وما تحمله من خلفيات ثقافية ومفاهيم نقدية، وإنما أردت أن ألفت نظر الباحثين في تاريخ النقد العربي إلى وجود هذه الفقرات الشذرات التي بقيت مخطوطة، بعيدة عن الأنظار زهاء قرن، وحسبي اليوم بعد اكتشافها مجهودا جعلها في متناول القراء والباحثين ليضعوها في منزلتها حسب سياقها التاريخي والثقافي والنقدي. وقبل إنهاء هذا الحديث أود الإشارة إلى بعض الملحوظات والانطباعات المتعلقة بالجانب الأدبي من مذكرات الشنقيطي محمد فال الخير:

1 _ يذكرنا استنشاد العلماء الشناقطة (الشيخ سيديا باب بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير، والشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، وأحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين، ومحمد محمود بن التلاميذ، وغيرهم) لشعر الشناقطة عموما والحسنين خصوصا واستماعهم من الشاب محمد

¹ المذكرات، صص 31 - 33

² المذكرات، ص 28

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الأمين فال الخير أثناء الرحلة، يذكّرنا بعادة ثقافية قديمة هي: استماع علماء البصرة والكوفة في القرون المزكاة ديناً وأدباً ولغة من أعراب البادية واستشادهم الشعر: إنشاء وإنشادا، في أسواق المريد والكوفة.. مع الفارق الزمني بين الفترتين (نحو ألف سنة).

هي إذن سنة أصيلة تشكل اللقاءات والمجالس التي دارت بين هؤلاء وبين محمد فال الخير استمراراً لها بعد انقطاع طويل - ولا أدل على ذلك من الأسلوب الحوارى والمضمون اللغوى تارة والأدبى تارة والنقدى تارة ثالثة، والتعاليق المتضمنة للآراء والأحكام التي تتخلل تلك المجالس، وما يعقبها من استحسان تارة وبحث وتدقيق أحيانا أخرى، وقد ينتهي المجلس بإملاء نص شعري أو كتابته¹.

2 - يلاحظ حضور الجانب الاجتماعى (القبلى) الواضح في مضامين هذه الشذرات النقدية في مذكرات فال الخير حيث تكلم عن شعراء الحسينيين أكثر من كلامه عن غيرهم، ربما لعلمه بهم أكثر من علمه بغيرهم، وهو ما فعله صاحبه أحمد بن الأمين فى الوسيط تماماً، إلا أن فال الخير أبعد عن نفسه تهمة التحيز قدر المستطاع، عندما نقل كلام الشيوخ من العلماء والأدباء من مختلف القبائل كشهادات اعتراف للحسينيين بالسبق وبالنبوغ فى الشعر العربى عصرئذ، مشيراً إلى وجود شعراء مبدعين من غيرهم يفوق بعضهم بعض شعراء الحسينيين مع التمثيل.

وإذا كان هذا الموقف من شعراء الحسينيين هو موقف ثلثة معتبرة من علماء القرن الثالث عشر وأدبائه وردت أسماء بعضهم فى الشذرات، فقد تواصل هذا الرأى بتقديم أدباء الحسينيين على غيرهم فى القرن 14 وتجلّى ذلك فى نسبة حضورهم فى بحوث بعض علماء الأدب والنقد نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور محمد المختار ولد أباه فى كتابه "الشعر والشعراء" والدكتور جمال ولد الحسن فى "الشعر الشنقيطى فى القرن الثالث عشر" ونسبة شعرائهم فى قائمة الشعراء الشناقطة المترجم لهم فى معجم البابطين.

3- كون الحضور العلمى والأدبى الشنقيطى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى _ مع ما تخالّله من ثغرات، وعدم دعاية إعلامية بل وغمط أحيانا - ما يزال مجالاً خصباً للبحث والمراجعة ويشكل نواة صالحة للدراسة والتحقيق، سبيلاً إلى تصحيح بعض مفاهيم تاريخ الأدب العربى ومصطلحاته، عبر

¹ كما ورد فى بعض مجالس التركزى مع المؤلف الذى روى .. ثم ناولنى قلماً ودواة وورقة وقال لى اكتبها لى فكتبته لى" بعد سماعه مقصورة ابن حنبل.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

عصور قوته وضعفه، وكذلك المحافظة على لغة العرب الفصحى: لغة القرآن الكريم، قبل زحف لهجات الأمصار على ما تبقى على السنة جماهير العرب ممن لم تمنح لغات المحتلين الغزاة لغتهم العربية من على ألسنتهم.

4 - كانت جهود الشناقطة في المغرب والمشرق بل وفي العالم الإسلامي عموماً جهوداً ماثلة في ثانياً حاضر الثقافة والفكر والأدب، و تتجلى ثمار جهود الشناقطة في مؤلفاتهم وفي مؤلفات أجيال المتخرجين على أيديهم منذ القرن الثاني عشر وإلى اليوم من أمثال: عبد الرشيد الشنقيطي اللغوي (أستاذ مرتضي الزبيدي)، ومحمد بن سنة ومحمد صالح الفلاني المحدثان و شيخ الشيوخ الحسني المربي والشيخ سيدي المختار الكنتي الصوفي، وأحمد البدوي النسابة، والمختار بن بونا النحوي وسيدي عبد الله الأصولي والشيخ محمد محمود بن التلاميذ المحقق، والشيخ ماء العينين المجاهد، وأحمد بن الأمين الأديب، ومحمد فال الخير المجاهد المصلح، وأبناء ماياي وأبيه ولد أخطور المفسرون المحدثون..

كل هؤلاء وغيرهم، من سفراء المحظرة الموريتانية، مجاهدون في سبيل بقاء صرح علوم الإسلام سامقة شامخة، وفي مقدمتها علوم العربية بما فيها الأدب العربي بوصف علوم اللسان مفاتيح لباقي علوم الإسلام وأداة للتفقه في إدراك الرسالة الإسلامية وتبليغها إلى أبناء الأمم في آفاق العالم. وكانت نظرتهن إلى هذه الحياة نظرة شاملة تقوم على إيمان راسخ بالله وانتماء عميق إلى الأمة العربية والإسلامية، نظرة تجمع بين خدمة الثقافة والانتماء للإسلام والعربية والإنسانية، على أنهم معنيون بهذه الثقافة مسؤولون عن حماية هذه اللغة وما فيها من أخلاق وأدب وفكر قائم على الخير للبشرية جمعاء.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قائمة المصادر والمراجع مرتبة هجائياً:

- أحمد بن الأمين الشنقيطي - الوسيط في أدباء شنقيط - طبعة 2 القاهرة 1961م
- الخليل النحوي - بلاد شنقيط المنارة والرباط - تونس 1987
- د. محمد المختار ولد أباه - الشعر والشعراء في موريتانيا - الطبعة الثانية 1424هـ - 2003م
- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الفقهية - تحقيق د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، ط 2، 1429هـ - 2008م الرياض
- عبد اللطيف الدليشي الخالدي، من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة، الشيخ محمد أمين الشنقيطي من 1293 إلى 1351هـ، 1876 إلى 1932، طبعة أولى 1401هـ، 1981، بغداد-العراق.
- مجلة التعليم - المعهد التربوي الوطني العدد 35 لسنة 1425هـ - 2004م
- المجلة الثقافية فضاءات العدد 476 الصادرة بتاريخ 18 محرم 1437هـ
- مجلة الدارة (السعودية) السنة 13 العدد 1 يوليه 1987م
- مخطوطة ورقات مذكرات محمد الأمين فال الخير الحسني الشنقيطي - مكتبة التقوى من الزاوية الحسنية
- د. عبد الرحمان الشيبلي: مذكرات محمد الأمين فال الخير الحسني الشنقيطي - طبعة مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

شعر التبراع: من مشاعر الأنثى إلى هموم الإنسان

فاطمة عبد الوهاب

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة نواكشوط العصرية

تقديم

تعد ظاهرة التبراع في الثقافة الحسانية من أكثر الظواهر أصالة وأشدّها لصوقاً بالوجدان العام، إذ تشكل خاصية مميزة لهذه الثقافة ووجهها من أوجه إبداعها وفرادتها. ومع أن التبراع احتل دائماً صدارة الاهتمام في التداول العام (سواء على صعيد الإنتاج والإنشاد، أو على مستوى الإصغاء والاستحسان)، فإنه لم ينل بعد -خارج الفضاء الحساني ولا داخله- ما يستحق من التعريف والدرس.

ولعل إجماع عديد من الباحثين عنه عائد -من بين أمور أخرى- إلى جملة ما يطرحه البحث فيه من صعوبات نجمل أهمها فيما يلي:

✓ انعدام مدونات مكتوبة عكسا لما عليه الحال بالنسبة لبقية أشكال الشعر الحساني الأخرى ("الشفاف" و"الطلعة")،

✓ كون تداول الشعر النسوي يتم تقليدياً في إطار من السرية مما يقيه رهين المجموعة الضيقة التي يُتداول في نطاقها (الصديقات، الأخوات، شقيقات القرابة...).

✓ عدم الاحتفاء بهذا الشعر خاصة من قبل المستنئين الذين يختزنون أكبر جزء من الذاكرة الجمعية، مما يدفع الشواعر في كثير من الأحيان إلى التكرار لإنتاجهن ولمروياتهن في مرحلة معينة من أعمارهن، فلا يكتفين بالتوقف عن قرضه، بل يمتنعن غالباً عن روايته.

✓ ازدياد هذا النمط من فنون القول كموضوع للبحث ضمن المجتمع "العلمي" مما يوقع بعض الباحثين في الحرج مع الشخصيات المصدريّة.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

غير أن ما ينبض به هذا الشعر من أحاسيس وقيم جعله يبقى حيا في وجدان الناس فيفرض نفسه -بالتالي- على المتذوق والدارس معا. ومن هنا ارتأينا تناوله باعتبار أنه واحد من أهم مداخل التعرف على إبداعية وفردانية الثقافة الحسانية.

وستتمحور معالجتنا لهذا الموضوع حول النقاط التالية:

✓ مفهوم التبراع

✓ مشهد التبراع

✓ التبراع ضمن المنظومة الشعرية الحسانية

✓ البنية والدلالة في التبراع

✓ تحولات التبراع

✓ عناصر الختم

أولا. مفهوم التبراع

تراوح المادة المعجمية للتبراع بين لفظين:

1. على الصعيد المعجمي هناك من يعيد اللفظ إلى فعل برع يبرع براعة فيعيد بذلك مفهوم التبراع إلى مستوى البراعة والتفوق بما تحيل عليه من سمو فني ورقي إبداعي على غير مثال سابق¹. أما الاحتمال الاشتقاقي الثاني للفظ، فهو أن يكون مشتقا من التبرع² أي العطاء بلا إكراه، ودونما انتظار مقابل³؛ وهو ما ينطبق على التبراع بالفعل حيث تقدم البراعات شعرهن في الحبيب بغض النظر عن استجابته لمشاعرهن، بل حتى دون التمسك

¹ - انظر:

Miska Ahmed Baba, Al Wasit: Tableau de la Mauritanie au début du XX^{ème} siècle, Klincksieck, Paris, 1970, p.60.

² - يعود الفعلان (برع وتبرّع) إلى جذر لغوي واحد تلتقي دلالاته في العطاء بلا مقابل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر ودار صادر، بيروت، الطبعة السادسة، 1997، مادة برع.

³ - انظر مثلا حواء بنت ميلود، الصورة الفنية في التبراع عند الموريتانيات، بحث ضمن: أعمال المعرض الأول للأعمال الأدبية والفنية للنساء الموريتانيات، وزارة الثقافة، نواكشوط، 2006، صص 29-33، وكذلك أحمد حبيب الله، شعر الحسانية، المطبعة العصرية، نواكشوط، 2009، ص 55 - 56.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بملكية ذلك الإنتاج. فالبراعة تتبرّع بكل شيء ولا تحتفظ بشيء سوى مشاعرها ولواعج همومها مبنوثة في ذلك الفن الجميل.

2. وفي استعمال الشعريين الحسانيين، فإن مصطلح التبراع يطلق على نوع شعري حساني يمتاز من حيث التداول بجهل أطرافه جميعا: القائل والمقول فيه (على الأقل في الشكل الأصلي للتبراع).

ثانيا. مشهد التبراع

تداول أبيات التبراع عادة في إطار من السرية والحميمية بين الفتيات وهن متحلقات حول بعضهن في الجلسات التي يختلن فيها بأنفسهن بعيدا عن أنظار الرقيب الاجتماعي. ويتم ذلك خلال جلسات السمر تحت القمر حين يجلسن على كثيب أو ربوة بين المنازل أو أمام منزل إحداهن. حيث يبدأ إلقاء التبريعات بإنشاد شجي يحرصن على أن يبقى خافتا حتى لا يصل إلى سمع الرقيب أو اللائم (أو "الشيآن" كما يعرف في الحسانية).

أما فيما يخص مقتضيات وحيثيات تداول الشعر في هذه الجلسات، فإن الإلقاء يعتمد على إحدى طريقتين:

1. أن يتم بالتناوب بحيث تبدأ إحدى الفتيات الترنم بتبريعة أو تبريعات من جديد إبداعها أو من منتقى محفوظها، ثم تبدأ الأخريات تباعا بإنشاد إنتاجهن أو مختاراتهن... حتى تنتضي الجلسة التي يتم تقطيع الإنشاد فيها بسرد حكايات عن شؤون الحب وتفاصيل قصص المغرمين بعيدا عن مسامع الوشاة.

2. أن تكون بين الفتيات من تفوقت بجمال صوتها فيطلبن منها الإنشاد ويلقن عليهن الأبيات فتتولى هي إنشادها وربما رددن معها. وقد يلحق بهذه الطريقة ما شاع منذ دخول جهاز المسجل مجال الاستخدام العام -من الاستماع إلى إنشاد التبراع من المسجل والاستمتاع بصوت المغنية خصوصا بعد أن اشتهرت بعض المغنيات المحترفات منذ ستينات القرن الماضي- بإنشاد التبراع وإفشائه بين جمهورهن، كنثوين فني.

ثالثا. التبراع ضمن الأنواع الشعرية الحسانية

تتنوع أشكال النص الشعري الحساني فنيا على ثلاثة أشكال¹ هي: "الكاف" و"الطلعة" و"التبريعة"¹.

¹ - هناك نوع رابع ظهر في السنوات الأخيرة يسمى "انفيثيث"، ولكنه ما يزال حبيس تجربة ضيقة رغم أنه لقي قبول جمهور واسع. انظر: المختار كاكيه، الأدب الحساني الرفيع (عروضه-موضوعاته-تاريخه)، 2010، مرقون، ص 76.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1. الكاف

وهو تشكيل وزني يتم التعاقب الوزني فيه بالتساوي بين عدد أشطاره المتقابلة. وينقسم -تبعاً للمدى النصي- إلى نمطين:

النمط الأول

يمثل أدنى حد إيقاعي يمكن أن تطلق عليه تسمية الكاف، وهو أربع وحدات إيقاعية (تيفلواتن)، كل اثنتين متقابلتين منها تتحدان في الروي.

لَقُولُ الَّ سَبَبْتُ قُلُوشِ كَلِمَةً مَا تَنُوشُ
أَلَقُولُ أَلَهَا عَنِّي شِ مَا نَعْرِفُ شَنْ هُوَ

النمط الثاني

يتمد على مدى ست وحدات إيقاعية (تيفلواتن) فأكثر باتتباع الطريقة ذاتها في بناء الروي كما يتضح من المثال التالي:

ذِيكَ أَلرُوحَ الَّ خَلَّكَ فِيكَ مولانا خلّكت تقي
من تقدِيرِ الحَيِّ المَلِيكَ من سابِكْ لَنبِيَّةِ هَيَّ
وانتَ هُوَ زَادَ الَّ بِيكَ لَنبِيَّةِ خَلَّكَ لَنبِيَّةِ

2. الطلعة

وهي بناء وزني يقوم على توالي الروي في التيفلواتن الثلاث الأولى قبل أن يسود التناوب بقية النص على نحو شبيه ببناء الموشح. وتنقسم الطلعة بدورها إلى نمطين (حسب مبدأ المدى النصي ذاته).

النمط الأول

عبارة عن ست تيفلواتن، ينبني رويها على أساس توالي الثلاث الأولى، ثم التناوب بعد ذلك بين البواقي، كما يظهر في المثال التالي:

مَنْ دَرْتِي يَكُنَ المَلْعُوكُ اصْويكَ التِيدُومَ المَحْرُوكُ

¹ - حول قواعد كتابة الشعر الحساني، انظر مثلاً:

Ahmed Saïd Ould Bah, *structuration textuelle et formes artistiques dans la poésie hassanya*, in : *La culture hassaniyya*, publications de l'Institut des Etudes Africaines de l'Université Mohamed-V, Rabat, Maroc, 2003, pp. 3-16.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أَلْ فَوْكَ الطَوْكُ أَلْ فِسْوَكُ اكراع ابلعارطُ تَلْ
كان الفوك اعل راص الطوك يكانُ مزال اقبَلُ

النمط الثاني

يقوم على مبدأ التماثل والتناوب ذاته، لكنه يزيد على الأول في امتداد النص، حيث يتكون من ثمانين تيفلواتن فأكثر:

عند أم اغليف ملكه حاك ريت من متانت لهلاك
يلهي غير أَلْ يا الفكك وقت من لوقات القصيف
يسر لي يا مالك الاملاك واكتني عبدك واضعيف
ملكه كيفت ملكشان ذاك القصيف عند أم اغليف

3. التبريعة

أما التبريعة فهي في جميع تشكيلاتها ذات بنية ازدواجية، يتحد الروي في شطريها. فهي إذن تمتاز بالقصر، إذ لا تتجاوز التبريعة شطرين (تافلويتين) يتعين إكمال الفكرة فيهما، ومن هنا عدّ بعض الدارسين التبراع من أصعب فنون الشعر الحساني، حيث "يمتاز هذا الشكل من لغن بالصعوبة نتيجة حتمية إبراز الفكرة المراد التعبير عنها في عدد قليل من "التفلواتن" (اثنتين فقط)¹. ولعل لهذه البنية دورا في علوق التبراع بالذاكرة. فقد تنبه القدماء إلى نوع من الصلة بين الكم النصي و"رواج" الشعر². ويمكن أن نعاين ذلك من خلال الأمثلة التالية:

✓ البال احمومة والجسم أخبر فيه انتوم
✓ آن والغرام ابنين من الاسقام أهرام
✓ الناس اتبات ارلثود وأن نتخم بالمجود
✓ فاتو هون أيام يسعد الجاهم من لثدام

1 - انظر باب أحمد ولد البكاي: جامع التراث الشعبي (لغن وأزوانه والأمثال الحسانية)، المطبعة الجديدة، نواكشوط، بدون تاريخ، ص 24.

2 - يمكن التوسع في هذه المسألة في الباب الذي أفرده ابن رشيق للقطع والطوال. انظر ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 5، 1981، ج1، ص 186 وما بعدها.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

✓ سيد أحمد ولد الحاج ملثاء الثليل غير انعاج

✓ ألا من صاب البال خلاني نئس كنوال

رابعاً. البنية والدلالة في التبراع

يمتاز التبراع إذن عن غيره من الأنواع الشعرية الحسانية على مستوى بنياته المتعددة. ويمكن ملاحظة أوجه هذا التميز من خلال رصد مقوماته الشعرية وبناءه الفنية والدالية الخاصة به.

1. محددات التبراع

يمكن أن نحصر المقومات المحددة للتبراع تقليدياً في ثلاثة عناصر تتعلق بجنس المبدع ومعمار النص الشعري ثم بنظامه الإيقاعي.

أ. جنس المبدع

يعتبر التبراع في الثقافة الحسانية القديمة شكلاً شعرياً خاصاً بالنساء. ومن هنا اعتبر النظم فيه بالنسبة للرجال نوعاً من التخنت المنافي لقيم الرجولة (رغم وجود شواهد تشي ببنيته النصية بذكورية منتجها):

من مثن التلياع راجل عدت ان لقول التبراع

بيان عزتها كاعذ وانسكت تركتها

لكنها نماذج ظلت نادرة ضمن مدونة التبراع، وهي إلى ذلك تبرز -ببنياتها اللغوية والدالية- مفارقة للنموذجي والمألوف في تقاليد الحسانيين. فهي الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

ومع أن تقاليد القول تمنع البراعات أن يتبنين نصوصهن، بحيث تبقى التبرعة مجهولة النسبة، فإن "التقسيم الاجتماعي للشعر"¹ في الثقافة الحسانية يقتضي أن التبراع فن شعري نسائي خالص، وإن بقيت الشواعر مجهولات الذوات.

¹ - يجسد هذا التقسيم القائم في المخيال العام نص امحمد للطلبة ولد هدار التالي:

يوكي بيك اجديّة مغيلاك اعلي

يومن تكبر هي لين اتعود اجديّة

واتعود احويلية تكتلني بالليّة

يمتانت ودي دان كلت اطلية

لاجدية ذاك اجدي كوليلو تبريّة

حوايات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومن الدارسين من يذهب إلى أن التبراع كان الأب الفني للشعر الحساني¹، فتطورت منه فنون "الغن" الأخرى، واحتفظت النساء بالشكل التقليدي المختلف في بنيته وشكله المعماري ومضمون نظمه.

ب. معمار النص

يمكن أن نرصد فرادة التبراع في بنائه النصي على مستويي الكم الشعري والبنية البصرية. فبالنسبة للكم الشعري تعتبر التبريعة (قياسا إلى الكاف والطلعة) نصا قصيرا يعتمد على الكثافة الإيحائية بدل الامتداد النصي. ومن هنا نعتبر أن التبراع نمط فريد في الشعر العربي من حيث أن التبريعة بيت يتيم. وهي ظاهرة لا توجد في الشعر العربي خارج نظام التبراع. فمن مسلمات الشعريين العرب أن "العرب لا تقول بيتا واحدا". وهذا أحد وجوه تحطيم المسلم والسائد في الثقافة. ولقد طبعت هذه الخاصية بنية النص التبراعي على المستوى البصري، إذ يمتاز نص التبراع بالامتداد على سطر واحد، بمعنى أنه يحصر البصر في امتداده الأفقي منتقلا بين الروي في نهاية القسم الإيقاعي الأول (التافلويت) ونظيره في نهاية القسم الثاني.

ج. النظام الإيقاعي

التبريعة من الناحية الإيقاعية عبارة عن شطرين يتبعان نظاما وزنيا يقوم على تناسب المتحركات ووحددة القافية، فالتبريعة لا تتجاوز قسمين إيقاعيين (تافلويتين) يقومان على التناسب وليس على التساوي. ومن هنا نلاحظ اختلاف إيقاع التبراع عن بناء إيقاع "لبتوته" رغم محاولات إكراهه عليها لدى بعض الدارسين². فقد تتفاوت الوحدات الإيقاعية بين شطري التبريعة تبعا لنظامها الإيقاعي. ويمكن أن نميز انطلاقا من الواقع الشعري بنيتين أساسيتين أو نمطين "أصليين" يخضع لهما بناء التيفلواتن في التبراع هما:

¹ - الحقيقة أننا لا نملك بعد معلومات يقينية عن تاريخ ظهور التبراع ولا أشكال لغن الأخرى حتى نجزم بأسبقية هذا الفن أو ذاك من فنون الشعر الحساني، وكل ما نستطيع الجزم به هو أنها فنون شاعت مع انتشار الدارجة الحسانية في المنطقة ابتداء من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. انظر حماد الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا (العناصر الأساسية)، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2007، ص 107 وما بعدها.

² - أحمد حبيب الله، شعر الحسانية، المطبعة العصرية، نواكشوط، 2009، ص 58.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

✓ النمط الأول: خمس متحركات في الشطر الأول (التافلويت) وثمانية في الشطر الثاني (5-8).

يا بالي نوصيكُ لا تبغ يكون البيغيكُ

✓ النمط الثاني: ست متحركات في التافلويت الأولى وثمانية في الثانية (6-8).

يال ما اتقلُ حدُ ما يجبر مرةً خيرُ أحمدُ

ربي اتجيني الاخبارُ لتفرح من م لقطع لحجار

ويلتحق بهذين النمطين نمط ثالث استحدثه مستجد الواقع الشعري في تبراع "عريت" الذي ظهر خلال سبعينيات القرن الماضي، وهو يقوم على سبع متحركات في كلا القسمين الإيقاعيين باحتساب لفظ "عريت" الذي يتكرر في كل تافلويت من التبرعة (7-7)، أو على خمس متحركات إذا أسقطت لفظة "عريت" (5-5). ومن هنا، فالتبراع يتميز بمرونة إيقاعية لا نجدها في بقية الأشكال الشعرية في الحسانية.

عريتُ كالت ذي النجمة عريتُ عنُ اكعدُ واكُم

عريتُ أهل الحنفي عريتُ جابوني مكف

2. البنية الغرضية التقليدية للتبراع

الموضوع الأساس والأصلي للتبراع في الممارسة الشعرية الحسانية القديمة هو الحب، فمعظم المدونة التبراعية تتناول العشق ولواعج الفراق والحرمان وذكريات الوصال .. غير أن هنالك دلالات فرعية أو حواف معنوية تواترت في الشعرية القديمة لعل أكثرها اطرادا موضوعا الدعاء والطلب، وإن اتصل مضمونهما غالبا بالمعنى الأساس (العشق)، لكن بشكل يسمح دائما بالفصل التصنيفي. ولعل بروز الغزل في التبراع وتلبس النصوص "التبراعية" غالبا -حتى في أغراض مغايرة- بالغزل جعل معظم (إن لم نقل كل) الدارسين ممن اطلعنا على أعمالهم يذهب إلى أن فن التبراع فن "أحادي الغرض (النسيب)، أحادي القائل (المرأة)"¹.

أ. الغزل

غلب الغزل على مدونة التبراع التقليدي بدرجة دفعت إلى التصور الشائع أن للتبراع موضوعا يتميما هو الغزل وما يتصل به من دلالات.

¹ - انظر مثلا المختار ولد كاكيه، الأديب الحساني الرفيع، (عروضه-موضوعاته-تاريخه)، مرجع سابق، ص. 32.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وقد اشتمل التبراع على نوعي الغزل المعروفين في الشعرية العربية التقليدية.

✓ الغزل العفيف الذي يكتفي بالتعبير عن معاني الهيام والتعلق بالمحبيب وحضوره الدائم في ذاكرة المحب...

الإله أبعث ذا العام يوسف عليه السلام¹

يوقني زاد ألّ زهير آمن الخارج ولّ

✓ الغزل الحسي الذي تحضر فيه تفاصيل ومواقع الفتنة في جسد الرجل.

عندو تيسيمة تحيي العظام الرميمة

بالي الّ هانو بط النسعة اعلّ صرثائو

ب. الدعاء

لا ينفصل المضمون الدعائي في شعر التبراع عن معاني العشق والهيام، بل كثيرا ما انصب الدعاء على طلب تيسير الظفر بالمحبيب أو مجرد حصول اللقيا أو الدعاء على من كان السبب في امتناع الوصال (ولو كان الشاعرة ذاتها):

مذكور اعثني يعطيني عقرب ما اسبثني

وتعتمد الصيغ الدعائية في التبراع عادة على مألوف المتداول من أساليب تقوم على الخطاب المباشر حيناً، والتوسل بالآي أو بالرسل أو بالصالحين...

✓ الدعاء المباشر

ويتم التوجه فيه مباشرة إلى المولى رجاء حصول المرغوب أو استعاذة مما تخشاه الشاعرة أو تكرهه.

يا ربي الاخبار لتفرح من مثطع لحجار

مناي يالرؤوف جيبولي غزلي ولّ صوف

استر يا العالي عن لملوك اشوين أفعالي

¹ - أوردت هذا النموذج الباحثة العالية ماء العينين بتحريف بسيط (نظنه ناجما عن خطأ طباعي)، حيث جاء كالتالي:

"بعث ذا العام يوسف عليه السلام".

انظر: العالية ماء العينين، الإبداع النسائي في الأدب الحساني: "التبراع" نموذجا، ضمن: أعمال مائدة مستديرة، نظمها معهد الدراسات الإفريقية بالرباط يوم 13 إبريل 2000، صص 43-57.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

✓ التوسل بالصالحين

في هذا النمط من الدعاء -عكس الأول- يتم التوجه إلى المولى بالاستعانة بمن يلبس منهم بركة أو وجاهة عند الله. وقد يكون التوسل بالأنبياء أو الملائكة أو الآي القرآني أو بالصالحين...
يا آبائي واجدودي لثومو جيبولي مجحودي

ج. الطلل

لم يكن المكان في الشعر -أي شعر- مفصّولا عن العلاقة بساكنه، بل كان تجسيدا لتلك العلاقة؛ فلا غرابة أن لا تتفك مشاعر البراعة تجاه الطلل عن مشاعرهما تجاه من أهله وعمره. ويمكن أن نميز في التبراع عدة أبعاد لحضور المكان نذكر منها:

✓ المكان الحبيب

ويحل المكان في هذا المستوى مكان الحبيب، بحيث يغدو الوصول للمكان معادلا لوصل الحبيب.

يخوتي غرناطة ما نبط أنجبها نتواط

بيوكتي زاد آل أطريكت اتلحكت لقله

✓ المكان الذكري

وفي هذا المستوى يستحيل الطلل رمزا للعلاقة بالحبيب بتوتراتها المختلفة، بحيث يختصر مشهد اللقيا وما تجسده من متعة الماضي، ولوعة الحاضر وما تثيره من مشاعر الفرقة والحرمان.

باطن ذي الزيرة لخط ابياطت لمريرة

مغلاك أرويرة فوقك كط اكداث انويرة

✓ المكان المطلق

نقصد بالمكان المطلق، ذلك النمط الطللي الذي يشير إلى مكان غير معلوم، الموقع. فكأنه "خارج المكان" المجسد بأبعاد ومسافات معروفة.

من درتي كان ركت المحشر فيه الصبيان

أصل سبل السلام لل سوحل كامل ذا العام

3. التناص في التبراع

لعل من أكثر المسلمات تداولاً بين الشعريين اليوم (منذ اكريستيفا على الأقل) أن التناص يحكم النص الشعري بطبيعته¹. ذلك أن النص ما هو إلا تقاطع نصوص. ويبدو نص التبراع وفيها لهذه المسلمة. ويمكن رصد ذلك على مستويين: عام يتصل بانفتاح التبراع على كل السجلات اللغوية (العربية الفصيحة، الإفريقية بمكوناتها، الأمازيغية المحلية المعروفة باكلام أزنّاكة...).

أ. انفتاح التبراع على السجلات اللغوية

تتجاوز في النص التبراعي الإحالات التي تستدعي إما آيا قرآنية أو أحاديث نبوية أو أمثالا أو صيغا وأسماء من اللغات الإفريقية المحلية أو من اكلام أزنّاكة (الأمازيغية المحلية) ... ويمكن أن نرصد بعض تلك الظواهر في النموذجين التاليين:

يا بالي صبرا إن مع العسر يسرا
يا الدلال أنت "سَخ" ² مانك سامع "مَلَكُوخ" ³

ب. اكلام أزنّاكة في التبراع

لا يختلف مستوى استحضار اكلام أزنّاكة في التبراع عن غيره من سجلات القول المتداولة في الحسانية أقوالا مأثورة وأسماء أماكن وأشخاص وآلات... ولعل في النماذج التالية ما يقوم شاهدا على ما تعج به الحسانية عامة وشعر التبراع خاصة من تواجش لغوي قوي مع اكلام أزنّاكة.

ب"التعزريت" اسريت وامش لثدامي ذا العزريت ⁴
مذكور ال عريت "إديمس" عاد اف "تفريت" ⁵
عزي لل نتر مئفول اعليه اف "تاسفره" ¹

1 - جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار تويقال، الدار البيضاء، ط 2-1997، ص 21.

2 - سَخ: كلمة ولفية

3 - مَلَكُوخ: تعبير ولفي يعني: ما قلته لك

4 - التعزريت: كلمة أمازيغية تعني ما يقدم للضيف

5 - إديمس: منحوتة من كلمة dimanche الفرنسية وتعني قضاء عطلة نهاية الأسبوع (الأحد). وتشير في النص إلى علاقة وجدانية بالمكان الذي يتم فيه "الديمس" وهو قرية تيفريت الواقعة شرق نواكشوط.

خامسا. تحولات التبراع

شهد التبراع كغيره من فنون الشعر تحولات طالت مختلف أبعاده بما فيها ما كان يعتبر محددات لهذا الفن الشعري.

1. اهتزاز المقومات

ونتعرض هنا لمظهرين يعتبران من أبرز مظاهر التحول التي طالت ما اعتبر من قبل مقومات لهذا الفن على المستويين الدلالي والتداولي. فأما أول المظهرين فيتعلق بعلاقة الخطاب بمنتجه، وأما ثانيهما فيتصل بمنحى الخطاب ذاته.

أ. من البراعة إلى البراعين

إذا كان التبراع يقدم في الشعرية التقليدية على أنه فن نسائي خالص، فإننا في الشعرية الحديثة أصبحنا أمام نوع جديد من التبراع -ينتج على نطاق آخذ في الاتساع- على لسان الرجال، فلم نعد أمام جمالية منغلقة على الأنثى، بل أصبح للرجل موقعه في استخدام أداة التعبير هذه، مما يفتح المجال أمام جمالية مفتوحة لا تحد آفاق التعبير بطابوهات متصلة بالجنس أو الموضوع....
فرحة ملثاء نثراء هي نثراء

ب. لقطاع

من المعهود في التبراع أن يكون خطاب بوح يتجه من ذات الأنثى المترعة بمشاعر الحب والوجد، وبذلك يكون الخطاب فيه وحيد الاتجاه من الذات إلى الآخر (وربما من الذات إلى الذات). غير أن جديد السنن الشعري أصبح يقتضي في شعر لقطاع أن يتحول التبراع إلى خطاب تفاعل وليس خطاب بوح (مع ملاحظة أن الرجل لم يعد مجرد موضوع لبوح الأنثى، بل أصبح متبرعا أي منتجا للنص التبراعي ذاته).

ونرصد ضمن البنية المضمونية في هذا النمط من التبراع نوعين هما:

✓ اللقطاع المعاطلة

ونقصد به ذلك النمط من الخطاب الذي يتجه مضمونه إلى نوع من استعراض العضلات الشعرية بين المتساجلين. ولنتأمل هذا المثال بين براعة وبراع:

1 - التأسفة: كلمة أمازيغية تطلق على حقبة السفر التقليدية.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

البِراعة : انتلّدم وانتشوف آن بدعي منْ مخيوف
البِراع: ذا عاد التهّداد عسك ذا واد أهذا واد

✓ الشّطاع البوح

وفي هذا النمط يتجه المتساجلان إلى نوع من تبادل مشاعر الوجد أي أن كلا منهما يبوح لصاحبه بما يلاقيه من وجد وهيام، كما في هذا النموذج بين براعين هما فرحة وولد أواد:

قربك ولد أواد نترأه أنترأه أنترأه
فرحة ملّكاه نترأه أهى نترأه

2. المضمون السياسي

لاحظنا سابقا أن التبراع فن شعري وجداني موضوعه الحب، فإن انزاح عن هذا الموضوع، فلا يتعدى جواره المضموني كالدعاء بوصله والطلل الذي احتضن ذكرياته...
غير أن الشعرية الجديدة حملت - من ضمن ما حملت من متغيرات فنية - مضامين جديدة كان على رأسها المضمون السياسي. ويتجلى المضمون السياسي في مظهرين بارزين هما:

أ. نقد الأوضاع العامة

ويراوح النقد هنا بين التصوير الكاريكاتوري لمفردات الواقع السيئ في خطاب شبه مباشر يعكس تبرما بذلك الوضع، وبين النقد المبطن الذي يتخذ مظهر الذكّة المرة التي تبرز مجانية الواقع لما هو طبيعي:

ظايات اكلينيك ُ عادت فاقوصات اتنسيك
الكتيث امبسكيت رمشة عين اف بوتلميث

ب. خطاب الزعماء السياسيين

ويأتي هذا الخطاب محتفيا ببعض الزعماء مشيدا بما يجسّدونه من أفكار وإنجازات. من ذلك ما تنشده براعة في موقف الزعيم العراقي الراحل من الاحتلال الصهيوني عندما وجه صواريخ اسكود إلى إسرائيل:

ما خالك شبيب لشباك لقط اخبط تل آبيب

كما يرد هذا الخطاب النقدي أحيانا مقرا زعماء آخرين رافضا لمنحاهم في سياسة الأمور. ولعل أبلغ ما يتبلور هذا الخطاب في دعوات الرحيل التي صنحت بها حناجر الجمهور العربي فيما عرف بالربيع:

غافس بالرئيس وارجل .. هذا عاد الدحميس

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

عناصر الختم

يتضح من هذه المعالجة المتسارعة أن التبراع نمط شعري فريد في بنيته الفنية غني في أبعاده الإنسانية مشاكس للسائد والنمطي في الممارسة الثقافية. ويتجلى تحطيم الطابوهات في هذه الممارسة النصية على مستويي البنية الشعرية الأصلية وتحولاتها بشكل يمكن إبراز بعض مظاهره في:

- ✓ تخصيص حيز إبداعي رسمي ومعتز به للمؤنث،
 - ✓ استحضار الصوت المغيب وإحلاله مكان الصدارة في إطار خطاب خاص يتم احتكاره في عملية مضادة لاتجاه المنع الأصلي باعتباره فعلا مسلطا على المقصي،
 - ✓ تحويل التغني بالحب (خاصة على لسان المرأة) من سلوك مجرم، وفعل مناف للشرف والفضيلة إلى قيمة جمالية واجتماعية،
 - ✓ تفويض نظام القيم بحيث يصبح المنبوذ والمخفي عنصر تميز وموضوع استحسان (ولو داخل المجموعة الضيقة).
- أما في مستوى صيغ القول المستحدثة في فن التبراع، فيمكننا ملاحظة تركيز الخطاب على مشاكسة ما هو رسمي تكريسي، والانحياز إلى الخطاب الإصلاحية والثوري، وذلك من قبيل:
- ✓ الاحتفاء بالزعماء الثوريين،
 - ✓ التركيز على نقد أوضاع المعيشة،
 - ✓ إسماع صوت الجوعى والمحرومين،
 - ✓ توسيع دائرة التداول لهذا النمط الشعري بتحويله من خطاب تفتيسي رهين لعوالم الأنثى إلى نص متعدد الاتجاهات والأصوات منفتح على مختلف الرؤى والأحاسيس.
- ومن هنا فإن الاحتفاء بهذا الشكل التراثي وغيره من مظاهر الثقافة الهشة يعتبر في رأينا إسهاما في ترسيخ الوعي الديمقراطي والتموي بما يتضمنه من قيم جمالية وإنسانية. وأخيرا فإننا نوصي الجهات ذات الاختصاص أن تسعى إلى إدراج هذا النمط الفني ضمن التراث الإنساني العالمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

البيبلوغرافيا:

- ✓ ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ج1.
- ✓ بنت ماء العينين (العالية)، الإبداع النسائي في الأدب الحساني: "التبراج" نموذجا، ضمن: أعمال مائدة مستديرة، نظمها معهد الدراسات الإفريقية بالرباط يوم 13 إبريل 2000.
- ✓ بنت ميلود (حواء)، الصورة الفنية في التبراج عند الموريتانيات، بحث ضمن: أعمال المعرض الأول للأعمال الأدبية والفنية للنساء الموريتانيات، وزارة الثقافة، نواكشوط، 2006.
- ✓ كريستينا (جوليا)، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1997.
- ✓ ولد البكاي (باب أحمد)، جامع التراث الشعبي (لغن وأزوان والأمثال الحسانية)، المطبعة الجديدة، نواكشوط، بدون تاريخ.
- ✓ ولد السالم (حماء الله)، تاريخ موريتانيا (العناصر الأساسية)، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2007.
- ✓ ولد حبيب الله (أحمد)، شعر الحسانية، المطبعة العصرية، نواكشوط، 2009.
- ✓ ولد كاكيه (المختار)، الأدب الحساني الرفيع، (عروضه-موضوعاته-تاريخه)، 2010، مرقون.

- ✓ OULD BAH (Ahmed Saïd), structuration textuelle et formes artistiques dans la poésie hassanya, in : La culture hassaniyya, publications de l'Institut des Etudes Africaines de l'Université Mohamed-V, Rabat, Maroc, 2003, pp. 3-16.
- ✓ MISKA (A.B), Al Wasit : Tableau de la Mauritanie au début du XX^e siècle, Klincksieck, Paris, 1970.

تجربة الحداثة في الشعر الموريتاني
(التعايش مع الشفاهية)

المختار الجيلاني

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة انواكشوط العنصرية

مقدمة

التطور سنة الصنائع والمعارف والفنون والآداب، وسنتنا (لا عادتنا فقط) أن نختلف في تقدير كل تطور، بل أن نختلف حتى في اختيار الكلمات الواصفة التي تناسب كل تقدير وكل تطور. وفي غفلة من هذا، يظل دولا بسيرورة التطور في دوران دائم، ظاهر حيناً، ومستتر حيناً آخر، لكنه لا يخلف لنا في الغالب سوى بضعة آثار باهتة لخطوات غالباً ما تكون متباعدة وإن بنسب متفاوتة. وهكذا نجد في كل الأحوال، أو نوجد لأنفسنا، ما يدرأ عنا مشقة البحث في الربا البعيدة عن وجهة السيرورة الهاربة، وتستغرقنا السلوى إما باللعب في أروقة الكلمات والمصطلحات، وإما بالفضول في تقصي الآثار والسيما كما هو شأننا الآن.

وهذا جهد أردناه ميسراً للفهم، ومبرراً من العبث ومن الفضول غير النقدي والمعرفي، أن يحملنا إلى أعلى الشرفات التي منها قد يغدو مشهد الشعر الموريتاني وهو يسعى إلى الارتقاء في مدارج الحداثة، في تناول المراقب الأدبي.

أولاً / التجديد على خطى الحداثة

1.1. البدايات

ليس للتجديد بالمعنى الموسع بدايات ولا نهايات؛ فالتجديد قرين الإبداع، وحيثما يتوهج الإبداع فتمة شيء غير مسبوق وقد برز لتوه إلى الوجود. وكل من ينعم النظر في تاريخ الشعر بهذه البلاد، لا بد أن تستوقفه تلك اللحظات المتوهجة المتدفقة من بين ثناياه، التي تؤشر باستمرار إلى ملازمة الشعر الموريتاني لهذه الصفة، وهي التجدد الذي لا يعرف أن يتوقف حتى يبدأ، وكأن هذا دأبه بل جبلته التي لا يملك التخلي عنها.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ينحصر التجديد الذي نبحث عن نقطة بدايته، في تلك الحركة الشعرية التي رفعت من أول وهلة، راية التمرد والخروج على الأنساق الفنية المعروفة للقصيدة العربية، وكذا الأنساق الفنية التي رسختها المذاهب والتيارات الأدبية المتعاقبة على سواء، بدءاً من بنية الشكل التي لم يعد ينظر إليها بمنظار آرسطي عتيق، على أنها تابعة للمعنى؛ فهي كالثوب الخارجي له، أو كالجسد في أقرب منازلها من روح القصيدة، بل غدت هي الميدان الحقيقي لنشاط الشاعر المبدع، والركن المكين الذي يعكس للمتلقي وللناقد معاً نوع الإبداع ومستواه بل وجوهه، وانتهاءً ببنية المعنى التي لم تعد هي الأخرى تصلح روحاً أو حتى جوهرًا ثابتاً للنص؛ لأنها باتت عرضة للتشتت والتمزق بل وللتبخر؛ فأمام تكاثر التأويلات وتباعدها أحياناً تضيع الماهيات والمدلولات، أو تبدو كما لو كانت في حالة انزلاق إلى غير رجعة.

وحسبنا الآن - كما يقول بارت - " أن ندع (المدلول) ينزلق منحدرًا على مهل"⁽¹⁾، لنرجع إلى سياق التاريخ نسترشد به إلى البدايات الأولى لهذه الحركة الشعرية التي شقت الطريق أمام الشعر الموريتاني لخوض غمار تجربة الحداثة.

فبالاستناد إلى الدراسات الأدبية التي تؤرخ للحداثة في الشعر الموريتاني، يبدو أن هذه البداية جاءت متأخرة أكثر من عقدين من الزمن، قياساً إلى تاريخ ظهور حركة الشعر الحر التي تعد اليوم أولى مراحل الحداثة في الشعر العربي عامة؛ حيث تجمع هذه الدراسات على الإشارة إلى بداية السبعينيات التي شهدت ظهور عدد من النصوص الشعرية الموريتانية التي حاولت كسر نظام البيت الشعري مع احتفاظها بنفحة رومانسية ظاهرة، على سمت القصائد الأولى لنازك الملائكة وبدر شاكر السياب. ومن أشهر الشعراء الموريتانيين الذين سبقوا إلى كتابة هذه النصوص: الشاعر أحمد ولد عبد القادر والشاعر محمد ولد الشدو...⁽²⁾.

⁽¹⁾ ذكره د. عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتفكير _ من النبوية إلى التشرحية، دار سعاد الصباح، ط 3، الكويت 1993، ص 50.

⁽²⁾ انظر: د. محمد الحسن ولد محمد المصطفى: الشعر العربي الحديث في موريتانيا. دراسة في تطور البناء الفني والدلالي، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2004، ص 90 - 91، وكذلك: مباركة بنت البراء: الشعر الموريتاني الحديث دراسة نقدية تحليلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1998، ص 23 - 24.

2.1. تجديد بالمقاس

كان للانفتاح النسبي على العالم العربي بعد الاستقلال، أثر بالغ على تطور مفهوم الشعر ووظيفته في موريتانيا؛ فقد أدرك شعراء منتصف الستينيات⁽¹⁾ أن بمقدور الشعر أن يطل من بين القضبان على عوالم أخرى وموضوعات جديدة لم يطرقها شعراء الجاهلية ولا الإسلام. وهكذا كان حتماً على القصيدة العربية في موريتانيا أن يتسع صدرها لاحتضان القضايا الجديدة التي يضيق بها صدر الشاعر المثقف، وفي طليعتها قضايا الأمة الكبرى المتصلة بالحق والعدل والتحرر والتقدم، قبل أن تجد في الفضاءات التي أفسحتها الواقعية الاشتراكية ثم الرومانسية فالرمزية مسوغات جمالية لتجديد الأفكار والموضوعات الشعرية أكثر فأكثر.

تم ذلك كله من وراء القضبان، فنياً دائماً، وأمناً أحياناً، فلم يبق أمام الشاعر من خيار سوى الرضى بالوقوف عند حد التجديد في المضامين، أو المضي قدماً نحو تحقيق إرادته في الثورة لانتزاع حريته وإن بشكل رمزي. فكان ظهور قصيدة التفعيلة تعبيراً فنياً عن الخيار الأخير.

غير أن هذا الخيار كان محفوفاً على الدوام بجملة من التحديات، وكان على الشاعر أن يفلح في تجاوز هذه التحديات، أو قل في التوفيق بينها، حتى يضمن لمشروعه الشعري الجديد أسباب البقاء والاستمرار: "يجب أن يكون قادراً أولاً على اختيار الصيغة الفنية المناسبة لكل تجربة شعرية، وعلى التمييز بين تلك التجارب التي يناسبها الشكل الحداثي للقصيدة، وتلك التي لا يناسبها.

"ويجب أن يكون قادراً ثانياً على التحرر من الذائقة الأدبية الواعية وغير الواعية لمجتمعه، وعلى البقاء قريباً منها في الوقت نفسه، وألا يفارقها مفارقة تامة.

"ويجب أخيراً أن يكون قادراً على تطوير أذواق قرائه، بإعطائهم فرصة وجرعة كافيتين لإدراك جماليات "اللون" الشعري الجديد.

لا ريب أن من بين شعرائنا من استطاع في وقت مبكر أن يخفف من حجم هذه التحديات، وأن ينتزع لنصوصه الشعرية الحرة شرعية أدبية إلى جانب نصوصه الشعرية العمودية، لتكون تلك سنة من يأتون بعده من شعراء هذا القطر، الذين لا يزالون يحرصون على المزج بين لوني الشعر التقليدي والحداثي، في الديوان الواحد.

⁽¹⁾ يرجع إلى: د. محمد الحسن ولد محمد المصطفى، م. س. ص 79 وما بعدها.

نفكر هنا في الشاعر أحمد ولد عبد القادر مثلاً. ولعل من أهم العوامل التي أعانت هذا الشاعر على تحقيق ذلك، شهرته الواسعة، وسمعته شاعراً ملتزماً ومعروفاً بنزعته المجددة التي تبدو في كل مرحلة كما لو كانت مفصلة على مقاس ذائقة متلقيه الأول، وما يقبله وما يرفضه، وذلك لما يتمتع به من حس شعري شحذته معرفته العميقة بالمجتمع الموريتاني بكل ما يزخر به من خصوصيات، وما يشهده من تطورات وانكسارات، وما يمر فيه من تناقضات وارتجاجات.

3.1. السمعة السيئة للشعر الحر

كان طبيعياً أن تستقبل القصيدة الحرة في الأوساط الأدبية الموريتانية بفتور، لكنها في أوساط القراء من الدرجة الثانية كان نصيبها السخرية اللاذعة، حتى كاد يشتهر وصفها بأنها السهل غير الممتع، أو الشعر الذي يتساوى الجميع في كتابته، ولا يتساوون في فهمه إن كان فيه ما هو قابل للفهم. وبالرغم من أن نجم الشعر الحر عندما بزغ في موريتانيا متأخراً، كان قد أعلن أفوله في المشرق، فمن المستبعد أن يكون لذلك أثر سلبي على مستوى التجاوب المتدني الذي حظي به في الساحة الأدبية الموريتانية، وذلك لضعف مستوى التواصل مع الحركة النقدية الحديثة في المشرق العربي مهد الشعر الحر ونقده.

وعلى العكس من ذلك، لقد أحدثت الدعاية المضادة للشعر الحر داخلياً وخارجياً، أثراً سلبياً بالغاً في التصورات والمواقف التي تبنتها الأغلبية الساحقة في الأوساط الأدبية وعلى نطاق واسع، ليس فقط في صفوف القراء، بل كذلك وهذا أخطر في صفوف الرواد من شعراء التفعيلة أنفسهم؛ حيث سجلت بضع حالات مما يمكن تسميته بالارتكاس أو الردة الشعرية، التي دفعت ببعض شعرائنا إلى الكف عن كتابة القصيدة الحرة، والدعوة للرجوع إلى النموذج التقليدي للقصيدة العربية⁽¹⁾.

قامت هذه الدعاية على أساس ذريعة لها فعل السحر، لاسيما في تلك الأوساط المسكونة بأنساق التراث، وتلك التي وصلت في ارتباطها بالتراث إلى درجة تشبه حالة التوحد، فهي غير قادرة على التواصل مع غيره، وتخشى إلى حد الفزع عند كل حركة أو اهتزاز، من انقطاع حبل السرة الذي يربطها به. إنها ذريعة الحفاظ على القصيدة العمودية ومن ورائها لغتنا العربية الجميلة... ولهذا ظل التلقي الجمعي للنسق الحدائي في الشعر الموريتاني محكوماً بآلية "التذميم" كما يسميها د. محمد

⁽¹⁾ يرجع إلى: مباركة بنت البراء، م. س. ص 24.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ولد عبيدي؛ " لأنه شعر نقض عهدية الشعر كما عرفه المجتمع الموريتاني وغير رسمه ونسخ سنته، فمن الطبيعي والحال تلك، أن ينظر إليه المجتمع نظرة ذم وتبخيس"⁽¹⁾.

كما وجدت هذه الدعاية سنداً قوياً لها في وفرة النموذج الرديء من نصوص الشعر الحر الذي كتبه شعراء موريتانيون وغير موريتانيين، وكان ولا يزال يصل إلى القراء محمولاً على صفحات الجرائد المسكينة ودواوين الشعر الرخيصة، دون أن يجود عليه أحد بنظرة احترام. أما القراءة فلا يمكن أن يكون له نصيب منها في عصر تتزاحم فيه النصوص من حولهم بلا رحمة، وتكتسح الصورة وأدوات الاتصال البصري فيه عالمهم بلا هوادة، اللهم إلا لغايات الدراسة والتحليل.

أسفرت هذه العوامل مجتمعة عن تشويه سمعة الشعر الحر، لكن عدداً من شعرائنا ظلوا على وفائهم لقصيدة التفعيلة، لا بوصفها مجرد محطة أو مرحلة شعرية وقد تم تجاوزها⁽²⁾، مرحلة كان الهدف منها أولاً إطلاق استراتيجية شعرية أوسع لتحرير القصيدة العربية رويداً رويداً من القيود الفنية التي كبلتها على مدى القرون، وفي صدارتها قيود العروض الخليلية، بل بوصفها خياراً فنياً، وكياناً راسخاً في خريطة الشعر العربي، وما عاد بالإمكان تجاهلها، ومن ثم فلا ينبغي أن يخلو منها أي ديوان من دواوين الشعر في العصر الحديث.

وتحت وطأة الإحساس بعجز قصيدة التفعيلة عن تحقيق تواصل أدبي وجمالي مع القراء المفترضين، لجأ الشعراء المخلصون لها من الجيل الثاني منذ مطلع الثمانينيات⁽³⁾. إلى تقليد الشعراء الحداثيين في المشرق والمغرب، تقليداً أعمى في غالب الأحيان، في ظل غياب وعي حقيقي بالحدثة الشعرية ومقتضياتها التي تتعارض كلياً مع التقليد بمختلف صوره وأشكاله.

فكانت نتيجة ذلك الوقوع في حالة من التذبذب بين السقوط في المباشرة والخطابية الكاملة طريقة تناول في البيانات الشعرية، وبين السعي الظاهر لتكثيف اللغة الشعرية دون دواع فنية أو دلالية، من خلال استخدام أشكال تعبيرية فارغة ومكررة، كالتلاعب بالألفاظ، والتكرار الذي يدخل في اللغو

⁽¹⁾ د. محمد ولد عبيدي: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، (الشعر نموذجاً)، دار نينوى، دمشق 2009، ص 332.

⁽²⁾ يحقق ذلك نبوة د. محمد النويهي الذي قال بالمرحلية في اعتماد نظام التفعيلة أساساً إيقاعياً في الشعر العربي الحديث. انظر كتابه: قضية الشعر الجديد، مكتبة الخانجي ودار الفكر، ط 2، القاهرة 1981، ص 231.

⁽³⁾ يرجع في تصنيف هذا الجيل من شعراء الحدثة إلى: د. محمد الحسن ولد محمد المصطفى، م، س، ص 91.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مخالفاً قاعدة "الالتزام بعدم استخدام الحشو" عند أصحاب البلاغة الجديدة⁽¹⁾. وإقحام العناصر غير اللغوية في القصيدة (كالأرقام والرسوم والفراغات)، دون توظيفها على أنحاء يمكن أن تسهم في إغناء دلالات النص الشعري، وحشد الرموز الدينية والتاريخية والأسطورية الوطنية والعربية والعالمية، التي قد لا يستدعيها سياق التجربة الشعرية. وما أكثر ما تأتي هذه الرموز مغرقة في الخصوصية فلا يجد القارئ فيها ما يعينه على فهم النص، ولا يجد في النص ما يعينه على فك مغاليقها هي حيث وردت.

وبذلك يكون الشعر الموريتاني على كل حال، قد دخل مرحلة التوق إلى تجاوز قصيدة التفعيلة، والانضمام بحكم الواقع، إلى ركب الحداثة الشعرية العربية، استناداً إلى معيار شكلي بحث، ولكن دون التسرع في القول بوصله إلى الحد الذي يستطيع معه مواكبة حركة الحداثة الشعرية التي لا يزال الشعر العربي يشهد عصفها في أقطار عدة إلى اليوم، على أيدي شعراء ذوي تجارب راسخة في كتابة الشعر، وإليهم يرجع الفضل في ترسيخ جل القيم الجمالية للحداثة في الشعر العربي.

ثانياً / تيه الحداثة:

2. 1. تحجر الذوق

دخل الشعر الموريتاني دائرة الحداثة إذن، لكن من الباب الخطأ، ليصطدم بصخرة مجتمع كاره للحداثة، معتمد عليها اعتماداً كلياً في ذات الوقت، وليجد نفسه مضطراً إلى أن يؤسس حداثته خارج سياقاتها الثقافية والاجتماعية والسياسية الوطنية، لكن في صلب سياقها المادي الإكراهي العالمي. وهكذا انساقت القصيدة العربية الحديثة في موريتانيا في رحلة ضياع اجتماعي شامل، سببته صدمة الحداثة الوافدة بمنجزاتها وتقنياتها المتطورة التي لا يزال المجتمع ينظر إليها على أنها أشياء خارقة، ولا معرفة من الانتفاع بها إلى أقصى الحدود أو لا مفر من ذلك، دون إلمام بأدنى قواعد الترشيح، ومع إقرار صريح بعدم المقدرة على استيعابها، نتيجة الانفصال والقطيعة الكاملة بينه وبين روح الحداثة وكل ما يمت إليها بصلة على صعيد أنظمة الوعي والثقافة، ومن ضمنها الشعر ومختلف الأشكال الفنية الأخرى.

⁽¹⁾ انظر مثلاً: ترفيتان تودوروف: الألب والدلالة، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نبت الشعر الحداثي غربيا في موريتانيا، وأمله ألا ينتهي غربيا، لأنه برغم غرابته لم يعد وحيداً اليوم في خندقه؛ فجميع التصورات الأكثر حداثةً وتعقيداً، وحتى تلك المتصلة بمفاهيم الدولة والقومية والمواطنة والجماعة السياسية والحزبية " ما تزال بعيدة عن الأذهان ولا تنال ثقة المواطن، نظراً لضيق الأفق والتعصب المتولد عنه، وسيطرة الخرافات والجهل والأمية والخوف أو التوجس، ومن ثم التحفز المستمر للدفاع عن الذات وإعمال العقل في الإبقاء على قيد الحياة (...)، حيث تغيب مظاهر النظام العام وسيادة القانون، في الوقت الذي تندر فيه فرص الحياة، بعد أن شحت المصادر الطبيعية لذلك، ولم يستطع المجتمع ملأها عبر التنظيم الدولتي" (1).

لا غرابة أن كانت أعتى العقبات التي واجهت الشعر الحداثي في هذا القطر إذن، التعصب الزائد للقديم لأنه قديم، وتحجر الذوق أمام الجديد لأنه جديد، لاسيما إذا وضعنا في الحسبان تأثير الشعور الغريزي بالخطر الوشيك للتهديد الذي تتعرض له هوية المجتمع وخصوصياته، جراء شيوع مفاهيم العولمة، والحضور الكاسح للدعاية وأدوات الاتصال ووسائل الإعلام المرئي والمسموع. الأمر الذي يفسر وضع الحداثة الشعرية هي الأخرى موضع الريبة والاتهام.

2.2. الإنشاد من موقع الكتابة

كانت الفردانية واحدة السمات العامة والأساسية للحداثة "في مقابل حلولية الفرد في الجماعة" (2). لكن هذه الفردانية لا يمكن أن تتحقق في سلوك واختيارات واعية لدى الأشخاص، إلا في ظل نظام أكثر من ديمقراطي، نظام يدع الناس يتصرفون كما يشاعون، ويفكرون كما يشاعون، ويضعون فيه كامل تفقهم، ويستطيعون الاعتماد عليه في ضمان حرياتهم وأمنهم وأمانهم، دون خوف من أن ينقص ذلك من احترامهم أو من حقوقهم شيئاً.

ونتيجة لعدم توفر هذا الشرط خلال العقود المنصرمة، ما تزال علاقات الفرد بالجماعة في موريتانيا كما هي منذ ما قبل الاستقلال تقريباً إلى اليوم، ولا يزال الناس فيها يتصرفون من داخل الجماعة

(1) د. الشيخ أحمد الجيلاني: الهوية والانتماء في المجتمع الموريتاني دراسة ميدانية أنثروبولوجية، دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك، ط 1، العين 2008، ص 266.

(2) لوي ديمون: السمات المميزة للحداثة، ضمن كتاب "الحداثة"، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، سلسلة دفاتر فلسفية، دار توبقال للنشر، ط 1، الدار البيضاء 1996، ص 17.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أو الفئة الضيقة التي ينتمون إليها فقط، ويتعاملون مع الآخر ويقومونه من منطلق انتمائه الاجتماعي القبلي أو الفئوي فقط، وذلك برغم التحولات المتلاحقة التي شهدتها البلاد مؤخراً على مستوى أنظمة الحكم والحياة الاجتماعية، وبرغم حالة الانفتاح النسبي على المجتمعات الأخرى، وشيوع الشعارات التي تتادي بالحرية والمساواة...

يفسر هذا جانباً من حالة الاستحياء التي سيطرت على الشعراء الموريتانيين على مدى قارب أربعين سنة من تيه الحداثة، ظلوا خلاله غير قادرين على مواجهة قرائهم بعيداً عن إطار عمود الشعر؛ فإذا تمكن شاعر من الإفلات من قبضة نظام البيت والقافية، لم ينج من الوقوع في شرك الخطابية الكلاسيكية بما تستلزمه من مبالغة وبهرجة وجهازة في الإيقاع وثبات في الوزن، وإلا جذبته حبال الغنائية الرومانسية بما تستلزمه من عدم التمييز أو التمييز النسبي بين الذات والموضوع، حوداً إلى مرحلة الشعر الحر. وإن أفلح في التخلص من كل أولئك، لم يفلح في كبح النزعة الإنشادية لديه في كل الأحوال، تعبيراً عن هيمنة المجتمع باسم الثقافة الشفاهية

لا ريب أن التراجع النسبي للشفاهية في الثقافة العربية، قد أدى إلى بروز إرغاصات ملموسة على مستوى الشعر، تشي بارتفاع نسبة الوعي الكتابي بين الشعراء الحداثيين العرب. وقد تجسد ذلك في الشروع في الاهتمام بالمظهر الكتابي للنص الشعري على صفحة الورق، لا بوصفه شكلاً من أشكال الترف، أو عنصراً دخليلاً أو طارئاً عليه، بل بوصفه أحد أبعاده الأساسية التي يمكن الاستفادة منها في التعويض عن غياب الإيقاع الإلقائي (التطريز الصوتي كالنبر والتتغيم، والإيماءات والحركات البدنية) الذي كان يضيفه على القصيدة منشدها، وإن كانت طائفة من النقاد الواقعيين تحت تأثير الشفاهية، لا يزالون يصرون على إهماله وبخس قدره وقيمته.

من هنا " لم يعد المنطوق هو الأساس في الخطاب الشعري الحداثي، بل المنطوق والمكتوب على السواء. إن المتلقي حين قراءته نصاً شعرياً ما لا يكون معطل الحواس؛ إنه ينظر في الوقت ذاته، إلى لوحة مشكلة على نحو خاص، فيها تنتظم العناصر اللغوية مع أختها غير اللغوية، أفقياً

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وعموديا، في فضاء البياض المؤطر بحدود الورقة، وتتضافر لخلق جمالية شكلية هي ما يعرف ببلاغة المكتوب، قابلة للانصهار في قالب جمالي ودلالي شعري ما⁽¹⁾.

وقد انعكس هذا الوعي الكتابي في نصوص الشعر الحدائي بموريتانيا، في أشكال متفرقة من توزيع البياض، لا يمكن وصفها بالظاهرة إلا بالنسبة إلى دواوين شاعر واحد ألا وهو الشاعر بدي ولد ابنو⁽²⁾. وفي ما سوى النصوص الحدائية بهذه الدواوين، لا يكاد المرء يطالع حالات من هذا القبيل في الشعر المنشور إلا في صورة ومضات سريعة يوجد البعض منها في نصوص قليلة من ديوان الشاعرة بآة بنت البراء: "أحلام أميرة الفقراء".

والنتيجة أن الشعر الحدائي في موريتانيا لم يفلح بعد في التخلص من مضاعفات الثقافة الشفاهية التي ظلت تسود المجتمع الموريتاني إلى وقت يصعب تحديد نهايته، حتى إن الممارسات التي عرفها وعرفته على أصعدة التعليم والتأليف والفتاوى...، يمكن القول إنها كانت مكرسة كلها لغاية واحدة هي مساعدة الذاكرة على الحفظ، من خلال تمكين المستقبل من إعادة قراءة النص عددا من المرات يكفي لهذا الحفظ. الأمر الذي يفسر ظاهرة شيوع النظم والمنظومات بين المشتغلين بالمعارف الدينية واللغوية في المدارس التقليدية (المحاضر)، وفي المدارس الحديثة (النظامية)، على تفاوت. ومن ثم فما كان للقصيدة نفسها مفهوماً ووظيفةً، إلا أن تتخرط في صلب هذه الصيغة التقنيّة الشاملة، وأن تصبح جزءا منها. وهكذا ف " قد ظل الوسط الثقافي الموريتاني العالم إلى حدود النصف الثاني من القرن العشرين لا يرى في الشعر إلا كونه مجرد مستودع لحجج لغوية، وقائمة من الاستشهادات المطلوبة، لأنها تشكل قولاً أنموذجياً أو تثبت في الذاكرة قاعدة نحوية⁽³⁾. هذه المفارقة الناشئة عن التعايش بين ما هو شفاهي مرتبط بالحفظ، وبذاكرة الماضي، وما هو حدائي مرتبط بالكتابة، ويرهانات المستقبل، العاكسة لمفارقة اجتماعية وثقافية يتعانق فيها البدوي

⁽¹⁾ المختار بن محمد الأمين بن الجيلاني: الخطاب الشعري الحدائي في موريتانيا دراسة في أجرومية النص، دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك، ط 1، كيفة والعين 2006، ص 194.

⁽²⁾ اطلعنا حتى الآن على ثلاثة دواوين من شعره وهي: مدائن الإشرافات الكبرى، لهذا رحلت عن هذه الأرض، وصلوات المنفى الباريسي.

⁽³⁾ د. محمد ولد عهدي، م. س. ص 109.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مع المدني، والخرافي مع العلمي، والمحلي مع العالمي، تدفعنا إلى القول بأن الوقت لم يحن بعد لكي نرى تجربة الحداثة الشعرية في موريتانيا في صورتها النهائية المكتملة، لأنها لم تتم بعد اجتياز الخط الفاصل بين عصرين ذوي ثقافتين متباينتين: ثقافة المنطوق، وثقافة المكتوب.

لكن شعراء القصيدة الحداثية في موريتانيا على ما يبدو اليوم بعد قرابة أربعين عاماً من ظهورها، مازالوا يمتطون الموقف الذي يرى النص حتمي السماع ظني القراءة، لا ظني السماع حتمي القراءة كما تطرح التصورات الحداثية. وهكذا يسعى الشعر الموريتاني اضطراباً لا اختياراً، إلى تأسيس خصوصيته في هذا العصر، على ما يتعارض مع طبيعة الحداثة ذاتها، ويطعن في وجود روح التحديث وأسبابه وأشراطه⁽¹⁾. وذلك لعجزه حتى الآن عن استيعاب مفهوم الكتابة الشعرية، الذي يحيل إلى مخاطبة حاسة البصر من خلال زيادة الاهتمام من بين أمور أخرى بتنضيد الوحدات النصية في الحيز المرئي على أنحاء فنية، وكثرة اعتماده بدلاً من ذلك، على استخدام الأنماط الثقيلة الإيقاع، والصيغ المتوازنة، والثيمات الثابتة، والعبارات الجاهزة والوصفية التي تتجه إلى مخاطبة حاسة السمع أولاً...

إذن، فبالرغم من أن النص اليوم بات هو الوسطة الأدبية الوحيدة بالفعل، أو التي لا غنى عنها في عمليات التواصل الأدبي، فقد استطاع الشاعر الموريتاني الحديث أن يحوله من حالته الكتابية البصرية، إلى منبر مجرد من القيمة الفنية، مهمل، لممارسة الإنشاد الشعري، رضوخاً للذوق الأدبي العام، الخاضع بدوره لسطوة الثقافة الشفاهية وهيمنة أنظمتها.

2.3. الحداثة المرجأة

قد نلطم شعراءنا عندما نعتب عليهم بسبب ما يمكن تسميته بفشل التجربة في مجال الشعر الحداثي، إذا تمادينا أكثر في تجاهل السؤال الذي يوشك أن يطرح نفسه بإلحاح منذ بداية هذا النص، وهو: هل يستطيع الشعر تأسيس حداثة حقيقية خارج سياق حدائث اجتماعي شامل؟ والمعضلة أننا عندما نفكر في حداثة شاملة بهذا المعنى، سرعان ما يقفز إلى أذهاننا سؤال وجيه يضعنا بدوره على مدرج الأسئلة الجوهرية للتنمية السوسيوثقافية.

⁽¹⁾ المختار بن محمد الأمين بن الجيلاني، م. س. ص 210 - 211.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فأما السؤال الأول فهو: ما الذي كانت موريتانيا في حاجة ماسة إليه منذ استقلالها إلى اليوم غير إقامة دولة على أسس حديثة كالعقلانية والحرية والتقنية؟
وأما الأسئلة اللاحقة المتلاحقة فمنها:

1. في ظل عجز الأنظمة التقليدية، ما البديل عن الأنظمة الحديثة؟
 2. ترى هل وجدنا الوقت لطرح أسئلتنا على أنفسنا بعد استلام مقاليد الأمور من الفرنسيين؟
 3. وفي ظل الهيمنة الراهنة للعلمة، هل مازال الوقت مناسباً لإعادة طرح أسئلتنا؟
- وعلى هذا النحو سنظل نقفز من سؤال إلى سؤال حتى يرمي بنا التأمل خارج دوائر الشعر.
- أكثر من نصف قرن مضى على قيام الدولة، ولا أثر للحدثات على طريق بنائها إلا ما كان مستورداً أخرس لا يمكن أن يشكل ثقافة حديثة صحيحة، ولا أن يقيم حواراً معها يؤمل من ورائه أن يقرب المسافة ما بينها وبين لوعي الثقافة الوطنية. وحين نلتفت إلى السياسة (الثقافية) التي اتبعت في فترات الحكم المتعاقبة، لا نرى إلا أشكالاً من النزوع المتكرر إلى المحافظة بدلاً من التحديث العاثر / الغائب، وكأننا نواجه وطنياً أزمة ارتباط بالتراث، لا أزمة ارتباط حقيقية بالحدثات. وهكذا تبدو مسألة الحدثات عندنا في حكم المؤجل عملياً، في انتظار الحسم في مسألة التراث التي هي في حكم المحسوم حقيقةً.

2. 4. الحدث المرتجاة

ليس غريباً أن يكون الشاعر طليعياً، لكن من غير الضروري أن يتحول إلى داعية يروج لأفكار يحملها أو لأيديولوجيا يعتنقها. ربما يكفي أن يكون شعره تجسداً فنياً لموقفه ورؤيته الشعرية، وليس فقط دليلاً عليهما. وقد قال سارتر من قبل عن الشاعر الحق، إنه "قد اختار بشكل حاسم الموقف الشعري الذي يعتبر الكلمات وكأنها أشياء لا كأنها علامات" (1).

خلال العقد الأخير من القرن العشرين، احتفل المشهد الشعري في موريتانيا بصدور تسعة دواوين لعدد من الشعراء الشباب (قياساً إلى العمر الفني في كتابة الشعر على الأقل) (2). وقد عد هذا

(1) تزفيتان تودوروف: نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، منشورات مركز الإثراء القومي، ط 1، بيروت 1986، ص 51.

(2) هؤلاء الشعراء هم: باتة بنت البراء، ببهاء ولد بديوه، بدي ولد ابنو، سيد الأمين ولد سيد أحمد بناصر، محمد ولد الطالب ومحمد ولد عبيدي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الحدث الثقافي في حينه طفرة شعرية، وإعلانا صريحا عن انبعاث الشعر الموريتاني من جديد. والأهم أن نصوص الشعر الحدائي التي حملتها الدواوين، أو جلها، عدت بمثابة العلامة المضيفة لإعلان التحول الجذري في مسار الحداثة الشعرية بموريتانيا؛ ذلك أن التجديد البارز الذي اتسمت به، جاء ملامسا لمختلف الجوانب والمستويات المتوارثة في بناء القصيدة العربية الفصيحة، والمتعارف عليها حتى بين شعراء الثمانينيات المجددين.

وقد انتهت دراسة تحليلية⁽¹⁾ لعينة من النصوص الشعرية الحدائية التي ظهرت بهذه الدواوين، إلى بلورة جملة من التصورات التي يمكن الخروج منها ببعض الخلاصات المهمة في هذا المقام، ومنها:

"أن النصوص الشعرية الحدائية جاءت متسمة بقدر من المهادنة للتقاليد الفنية والاجتماعية، محافظة على أصول الاحترام ومقتضيات الذوق العام، مواكبة للتغيرات الحاصلة في البنية الاجتماعية، وكاشفة عنها في الوقت نفسه، ابتغاء ضمان قبول أوسع في أوساط مجتمعيها الذي يحتضنها وتتوجه إليه في المرتبة الأولى.

"من التمزق الوجداني والعقلي لشعراء الحداثة الموريتانيين، بين العجز عن الذوبان في تيار الحياة الاجتماعية التي تفترسها آفات التخلف والجهل والتعصب، والعجز عن الوصول إلى الحداثة التي شكلت يوما بوابة الحلم التي لا بديل عنها للخروج من مختلف الأزمات السياسية والاجتماعية في العالم، ولد شعر حدائي ليشكل خطاب "رغبة" و"رفض" في آن واحد. فبسبب الرغبة ارتضى أن يرتقي في دولاب الحداثة برغم عيوبها، واختار أن يغلب المستقبل على الماضي، وقرر التحليق بحلمه بعيدا للتحرر من أسر الواقع والوقائع، ما وسعته سماوات حلمه الشعري المشروع. وبسبب الرفض أدار ظهره بكل ما يملك للقيم الموضوعية والفكرية والفنية التي ترتضيها الأنظمة السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة، لكنه لم يتجاهلها بل حولها إلى هموم كبرى للحداثة الشعرية في موريتانيا، وذلك على النحو الآتي:

أ. الهم الوطني (مثلا في نص "دموع غيلان" للشاعر سيد الأمين ولد بناصر، ونص "رسائل سرية إلى شخصيات سرية" للشاعر محمد ولد عبيد)؛

⁽¹⁾ نشرت هذه الدراسة عام 2006 في كتاب بعنوان: الخطاب الشعري الحدائي في موريتانيا، م. س. انظر الصفحات: 370، 389، 396 - 398.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ب . الهم السوسيو ثقافي (مثلا في نص " رحيل " للشاعرة بآة بنت البراء)؛

ج. والهم الشعري الخالص (مثلا في نص " الشريد " للشاعر ببهاء ولد بديوه، ونص " الكشف " للشاعر بدي ولد ابنو).

من هذا التمزق كذلك، يبدو الشعر الحداثي في موريتانيا مورطا فعلا في المواءمة بين قطبي مفارقة بعدت بينهما الشقة: حقيقة مرفوضة وحلم مرغوب، في مضمار سعيه لحسم التنازع الجدلي بين إستراتيجية إشباع الذائقة وإستراتيجية خلق الذائقة، على نحو يرجح الكفة لصالح الخلق على حساب الإشباع، وإن بالحد الأدنى الذي يؤشر على ريادة الفن، وإرادته الانتقال من وضع التابع إلى وضع المتبوع، في علاقته بالسياسة وأجهزة الثقافة السكونية.

وبواسطة معيار إحصائي شكلي بحث، نستطيع القول إن هذه الدواوين قد غلب عليها التوجه الحداثي، وإن كانت ما تزال منشدة إلى القديم، غير قادرة على مواجهة القارئ بعيدا عن المتوارث والمتعارف عليه، حيث بلغت نسبة القصيدة الحداثية 56,64% فيما بقيت نسبة القصيدة العمودية عند حدود 43,36% من مجموع النصوص الواردة في خمسة دواوين شعرية⁽¹⁾. بيد أن هذا الفارق البسيط بين النسبتين، لا يعبر عن مدى الإنجاز الفردي في إطار عملية التحديث الشعرية لكل شاعر على حدة؛ بل دليل أن لدينا من الشعراء من أوشك على التخلص نهائيا من الشعر التقليدي، كما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر ببهاء ولد بديوه، ثم الشاعر محمد ولد عبيدي، وفي مقابل ذلك يوجد من لا يزال تحت خط التحديث على أية حال، كما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر بدي ولد ابنو، وفي الدرجات الوسطى القريبة من الاعتدال بين الحداثية والتقليدية تنتزل تجربة الشاعرة بآة بنت البراء التي تميل قليلا إلى الحداثية، وتجربة الشاعر سيد الامين ولد بناصر التي تميل قليلا إلى التقليدية. وفي كل الأحوال، لقد أثبتت هذه النصوص كيف يمكن للخطاب الشعري أن يختار منزلته في سياقه الإبداعي والثقافي بحرية، وأن يحدد موقفه من العالم، وموقعه في صدارة الفعل الثوري، من خلال إستراتيجية اتصالية ذات مقاصد محددة، وطرح فكري متماسك يتبناه ويناضل من أجله بالكلمة الشعرية المكتوبة، مقدما مثالا رائعا على التلاحم القوي بين جسد الخطاب ومحتواه.

⁽¹⁾ يتعلق الأمر بدواوين الشعراء الخمسة: بآة بنت البراء: أحلام أميرة الفقراء، ببهاء ولد بديوه: أنشودة الدم والسناء، بدي ولد ابنو: مدائن الإشراقات الكبرى، سيد الأمين ولد سيد احمد بناصر: نيه المراكب، ومحمد ولد عبيدي: الأرض السائبة.

2. 5. دواوين بلا فهارس

في النصف الثاني من العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، تبين أن ذلك لم يكن مجرد طفرة شعرية، قياساً إلى العدد الكبير من الدواوين الشعرية التي صدرت أخيراً عن اتحاد الكتاب والأدباء الموريتانيين، مضافاً إليها بضعة دواوين شعرية أخرى أصدرها أصحابها بشكل مستقل.

وفي غياب دراسة متبعة للحركة الشعرية خلال هذه المرحلة، واستناداً إلى الملاحظات العامة، يمكننا القول إن هذه الطفرة الكمية في الإنتاج الشعري، لم تضيف شيئاً نوعياً على خط الحداثة الشعرية في موريتانيا، بل إن تقديراً شخصياً قد يذهب إلى أنها جاءت فقط لإعادة ضبط إيقاع الشعر الموريتاني بعد ما تعرض له من خلخلة وانتهاك على أيدي شعراء أواخر القرن المنصرم، ولتثبيت عجالات قطار الشعر على سكة العتيقة، في نوع من النضال المشروع لمجابهة شبح الحداثة غير المحبذة على كل الأصعدة الوطنية عدو الصعيد الاستهلاكي كما تبين مما سبق.

يعضد هذا الانطباع السريع تشابه الدواوين في طابعها العام، وتشابه نصوصها في منحى التداول الشعري، وفي طبيعة الموضوعات، وفي مستويات التشكل البنيوي (الدال) للأنساق الأسلوبية والموسيقية، إلى درجة يصعب معها التمييز أحياناً بين أنساب النصوص، أو حتى بين عناوينها. لقد شكلت هذه الدواوين ردة فعل قوية وموحدة ضد تيار الحداثة، وإن كان الكثير منها لم يخل من نص أو أكثر من صنف الشعر المتحرر من نظام البيت الشعري، في محاولة دون تعميم لإضفاء شكل من أشكال التنوع، أو إثبات المقدرة الشعرية على "قول" الشعر في كل "الألوان". وكأن لسان حال الشاعر هنا يردد: إن كنت لا أستطيع الوصول إلى شعر الحداثة فلا بأس أن آتي بقطعة من مثله، وإن على سبيل التحدي، أو المغامرة الفنية العبثية، أو الباروديا، أو السخرية المبطنة من شعراء الحداثة وقرائها.

يستثنى من هذا التقدير، تلك الدواوين التي صدرت مؤخراً لثلاثة من شعراء التسعينيات، وهم: محمد ولد عبدي، وببهاء ولد بديوه⁽¹⁾، وبدي ولد ابنو، الذين حسموا أمرهم على ما يبدو في اختيار قبلتهم الشعرية على كل حال، وقرروا المضي قدماً في اختراق حجب الحداثة، لا يقفون بكتابتهم الشعرية

⁽¹⁾ صدر لهما مؤخراً على التوالي: "كتاب الرخيل وتليه الفصوص" و "نشيد الضفاف".

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

عند حد، ولا يطيب لهم المقام داخل أي من " أقواسها"، في استفادة واعية واضحة من تواصلهم المباشر مع حركة الشعر المتجددة، ليس فقط عبر الوطن العربي، بل عبر العالم. والحق أن أكثر الشعر الذي ظهر في الدواوين التي صدرت مؤخراً عن الاتحاد . في سابقة حميدة لم يعرف الأدب الموريتاني مثيلاً لها من قبل . ليس وليد اليوم، وإنما هو محصلة لسنوات عدة من الحصاد الشعري المتراكم الذي كانت ظروف النشر تحول دون خروجه إلى القراء. ومن هنا فليس من الإنصاف معاملته كما لو كان تعبيراً دقيقاً عن مرحلة متميزة ومحددة من تاريخ الشعر في هذه البلاد.

خاتمة

تلك مجرد قراءة آنية وغير مستترة، في مسيرة التجربة الحداثية للشعر الموريتاني، لم يتسع حيز إعدادها لما تستحق من التحري والتدقيق، فيما كان لموضوعها من السعة والتشعب غير الظاهر ما يمكن أن يستوعب كل مناقشة ذات صلة بميدان من الميادين المساورة الكثيرة، دون أن يتيح لأية مناقشة أن تنزل إلى واقع النصوص الشعرية، أو أن تلامسها بحيوية الفعل النقدي التحليلي الفاحص. والآن، إذا كانت النصوص الشعرية قد غُيبت أو جرى تحييدها على نحو سافر من هذه الورقة، فلكي لا تحجب الضوء الذي نحتاج إليه لكشف بعض الأبعاد والجوانب المتصلة اتصالاً وثيقاً بتجربة الحداثة في الشعر الموريتاني، التي لا تزال محيدة برغم أهميتها، من أكثر القراءات التي سعت إلى فهم هذه التجربة على قلتها وعدم تمحضها في الغالب لهذا الموضوع، وكذلك، لأن المقام لن يسمح سوى باستخدام أمثلة مجتزأة بشكل قسري، وشذرات متفرقة لا يمكنها أن تساعد على بناء صورة مكتملة عن واقع الشعر الحداثي في موريتانيا، ولا أن تعين على تقدير القيمة الفنية للنصوص، ومستوى الإنجاز الذي حققته على طريق الحداثة الشعرية.

ويكفي أن تكون هذه الورقة قد أوعزت إلى ضرورة التساؤل دون حد، عن الدوافع الأولى وراء كل الظواهر والاتجاهات، وألا نقنع بالأحكام والإجابات الجاهزة. والمهم من هذا أن نعتز بأن تجربة الحداثة في الشعر الموريتاني ليست عبثاً، وأن علينا الإصغاء إلى خطابها، والشروع في مناقشة علمية جدية حولها وحول مشروع الحداثة برمته حيثما وجد.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وبالمقابل، لقد آن الأوان لينهض شعراؤنا من حالة السقوط بين الكراسي، وليدركوا أن الحداثة ليست فحسب لوناً شعرياً، أو طريقة في كتابة الشعر يمكن تمثيلها. إنها وعي قبل أن تكون حلاً أو رغبة، وإرادة في التغيير قبل أن تكون مجرد موضة.

المراجع:

- (1) ترفيتان تودوروف: الألب والدلالة، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب 1996.
- (2) ترفيتان تودوروف: نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، ط1، بيروت 1986.
- (3) الشيخ أحمد الجيلاني: الهوية والانتماء في المجتمع الموريتاني دراسة ميدانية أنثروبولوجية، دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك، ط1، كيفة والعين 2008.
- (4) لوي ديمون: السمات المميزة للحداثة، ضمن كتاب " الحداثة"، إعداد وترجمة: محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، سلسلة دفاتر فلسفية، دار تويقال للنشر، ط1، الدار البيضاء 1996.
- (5) مباركة بنت البراء: الشعر الموريتاني الحديث. دراسة نقدية تحليلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1998.
- (6) محمد الحسن ولد محمد المصطفى: الشعر العربي الحديث في موريتانيا. دراسة في تطور البناء الفني والدلالي، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2004.
- (7) محمد النويهي: قضية الشعر الجديد، مكتبة الخانجي ودار الفكر، ط2، القاهرة 1981.
- (8) عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتفكير - من البنيوية إلى التشرحية، دار سعاد الصباح، ط3، الكويت 1993.
- (9) محمد ولد عدي: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، (الشعر نموذجاً)، دار نينوى، دمشق 2009.
- (10) المختار بن محمد الأمين بن الجيلاني: الخطاب الشعري الحداثي في موريتانيا. دراسة في أجرومية النص، دار يوسف بن تاشفين ومكتبة الإمام مالك، ط1، العين 2006.

"ثقافة البينية" في الدراسات النفسية المعاصرة

جمال ولد الخليل

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة نواكشوط العصرية

ملخص

يعتبر الانفتاح في مجال البحث العلمي ضروريا وحيويا، كما ظل التداخل بين التخصصات والاستفادة من بعضها البعض هو سمة العصر، وهذا هو مجال الدراسات الجامعة بين التخصصات فقد طبقت الرياضيات على الشعر العربي وخاصة ما يسمى "الانقسام الشاقولي"، و"المجموعة الخالية"، و "الدوال اللوكارتمية" إلى غير ذلك من العلوم الحديثة التي طبقت على اللغة العربية، ومن ناحية أخرى أثبت التاريخ وجود مفاهيم ومناهج ونظريات (عابرة للتخصصات) أي أنه يمكن توظيفها في أكثر من تخصص إن كان تخصص معين هو الذي أفرزها، وقد أثبت تاريخ البحث العلمي أهمية تلك المفاهيم والمناهج والنظريات، فهناك ميادين بحثية تفرض - بطبيعتها على أصحابها - الانفتاح على التخصصات الأخرى والبحث عن إيجاد تكامل أو تبادل معرفي معها، ففي سنة 1953 تحدث المؤرخ الفرنسي "لففر" إلى زملائه قائلا: "أيها المؤرخون كونوا جغرافيين وكونوا حقوقيين وكونوا علماء نفس وعلماء اجتماع"، هذه دعوة صريحة: للانفتاح على التخصصات الأخرى والاستفادة منها، وبناءً على ذلك فإن مقارنة النص في ضوء "البنىات اللغوية اللاشعورية" لا يعدو كونه مجالا خصبا يدخل في صميم الدراسة النسقية.

الكلمات المفتاحية: النص نظام من الأنساق والعلامات التي لا تُرى بالعين المُجرَّدة.

مفهوم النقد النفسي للنص

1- لاوعي النص عند "شارل مورون"

بدأ اهتمام شارل مورون المزدوج باللاوعي في النص وفي حياة الكاتب في كتابه الصادر سنة 1957 بعنوان "اللاوعي في أعمال وحياة راسين"، ويلاحظ فيه "الابتداء بلاوعي النص *inconscient du texte* باعتباره المنطلق الأساسي، لأن دراسة لاوعي الكاتب إنما هي مرحلة لاحقة لتأكيد ما تم التوصل إليه في القراءة الأولى للنص. والواقع أن أبحاث مورون في إطار النقد النفسي لم تكتمل وتتضح بشكل تام إلا من خلال أطروحته الصادرة سنة 1963 تحت عنوان استعارات الأسطورة الشخصية الملحة

¹ "obsédantes au mythe personnel Métaphores

ويرى شارل مورون "أن كل نتاج أدبي يحتوي على مجموعة من الصور الخاصة تتخذ غالبا مظهرا دراميا وتتكرر في مجموع النتاج من خلال أشكال متباينة من الصور لكنها تحمل نفس الخصائص الجوهرية للصورة الأولى المحركة ويسمي ذلك الأسطورة الشخصية للكاتب، ويعرفها بأنها استيهام مهيمن على الكاتب يتمظهر من خلال صورة مهيمنة على أعماله وتكون دائما لهذا الاستيهام علاقة بلاوعي الكاتب، وهو ما يستدعي البحث في حياته الشخصية للتأكد مما توصلت إليه القراءة المباشرة للنصوص"².

2- اللاشعور بنية لغوية، مثال: "الرسالة المسروقة" عند (جاك لاكان)

الحديث عن "الرسالة المسروقة" مرتبط بشكل وثيق بفكرة "لاكان" المشهورة وهي أن اللاشعور ليس سوى بنية لغوية ودليله على ذلك أن المحللين النفسانيين لا يستطيعون التعرف إلى لاشعور مرضاهم إلا من خلال الحوار الذي يجرونه معهم. وسابقا اعتبر (فرويد) الأحلام بنية لغوية خاصة تحتوي على الرموز والاستعارات وتتعدم فيها الروابط وأن فهم الحلم يشترط تحليل هذه البنية الرمزية ولكي يوضح لاكان الدور الذي تلعبه البنية اللغوية بالنسبة لمواقف وسلوك الأشخاص وأقوالهم بحيث تتحول هذه البنية بفعل تكرارها الآلي إلى خلفية لغوية لاشعورية توزع الأدوار على كل شخص حسب موقعه.

¹ حميد لحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر مناهج ونظريات ومواقف ط: 2/2012 مطبعة انفو برانت 12 شارع

القادسية الليندو فاس المغرب ص: 107

² نفس المرجع، ص: 110 - 111

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قدم "لاكان" تحليلاً لنص الرسالة المسروقة "لإدغار آلان بو" التي نقلها إلى اللغة الفرنسية الشاعر الفرنسي "شارل بودلير" وملخصها: أنه في غفلة عن الملك يفتن الوزير أن الملكة تحاول إخفاء الرسالة التي توصلت بها، لكنه يستولي عليها أمام ذهولها، إذ لم تكن تستطيع الاحتجاج حتى لا يعرف الملك سرها. وتتعدد القصة لأن شخصا آخر يستولي على الرسالة وهكذا تصبح الرسالة بنية لغوية في ضوءها تتحدد النوايا الواعية وغير الواعية لكل من اطلع عليها كما يتحدد في ضوءها أيضا سلوك الأفراد وأقوالهم.

لكل هذا يعتقد "لاكان" أن اللغة تحكم الإنسان باعتبارها محملة سلفا بالدوال وعليه فليس الإنسان هو الذي يتحدث دائما باللغة، فاللغة هي التي تتحدث من خلاله. ومن ثم فحديث الفرد عن الحقيقة ليس إلا ضربا من الوهم فالهم في الكلام ليس منطوقه الخارجي ولكن ما يكمن وراءه من نوايا واعية أولا واعية¹.

إن النص الأدبي "يحتوي على فراغات، وهي فراغات يمكن أن تصرخ بصمت، وفي ذلك تشبيه خفي لها بصراخ الغرائز من أعماق اللاشعور في حياة الإنسان"².

لغة اللاشعور في الشعر العربي

أ) سيميائية اللاشعور

السيميائيات طريقة جديدة في فهم الظواهر وتأويلها، وهي أيضا طريقة جديدة لكشف بؤر المعنى ومطانه، ولهذا العلم علاقة بأدوار البعد النفسي حيث "تتجاوز السيميائيات التاريخ إلى ملامسة دينامية المعطيات الاجتماعية وأدوار البعد النفسي"³، وهذا ما ذكرته (جوليا كريستيفا): "يعود أمر تحديد الموقع الدقيق للسيميولوجيا إلى عالم النفس"⁴.

¹ نفس المرجع، ص: 115

² حميد لحداني: النقد النفسي المعاصر، تطبيقاته في مجال السرد، السنة 1991، ط1/ منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية (دراسات سال) مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ص: 35

³ حميد لحداني: النقد التاريخي في الأدب رؤية جديدة، المجلس الأعلى للثقافة 1999، ص: 2

⁴ جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط: 1/1991، دار توبقال للنشر والتوزيع، المغرب، ص: 16

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

في هذا المحور سنعطي أمثلة لـ "سيمائية اللاشعور" ومن بين تلك الأمثلة حادثة استقرت في لاشعور الشاعر "ذي الرمة" وصارت هي (البنية اللغوية اللاشعورية) في نصه، ويتعلق الأمر ببيتته الذي عابه النقاد:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

وإذا أردنا أن نفسر هذا البيت في ضوء البنيات اللغوية اللاشعورية فإنه يجب علينا الكشف عن هذه البنية التي "تعد في التصور البنيوي كلمة السر المركزية فلا شيء يمكن إدراجه أو فهمه خارج ما تقيمه حدود هذه البنية"¹.

وذو الرمة هو الشاعر الذي عاش حياته في الصحراء وللصحراء يحجب فلواتها ليلاً ونهاراً ويسمع فيها -كما يحدثنا في شعره- عزيف الجن ويعاني فيها ما يعانيه الوحيد في المكان المهجور، ولعله قد حدث له ذات مرة أن كان في جوف الصحراء وقد استبد به العطش وعندما هرع إلى قرابة يستسقيه وجد أن خوارزه قد فسدت وأن الماء قد تسرب منه فلم يبق منه ما يبل ظمأه، ونجده يحدثنا -منساقاً مع شعوره الباطن - عن قصة هذه الكلى المفرية فيقول في البيت التالي:

وفراء غرفية أثنى خوارزها مشلشل ضيعته بينها الكتب

فقصة الكلى المفرية في تاريخ ذي الرمة النفسي شيء محفور في ذاكرته، فهو في تلك الحال من العطش واللهفة إلى من يروي ظمأه يخيل إليه أنه قد وصل إلى النبع أو أن ركبا قافلا في الصحراء قد أتاه بخبر من محبوبته يروي ظمأه ويشفي غليله وكان ذلك فيما يبدو للشاعر وهما:

أستحدث الركب عن أشياهم خبراً أم راجع القلب من أطربه طرب؟²

يرى (نورمان هولاند) أن "الأدب تجربة وعلاوة على ذلك فهو تجربة متصلة بالتجارب الأخرى"³. فقديماً أحس الشاعر الظمأ وعاناه في جوف الصحراء حين تسرب الماء من قرابه. وقديماً أحس بالظمأ في صحراء الحب وعاناه حين ضاع أمله في أن تأتيه أخبار الحبيب. وبهذا يقوم الرابط بين

¹ سعيد بنكراد: سياق الجملة وسياقات النص الفهم والتأويل، مجلة علامات العدد 33/2010 المغرب ص: 14

² عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب العقالة ط: 4 بدون تاريخ مصر ص: 84-85

³ فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجارب (في الأدب) ترجمة: حميد لحداني، والجلالي الكدية منشورات

مكتبة المناهل فاس مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1995 ص: 36

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صورة القراب التالف في البيت الأول والكلام عن الركب في البيت الذي يليه. قد يحدو بنا أن نتساءل هل التحليل النفسي في إطار البنيات اللاشعورية هو "مدرسة للشك"، بمقدار ما يكون فيه على الحقيقة مدرسة قراء؟¹.

لذا يمكن أن نفسر الماء في ضوء البنية اللغوية اللاشعورية في بيت ذي الرمة بأنه "دال على التطهر إنه طقس من الطقوس الرمزية الموعلة في القدم، فقد ظل الإنسان يرى في الماء منبعاً وأصلاً لكل شيء إنه الحياة ذاتها ولا يمكن تصور أي شيء خارج الماء لذلك تعددت رمزياته وتنوعت إحالاته الأسطورية"².

حدد الناقد المغربي عبد الفتاح كليطو المعنى الشعري ووظيفة الصورة ضمن البنية الموضوعاتية من خلال البرنامج التحليلي الآتي:

مثلاً ما هي الوظيفة التي تقوم بها صور الماء في الشعر العربي؟ أقول صور الماء ولا أقول صورة الماء، هناك الماء المرتبط بالسراب والماء الذي يتجلى في الدموع وتنتهي بوصف المطر، ثم هناك الماء الأسن والماء المتجمد. كل نقطة في هذا الجرد السريع تقتضي تحليلاً مسهباً وسنكتفي بإيراد بيت من الشعر العربي هو:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خائته فروج الأصابع

أشرنا إلى أن تفسير البنيات اللغوية اللاشعورية مرتبط بأحداث وتجارب وقضايا، ولتفسيرها لابد من الرجوع لتلك الأحداث كمفاتيح لاستكناه مدلولاتها اللاشعورية، وإذا أردنا مقارنة هذا البيت في ضوء البنيات اللغوية اللاشعورية يمكن أن نقول مع عبد الفتاح كليطو: إن هذا الماء الذي يسيل ويهرب من القبضة ويندفع دون أن يفلح أحد في الإمساك به يندفع بدون رجعة، ما علاقة هذا الماء المنفلت الغادر بالزمن الذي لا يستقر ولا يتوقف؟ وإلى أية غاية يتجه هذا الماء؟ أهنالك صوت الموت يرد فيها ذكر الماء؟ وهكذا تشير البنية اللاشعورية للماء إلى مجموعة من الاستدعاءات في

¹ ك.م.، نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة عيسى علي العاكوب، ط: 1/1986 عين الدراسات والبحوث

الإنسانية والاجتماعية، مصر، ص: 225

² سعيد بنكراد: السرد الروائي وتجربة المعنى ط: 1/2008، المركز الثقافي العربي، ص: 224

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ذهن المحلل ليصبح الماء تداعي معاني للسراب والدموع والمطر والمرأة والسيولة والهرب والانفداع والانفلات والغادر وغير المستقر لينتهي الماء إلى (ماء آسن/ ماء متجمد) إلى حياة وموت معا. إنها إذن سيميائية البنيات اللغوية اللاشعورية تتبنى توليدات وتوزيعات مختلفة التناقضات¹. وعليه يمكن أن نقول "إن لغة اللاشعور يمكن اكتشافها من خلال الاستعارات والمجازات وكل ما يأتي عفو الخاطر في سياق الكتابة"².

إن الأديب -كما يقول إمبرتو إيكو- "لا يعرف ما يقوله، فاللغة تتحدث نيابة عنه"³. في ضوء البيتين السابقين للشاعر ذي الرمة يقدم د/عز الدين إسماعيل تعريفا "للتكثيف" ويبدو لنا هذا التعريف شبيه بمفهوم البنيات اللغوية اللاشعورية" بحيث تصبح القصيدة حلما من الأحلام وهذا يعني أن القصيدة تغدو موضوعا للتحليل النفسي"⁴. لهذا يمكن أن نستحضر مفهوم الدراسات البيئية الجامعة بين التخصصات المختلفة حيث تستعار مناهج من علوم أخرى، تقول جوليا كريستيفا عن الدراسات البيئية في مجال السيميائيات: "يعود أمر تحديد الموقع الدقيق للسيمولوجيا إلى عالم النفس"⁵. وهذا ما يؤكد السيميائي (س. ش. بورس) "ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في هذا الكون إلا على أساس أنه نظام سيمولوجي"⁶. اتجهت قراءة اللاكانيين إلى اعتماد البنيات اللغوية دليلا على تبين اللاوعي فيها فاتخذوها مطية للتحليل النفسي، فالنص كتابة مرموزة وخفية قصد إلى ذلك الأديب أم لم يقصد⁷.

-
- ¹ سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع الرباط 1989 المغرب، ص: 55
- ² جورج طرابيشي: التحليل النفسي والنقد الأدبي تطبيقاته على الرواية والسيرة الذاتية علاقته بالمناهج الأخرى أبعاده الحضارية، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية العدد 3، صيف/خريف 1988، المغرب ص: 16-17
- ³ إمبرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد ط: 2000/1 المركز الثقافي العربي، ص: 42
- ⁴ الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط: 1990/1 المركز الثقافي العربي، ص: 172
- ⁵ جوليا كريستيفا: علم النص ترجمة فريد الزاهي ط: 1991/1، دار توبقال للنشر والتوزيع المغرب ص: 16
- ⁶ محمد حاقاني ورضا عامر: المنهج السيميائي: آلية مقارنة الخطاب الشعري الحديث وإشكالياته. www.lasem.semenan.ac.ir
- ⁷ بوسليخن محمد: النقد الروائي عند جورج طرابيشي، أطروحة دكتوراه دولة من جامعة سيد محمد بن عبد الله كلية الآداب، ظهر المهرز فاس المغرب تحت إشراف حسن المنيعي العام الدراسي: 1998/1999، ص: 74-114

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

"البنية" و"النسق" مفهومان استخدمهما نقاد الحداثة كثيرا "النسق بنية لاشعورية ضمن (المضمّر) وتمثل (جوهر الخطاب) ويمارسها الكاتب والمبدع دون وعي منه لأنها حاكمة عليه ومشرّبة في ذهنه ولاشعوره"¹. يقول الشاعر:

تحبى خيالات ماضيه له صورا ماتت وخلفت الآلام و الحرقا

تبرز (تحبى) كإشارة متميزة متفردة وتفرض نفسها على البيت متصدرة إشاراته وهي فعالية قسرية تحدث ذاتيا دون خيار أو وعي من الكاتب فالإشارة تبرز إليه فارضة نفسها ومكانها ولا حول للشاعر من ذلك ولا قوة وهي لم تخضع لاختياره ولا لفحصه وإنما طرحت نفسها عليه متسمية باسمه وحاملة هويته في حالة من حالات اللاوعي عنده وهي حالة الإبداع الذي يسيطر النص فيها على ملكات الكاتب وتتهمر إشاراته وسياقه على لسانه (أوقلمه)².

إن دلالة البنية اللغوية اللاشعورية في النص والمتردة في إحدى وسائل المحلل الأدبي لأنها تكشف في الوقت نفسه عن دوافع السلوك وحيثياته مثال ذلك ما قاله المتنبئ:

إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود

ياساقبي أخمر في كنوسكما أم في كنوسكما هم وتسهيّد؟

فلو تناولنا لفظة "الكأس" أو "الخمّر" عند أحد الشعراء لتبيننا افتقاره إلى العطف وافتقاده المرأة ونفوره من الواقع وتوقه إلى الهرب في غيبوبة الحلم وإدمان الكحول وهذا ما عناه أبو شبكة حين قال ذات يوم لأحد أصدقائه إثر خيبته في الحب "إذ بحثت عن الطبيعة والخمّر فوجدتهما ولكن المرأة المفقودة" وهي حال شبيهة بحال المتنبئ في البيتين السابقين، فعلى ضوء تحليل البنيات اللغوية اللاشعورية نلاحظ أن حيثيات تعاطي الخمر في إطار من الأجواء الخيالية وإحساس بالوحدة ورغبة في تجاوز الواقع تجمعت كلها نفثات من الشعر الحزين هكذا استطاعت كلمة معينة أن ترمز إلى مجموعة أشياء امتزجت فيما بينها وهو إن صح التعبير يمكن أن نطلق عليه (البنية

¹ حسين السماهيجي وآخرون: عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط:1/2003 بيروت لبنان، ص:175

² عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرّحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، المركز الثقافي العربي ط:6/2006، ص: 249 - 250

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

اللغوية (الاشعرورية)¹، ومن ما يمكن أن يدرج في إطار التمثيل بالبنيات اللغوية الاشعرورية في الشعر العربي قول الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما لحب إلا للحبيب الأول

رب قائل يقول ما أكثر النصوص المجازية التي لا تتضمن إحالة على الشمس. هذا الاعتراض يمر بجانب المسألة: عندما تختفي الشمس وراء السحب فإنها تستتر ولكنها لا تفنى وتفقد مكانها في السماء مثال البيت الأخير أين هي؟ لا تلمح ضوءها ولكن حركتها واضحة في البيت (فؤاد ينتقل في سماء الهوى ثم يعود كالشمس إلى نقطة انطلاقه) قلت: لا تلمح حركة واضحة ففي كلام الشاعر إحالة إلى الشمس ولست أدري كيف يمكن أن أحرر الجملة حتى أحذف التلميح إلى الكوكب المنير².

إن البنية اللغوية التي وضع أسسها في علم النفس (جاك لاكان) تؤول في نهاية إلى جملة من السيمات العرفية التي تتوب عن اللغة وتفصح عن كثير من التعابير التي لا يليق بها الحديث ولا يفصح عنها بوضوح فتكون الإشارة كافية شافية لتبليغ المراد من ذلك قول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المقيم

إن الإشارة التي يصنعها الشاعر في هذين البيتين لغة لاشعرورية غايتها تبليغ عاطفة بذاتها وتوصلها إلى الطرف المستقبل للدلالة على هدف كامن في النفس دون اصطناع اللغة الطبيعية المألوفة لمثل هذه الغاية لدى إرادة التبليغ أو كقول الآخر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ونحن سكوت والهوى يتكلم

إن حركة الحجاب سمة عرفية حبل بالدلالة تتوب مناب الحديث الذي يقصر عليه اللسان أو يحجم عنه في مواقف كالخجل والخوف من الرقيب.

¹ خريستو نجم: النقد الأدبي والتحليل النفسي، فصول في تحليل الفكر والأدب والفن، دار الجيل بيروت مكتبة السائح طرابلس ط: 1/1991، ص: 40-41

² عبد الفتاح كليطو: الأدب والغرابية دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر ط: 2/2006 الدار البيضاء

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

من خلال هذه المعطيات التي قدمناها نرى أن "البنية أو البنى ليست مطروحة على أديم النص (يعرفها العربي والعجمي) وإنما هي أنساق خفية"¹. لا تُرى بالعين المجردة، لقد اتجهت قراءة اللاكانيين في علم النفس إلى "اعتماد البنيات اللغوية دليلاً على تبين اللاوعي فيها فاتخذوها مطية للتحليل النفسي"².

ب - ظاهرة "الليبدو" في العمل الأدبي

الليبدو هو الرغبة الجنسية وتعني الشهوة والشهية والمتعة والنزوة والهوى والحاجة الطبيعية³، يقول أبو نواس:

قطرل مريعي ولي بقرى الكرخ مصيف وأمي الغنـب
ترضعني درها وتلحفنني
بظلمها والهجير يلتهب
إذا تثنه الغصون جلنني
فممت أحو إلى الرضاع كما
تحامل الطفل مسه السغب
هتكت عنها والليل معتكر
مهمل النسج ماله هــب
ثم تو جأت خصرها بشبا الأشقى فجاءت كأنها لهـب⁴

جلنني: كساني الفينان: الحسن الشعر الطويل كناية عن الغصن المورق الطويل فيقول في البيت الرابع مستكملاً معنى سابقاً، إذ ذكر أن أمه الكرمة إنه نهض وطلب الخمر يرضعها كالطفل الذي مسه الجوع فما دلالة ذلك وما سببه؟ ولاسيما بعد أن تحولت الخمر -كأنها- امرأة من لحم ودم يخاطبها. إن هذا التفتح الواعي لحضور المرأة والإحساس بها - في ضوء البنيات اللغوية

¹ حمادي صمود: قلب الشاعر لأبي القاسم الشابي: محاولة قراءة، مجلة فصول، المجلد الأول العدد: 4 يوليو

1981، ص: 221

² ندوة لجماعة من الأساتذة حول: الحدود بين المدارس اللسانية في علاقتها بالأدب وقضية السياق والمعنى، مجلة

دراسات أدبية لسانية العدد: 3 السنة الأولى ربيع 1986، ص: 131

³ سيكموند فرويد: إبليس في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، ط: 3/1999، دار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت-لبنان، ص: 94

⁴ أبو نواس: شرح ديوان أبو نواس، الجزء الأول، إيليا الحاوي، منشورات الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب

البناني 1987، ص: 66-67-68

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

اللاشعورية- مرتبط بعقدة الذنب والحنين إلى دفء الأمومة وفي تأكيد اندماجه وذويانه في الخمر التي أصبحت امرأة عنده هو تعبير عن حرمان كان يعاني منه، ويمكن تلمس ذلك في محبو بته أو إمرأته المفقودة التي حلت الخمر محلها في الوقت نفسه: (ترضعني درها) (وتلحفني)، فجملة (أحبو إلى الرضاع)، لها دلالة نفسية مرتبطة بالأمومة وأما فكرة (الرضاعة) فمصدرها إحساس بعقدة فقدان الأم، وإفصاح الشاعر عن رغبته الحقيقية بتلك الخمر التي حلت محل محبو بته، فأوجد فيها مرتع الأمومة الذي فقدته منذ صباه يقول أيضا:

ثم اصطبج من أميرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد

لم يرها خاطب فيمنعها ولادعاه لها أخو فند¹

فالشاعر يعود إلى الخمر وكأنما أدركته الغيرة فيبدل في التشبيه ويعد له. فهي كما شاء بكر عذراء .. الكرم أمها وأبوها الماء وأبو نواس هو خاطبها. وهذا له دلالة نفسية خاصة مرتبطة بالأمومة فالماء - كما مر معنا سابقا- يعبر عن فكرة التطهر ومصدرها إحساس الشاعر أبي نواس بعقدة الذنب، فالماء رمز للنقاوة والطهارة التي حطمتها أمه حسب ما تقول الروايات، ومن الواضح أن لجوء الشاعر إلى الخمر خالعا عليها صفات الأم الطاهرة أو الحبيبة المفقودة يمكن تأويله بثنى الطرائق فمن: "عقدة أوديب"، إلى (عقدة النسب)، فقد "ارتبطت العملية الإبداعية عند (أدلر) بالشعور بالدونية ومركب النقص"².

وبين ارتداء أبي نواس في أحضان الخمر عن عقاب يتمناه لنفسه في لاوعيه نظرا للطهارة التي حطمتها أمه، فتثائية "الخمر" و"المرأة" هي (التيمة) المهيمنة في البناء اللاوعي في نصوص أبي نواس الخمرية.

انقلبت الخمر في لاوعي أبي نواس إنسانة عذراء لعوبا يتغلب معها أولا ثم تغلبه:

نغلبها أولا وتغلبنا فنحن فرسانها وصرعاها³

¹ عبد الرحمن صدقي: ألحان ألحان، دار المعارف بمصر 1957، ص: 186

² عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية، ط: 1/نوفمبر 1988، دار اليسر مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص: 63

³ خليل شرف الدين: أبو نواس، الموسوعة الأدبية الميسرة، منشورات دار الكتب الهلال 1982، ص: 116

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وقد يفضي ذلك بأبي نواس أن يشذ عن المتعارف عليه مادام قد فقد عطف أعز الناس وأحبهم، فالخمر عروس شعره، بل عروسه حقا وهو في ذلك يقول:

نادمتهم قرقف الإسفط صافية مشمولة سبيت من خمر تكريت
من اللواتي خطبناها على عجل لما عجبنا بربات الحوانيت¹

ومن قوله أيضا:

فافترعنا مزة الطعم فيها نزق البكر ولين العوان²

فتارة نجد الخمر عند أبي نواس أما (تلفحني) و(ترضعني) وتارة تكون بمثابة زوجة (زرتها خاطبا فتزوجت بكرا)، نلاحظ هذه المقارنة فـ "لأسطورة الشخصية تكشف عن الشخصية اللاواعية للكاتب وإلى حالة درامية داخلية تتغير باستمرار بفعل العناصر الخارجية لكنها تظل ثابتة ويمكن التعرف عليها أخيرا عن طريق العلاقات المتصلة بحياة الكاتب"³.
يقول أبو نواس:

ومر ذا فرح يسعى بمسرجة فا ستل عذراء لم تبرز لأزواج⁴

ويقول أيضا:

وأبرز بكرا مزة الطعم قرقفا	صنيعة دهقان تراخي له العمر
عروس كان كسرى ربيها	معتقة من دونها الباب والستر
أدل منها العنان فإنني	لها كفء صدق ليس من شيمي العسر
فجاء بها شعشاء مشدودة القرا	على رأسها تاج ملاحفها عفر

¹ عمر فروخ: أبو نواس منشورات دار الشرق الجديد ط: 1/مارس 1960، بيروت لبنان، ص: 129

² علي شلق: أبو نواس بين التخطي والالتزام قدم له: فؤاد أفرام البستاني توزيع ونشر دار الثقافة، ط: 1/أكتوبر 1964، بيروت لبنان، ص: 182

³ جان إيف تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة المعهد العالي للفنون المسرحية 1993، ص: 201

⁴ أبو نواس: ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، الناشر دار الكتاب العالمي، بدون تاريخ، بيروت لبنان المقدمة الثانية مذيلة بتاريخ 05 مارس 1953 القاهرة، ص: 48

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فقلت: أذا عطر؟ فقال: هو العطر

فلما توجى خصرها فاح ريحها

عليهن بين الشرب أردية حمراء¹

كأن الزجاج البيض منها عرائس

في اعتقادي أن حديث أبي نواس عن الخمر - كأنها امرأة سوية - يوحى لنا بما كان يتعقد ويتضاعف من حبه لها من أحوال نفسية كثيرة التقمص، "إن الحلم والشعر كليهما مظهران لرغبات جنسية غير مرتوية مكبوتة في اللاشعور"².

ج- نظرية (صدمة الولادة) وتطبيقاتها في الأدب

إن من بين القضايا التي يمكن إدراجها في إطار الدراسة البنوية اللغوية اللاشعورية نظرية (صدمة الولادة) في علم النفس، وقد أثارها ابن الرومي في نموذج شعري هو:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ومالي إلا كفها متوسد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد³

مقتضى هذه النظرية أن الإنسان عاش فترة داخل الرحم كان أثناءها يتمتع بكل أسباب الراحة والهدوء بعيداً عن المشاكل والهموم "ولئن كانت هذه الصورة ليست واعية وعقلانية فإنها تسربت إلى اللاشعور على شكل صور نمطية أسقطها الإنسان على مجموعة من وقائع حياته... ولقد أكد (أوتورانك) وهو صاحب هذه النظرية ومبدعها الأول أن صدمة الولادة تعتبر أقسى تجربة يمر بها الإنسان في حياته إلا أن عقله يتولى كبتها عن ذاكرته ومع مرور الوقت تحايلت الذاكرة على العقل وترتبت هذه الصورة على شكل صور مبهمّة تتخذ شكل حكاية كبرى لا تؤرخ لفرد وحده بل تتحدث عن البدايات الأولى للكائن الإنساني وقصة وجوده على الأرض"⁴.

¹ أبو نواس: ديوان أبي نواس، تحقيق بدر الدين حاضري محمد حمادي، دار الشرق العربي، ط: 1/1992 بيروت لبنان، ص: 233-234

² سامي الدروبي: علم النفس والأدب، منشورات جماعة علم النفس التكاملية، دار المعارف، ط: 2، القاهرة 1981 ص: 231

³ ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، الجزء 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مطبعة دار الكتاب) 1974 وزارة الثقافة مطبوعات مركز تحقيق التراث، ص: 586

⁴ سعيد بنكراد: مسالك المعنى دراسة في بعض الأنساق الثقافية العربية، ط: 1/2006 دار الحوار اللائقية سوريا، ص: 138

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

سنحاول التعريف بمفهوم نظرية "صدمة الولادة" في علم النفس عند مبدعها (أوتورانك)، فالجدير بنا أن نمثل لهذه النظرية بنص شعري قبل أن نتعرض لمفهومها فيما بعد، يقول نزار قباني في قصيدة (رسالة من تحت الماء):

إن كنت صديقي .. ساعدني
كي أرحل عنك
أو كنت حبيبي .. ساعدني
كي أشفى منك
لو أنني أعرف أن الحب خطير جدا
ما أحببت
لو أنني أعرف أن البحر عميق جدا
ما أبحرت
لو أنني أعرف خاتمتي
... ما كنت بدأت
اشتقت إليك .. فعلمني
أن لا أشتاق
علمني
كيف أقص جذور هواك من الأعماق
علمني
كيف تموت الدمعة في الأحداق
علمني
كيف يموت القلب وتنتحر الأشواق

*

إن كنت نبيا .. خلصني
.. من هذا السحر

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

من هذا الكفر
حبك كالكفر فطهرني
.. من هذا الكفر
إن كنت قويا .. أخرجني
.. من هذا اليم
فأنا لا أعرف فن العوم
الموج الأزرق في عينيك .. يُجرّجني نحو الأعماق
وأنا ما عندي تجربة
.. في الحب .. ولا عندي زورق
إن كنت أعز عليك .. فخذ بيدي
فأنا عاشقة من رأسي .. حتى قدمي
إنني أنفَس من تحت الماء
.. إنني أغرق
.. أغرق
.. أغرق¹

وبحسب تعبير (أوتورانك) ربما كان الإلحاح على رمز الماء في شعر نزار وتحريضه المرأة كي ترتمي معه في أعماق المحيط نتيجة الحنين اللاواعي إلى هذه العودة، حتى لو نظرنا إليه نظرة ديناميكية فهو مثلها عنصر مداعب هزاز يملأنا رخاوة ويذينا في أحضان الطمأنينة والراحة من خلال البنيات الشعرية، فالغوص في الماء يعني العدم أي عودة المخلوق إلى برهته الأولى برهة الخلق البكارة. فالشاعر نزار عندما يغري المرأة بالارتقاء في أحضان البحر إنما يعبر عن فكرة الموت أو الولادة المستمرين، بدأ في عملية الاندماج بالبحر بهذه الأم الكونية التي يعود فينبعث

¹ www.adab.com

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

منها بحركة مستديمة ولذا طاب له سماع المحبوبة في (رسالة من تحت الماء) تتضرع إليه أن ينقذها من أهوال البحر¹.

إن الماء في الثقافات الإنسانية رمز للخصوبة والتطهر والاتبعاث والرغبة في العودة إلى رحم الأم².
د- رمزية الخوف عند نازك الملائكة (مقاربة نفسية)

إن الإحساس الجوهرى الكامن وراء معظم رموز الشاعرة نازك الملائكة هو شعورها الخفي بأن هناك قوة مجهولة جبارة تتعقبها، كما أن النموذج المركزي الذي يتراءى في كثير من قصائدها هو نموذج الإنسان المطارد من قبل تلك القوة التي لا ترحم وكثيرا ما تكون هذه القوة مجموعة من الذكريات المحزنة، هنا تتكون الملامح الأولى للرمز فهو جثة سمكة لا تعني شيئا ولكنها بالنسبة للحبيبين الخائفين (إنذار أسى ودليل فراق)، وكأنها تثير في خيال الشاعرة صورة حبها وقد تحول إلى رفات أو جثة هأمدة كجثة هذه السمكة الشوهاء.
تقول الشاعرة نازك الملائكة:

ومشينا لكن الحركة

ظلت تتبعنا، والسمكة

تكبر، تكبر حتى عادت في حضن الموجة كالعملاق

وصرخت "رفيقي أي طريق

يحمينا من هذا المخلوق؟

لنعد فالدرب يضيق يضيق

والظلمة محكمة الإغلاق"

فأجاب رفيقي مرتعشا والظلمة محكمة الإغلاق:

"تهرب لن تسلمنا الآفاق"

وبقينا نهرب، والسمكة

تتبع أرجلنا المرتبكة

¹ خريستو نجم: النرجسية في أدب نزار قباني، دار الرائد العربي، ط: 1/1983 بيروت لبنان، ص: 217-218

² سعيد بنكراد: الفضاء الإشعاري بين التمثيل والخلم، مجلة علامات، العدد 30/2008، المغرب، ص: 89

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تلك الأحداق، وأين المهرب من لغة تلك الأحداق؟

وزعانفها السود الشوهاء

سدت في وجهينا الأرجاء

وأراقت في الجو الوضاء

سحبا سوداء ولون محاق

حتى وجه القمر السحري غشاه أسى وظلام محاق

وتلاشى مبسمه البراق¹

تكتمل أبعاد الرمز وتتحول السمكة الصغيرة إلى عملاق يسد على الجبين كل طرق النجاة وبه تتغير كل معالم السعادة إلى كآبة غامرة فالجو المضىء قد غشته السحب السوداء أما القمر فقد انتقب بالظلام أو قل بالأسى الذي اعترى الشاعرة فما الطبيعة إلا صورة من حالاتنا النفسية، ترى هل ترمز نازك الملائكة بذلك العملاق النهري إلى الإحساس بالزمن وهو ما يوحي به عنوان القصيدة أم إلى الخوف من مفاجآت القدر؟

إن الجزم بأحدهما ليس بذي بال لأننا نعلم أنهما وجهان لحقيقة واحدة هي المجهول بأرحب معانيه. يعتبر الرمز في هذه القصيدة نفسياً من حيث إنه يوحي بنزعة من نزعات الذات الباطنة.

إن إحساس الشاعرة بأنها مطاردة من قبل عدو خفي لجوج قد يكون الذكرى أو الندم أو الزمن المجهول بعامّة. هو نفسي من حيث صورته الفنية لأنه قد بني على ما يشبه الحلم أو تيار اللاوعي unéonsci ousness

إذ ليس معقولاً كذلك أن تتحول جثة سمكة صغيرة إلى عملاق كبير إنما هي رؤيا تتجسد فيها مخاوف الشاعرة صورا ورموزا مستمدة من عالم النفس الغني العميق وهي من هذه الوجهة تذكرنا بقصيدة (الغراب) لـ "إدجار آلان بو"، وفيها يرمز الشاعر بالغراب إلى مرارة الذكرى مثمّا ترمز شاعرتنا بالسمكة العملاقة إلى لعنة الزمن وفيها كذلك يستخدم "بو"، كما تستخدم "نازك" جو الظلام والحيرة والتردد والرياح والنافذة والغراب ذي الطبيعة المفترسة وكأنه وحش يهدد أمن الشاعر يستخدم كل ذلك ليفسح المجال للرعب والأسى والفرع. بل إن شعور التوقع الذي صورته نازك في بداية

¹ محمد فتوح أحمد: الحداثة الشعرية الأصول والتجليات، دار غريب للنشر والتوزيع القاهرة 2006، ص: 286-287

قصيدتها على شكل حوار بينها وبين رفيقها الذي يطمئننها بأن ما يسمعانه ليس سوى صوت الريح، هذا الشعور بعينه نجده سائداً في قصيدة "بو" حيث يفاجأ في إحدى ليالي ديسمبر القاسية بطارق في الظلام وحين يفتح الباب على مصراعيه لا يجد أحداً. وإذاً ذاك يعود إلى مجلسه قلقاً مهموماً ولكن الطرق ما يلبث أن يعود أقوى مما كان وحين يفتح النافذة يفاجأ بغراب مهيب يدخل عليه دون تحية أو استئذان وإذا يسأله الشاعر عن اسمه أو ما يكون لا يجيبه هذا الطائر الغريب بغير كلمة واحدة "هيهات" يقولها وكأنها ماتت على شفتيه فلا يجد عنها حولا أنثى يزداد انزعاج الشاعر فيهتف به أن يغادر بيته:

لتكن تلك الكلمة فراق ما بيني وبينك طائراً كنت أم صديقاً هكذا أصبحت به وقد نهضت قائماً. عد إلى العاصمة في عالم الموت المظلم لا تترك أي ريشة من ريشك الأسود تذكرنا لما فات به روحك من كذب أترك وحدتي غير معتد عليها غادر التمثال من أعلى بابي ... إنزع منقارك من صدري ونح عني شبحك المخيف فصاح الغراب "هيهات"

وحينذاك نحس في حدس شبه يقيني [أن الشاعر يتحدث عن ذكرى أليمة تعاوده كلما أجبه الليل وتنشأ نارها في صدره فلا يستطيع منها مفراً مثلاً لا تستطيع نازك الملائكة من عدوها المخيف مفراً]¹ هذا ما تفسره البنية اللغوية اللاشعورية في نص نازك الملائكة.

¹ نفس المرجع، ص: 287-288

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المراجع المعتمدة:

أولاً: الكتب

- 1- إمبرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، ط1/2000 المركز الثقافي العربي.
- 2- ابن الرومي: تحقيق حسين نصار، الجزء 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مطبعة دار الكتاب) 1974 وزارة الثقافة مطبوعات مركز تحقيق التراث.
- 3- أبو نواس: ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، الناشر دار الكتاب العالمي، بدون تاريخ، بيروت-لبنان، المقدمة الثانية مذيبة بتاريخ 05 مارس 1953، القاهرة
- 4- أبو نواس: شرح ديوان أبي نواس، الجزء الأول إيليا الحاوي، منشورات الشركة العالمية للكتب، دار الكتاب اللبناني، 1987
- 5- أبو نواس: ديوان أبي نواس تحقيق بدر الدين حاضري محمد حمامي، دار الشرق العربي، ط: 1992/1 بيروت-لبنان
- 6- جان إيف تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة: قاسم المقداد منشورات وزارة الثقافة المعهد العالي للفنون المسرحية، 1993
- 7- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، ط1/1991 دار توبقال للنشر والتوزيع المغرب.
- 8- حسين السماهيجي وآخرون: عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ط1/2003 بيروت لبنان.
- 9- حميد لحداني: النقد النفسي المعاصر تطبيقاته في مجال السرد، السنة 1991، ط1/منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية (دراسات سال) مطبعة النجاح الجديدة، المغرب.
- 10 - حميد لحداني: النقد التاريخي في الأدب رؤية جديدة، المجلس الأعلى للثقافة 1999
- 11- حميد لحداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر مناهج ونظريات ومواقف، ط: 2/2012، مطبعة إنفو ابرانت 12 شارع القادسية الليدو، فاس المغرب.
- 12- خريستو نجم: النرجسية في أدب نزار قباني، دار الرائد العربي ط1/1983 بيروت، لبنان.

حوايلات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- 13- خريستو نجم: النقد الأدبي والتحليل النفسي فصول في تحليل الفكر والأدب والفن، دار الجيل بيروت مكتبة السائح طرابلس، ط1/1991
- 14- خليل شرف الدين: أبو نواس الموسوعة الأدبية الميسرة، منشورات الكتب، الهلال 1982
- 15- سامي الدروبي: علم النفس والأدب، منشورات جماعة علم النفس التكاملية، دار المعارف ط:2 القاهرة 1981
- 16- سعيد بنكراد: مسالك المعنى دراسة في بعض الأنساق الثقافية العربية، ط:1/2006، دار الحوار اللاذقية سوريا.
- 17- سعيد بنكراد: السرد الروائي وتجربة المعنى ط1/2008 المركز الثقافي العربي.
- 18- سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر 1989 الرباط المغرب.
- 19- عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب الفجالة، ط 4، بدون تاريخ، مصر.
- 20- عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، المركز الثقافي العربي، ط:6/2006
- 21- عبد الفتاح كليطو: الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توفال للنشر ط:2/2006 الدار البيضاء المغرب.
- 22- عبد الرحمن صدقي: ألحان ألحان، دار المعارف بمصر 1957
- 23- عمر فروخ: أبو نواس، منشورات دار الشرق الجديد ط1/مارس 1960 بيروت لبنان.
- 24- عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية، ط:1/نوفمبر 1988، دار اليسر مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب
- 25- سيكموند فرويد: إبليس في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، ط:3/1999، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان.
- 26- علي شلق: أبو نواس بين التخطي والالتزام، قدم له: فؤاد أفرام البستاني، توزيع ونشر دار الثقافة، ط:1/أكتوبر 1964 بيروت لبنان.
- 27- فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ترجمة حميد لحمداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل فاس مطبعة النجاح الجديدة 1995، الدار البيضاء المغرب.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

28-ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: عيسى علي العاكوب، ط1/1986، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.

29-محمد فتوح أحمد: الحداثة الشعرية الأصول والتجليات، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة 2006

30-الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط1/1990، المركز الثقافي العربي، المغرب.

ثانيا: المجالات والدوريات

31-جورج طرابيشي: التحليل النفسي والنقد الأدبي تطبيقاته على الرواية والسيرة الذاتية علاقته بالمناهج الأخرى أبعاده الحضارية، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد: 3، صيف خريف 1988 المغرب.

32-حمادي صمود: قلب الشاعر لأبي القاسم الشابي محاولة قراءة، مجلة فصول المجلد الأول العدد: 4 يوليو 1981

33-سعيد بنكراد: سياق الجملة وسياقات النص الفهم والتأويل، مجلة علامات، العدد 33/2010 المغرب.

34-سعيد بنكراد: الفضاء الإشعاري بين التمثيل والحلم، العدد 30/2008 المغرب.

35-ندوة لجماعة من الأساتذة حول: الحدود بين المدارس اللسانية في علاقتها بالأدب وقضية السياق والمعنى، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 3 السنة الأولى ربيع 1986.

ثالثا: المواقع الإلكترونية

36-محمد حاقاني ورضا عامر: المنهج السيميائي: آلية مقارنة الخطاب الحديث وأشكالياته.

www.lasem.semenan.ac.ir

- 37 www.adab.com

النقد الثقافي / النظرية والمنهج

الشيخ ولد باباه

طالب دكتوراه: مكونة النص ومناهجه

كلية الآداب - جامعة انواكشوط العصرية

توطئة:

يمكن القول إن النقد الثقافي يمثل منظومة معرفية جديدة، لما نزل عليها آثار الولادة بعد عملية قيصرية...، ورغم ذلك تحاول أن تكون لها نظرتها وأدواتها الإجرائية وتطبيقاتها الخاصة؛ مما يعطيها - بلا شك - هوية خاصة، ووجودا مستقلا، نرى مع آخرين أن الساحة العربية كانت بحاجة إليه منذ وقت طويل.

ولعلنا في هذا المقال سوف نحاول أن نبلور النظرية والمنهج لهذا النقد الثقافي عبر محاور ثلاثة هي: المحور الأول: النسق/ مفهوم ووظيفة، والمحور الثاني: مصطلحات مؤسسة، والمحور الثالث: زاوية النظر

النسق/ مفهوم ووظيفة: تدور معاني "النسق" في المعاجم العربية حول النظام والتشاكل والاشتراك في الصفات، أو ما يمكن التعبير عنه بـ "عطف النسق"، ولعلنا نكتفي بـ ابن منظور؛ حيث يقول: «النسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء، ونسقه تنسيقا نظمه على السواء»¹. وقد نقل الدكتور محمد الأمين ولد الناتي عن "قاموس أطلس" الإنكليزي - العربي، تعريفا للنسق، يقول إنه «مجموعة عناصر متفاعلة، أو متبادلة العلاقة، أو معتمدة على بعضها بعضا، مكونة كلا مقدا...»². كما نجد الدكتور مفتاح يذكر تعريفا لأحد الباحثين لا يختلف كثيرا عن ما تقدم، يقول هذا الباحث: «نسمي شيئا نسقا حينما نريد أن نعبر عن أن الشيء يدرك باعتباره مكونا من مجموعة من العناصر، أو مجموعة من الأجزاء يترايط بعضها ببعض حسب مبدأ مميز»³.

1 - ابن منظور: لسان العرب، مادة: نسق

2 - دا محمد الأمين ولد الناتي: الثقافة الشنقيطية: مقارنة نسقية، ط: 1، مركز نجيبويه، مصر - القاهرة، ص: 34

3 - دا محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، ط: 1، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، 1996، ص: 48

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومن خلال قراءته لهذا التعريف يخلص الدكتور مفتاح إلى أن هناك «خصائص مميزة للنسق...»، وهذه الخصائص هي:

حدود قارة نسيباً يمكن التعرف عليه بها

بنية داخلية متكونة من عدة عناصر منتظمة وتحيل على نفسها

نسق الخطاب عضوي مفتوح متغير، ومتحول ومتوجه نحو التعقيد الذاتي؛

عليه أنه يحافظ على ثابت أو ثوابت

كلما كثر حذف عناصره قل تأثيره وإقناعه

يشجع حاجات اجتماعية لا يشبعها نسق غيره»¹

إن هذا التعريف الذي نقله الدكتور مفتاح للنسق، والخصائص التي استشفها منه، يمكن أن يستأنس بهما كمفهوم للنسق، إلا أنه لا يقف بنا تحديداً عند مفهوم "النسق" في "النقد الثقافي" وفق المنظور الذي ارتأينا أن نعمقه من خلال هذا الجهد المتواضع.

إن الدكتور مفتاح ناقد أدبي، وعالم إنساني واسع الاطلاع يواكب صيحات "الموضة الفكرية" المتجددة - دائماً - ولكنه - غصبا عنه - يصهرها في بوتقة النقد الأدبي؛ لأن الناقد الأدبي صفة ذاتية ملازمة له لم يستطع التخلص منها، وهذا - في اعتقادي - هو الذي عاق تعاطيه للنقد الثقافي ولدراسة "الأنساق".

غير أن هذا لا يمنع من القول: إن النص الذي اقتبسناه منه ألقى بضوء كاشف على مفهوم النسق وإن لم يكن قد حدده على النحو الذي نريد

قد يبدو مما هو متفق عليه، أن النسق نظام أو système؛ بمعنى أنه خطاب أو طريقة أدائية معينة في التعبير، ولعله بهذا المعنى هو ما يرمي إليه أستاذنا الدكتور مفتاح؛ ولذلك نجدته يعلق بالقول: «ومن ينظر إلى خصائص النسق هذه... فإنه لا يكابر في أن الخطاب (النص) نسق»²، إلا أنه

في منظور النقد الثقافي هناك نسقان: ظاهر ومضمّر، والمضمّر ناقض للظاهر وهادم له

¹ - المرجع السابق، ص: 48

² - دا مفتاح: التشابه والاختلاف، سابق، ص: 48

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يقول الدكتور الغدامي: «أما النسق المضمّر فهو ليس في محيط الوعي، وهو يتسرب غير ملحوظ من باطن النص، ناقضا منطق النص ذاته ودلالاته الإبداعية؛ انصريح منها والضمني، وهذه - بالضبط - لعبة الألاعيب في حركة الثقافة...»¹.

يتضح - إذن - أن النسق مرتبط بالثقافة متسرب منها ومنبثق عنها توفر له غطاء من الحيل حتى يمر في انسياب بعيدا عن أعين الرقباء.

ولكن النسق - كما يرى الدكتور الغدامي - يتحدد «عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر ويكون المضمّر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد أو ما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا وأن يكون جماهيريا، ولنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي، وإنما الجميل هو ما اعتبرته الرعية الثقافية جميلا»².

وإذا كان النسق يتحدد عبر وظيفته، فإن ذلك يستدعي إلى الأذهان "نظرية الاتصال" المرتبطة بأسم "رومان جاكوبسون" والمتكونة من مرسل ومرسل إليه وسياق «وهو المرجع الذي يحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادة القول»³ «وشفرة وهي الخصوصية الأسلوبية لنص الرسالة، ولا بد لهذه الشفرة أن تكون متعارفة بين المرسل والمرسل إليه تعارفا كلياً أو - على الأقل - تعارفا جزئياً، إضافة إلى وسيلة الاتصال»⁴.

هناك خط بياني يرسم عادة لتجسيد هذه العناصر، وذلك على النحو التالي:

الشفرة

السياق

الرسالة

¹ - دا الغدامي ودا عبد النبي اصطياف: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، دار الفكر، دمشق، 2004، ص: 40

² - دا الغدامي: النقد الثقافي، ط: 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص: 77

³ - دا الغدامي: الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ص: 11

⁴ - نفسه، في نفس الموضع

أداة اتصال

ويقترح الدكتور الغدامي إضافة عنصر سابع هو العنصر النسقي؛ لتكون «وظائف اللغة حينئذ سبعة بدلا من الست المعهودة وهن كالتالي:

ذاتية وجدانية (حينما يركز الخطاب على المرسل)

إخبارية/نوعية (حينما يركز الخطاب على المرسل إليه)

مرجعية (حينما يكون التركيز على السياق)

معجمية (حينما يكون التركيز على الشفرة)

تنبيهية (حينما يكون التركيز على أداة الاتصال)

شاعرية/جمالية (حينما نركز على الرسالة نفسها)

نسقية (حينما يكون التركيز على العنصر النسقي)¹

يتجلى من النصوص الأخيرة التي اقتبسناها للغدامي أنه لم يقدم تعريفا جامعاً مانعاً - كما يقال - للنسق الذي هو "المنطلق الأول" في مشروع النقد الثقافي، وإنما رأيناه يقدم شروطاً لهذا النسق ووظيفة مسترشداً بالنموذج الجاكوبسوني؛ فماذا بإمكاننا أن نفعل حتى لا يكون هذا المفهوم الأساسي في هذا المشروع؛ الذي نرى أنه أداة مهمة لمساعدة الثقافة والأدب، شيئاً هلامياً؟ إننا نجد الدكتور محمد ولد عبيدي في كتابه (السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية...) يقسم الأنساق المتحركة في الشعر الموريتاني إلى ثلاثة هي:

نسق ديني ويعني به « التكريس النظري والعملية للإسلام في المنطقة »².

نسق ثقافي ويقصد به « التأسيس لنظام معرفي إليه ترجع الذاكرة الجمعية أصول الثقافة الشنقيطية... »³.

¹ - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 66

² - دا محمد ولد عبيدي: السياق والأنساق، دار نينوى، ط:1، سوريا، 2009، ص: 36

³ - نفسه، في نفس الموضع

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نسق اجتماعي ويشير من خلاله إلى «الشكل التصوري لهرمية البناء الاجتماعي...»¹. إن ولد عبدي يحاول أن يجعل من النسق شيئا ملموسا يمكن أن تكون له أبعاد محددة، غير أن فهمه للنسق لا يخلو من السطحية؛ فالنسق يمكن القول: إنه نظام تم التواضع عليه لدى أمة ما سواء على مستوى الدين، أو على مستوى الثقافة، أو على مستوى الاجتماع، أو على مستوى السياسة... وهذا التواضع لم يتم بين عشية وضحاها، وإنما تم عبر أحقاب طويلة تحت رعاية الثقافة وب حمايتها.

ذلك هو فهمي المتواضع لهذا المفهوم المحوري في هذا المشروع المهم - حسب رأيي - لغريلة ثقافتنا وأدبنا ثم لنهضة أمتنا... ولنتجاوز إلى محور ثان مصطلحات مؤسسة:

إذا كنا بصدد نقد ثقافي جاد بديل عن النقد الأدبي أو - على الأقل - مصحح لأخطائه التاريخية، فإنه علينا أن نقوم بنقلة اصطلاحية تسترشد بمنجزات النقد الأدبي لتوجيهها إلى ما ينبغي أن تتوجه إليه، « وهو ينحصر تحديدا في توظيف الأداة النقدية التي كانت أدبية ومعنية بالأدبي الجمالي، توظيفها توظيفا جديدا لتكون أداة في "النقد الثقافي" لا الأدبي، مع التركيز الشديد على عدلية الانتقال وكونه يمس الموضوع والأداة معا، ومن ثم يمس آليات التأويل وطرائق اختيار المادة المدروسة»². ومن هنا فإن علينا أن نعالج في هذا المحور خمسة مصطلحات يمكن أن تكون مؤسسة لهذه النقلة وهي: الدلالة النسقية، والمجاز الكلي، والتورية الثقافية، والجملة الثقافية، والمؤلف المزدوج. **الدلالة النسقية:**

سبق أن ألمحنا إلى نموذج الاتصال الجاكوبسوني وقلنا إن هناك عنصرا سابعا أضافه الدكتور الغذامي لهذا النموذج، وهذا العنصر هو العنصر النسقي الذي تتولد عنه وظيفة نسقية شأنها شأن بقية وظائف الاتصال الأخرى.

1 - نفسه، ص: 38

2 - الغذامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 63

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وبناء على هذا العنصر النسقي يمكننا أن نكشف عن دلالة جديدة في النصوص لم يسبق للنقد الأدبي أن كشفها، وتلك هي الدلالة النسقية؛ « إذ أن ما نعهده من دلالات لغوية لم تعد كافية لكشف ما تخبئه اللغة من مخزون دلالي»¹.

« وإذا ما كانت الدلالة الصريحة مرتبطة بالشرط النحوي ووظيفتها نفعية توصيلية، بينما الدلالة الضمنية ترتبط بالوظيفة الجمالية للغة، فإن الدلالة النسقية ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا»².

المجاز الكلي:

عرفت كتب البلاغة والنقد المجاز كقيمة جمالية ترصع الأسلوب ويزدان بها الكلام، كما عرفته - أيضا - كتب أصول الفقه على نحو غير بعيد من ذلك وإن كان لهدف مختلف هو تجلية مضامين القرآن الكريم. وإلى جانب هذه الكتب وتلك، كانت هناك أبحاث المتكلمين الذين « ألحوا على المجاز، بسبب مجموعة المشاكل الأسلوبية التي أثارها نصوص القرآن والحديث»³.

ويمكننا أن نأخذ تعريفا للمجاز قد لا يكون محل اختلاف عند كل من سبقت الإشارة إليهم؛ هذا التعريف نجده في واحد من أهم كتب البلاغة هو (بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح)، يقول هذا التعريف: « والمجاز مفرد ومركب. أما المفرد فهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته»⁴.

غير أن ما يهمنا - هنا - هو ما نسميه في النقد الثقافي بـ"المجاز الكلي" أو "الشمولي"، وهو - بطبيعة الحال - مقتبس من المفهوم التقليدي للمجاز؛ إلا أنه يقترح توسيعا لهذا المفهوم، فبدلا من أن يكون قاصرا على كلمة واحدة (المجاز المفرد) أو على جملة (المجاز المركب) يقترح النقد الثقافي أن يكون منتظما للنص بكامله؛ ليكون أداة فعالة لكشف "الأنساق المضمرة".

1 - دا الغدامي ودا اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، سابق، ص: 26

2 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 72

3 - دا جابر عصفور: الصورة الفنية، ط: 2، دار التنوير، 1983، بيروت - لبنان، ص: 124

4 - عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح، دار الشبيخة، ج: 3، ص: 78

إن النقد الثقافي يتوسل بالازدواجية التقليدية التي تقرها المؤسسة البلاغية للمجاز؛ ليجعل منها ازدواجية أعمق تمثل ثنائية الخفاء والتجلي في النص أو النصوص؛ بمعنى أن الموضوع يتعلق بـ « مجازات اللغة الكبرى والمضمرة »¹ والتي « يحتاج كشفها إلى حفر في أعماق التكوين النسقي وما تفعله اللغة في ذهنية مستخدميها »²

التورية الثقافية:

« التورية وتسمى الإيضاح أيضا، وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد؛ ويراد البعيد منهما »³. إذن هناك ازدواج دلالي للتورية في عرف البلاغة التقليدية، مثلما هو في المجاز، وهذا شيء مهم بالنسبة للنقد الثقافي الذي يرى أن هناك في أي نص دلالة نسقية مختبئة وراء الداليتين الصريحة والضمنية. ومن هنا فإن مصطلح التورية يمكن أن يلعب دورا مهما في هذا المنحى شريطة أن نقوم بإحراء توسيع له كما فعلنا بالمجاز من قبل، وذلك « ليدل على حال الخطاب؛ إذ ينطوي على بعدين أحدهما مضمّر ولا شعوري، ليس في وعي المؤلف ولا في وعي القارئ. هو مضمّر نسقي ثقافي لم يكتبه كاتب فرد لكنه انوجد عبر عمليات التراكم والتواتر حتى صار عنصرا نسقيا يتلبس الخطاب ورعية الخطاب من مؤلفين وقراء، والكشف المنهجي عنه يتطلب أدوات خاصة تأتي التورية في مقدمتها، لكن بمعنى (التورية الثقافية) »⁴.

الجملة الثقافية:

هناك ترابط وثيق بين الجملة الثقافية والدلالة النسقية؛ إذ أن إحداها تتولد عن الأخرى تماما كما هو الحال بين الدلالة الصريحة والجملة النحوية، أو الدلالة الضمنية والجملة الأدبية؛ إننا في الواقع أمام علاقة جدلية قوية لا يكاد يتبين أي طرفيها أسبق، إلا أننا من خلال إعمال عنصر النسق، وتشغيل الوظيفة النسقية يمكننا أن نكشف عن الجملة الثقافية. وتجدر الإشارة إلى أن « الجملة

1 - دا الغداسي ودا عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، سابق، ص: 28

2 - نفسه في نفس الموضع

3 - عبد المتعال الصعيدي: البغية، سابق، ج: 4، ص: 29

4 - دا الغداسي: النقد الثقافي، سابق، ص: 71

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الثقافية ليست عددا كميا؛ إذ قد نجد جملة ثقافية واحدة في مقابل ألف جملة نحوية؛ أي أن الجملة الثقافية هي دلالة اكتنازية وتعبير مكثف¹، قد توجد في نص واحد من بين نصوص كثيرة.

المؤلف المزدوج:

إذا سلمنا بأن النص هو اجترار وتراكم للنصوص الأخرى التي هي من نوعه، وإذا سلمنا بوجود "النسق" الذي هو تواتر يخلفه الزمن الثقافي عبر أحقاب طويلة، وإذا سلمنا - مرة ثالثة - بأن هذا النسق يحمل في طياته أنساقا مضمرة لا شعورية ليست في وعي كاتبه ولا في وعي قارئه؛ لأنها مناقضة للظاهر والمعلن من هذا الخطاب النسقي، فإن هذا يجعلنا أمام افتراض قوي يتوجب علينا - منهجيا - أن نسلم به، وهو أن لهذا الخطاب النسقي مؤلفا آخر ليس هو كاتبه المباشر أو الضمني وإنما هو الثقافة ذاتها أو ما يمكن تسميته بالمؤلف النسقي؛ «بمعنى أن المؤلف المعهود هو نتاج ثقافي مصبوغ بصبغة الثقافة أولا، ثم إن خطابه يقول من داخله أشياء ليست في وعي المؤلف، ولا هي في وعي الرعية الثقافية، وهذه الأشياء المضمرة تعطي دلالات تتناقض مع معطيات الخطاب سواء ما يقصده المؤلف أو ما هو متروك لاستنتاجات القارئ»².

والآن وبعد هذا الاستعراض السريع لهذه المصطلحات ننتقل إلى المحور الموالي:

زاوية النظر:

لعل السؤال المحوري الذي يمكن القول إنه يختصر زاوية النظر النقد - ثقافية، هو ذلك السؤال الذي طرحه الدكتور الغدامي، والذي يقول: «هل في الأدب شيء آخر غير الأدبية»³، فهو «سؤال مركزي سيظل يحتل الجوهر الفاعل»⁴ في مشروع النقد الثقافي.

حيث يرى الناقد وفق منظور هذا المشروع أن الناقد لا يكفيه فقط «الرجوع بالفن إلى حقيقته الجمالية»¹، وإنما لا بد من تحكيم العقل والمنطق والاستناد إلى القيم الإنسانية النبيلة كالتواضع واحترام الآخر والديمقراطية والعدالة والمساواة...

¹ - دا الغدامي ودا اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، سابق، ص: 28

² - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 75-76

³ - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 13

⁴ - نفسه، ص: 57

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومن هنا فلا بد من المسارعة إلى القول إن حازما القرطاجني - على جلاله قدره في النقد الأدبي - كان واهما وكان خاضعا للتتويم النسقي حينما قال: « قد يكون حذقا للشاعر اقتداره على ترويح الكذب وتمويهه على النفس وإعجالها على التأثر له... »².

إن هذا الناقد الكبير - في مقولته هذه - يبدو مسايرا للتصور الرسمي المؤسساتي للأدب « وهو ذلك التصور السائد عن أن الأدبي هو الخطاب الذي قرره المؤسسة الثقافية حسبما توارثته من مواصفات بلاغية وجمالية، قديمة وحديثة »³.

ذلك التصور الذي يبيح الكذب، والتبجح، والتعالي على الآخرين، واختلاق بطولات زائفة يجب احترامها لا لشيء إلا لأنها قدمت في قالب بلاغي ترضيه المؤسسة على غرار ما نجد عند المتنبي الذي يمكن اعتباره مثالا صارخا في هذا السياق، يمكننا أن نقرأ قوله:

« أي عظيم أنقي == أي مكان أرتقي

وكلما خلق الله وما لم يخلق

مختصر في همتي == كشعة في مفرقي »⁴

ومع منافاة حمولة هذه الأبيات للمعتقد الديني السليم فإنه يمثل نسقا "فحوليا" شائعا في أدبنا العربي قديمه وحديثه، تباركه المؤسسة ويلهج النقاد بتقديس وتمجيد قائله؛ لأنهم رأوه يتوفر على الشروط الجمالية والبلاغية التي توارثوها جيلا بعد جيل حتى استقر في ذهنيته النقدية أنه لا يمكن تقييم العمل الأدبي إلا من خلال النظر في أدبيته التي « تتطلق من النص باعتباره مجتلى أدبيا غايته تحقيق الجمال »⁵.

¹ - نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ط: 1، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1987، ص: 113

² - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأبداء، ت: محمد لحبيب بن الخوجه، دار الكتب الشرقية، ص: 71 - 72

³ دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 57

⁴ - المتنبي: ديوانه، شرح البرقوق، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1979، م: 2، ج: 3، ص: 81

⁵ - دا محمد ولد عبيد: السياق والأنساق، سابق، ص: 15

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وكما يلاحظ الكتور الغدامي فإن الفعل النقدي ظل « يدور حول دوائره النسقية ولم ينتجه إلى كشف عيوب الخطاب، بما في ذلك عيوب المؤسسة النقدية ودورها في ترميط أفعال الاستقبال، والتدوق، والتأويل، وإخضاع فعل القراءة لشروط المؤسسة وأحكامها»¹.
لقد آن الأوان لنقاد الأدب ليوسعوا مفهومهم للأدب أولاً، ثم ليتجهوا بأبصارهم إلى مناطق أخرى غير مناطق الجمال والبلاغة ثانياً.

أولاً: توسيع مفهوم الأدب

هناك خصيصة أساسية تكاد تكون هي الأبرز من بين خصائص الأدب، بما يعتمل فيها من عوامله الفنية المختلفة، وتلك هي تأثيره السحري في نفوس المتلقين، « ذلك التأثير الذي يعد أهم الغايات التي يرمي إليها الفن الأدبي، ويسعى الأدب ما وسعه السعي في سبيل تحقيقها»².
وهذه الخصيصة لاحظتها المؤسسة الثقافية منذ القدم، واستشعرتها - بوضوح - في أسلوب القرآن الكريم، يقول الخطابي: « قلت في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس...»³.
غير أن مؤسستنا الثقافية أعيتها الحيل في أن تجد تفسيراً لهذه الخاصية التي تكاد تميز الأدب إلا في أمرين: بلاغة المقول وفحولة القائل.
لنعد إلى الخطابي - مرة أخرى - ليعل لنا اكتشافه المذهل في أسلوب القرآن، يقول: « والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة...»⁴.
تلك هي "بلاغة المقول" أما "فحولة القائل" فهي التي وقفت بين علماء اللغة وبين الاستشهاد بشعر من كان يعرف في العصر العباسي بالمحدثين (بشار وأبي نواس ودعبل والعتابي...)»⁵.

1 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 59

2 - دا بدوي طبانة: نظرات في أصول الأدب والنقد، عكاظ للنشر والتوزيع، ص: 41

3 - الخطابي وآخرون: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ص: 64

4 - نفسه، ص: 23

5 - الخطابي وآخرون: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سابق، ص: 42

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كما أنها هي التي دفعت شيخنا ابن رشيق إلى التناقض في موقفه إزاء "المخمسات" و"المسمطات"؛ إذ يرفضها ويعتبرها « دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه»¹، ولكنه ما إن يتذكر أن "قحولات شعرية" كبيرة من قبيل امرئ القيس ويشار ارتكبوا هذه الخطيئة حتى يجد نفسه مضطرا إلى تخريجهم من حالة العجز والبحث لهم عن مبررات تحفظ فحولتهم المسبقة².

ويمكن القول إنه للسبب ذاته تم اعتبار (ألف ليلة وليلة) « مما لا يليق إلا بالصبيان والنساء وضعاف النفوس»³، وربما لأن مؤلفها مجهول⁴ في حين لقي كتاب كليله ودمنة ترحيبا حارا ووصف بأنه « ينطوي على الحكمة والعقل»⁵؛ لأن الذي ترجمه من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية فحل من فحول النثر العربي هو ابن المقفع⁶.

من هنا بات من الضروري بمكان القول « إن مصطلح أدبي وأدبية لا بد أن يتحررا من قيد التصور الرسمي المؤسساتي بحيث يعاد النظر في أسئلة الجمالي وشروطه وأنواع الخطابات التي تمثلها»⁷. وبناء عليه هناك أشياء ذات تأثير سحري ولم تعترف بها المؤسسة الثقافية، وبالتالي لم تأخذ مكانها في مفهوم الأدب كالنكتة، والحكاية، والأغنية، والخطابات الإعلامية، وغير ذلك مما له تأثير واسع يجب أن تأخذ مكانها في هذا المفهوم، وتحظى باهتمام ودراسة رجال الأدب والنقد.

ثانيا: الاتجاه إلى مناطق أخرى غير الجمال والبلاغة

توالى الحقب وتعاقبت القرون والنقد الأدبي منشغل بقضايا تتسع طورا وتضيق آخر، إلا أنها - في كل الأحوال - تنبثق من معطى واحد وهو معطى "جمال النص وبلاغته" والذي يقرأ الدكتور جابر عصفور في كتابه (الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) يتضح له ذلك بجلاء؛

1 - القيرواني: العمدة، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1972، ج: 1، ص: 182

2 - نفسه، في نفس الموضع

3 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 58

4 - موسى سليمان: الأدب القصصي عند العرب، ط: 4، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1969، ص: 19

5 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 58

6 - أحمد أمين: ضحى الإسلام، مصر، 1933، ج: 1، ص: 218

7 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 59

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

لنقتبس من عصفور قوله - مثلاً - : « إن أهم إنجاز أدبي لبيئة الفلاسفة يتمثل في أنهم ربطوا الأنواع البلاغية للصورة الفنية بتصوير عام للفن الشعري، باعتباره محاكاة أو تخيلاً¹. وتظل النظرة الشكلية المسيطرة... ويظل الشرط الجمالي مطروحاً ومنظوراً إليه باهتمام حتى عند المنظرين لـ "أدب الالتزام" كما نجد عند الدكتور غنيمي هلال في مقال بعنوان: (الأدب بين الوطنية والعالمية)؛ إذ يخلص إلى القول: « والخاصة الجوهرية للأدب هي التصوير تصوير الأفكار والمشاعر وكلما كان التصوير أدق وأعمق، بلغ العمل الأدبي أكمل صفاته، واستوفى أخص خصائصه². والنقد الثقافي - بطبيعة الحال - لا يلغي الشرط الجمالي ولكن يضع إلى جانبه شرط آخر هو شرط "الجماهيرية"، وهو أن يكون العمل مقروءاً على نطاق واسع؛ « وذلك لكي نرى ما للأنساق من فعل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي³. إن هناك أشياء كثيرة غير مرغوب فيها اجتماعياً وثقافياً وأخلاقياً... تكمن في النص ونذقبلها برحابة صدر؛ لأن ثمة شيئاً مشتركاً بيننا وبينها يرتكز على أسس الجمال ويمر عبر "حيل الثقافة" في عملية تفاعلية بين منتجتي المعرفة ومستهلكيها، وربما أخذت هذه العملية التفاعلية أحقاباً طويلة حتى نضجت واستوت؛ مما جعل النماذج تتكرر باستمرار من طرف "المنتجين" وبتزايد الطلب عليها من قبل "المستهلكين"؛ وذلك هو ما نسميه بالنسق. ولذلك يمكننا القول مع الدكتور الغدامي إننا « كلما رأينا منتوجاً ثقافياً أو نصاً يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمرة؛ الذي لا بد من كشفه والتحرك نحو البحث عنه، فالاستجابة السريعة والواسعة تنبئ عن محرك مضمرة يشبك الأطراف ويؤسس للحبكة النسقية، وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو الحكايات والأمثال، مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنكت⁴.

1 - دا جابر عصفور: الصورة الفنية، سابق، صص 163 - 164

2 - داغنيي هلال: قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، ص: 37

3 - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 78

4 - نفسه، صص: 79 - 80

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومن هنا نجد أسماء لامعة ورموزا كبيرة في الشعر العربي القديم والحديث استهلكت أشعارهم بنهم؛ لأنها تكتنز شحنات نسقية ضخمة، وتسوقها بتقنيات جمالية عالية، وتلك حيلة من "حيل الثقافة" ربما ليست في «وعي المبدع والقارئ»¹.

إننا - جماهير الشعر العربي الحديث - عندما نسمع نزارا قباني يقول:

وكننت مجهولة حتى أتيت أنا == أرمي على صدرك الأفلاك والشهباء²

نصفق له بحرارة، وذلك بفعل النسق فينا لا شعوريا، مع أنه كان حربا بنا - كناس عصريين ديمقراطيين - أن نستهنج هذا القول ونرمي صاحبه بالنعال؛ لأنه ينظر إلى المخلوقات من برج عاجي، وكأنه من سلالة إلهية تخلق وتبدع وتتصرف في الكون...

إنه يحتقر النصف الآخر من المجتمع ويعتبره في خانة المعدم أو المجهول - على الأقل - حتى جاء نزار قباني وأخرجه منها ورصعه بالنجوم... إنه كلام يستحيل أن يصدر من رجل متحضر يعيش في القرن العشرين، ولكنه صدر ونحن قبلناه وصفقنا له بحرارة؛ لماذا؟ لأنه شعري وجمالي ونسقي...

إن هذه المعاني الشعرية الغير ديمقراطية والغير حضارية، قد لا تكون بتلك الأهمية لو ظلت في حيزها الشعري، ولكنها - للأسف - تخرج منه لتشكل ذواتنا وقيمنا دون أن نشعر.

مما سبق يتضح أنه «لا بد من الاتجاه إلى كشف عيوب الجمالي، والإفصاح عن ما هو قبحي في الخطاب، وكما أن لدينا نظريات في الجماليات، فإنه لا بد أن نوجد نظريات في "القبحيات" أي عيوب الجمالي وعقله»³ مما يؤدي إلى كشف "النسق" وفضح "حيل الثقافة"

تلك - باختصار - إشارات سريعة إلى المحاور الأساسية في النظرية والمنهج للنقد الثقافي نرجو أن لا تكون مخلة، ونتمنى أن تثير اهتمام الباحثين، وأن تحرك فضول الدارسين.

¹ - دا الغدامي ودا اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، سابق، ص: 39

² - نزار قباني: الرسم بالكلمات، منشورات نزار قباني، ط: 15، سنة: 1980، ص: 2

³ - دا الغدامي: النقد الثقافي، سابق، ص: 59

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قائمة المصادر والمراجع مرتبة ألفبائياً، حسب المؤلفين:

- 1 - ابن رشيّق القيرواني: العمدة، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1972
- 2 - ابن منظور: لسان العرب
- 3 - أحمد أمين: ضحى الإسلام، مصر، 1933
- 4 - دا بدوي طبانه: نظرات في أصول الأدب والنقد، عكاظ للنشر والتوزيع، د. ت
- 5 - دا جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط: 2، دار التنوير، 1983
- 6 - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ت: محمد لحبيب بن الخوجه، دار الكتب الشرقية، بدون ذكر للمكان ولا للتاريخ
- 7 - الخطابي وآخرون: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر
- 8 - عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، دار الشيخة، د. ت
- 9 - دا عبد الله الغدامي:
- أ - الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب
- ب - النقد الثقافي، ط: 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000
- 10 - دا الغدامي وآخر: نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، دار الفكر، دمشق، 2004
- 11 - دا غنيمي هلال: قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة - القاهرة
- 12 - نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ط: 1، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1987
- 13 - نزار قباني: الرسم بالكلمات، منشورات نزار قباني، ط: 15، 1980
- 14 - المتنبي: الديوان، شرح البرقوق، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1979
- 15 - دا محمد ولد عبيدي: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، دار نينوى، ط: 1، سوريا، 2009
- 16 - دا محمد الأمين ولد الناتي: الثقافة الشنقيطية: مقارنة نسقية، ط: 1، مركز نجيبويه، مصر - القاهرة
- 17 - دا محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، ط: 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996

بناء القصيدة الصوفية في الشعر الموريتاني في القرنين 13/14هـ

(من خلال نصوص مختارة)

المصطفى بن معاً

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

مقدمة:

يسعى هذا المقال إلى العناية بالشعر الصوفي الموريتاني؛ هذا الشعر الذي هجره معظم الدارسين ولم يلتفت إليه إلا القليلون من خلال بضعة أعمال ظلت تهتم أساساً بالسياقات التاريخية والنظرية التي نشأ فيها التصوف ومدارسه كالقادرية والتيجانية والشاذلية والتعريف بأعلامها، بينما تركوا الأدب نسياً منسياً، وهنا نضع السؤال التالي ما مدى التواصل أو التصالح بين التصوف من حيث هو خطاب فكري يهتم بتطهير النفس الإنسانية من أدرانها، وتحليلتها بقيم الفضيلة، وهو ما أوجزه علماء التصوف في ثنائية "التحلية والتخلية" وبين الشعر من حيث هو بنية لغوية له فنياته وأساليبه ورآه الإبداعية؟ أو كيف تتجلى مكونات كل من "التصوف والشعر" في الآخر لخلق ذلك ما يمكن أن يسمى شعراً صوفياً؟

وقد تشكلت مادة هذا المقال من خلال نصوص منتقاة لشعراء موريتانيين هم: الشيخ سيدي المختار الكنتي ت: 1226هـ/1811م، وأبو بن الجار الأنتابي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وبدي بن سيدينا العلوي ت: 1264هـ/1848م، وسيدي محمد بن انبوجه النيشيتي ت: 1275هـ/1858م، والشيخ سيدي الكبير ت: 1284هـ/1867م، والشيخ ماء العينين ت: 1328هـ/1910م، ومحمد يحيى الولاتي ت: 1330هـ/1912م، ولكييد بن جبه اليحيوي ت: 1342هـ/1923م.

(1) أولاً- البناء الفني:

ونعني به ذلك النظام الذي يحكم بناء القصيدة الصوفية الموريتانية هل هو بناء عمودي صرف كأغلب نصوص الشعر الموريتاني؟ أم هو بناء خارج عن نظام العمود الخليلي (موشح - مربع -

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مخمس... إلخ)؟ وبعد عودتنا لمدونة الشعر الصوفي الموريتاني رأينا أن بناء القصيدة الصوفية يحكمه نظامان أساسيان هما:

1.1- القصيدة العمودية الخيلية:

هو النظام الذي يحكم بناء القصيدة العربية من العصر الجاهلي مروراً بصدر الإسلام وما تلاه من عصور الأدب العربي؛ وبعد قراءتنا لبعض نصوص الشعر الصوفي الموريتاني وجدنا هذا البناء يتجلى في الأشكال الآتية:

أ- القصيدة العمودية التقليدية: ونعني بها تلك القصيدة العربية ذات الروي المعهود وعلى نسقه الموسيقي سار معظم الشعر الصوفي الموريتاني، وأمثله كثيرة كما شاهدنا في قصيدة لكبيد بن جبه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عن شمائله:

بَكَ يَا جَمَالَ الْكَوْنِ يَا مَيْمُونَ	مَا كَانَ كَانَ وَمَا يَكُونُ يَكُونُ
فَالْكُونُ أَنْتَ إِمَامُهُ وَأَرْوَمُهُ	وَالْكَائِنَاتُ مِنْ الْأَرْوَمِ غُصُونُ
أَنْوَارُ يَمْنِكَ أَشْرَقَتْ وَلَآئِمُ	فِي طَيِّ أَحْشَاءِ التَّرَابِ كَمُونُ
فِيهَا تَلَقَى مَا تَلَقَى فَاهْتَدَى	إِذْ خَانَهُ الْمَلْعُونُ وَهُوَ خَوْوُنُ
وَبِهَا اهْتَدَى نَوْحٌ فَفَارَ وَمَوْجُهُ	مِثْلُ الْجِبَالِ وَقُلُوبُهُ مَشْحُونُ
وَبِهَا ابْنُ مَتَى أَلْهَمَ التَّسْبِيحَ فِي	ظِلْمَاتِهِ وَبِهَا رَمَاهُ النَّسُونُ ⁽¹⁾

ب- القصيدة العمودية المسوقة أبياتها على ترتيب حروف: (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري - أمين - وعد) مع التزام ما لا يلزم في تائنية الشيخ سيديا ومنها:

رَفَعْتُ إِلَى مَوْلَايَ جَلَّ شَكِيَّتِي	وَأَمَلْتُ تَشْلِي عِنْدَهُ مِنْ بَلِيَّتِي
بَلِيَّتٌ وَهَلْ يَبْلَى مَرِيدٌ بِمِثْلِ مَا	بَلِيَّتٌ بِهِ مِنْ خَبَثِ نَفْسٍ غَوِيَّةِ
إِذَا رَمَتْ قَرِيبَى أَبْطَأَتْ وَتَلَدَّ نَتْ	وَمَا هِيَ فِيمَا تَشْتَهِي بِالْبَطِيَّةِ
شَمَائِلُهَا لَهْوٌ وَنَوْمٌ وَغَفْلَةٌ	وَحَرَصٌ وَتَأْمِيلٌ وَسَوْءٌ طَوِيَّةِ

(1) - لكبيد بن جبه، الديوان جمع وتحقيق: أحمد بن الشايع، تقديم ومراجعة: الخليل النحوي، الشركة الدمامة للطباعة تونس، ط1، 1992، ص: 95-97.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

رأت منقضات الظهر منها خفيفة
حجاب عماها عن شهود مسافات
لذلك أفنت جدها واجتهادها
يكاد رضاها حكم جائر نفسها
صحت من سماء الواردات سماؤها
دعتها دواعيها الكواذب أن قضت
رزيتها فيما تراه مقربا
يري عينها العميا غايتها هدى
وعدت مواطاة الهوى كالمزينة
بسه حجبت عن مشهد الأحدث
ومرغبتها في الفانيات الرديئة
يمحي رضاها حكم عدل القضية
بعصف رياح الهاجسات الرديئة
بإحرازها نعت النفوس الرضية
وما فيه غير البعد أدهى رزية
من أن يدعها للغى لبت وحيث⁽¹⁾

وللشيخ ماء العينين قصيدة مديحية ساقها على ترتيب الحروف الهجائية منها:

أنور لأنوار المعارف ساطع
بلى إن يكن نورا فذا الحق واضح
تلا فتلا تبرا فأيقنت أنه
ثبت له وجهي وقلبي وقلابي
جمال تجلى من جمال يزينه
حبيب به أخفى المحبة ظاهر
خلافته أخفت ظهورا لباطل
دلالة وجدان الولادة دلت
ذرى وذروها إن يروموا صعودها
رقى فرقى يرقى سماء سماءها
زكى وهما يزكو تدل لمرتق
أم البرق من صوب الأحبة لامع
وإن يك برق فالسحابة هامع
تلا من نور الحبيب سواطع
ويثنى ذا الأشواق بدع وبارع
جلي بهاء الحسن للحسن جامع
وأظهرها خاف وللشرك بساخع
وأبدت خفاء الحق للحق خاضع
على الحق مثل الصبح لليل دافع
سموا وما أعلى سماء نرائع
جناسا وعرشا قاب قوسين دانع
وأض لنا مرقى التدلي شرائع⁽²⁾

(1). الشيخ سيدي الكبير، الديوان تحقيق: عبد الله بن إسماعيل بن أبي مدين، (دت)، ص: 69 - 70.

(2) - الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، الديوان، تحقيق: بسام محمد بارود، تقديم: ماء العينين محمد بوي، طبع

على نفقة الدكتور: حسن عباس زكي، 2004، ص: 154 - 157.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ج- القصيدة العمودية التي تبدأ أبياتها بنفس كلمات القوافي: وبمعنى آخر أن كل بيت من هذه القصيدة ينتهي بما بدأ به أولاً، فالكلمات في نهاية الأعجاز هي نفسها الكلمات التي هي بداية الصدور، ومثاله قول الشيخ ماء العينين مبتدئاً كل بيت باسم من أسماء الجلالة بصيغة المنادى الدالة على الطلب:

أَيَا (رَافِع) ارفعني بعلم وبالتقى	وعني ظلماً فارفعنه أَرَفِعُ
وَيَا (وَاسِع) وَسَّعْ لَنَا الرِّزْقَ كُلَّهُ	وَوَسَّعْ صُدُورَنَا بِالْعُلُومِ أَوَاسِعِ
وَيَا (جَامِع) اجمعني مَعَ الْأَهْلِ كُلِّهِمْ	وَلِي فَاجْمَعْ الْخَيْرَاتِ كُلَّ أَجَامِعِ
وَيَا (مَانِع) امنعنا مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ	وَمِنْ كُلِّ أَعْدَاءٍ وَضَرٍّ أَمَانِعِ
وَيَا (نَافِع) انفعني بِعَمْرِي وَالْوَرَى	وَلِلْخَلْقِ فَاجْعَلْني نَفْعاً أَنْفَاعِ
وَيَا (دَافِع) فَادْفَعْ عِدَانَا وَضَرَّهُمْ	وَعَنَا شُرُوراً فَادْفَعْهَا أَدَافِعِ
وَيَا (سَامِع) فَاسْمَعْ دَعَائِي أَجِبْ لَهُ	وَقُولِي مَسْمُوعاً يَكُونُ أَسَامِعِ ⁽¹⁾

ويندرج في نفس البناء قول لكبيد بن جبه التندغي:

(نَدَائِي) مَا سَمِعْتَ وَمِنْ (نَدَائِي)	(دَعَائِي) فَاسْتَجِبْ كَرَمًا (دَعَائِي)
(دَائِي) قَدْ دَعَوْتُكَ فَلْتَجِدْ لِي	بِعَافِيَةٍ فَلَا يَدْلِي بِـ (دَائِي)
(دَوَائِي) أَنْتَ تَعْلَمُهُ وَمَنْ ذَا	سِوَى الرَّحْمَنِ يَعْلَمُ مَا (دَوَائِي)
(شَفَائِي) فِي يَدِيكَ بَلَا عِلَاجِ	وَأَرْجُو أَنْ تَعْجَلَ لِي (شَفَائِي)
(رَجَائِي) لَمْ يَزَلْ حَسَنًا كَظَنِّي	فَلَا خَابَ الظَّنُّونَ وَلَا (كَفَسَائِي)
(مَسَائِي) وَالصَّبَاحُ لَكَ التَّحَايَا	وَأَدْعُو فِي الصَّبَاحِ وَفِي الـ (مَسَائِي)
(ثَنَائِي) بَلَّغْنَاهُ إِلَى الْمُقَفَّى	فَلَا أَنْفَكَ أَمْنَحُهُ (ثَنَائِي) ⁽²⁾

(¹) - نفسه، ص: 284.

(²) . ديوان لكبيد بن جبه اليحيوي التندغي، مصدر سابق، ص: 21- 22.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

د- القصيدة العمودية المزدوجة: ونعني بها القصيدة التي تلتزم روبا موحدا في نهاية كل من الصدر والعجز، فيكون من ذلك قصيدتان متوازيتان كما في القصيدة التالية لـ أبو بن الجار الأنتابي:

أيا حلِيمَا يَا كَرِيمَا لَمْ يَزَلْ	أَنْتَ الْمُزَجَّى رَبَّنَا أَنْتَ الْأَمَلُ
أَرْحُ إِلَهِي عَنْ مُرَجِّبِكَ الْعَالِ	وَارزُقُهُ مِنْ كَوْنِكَ الْعَذْبِ النَّهْلُ
وَالْخُورَ وَالْحَلِيَّ الثَّمِينِ وَالْحَالِ	وَالنُّورَ وَالظِّلَّ الَّذِي لَا يَنْتَقِلُ
وَنِعْمَةً لَا تَنْقُضِي وَلَا تَقْلُ	وَاهْدِ السُّرَّارِي رَبَّنَا وَلَا تَكِلْ
إِلَى الْنفُوسِ فَعَلَيْكَ الْمُتَّكِلُ	وَاخْتِمْ لِمَنْ بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْوَجَلِ
بِأَحْسَنِ الْخِتَمِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ	وَالطَّفَ بِهِ إِذَا بِهِ الْمَوْتُ نَزَلَ
بِجَاهِ مَنْ لَبَّى وَطَافَ وَابْتَهَلَ	وَاجْتَنَبَ النَّهْيَ وَلِلْأَمْرِ امْتَثَلَ ⁽¹⁾ .

ويقول ابن انبوجه من قصيدة له:

يَا عَالِمَا بِحَالَتِي فِي عَدَمِي	وَأَنْتَ سَوْفَ تَنْزِلُ قَدَمِي
أَوْجَدْتُ أَصْلِي بِوَجْهِ أَدَمِ	ثُمَّ لِنُظْفَةِ إِلَى طُورِ دَمِ
لَطُورِ مَضْغَةٍ لَطُورِ الْأَعْظَمِ	ثُمَّ كَسَوْتُ أَعْظَمِي مِنْ أَلْحَمِ
وَمَنْتَنِي فِي ظِلْمَاتِ الرَّحِمِ	بِنَعْمِ مَوْصُولَةٍ بِنَعَمِ ⁽²⁾

ويتضح أن القصائد التي يحكمها هذا النظام صيغت في الغالب على بحر الرجز، مما جعل بعض الشعراء يلجأ إلى هذا البناء ليزيد من غنائية القصيدة، وليخفف من رتابتها الموسيقية، إضافة إلى أنها كثيرا ما تكون في الدعاء والتضرع.

(1). أبو بن الجار الأنتابي، الديوان، جمع وتحقيق: الخراشي بن محمد أحمد، رسالة الإجازة (مرقونة) بكلية الآداب بجامعة نواكشوط، السنة (2003/2004)، ص: 29-30.

(2). سيدي عبد الله بن انبوجه، ضالة الأديب ترجمة وديوان سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجه العلوي النشيطي، تحقيق ودراسة الدكتور: أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - (1417هـ/1996)، ص: 234.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

هـ- القصيدة العمودية الدائرية: ويتجلى هذا البناء في منحيين بارزين هما:
أ- القصيدة التي ينسج منها عدة نصوص في بحور مختلفة: كما في دالية الشيخ سيدي الكبير في مدح شيخه سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي التي ينسج منها ثلاث قصائد؛ حيث تجمع الكلمات الأولى من صدور الأبيات التي تحتها خط فيتكون من ذلك قصيدة ثانية على بحر المديد، بينما تجمع الكلمات الأولى المكبرة من عجز كل بيت، فيأتي من ذلك قصيدة ثالثة من بحر البسيط؛ يقول في القصيدة الأولى (سرد المساحة):

طلعت بيزجك للبرية أسعد	أيام جاد بك الزمان الأجود
مزن الندي بسماء كفك لم يزل	يروى الظما منها الرواء المرد
وظفنا لطائفة الرسوب على مطا	بحر به لك طوفوا ما يقصد
فهمت مخاطبة النفوس لمن بها	جثموا لديك خطاب من يتودد
للمجدي من غمر فائضه لهى	تعجيل واسل جزلها لا ينفد
طرفا يزاحم في الحصول سماحة	إبرازها ممن جذاها الموعود
شربت شوارع وردها من مورد	لم يحكه البحر الخضم المزيد
من لجة أمدادها وفيوضها	نعم عطاء مفيضها متبدد ⁽¹⁾

والبيت الأول من القصيدة الثانية (سرد الأوائل):

طلعت مزن الندي وظفنا	فهمت المجتدي طرفنا
----------------------	--------------------

أما البيت الأول من القصيدة الثالثة (سرد الأواسط):

أيام يروي الظما بحر به جثمو	تعجيل إبرازها لم يحكه نعم
-----------------------------	---------------------------

(1) - ديوان الشيخ سيدي، مصدر سابق، ص: 92-98.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ب- القصيدة التي تقرأ أفقياً وعمودياً: أو بعبارة الدكتور: محمد الظريف «نقرأ من كل جهة عرضاً وطولاً.. فتصنعوا في صياغتها وأسرفوا في اختيار ألفاظها وتعبيرها حتى ظهر التكلف على بعضها، ومن النماذج المعبرة على ذلك قول الشيخ ماء العينين في التعبير عن بعض أحواله⁽¹⁾»:

ممن غرام يا تمام	كل عام بك، ظام
بك ظام ممن غرام	يا تمام كل عام
كل عام بك ظام	ممن غرام يا تمام
يا تمام كل عام	بك ظام ممن غرام ⁽²⁾

يقول محمد الظريف: «وهي تعكس بهذا البناء الفسيفسائي تصنع صاحبها وتكلفه في التعامل مع اللغة، غير أن هذا التكلف لا يهدف إلى إبراز مقدرة الشيخ ماء العينين اللغوية، وإنما هو شكل من أشكال التعبير الفنية التي ترمي إلى تقديم المعاني الصوفية في شكل بديع يلائم سموها وجلالها وجمالها»⁽³⁾.

1.2- القصيدة الموشحة:

ويدخل في هذا البناء مجموعة من الأشكال الشعرية الصوفية التي تحيد في بنائها العام عن جادة الطريق التي عبدها الشعراء العرب بدءاً من العصر الجاهلي إلى اليوم كما وصفه الخليل بن أحمد الفراهيدي في ميزانه الشعري؛ سواء كان هذا البناء موشحاً أو مربعا أو مخمساً، تنادياً للخلاف في تصنيفها، ومن ذلك ما يلي:

(1) - الدكتور: محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، مؤسسة الشيخ مريبه ربه لإحياء التراث، والتبادل الثقافي، ط1، 2003، ص: 294.

(2) - نفسه، ونفس الصفحة.

(3) - نفسه، ونفس الصفحة.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أ- القصيدة المربعة: ويدخل في هذا البناء قول الشيخ سيدي المختار الكنتي (1):

أهــلا بشـهر المولـد	شـهر النبـي الأمـجـد
أتـى بسـعد الأسـعد	خـير السـورى محـمـد
بشـرى هنيئـا يا ربيـع	قـد خصـاك المولى الرفيـع
بالمصـطفى نـعم الشـفيـع	الهـاشمـي محـمـد
فـي ليلـة الاثـنيـن لـاح	بـدر الهـدى نور الفـلاـح
يـهـدي إلـى دار النـجـاح	أكـرم بـه مـن مـهـتـدي
وقـد رووا لاثـني عـشـر	خـلت مـن الشـهر الأخر
تـاج العـلا وجـه القـمـر	صـلوا علـى محـمـد (2)

ويسير في نفس البناء قول محمدي بن سيدنا العلوي ومنها:

يا ربنا صلّ علـى	خـير الأنام مـن علـى
علـى السـماوات العلـى	بـإذن ربّه العلـى
تهنئـة الزبيـع	بمدحـة الشـفيـع
بـالمنطق البـديع	أبغـى بـهـا مـؤمـلي
أهـلا بشـهر المولـد	شـهر العلـى والسـؤدد

(1) - ومن المعلوم أن أول شاعر موريتاني اخترع هذا البناء الشعري هو العلامة المتصوف محمد سعيد اليداني المتوفى سنة 1166هـ، في قصيدته المشهورة (صلاة ربي)، ومنها:

صـلاة ربّي	مـع السـلام
علـى حبيبـي	خـير الأنام
بـادي الشـفوف	دانـي القـطوف
بـر عـطوف	ليـث همـام

أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الشركة الدولية للطباعة، ط6، (1429-2008)، ص: 226-229.

(2) - الشيخ سيدي المختار الكنتي، الديوان (مخطوط شخصي)، ص: 104-105.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

شهر النبي أحمد شهر ربيع الأول⁽¹⁾

وتبعهم في هذا المنحى الشيخ ماء العينين في قصيدته التي منها:

يا ربَّ منك ذي الحياة	ومنك ربي ذي الممسات
فَجَبَّنا مِنْ كربات	هـذي الحياة والممسات
وَكُنْ لنا وَالْوَائِينَ	والبنات والبنين
وَإِخْوَتِي فِي الْجَانِبِينَ	في ذي الحياة والممسات
وعافنا مِنْ كُلِّ مَا	يضرنا مرتسما
أَوْ يُوْذِنَا وَلَوْ سَلَّما	في ذي الحياة والممسات
وَقَلَّوْ رَبُّ نَصْرَتِي	وَقَلَّوْ رَبُّ نَصْرَتِي
كُنْ لِي وَكُنْ لِحُضْرَتِي	في ذي الحياة والممسات ⁽²⁾

ويسير في نفس البناء قصيدة محمد يحيى الولاتي مريعا بها قصيدة لإبراهيم الرياحي في مدح الشيخ أحمد التجاني؛ إذ يقول:

أَقُولُ لِلخَلِّ بِيغِي الْفَوْزَ بِالْأَسْرِ	وَالْأَمْنَ مِنْ شَرِّ وَسْوَاسٍ وَخَنَاسِ
صَاحِ أَرْكَبِ الْعِزَّمَ لَا تَخْلُدْ إِلَى الْيَاسِ	وَاصْحَبْ أَخَا الْحِزْمِ ذَا جَدٍّ إِلَى فَنَاسِ
وَالْزَمْ مَجَالِسَهُمْ وَاحْفَظْ نَفَائِسَ مِنْ	بَدْرِ هَتَاكَ بِمَدَا يَسْقِي الرِّهَاقَ بِمَنْ
وَأَقْرِ السَّلَامَ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ مِنْ	حَيْرَانَ تَلْفِظُهُ نَاسٌ إِلَى نَاسِ ⁽³⁾

ب- القصيدة الخمسة: ويدخل في هذا البناء قصيدة محمد يحيى الولاتي التي يهجو فيها بعض

الروافض الشيعيين الذين يجيزون الطعن في الصحابة رضوان الله عليهم ومنها:

أيا قاصدا بطحاء طيبة تجتدي فضائل آثار النبي تجتدي

(1) الدكتور: محمد المختار ولد أبياد، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان بالرباط، ط2، (1424هـ/2003)، ص: 177-181.

(2) - ديوان الشيخ ماء العينين، مصدر سابق، ص: 269-271.

(3) - محمد يحيى الولاتي، الديوان، جمع وتحقيق: الساس ولد أب، رسالة (مرقونة) بالدراسة العليا للأساتذة

والمفتشين 1984، ص: 64-67.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

عليك بغض الطرف في كل مشهد
وَحَسَنَ بَجِيرَانِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
ظُنُونُكَ وَاثْرُكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ بَحْثًا
لَهُمْ ذِمَّةٌ مِنْهَا يَهَابُ جَنَابُهُمْ
يَغِيرُهُ وَالْغَضُّ مِنْهُمْ وَعَابُهُمْ
وَمَنْ أَغْضَبَ الْأَشْبَالَ فَلْيَتَّقِ اللَّيْثَ^(١).

ج- القصيدة الشعبية: ونعني بها النص الجاري على نمط القصيدة الشعبية التي يتصدرها "الكاف" فتتوالى "اطلع" بعده مشكلة بذلك قصيدة طويلة النفس؛ كما في القصيدة التالية للشيخ سيدي الكبير في مدح شيخه:

يَا مَنْ طَوَى طَوَيْتُمْ	مِنْ شَاحِبِ صَفْرِ الْيَدِ
مَا قَلْبُ قَدْ قَضَيْتُمْ	لَكَ نَهْ كَأَنْ قَدْ
أَرَى الرِّضَى عَنْ ذِي الرِّضَى	وَكُلَّ خَلْقٍ مَرْتَضَى
قَدْ نَبِيذًا وَارْتَضَا	قَبْلَ غَدٍ أَوْ فِي غَدٍ
إِذَا الْقَضَا قَدْ انْقَضَى	عَنْ أَسْوَدٍ وَأَسْوَدٍ
إِذَا الْقَضَاءُ قَدْ نَفَذَ	وَإِنْ يَقْدِرَ لِمَنْ يَفْذُ
وَجَدَّ سِيرَ بِالْمَجْدِ	مُؤَبَّدًا وَمَغْتَدِ
أَرَى الضَّجْجَ قَدْ أَفْذَ	عَلَى ثَرَى لَخْدِ نَدِي
تَعَوُّدًا وَيَسْمَلُوا	وَكَبَّرُوا وَهَيَّأُوا
وَحَوْقًا وَحَسْبًا	وَمَدُّوا كُلَّ يَدِ
وَاسْمُ تَمَطَّرُوا وَاسْمُ تَنْزَلُوا	لَطْفَ الْكَرِيمِ السَّيِّدِ ^(٢) .

(١). نفسه، ص: 58.

(٢). ديوان الشيخ سيدي، مصدر سابق، ص: 265 - 268.

(2) ثانيا-الأغراض الصوفية في الشعر الموريتاني، ونوجزها فيما يأتي:

1. المدحة النبوية: حيث يأتي الشاعر بعدة وحدات دلالية متسلسلة تمثل في جوهرها صواب هذا المديح؛ بدءا بالمقدمة الطللية ثم يصف الشاعر الناقة التي يستعين بها في الوصول إلى الممدوح مستحثا إياها على السير بسرعة فائقة، ثم يخلص الشاعر إلى المدح الذي هو غرض القصيدة، وإذا كانت القصيدة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الشاعر يتدرج فيه بذكر الغزوات أولا والصحابة ثانيا مروراً بالبيت ثم التوسل على أن يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة قصائد المدحة النبوية: رائية بدي بن سيدنا العلوي التي مطلعها:

لَمَنِ الدِّيارُ بِساحِلِ الأنهارِ	أَقْوِينَ مَذْحِقِبٍ وَمُذْ أَعْصارِ
أَتَغْزِلَا حَوَّلَ الحمى وَصَبَابَةَ	والشَّيْبِ لَاحَ بِمُفْرَقِي وَعِذارِ
إِنَّ أَمْرُؤًا والأَرْبعُونَ تُظِلُّهُ	لَمْ يَنْزَجِرْ لَعَلَى شَقًّا وخِصارِ
يا لِلإلهِ وَكُلِّ عَبدٍ صالحِ	مِنْ مَكْرٍ نَفْسٍ قَادِمًا لِلنَّارِ
مَتَشَبِّثًا مِنْهَا بِحَقِّ المِصْطَفَى	مُتَخَيِّزًا مِنْهَا إِلَى المَخْتارِ
اعكُفْ عَلَى أَمْرِ الإلهِ وَنَهْيِهِ	سَلِّمْ وَلَا تَعْتَبْ عَلَى الأَقْدارِ
واعْمَلْ لِيَرْحَ النَفْسِ واتركْ حَظَّهَا	واعْمَلْ بأَرْبَعَةٍ تَعْنُكَ خِيارِ
سَهَرَّ عَلَى جُوعٍ وَصَمَتَ دائِمَ	وبِعِزَّةٍ تَهْأَكُ عَنْ إضْرارِ
وكذاك حُبُّ المِصْطَفَى أَشْجَرْتَهُ	قَلْبِي وَحُبُّ القُومِ كانَ دُثارِ

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويسير في نفس البناء همزية لكبيد التي مطلعها:

للدَّارِ بَعْدَ اغْتِبَاطِ الْحَالِ إِقْوَاءُ
لكنما الشَّيْبُ يَنْهَى أَنْ يَصَاحَ لَهَا
أَنْبَ إِلَى اللَّهِ وَارْجُ الْعَفْوَ مِنْهُ وَخَفْ
طَه النُّهَوْضَ بِأَعْبَاءِ الشُّفَاعَةِ إِذْ
فَاقَتْ جَمِيعَ الْبَرَايَا مِنْهُ أَرْبَعَةٌ
أَسْرَى مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فَكَانَ لَهُ
أَدْنَى فَأَوْحَى الَّذِي أَوْحَى لَهُ فَلَهُ
آيَاتِهِ الْغُرُّ عَزَّتْ رَفْعَةً وَسَنَى

ولليالي على الأطلال إخناء
فالشَّيْبُ عَنْ دَاعِيَاتِ الْغَيِّ نَهَاءُ
فَذُو الْإِنَابَةِ خَوَافَتْ وَرَجَاءُ
مَا نَاءَ عَنْهَا بِأَهْلِ الْعِزِّ أَعْبَاءُ
خُلِقَ وَخُلِقَ وَأَفْعَالٌ وَأَسْمَاءُ
بِالْعَبْدِ فَوْقَ الطَّبَاقِ السَّبْعِ إِسْرَاءُ
بِقَابِ قَوْسَيْنِ إِدْنَاءُ وَإِحْيَاءُ
وَلَا يَحِيطُ بِهَا نَقْلٌ وَإِمْلَاءُ

وهذا الشيخ ماء العينين يسير على نفس المنحى في رأيته قائلا:

بِالْوِاسِعَاتِ أَرَى الْأَشْوَاقَ تَنْهَمِرُ
مِنْ ذِكْرِ غَانِيَةٍ تَسْبِي بِفَاتِرَةِ
طَرِيقَةِ الْمَصْطَفَى بِالْمَصْطَفَى اصْطَفِيَتْ
جَمُّ فَضَائِلُهُ جَهْرُ فَرَائِضُهُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ مَنْ دَنَا لَهُ دَعَا
طِيبَ عَنَاصِرِهِ، طِيبَ مَعَاصِرِهِ
بِهِ الْوُدُّ مَلَأَ مَنْ لَهُ فَطِرَتْ
وَمِنْهُ أَرْجُو كَمَالَ مَقْصِدٍ فَتَرَتْ
عَلَيْهِ مَنْي الَّذِي يَنْهَى الصَّلَاةَ كَمَا

مِنْ وَاسِعَاتِ صُدُورِ الشُّوقِ تَنْفَجِرُ
تُضْنِي بِبَارِقَةِ تَشْفِي وَتَقْفِرُ
ذَاكَ اصْطِفَاءً لَهُ قَدْ صَوَّرَتْ صُورُ
حُمْتُ مَفَاخِرُهُ، وَالْغَيْرُ مَا افْتَخَرُ
رَوَاحِهِ زَائِرٍ يَغْدُو وَيَبْتَكَرُ
ظَفَرُ مَظَاهِرِهِ عِدَاهُ تُحْتَقِرُ
ذُنُوبِهِ رُوحَهُ وَالْقَلْبُ يَنْفَطِرُ
أَعْمَالُنَا عَنْهُ وَالْأَطْمَاعُ مَا فَتَرُوا
أَنْهَى الَّذِي هُوَ لَا فَرْدٌ وَلَا زَمَرُ

نستنتج من هذا أن قصيدة المديح النبوي تقارب شعرائنا في بنائها الفني مع تغيير طفيف في طريقة ترتيب عناصرها الداخلية، إذ تبدأ عندهم غالبا بمقدمة طلية مروراً بحديث الشيب والبكاء على العمر الضائع ثم الخلوص إلى المديح الذي يستغرق الكم الأكبر من النص، بما يتخلله من علامات النبوة، ومعجزاته وشمائله الشريفة، والتوسل بجاهه العظيم، والدعاء، فالختم بالصلاة على

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

النبي صلى الله عليه وسلم، ويبقى ترتيب هذه العناصر بين المقدمة والخاتمة هي محل الإبداع والخصوصية الفردية لشاعر ما، فربما أطال الشاعر في فكرة معينة وأوجز القول في أخرى.

2. المدحة الصوفية:

وهي القصيدة التي قيلت في مدح شيخ الطريقة الصوفية، فهي كسابقتها تبدأ بمقدمة طاللية مروراً بالتوسل بالشيخ الممدوح وذكر خصاله والحديث عن مكانته العلمية والثقافية وما يتميز به من الاستقامة في السلوك والعمل، ولا يلتزم في نهايتها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتتفرد مدائح الشيخ سيدي بالوقوف عند بعض كرامات شيوخه، والخروج على المقدمة الطاللية ما عدا القصيدة التالية:

تسخر بدمع على الخدين منسكب كأن مقاتك المرهءاء من أرق أن شمت بارقة من نحو ذي عشر يسقيك شرخ الشباب في محافلها وراودتلك إلى الدنيا لرغبتها شاهدت كل الذي ترى الشهود له إلى المراد المربي الشيخ سيدنا ذاك الذي فيضان البحر مقتبس من كان تهذيبه زيف النفوس لها أغث ندائي وتغويثي على عجل وواسني باعتناء منك ينقذني إني مريضك يا طب القلوب فلا صلى عليه صلاة لا نفاذ لها	وزفرة من حشا حيزوم منتحب مقامة من نجوم الليل، في حسب حيث التقت بالروابي طلبة الحذب بين اللدين كؤوس الوجع والطرب فيما تعود من جزص ومن رغب في عين مشهده كأغيب الأغيب محمد بفنون العلم والأدب من قلب به للحق منقلب طهرا بمنزلة التطهير للجذب وانظر إلي بعين عاطف حذب بالجذب من هذه الوهدان والجوب تترك مريضك يشكو شدة الوصب من حاط بأنته بالسم والقضب
--	--

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

3. قصائد الدعاء والتضرع: من ذلك على سبيل المثال القصيدة التالية للشاعر بدوي بن سيدينا العلوي التي نورد منها ما يلي:

إِنِّي لِبَابِكَ رَبِّي أَقْرَعُ	مُسْتَشْفِعًا بِمَحْمَدٍ أَتَضَرَّعُ
صلى عليه الله ما فضل الوري	وغدا جمى يأوي له مَنْ يَقْرَعُ
يا حيُّ يا قيومُ عَبْدُكَ وَأَقِيفُ	بالباب تبصر ما أراد وتسمعُ
فاغفر له فالموبقات صغيرة	في جنب عفوك واستر ما يصنعُ
أصلح برحمتك التي عمت شؤو	ني كلها فليربأ المتصدعُ
ولتجمع الشمل المبدد جابرا	كسري به جبرا وخرقي يرقعُ
كن لي وليا يا ولي وناصر	ومدبرا ومدافعا ما يدفعُ
يا رب حققني بأوصافي عسى	بصفائك الحسنى صفاني تدفعُ
ثم الصلاة على النبي وآله	خير الأنام ومن به أستشفع ⁽¹⁾

ويقول لكبيد بن جبه:

دعوتك لما ضاق صدري من وزري	لتغفر لي وزري وتشرح لي صدري
أجب لي دعائي فيه وأقبل ثناءه	وخلصه لي مما بإخلاصه يزري
إلهي أوزعني أن أعمل صالحا	لترضى وثبتني على الذكر والشكر
وأسالك الترفيق واللطف والرضا	عن الله والتسليم في اليسر والعسر
وبالأمن جذلي ما حبيت من الأذى	وبالأمن عند الموت والأمن في القبر
وأمننا إذا أثقالها الأرض أخرجت	وأمننا لدى الأهوال في موقف الحشر
بجباه المصطفى من علت به	على كل ذي مجد وفخر بنو قهر
عليه من أنواع الصلاة أتمها	وأكمل أنواع السلام مدى الدهر ⁽²⁾

(1). بدوي بن سيدينا، الديوان، تعليق ومراجعة: محمد بن بشار بن الطلبة، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، (1434هـ/2013م)، ص: 85-87.

(2). ديوان لكبيد بن جبه، مصدر سابق، ص: 47.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نلاحظ في هذا السياق أن قصائد الدعاء والتضرع تحيل في بنائها على جملة من الآيات القرآنية والأدعية المأثورة (إلهي أوزعني أن اعمل صالحا. أسألك التوفيق واللفظ والرضا - وأخرجت الأرض أنقالها)، بيد أنها لا تشتمل على أي مقدمات ولكن الخاتمة تكثر فيها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدتي ابن سيدنا وكبيد شاهدين على ذلك.

4. التوسل: وهو موضوع رئيسي من موضوعات الشعر الصوفي له حضور بارز في نصوص شعرائنا كقول الشيخ سيدي المختار الكنتي:

أَمِنْ سَرَّةِ نَحْوِ الْمُحِبِّينَ قَدْ يَسْرِي تَرْفُقُ بِنَا وَلِتَبْدِلِ الْعَسْرَ بِالْيَسْرِ
فَقَدْ غَوَّ مَعَ التَّفْوِيزِ رَيْنَا بِحَالِنَا عَلِيمٌ وَلَا نَشْرِي السَّلَامَةَ بِالْخَسْرِ
إِلَيْهِ رَفَعْتُ فِائِقَتِي وَخِصَاصَتِي وَفَقْرِي وَإِفْلَاسِي فَبَوَّلَيْتُهُ خَبْرِي
وَلِلرَّسْلِ فَضْلٌ رَتَبْنِ عَلَيْهِم وَلَيْسَ يَدَانِيهِمْ سِوَى النَّقْرِ الْغُرِي
وَتَمَّ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ عَلَى أَحْمَدَ الْمُخْتَارِ مِنْ خَيْرِ مَعَشِرِ⁽¹⁾

ويقول محمد يحيى الولاتي متوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته الكرام:

مَا لَأَمْرِي مِثْلِي كَثِيرِ الْعَابِ إِلَّا اللَّجَاءُ لَرَيْنَا الثَّوَابِ
مَتَوَسِّلًا بِنَبِيِّهِ وَبِآلِهِ وَبِجَمْلَةِ الْأَصْحَابِ وَالْأَحْزَابِ
بِمُحَمَّدٍ أَصْلِ الْهُدَى عَيْنِ الْهُدَى نَوْرِ الْهُدَى لِشَرِيعَةِ الْوَهَابِ
وَبِفَاطِمَةَ وَرَقِيَّةَ وَبِزَيْنَبِ وَبِأَمِّ كَلْثُومٍ وَبِالْأَعْقَابِ
وَبِنْجَالِهِ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ بِقَاسِمِ وَبِطَيْبِ وَبِطَاهِرِ الْأَحْسَابِ
يَسَّرْ لَنَا مَبْرُورَ حَاجٍّ عَاجِلًا مَعَ عُمْسَرَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَتَابِ
وَالْفُورَ بِالْمَأْمُولِ فِي الدُّنْيَا وَفِي دَارِ النِّعَمِ بِحُورِهَا الْأَتْرَابِ
ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ مَا فَاءَ ذُو نَطْقٍ بِقَوْلِ صَوَابِ⁽²⁾.

(1). ديوان الشيخ سيدي المختار الكنتي، ص: 33-46.

(2). ديوان الشيخ محمد يحيى الولاتي، مصدر سابق، ص: 55-56.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يبدو من خلال عرض المقاطع الآتية أن قصائد التوسل تشارك نصوص الدعاء في مباشرة دخول غرضها الأساس دون اللجوء إلى مقدمات مع الختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها نلاحظ قوة توجه الشاعر إلى المتوسل به، وشدة إظهار فاقته إليه، وكثيرا ما يستخدم لذلك صيغة الجملة الفعلية لدالتها على الطلب: (ليصلح الله شأني وأن يثبتني وأن يطهر قلبي وأن ييسر وأن يبارك، فندعو مع التقويض إليه رفعت فاقتي وأسألك اللهم)، مع الاستعانة بأدوات الربط: (الواو الفاء ثم) وذلك لتخلق من فضاء القصيدة نصا محكم البناء.

5. الزيارة: ومن أهم النصوص التي تدخل في هذا الغرض زيارة بدي بن سيدنا العلوي لقبر شيخه

محمد الحافظ رائد الحافظية التجانية:

يرقى إليه مسند حافظ	يا روضة في بطنها عارف
فالقلب من تذكره نائظ	نقش اسمه أذكرني ذات
يرعب من هيئته اللاجظ	ذات عليها نورها لائح
صاحبها من حبه فائظ	ذات منيية إلى ربه
وممسيا ما أسمع اللاقظ ⁽¹⁾	عليه من ربي الرضى مبكرا

وللشيخ سيدي من قصيدة له في زيارة ضريح الشيخ سيدي المختار الكنتي؛ إذ يقول:

أسيدنا المختار يا من وفاته	حياة ومحياه الكريم وفاء
أغثنا أغثنا فالقطيعة مزقت	قلوبنا أفلا ذهن شتات
حنانيك يا شيخ الشيوخ فإننا	لدى بابك المفتوح أسرى عفاء
وفاض علينا بالرواء غطمطم	فيوض به الأمواج ملتطمات
أمد من البحر اللدني مدة	على أمة الهادي لها دفقات ⁽²⁾

(1). ديوان الشيخ سيدي المختار الكنتي، مصدر سابق، ص: 84.

(2). ديوان الشيخ سيدي الكبير، مصدر سابق، ص: 66-68.

وفي النهاية نخلص في مقاربة هذه النصوص إلى أن القصيدة الصوفية الموريتانية تجلى بناؤها العام في نوعين رئيسيين هما:

أ- القصيدة العمودية التقليدية: بما في ذلك القصيدة المسوقة على ترتيب أحرف قوله تعالى: «ادعوني أستجب لكم» كما في قصيدة الشيخ سيدي المختار الكنتي، أو المرتبة على «حروف: « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري» كما في قصيدة الشيخ سيدي الكبير، أو المبنية على ترتيب الحروف الهجائية كما في عينية الشيخ ماء العينين، هذا بالإضافة إلى عدة أشكال أخرى يجدها القارئ في محلها من هذا البحث.

ب- القصيدة الموشحة: ويدخل في هذا البناء عدة أشكال شعرية، ومنها: مربعتي الشيخ سيدي المختار الكنتي، وبدي بن سيدنا العلوي في المديح النبوي، ومربعة الشيخ ماء العينين في التوسل، ومربعة محمد يحيى الولاتي في مدح الشيخ سيدي أحمد التجاني، ومخمسة واحدة لمحمد يحيى الولاتي التي يهجو فيها بعض الروافض الشيعة الذين يجيزون الطعن في الصحابة رضوان الله عليهم، وقصيدة شعبية مبنية على نمط بناء (الطلعة) في الشعر الحساني كما في قصيدة للشيخ سيديا الكبير.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المصادر والمراجع:

1. أبو بن الجار الأنتابي، الديوان، جمع وتحقيق: الخراشي بن محمد أحمد، رسالة الإجازة (مرقونة) بكلية الآداب جامعة نواكشوط، السنة (2003/2004).
2. أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الشركة الدولية للطباعة، ط6، (1429هـ/2008م).
3. بدي بن سيدنا العلوي، الديوان، تعليق ومراجعة: محمد بن بتار بن الطلبة، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، (1434هـ/2013م).
4. الدكتور: محمد الظريف، الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، منشورات مؤسسة امريه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط1، 2003.
5. الدكتور: محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان بالرباط، ط2، (1424هـ/2003).
6. سيدي عبد الله بن أنبوجه، ضالة الأديب ترجمة وديوان سيدي محمد بن محمد الصغير بن أنبوجه العلوي التيشيتي، تحقيق ودراسة الدكتور: أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - (1417هـ/1996).
7. الشيخ سيدي المختار الكنتي، الديوان، (مخطوط شخصي).
8. الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة، الديوان، تحقيق: عبد الله بن إسماعيل بن أبي مدين، (د. ت.).
9. الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، الديوان، تحقيق: بسام محمد بارود، تقديم: ماء العينين محمد بوي، طبع على نفقة الدكتور: حسن عباس زكي، 2004.
10. العجاج، الديوان برواية: عبد الملك بن قريب (الأصمعي)، تحقيق الدكتور: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة: أطلس دمشق، ج2.
11. لكبيد بن جبه اليحيوي التندغي، الديوان جمع وتحقيق: أحمد بن الشايع، تقديم ومراجعة: خليل النحوي، الشركة العامة للطباعة تونس، ط1، 1992.
12. محمد يحيى الولاتي، الديوان جمع وتحقيق: الساس ولد أب، رسالة (مرقونة) بالمدرسة العليا للأساتذة والمفتشين 1984.

شعر القرن الرابع عشر الهجري في موريتانيا
و "إشكالية التصنيف"

أم كلثوم بنت المعلى

طالبة دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

ملخص

نحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على جزء من المنظومة الشعرية العربية في ركن قصي من أركان الوطن العربي عرف قديما ببلاد شنقيط التي هي موريتانيا حاليا، في حقبة زمنية أريد لها أن تكون القرن الرابع عشر الهجري لمسوغات منها ما يتعلق بطبيعة المدونة التي رقع عليها الاختيار ومنها له صلة بخصوصية السياق التاريخي والثقافي التي أنتج لنا هذا الشعر، وقد جاءت هذه المحاولة نتيجة اعتقادنا أن ثمة حاجة ماسة إلى التعريف بسياق تطور الشعر في هذه البلاد (موريتانيا) التي طالما وسمت ببلد المليون شاعر، بغض النظر عن حظ هذه المقولة من الواجهة والصحة، فإن الشعر كان ولا يزال اللون الأدبي المهيمن في هذا المنبذ القصي، فهو ثقافة القوم السائدة ولسانهم الناطق. وقد ارتأينا تقسيم هذه المعالجة شطرين: أول نعرض فيه للشعر الموريتاني نشأة وسياقات تطور، وثان يتمحض لشعر القرن 14 ومشروعية التصنيف يستعيد التصنيفات السابقة ويستشرف إمكانية تصنيف جديد، لنختم القول بجملته من الاستخلاصات. وسيكون ذلك من خلال الخطاطة التالية:

أولا: مقدمة

ثانيا: الشعر الموريتاني وسياق التطور

1- مبحث النشأة

2. سياق التطور

ثالثا: شعر القرن 14هـ ومشروعية التصنيف

1-الشعر والتصنيفات السابقة

2- نحو تصنيف آخر للشعر

رابعاً: خاتمة

خامساً: ثبت المصادر والمراجع

أولاً: مقدمة:

كثيرة هي الإشكالات التي يطرحها الشعر، ومتعددة تلك المداخل المنهجية الممكنة لقراءته والنفاد إليه من الداخل لسبر أغواره والتعرف على خفايا نصوصه، ومن بين تلك الإشكالات اخترنا التعرف على سياق تطور الشعر الموريتاني وما حظي به جهد تصنيفي، ومن ثم محاولة تصنيفه في فترة زمنية هي القرن الرابع عشر الهجري وذلك لعدة مسرعات منها ما يتعلق بخصوصية الشعر في تلك الفترة، ومنها ما يتعلق بالأدوات المنهجية التي يراد لهذه المحاولة أن تقارب الموضوع من زاويتها، فهي تعول على مقارنة النص من الداخل، وتتبع ما طبعه من ملامح ومميزات حتى يتسنى لنا أن إقامة مقترح تصنيفي يستفيد من التصنيفات السابقة ويتعرف على أسسها ومنطلقاتها المنهجية، ويتخذ من نظرية الأجناس الأدبية مهاداً نظرياً وتطبيقياً.

ثانياً: الشعر الموريتاني وسياق التطور

ربما من شبه المسلم به في المجال الأدبي والنقدي أن الشعر كان الجنس الأدبي المركزي في الثقافة العربية وما مقولة "الشعر ديوان العرب" سوى تأكيد على الخطوة التي وجدها الشعر عند القوم، والمنزلة التي تبوأها في المخيال الجمعي العربي، حيث كان سجل مآثرهم الخالدة، بل تاريخهم المنشد والمرشد إلى القيم والخصال الحميدة كما قال أبو تمام:

ولولا خصال سنها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

فقد أرسى أعراف التلقي التقليدية محورية الشعر في المخيال الجمعي، إبداعاً، وتقبلاً وتنظيراً، ولم تكن هذه الأرض العربية لتشكل نشازاً في سنان التلقي هذا، لنجد الحضور القوي للشعر في الحياة الثقافية والأدبية بوصفه الحامل للمحتوى الديني في بيئة وصفت بأنها تشبه حد التماهي مهاد الشاعر العربي القديم في مظاهرها المادية والمعنوية، ولعل تتبع السياق الذي أنتج الشعر الموريتاني يسهم في محاولة التصنيف التي نحن بصدد التعرض لها.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1- مبحث النشأة وسباق التطور:

يقول الكاتب والناقد المصري محمد طه الحاجري: "إن الصورة التي أتيج لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين (يقصد القرنين 12 . 13) جذيرة بأن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب العربي على إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة، فهو عندهم . وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم أدب يمثل الضعف والركاكة، والفسولة في صياغته وصوره ومعانيه؛ إذ كانت هذه الصور تمثل الأدب وفي وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء، فهو في جملة أدب جزل بعيد عن التهافت والفسولة في صيغته وصوره ومعانيه إذا كانت هذه الصورة تمثل الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء"¹. إذ لو قدر لهذه الحلقة النادرة من السلسلة أن تعود إلى مكانها " لما أمكن الحديث عما يسمى "عصر الضعف" في الأدب العربي، لأن فترة الانحطاط الأدبي في المشرق كانت فترة ازدهار للشعر الموريتاني"²، بيد أن هذا لا ينفي حداثة الشعر في هذه الربوع بالمقارنة مع الشعر العربي وبناء على افتراض أن " أقدم ما عثرنا عليه من إشارة إلى الشعر في المحيط الشنقيطي ... من أهل القرن الخامس الهجري.."³، وإن وجدت أقوال أخرى تعيد نشأة الشعر الموريتاني إلى فترة متأخرة نسبيا (القرن 12هـ) وممن ذهب هذا المذهب محمد المختار بن أبيه، وإن كنا نعتقد أن موضوع النشأة في ما يتعلق بالأنواع والظواهر الأدبية وإن أخذ حيزا كبيرا من اهتمام الباحثين يبقى من الإشكالات غير المحورية فلا يترتب عليه في الغالب من النتائج في ميدان الدراسة العلمية الجادة كبير شأن، بل لعله أي الاهتمام بالبدايات أدخل في مجال التأريخ منه في حيز النقد العلمي، وعليه يكون تتبع ونقاش الإشكالات والقضايا الجوهرية التي يمكن أن تضيء مواطن الإبداع وبؤر الإجابة في هذا الشعر باعتباره جزء من الشعر العربي، وتضع اليد على الثغرات والهنات إن وجدت أولى من الانشغال بجزيئات لما ولن يحسم نقاشها نظرا لطبيعة الظواهر الإنسانية ذات المنحنى المتصل بالسياق التاريخي والتأريخي.

¹ - طه الحاجري، شنقيط أو موريتانيا (حلقة مفقودة في تاريخ الأدب العربي)، مجلة العربي الكويتية، العدد 101 - 1967

² - أحمد ولد محمد عبد الله، أوتار الصحراء، مقال منشور بموقع: جهة الشعر الإلكتروني الرابط: <http://www.jehat.com/Jehaat/ar/Arabia/Mauritania.htm>

³ - عبد الله ولد بن حميدة، الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، مبحث في النشأة والأصول، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط:1، 2008م طرابلس، ص: 156 و 158.

جوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

لكن نظرة سريعة إلى هذا المشغل المتعلق بالتأصيل لنشأة الشعر الموريتاني تُبين أن الباحثين في تحديد عمر الشعر في هذه الأرض قد نحو منحيين كما أشرنا سابقاً، يعتبر الأول أن ما يمكن أن يسمى شعراً لم يوجد في موريتانيا قبل القرن الثاني عشر الهجري وأن ما سبق ذلك كان مجرد محاولات لا ترقى إلى مستوى الشعر بل لعلها تقتصر على جانب النظم و بالتالي يكون الشعر في نظر هؤلاء ولد و استوى على سوقه ابتداء من تلك الفترة، أما المنحى الثاني فيقول بأقدمية الشعر بناء على أن أي ازدهار هو نتيجة تطور إرهابات سابقة، ومن ثم لا يمكن في نظر أصحاب هذا الرأي أن يوجد شعر قوي و مزدهر طفرة واحدة و من ثم ينبغي تفصي الإشارات الأولى بحثاً عن قرائن تشهد لوجود بدايات الشعر الموريتاني بدءاً من القرن الخامس الهجري وتتبع السياق التطوري لهذا الشعر حتى المستوى الذي وصل إلينا.

ولئن جاز التوفيق بين هذين الرأيين فسيكون بالنظر إلى التقابل بين البداية التاريخية للقصة الموريتانية التي ما تزال مجهولة وبين بداية النهضة الشعرية التي يكاد الإجماع ينعقد على كونها بدأت مع القرن الحادي عشر الهجري، وحينها لن يبقى ثمة كبير تعارض بين الرأيين. ورغم ما تعاضد من عوامل مختلفة كعدم التدوين، وما تفرضه طبيعة البيئة الصحراوية على المجتمع الموريتاني من حل وترحال دائبين أدبا في الغالب إلى ضياع ما تم تدوينه، على أن ما تم الحفاظ عليه من هذا الشعر يبقى حبيس الأدراج و الصناديق في المكتبات الأهلية، بالرغم إذا من كل ما سبق فإن الشعر الموريتاني قد استطاع الصمود محافظاً على أوده، وقد كان وراء هذا البقاء جهود أبناء موريتانيا من دارسين وباحثين تناولوا مختلف القضايا وشتى الإشكالات فمن قضية النشأة، إلى تناول الظواهر والمضامين وصولاً إلى مبحث التصنيف الذي يعتبر مطلباً منهجياً¹.

إن قانون الأجناس الأدبية يخضع لحتمية تاريخية تقتضي أن الجنس الأدبي يولد ثم يتطور وبعدها يتلاشى ف"الأجناس مظاهر جمالية في سياق تاريخي معلوم وتتطور وتموت، ولكنها في كلتا الحالتين تنسرب شظايا في مسام الأجناس اللاحقة وتسري فيها سريان النسق"²، ولئن كان الطور

¹ - أنظر أم كلثوم المعلى، "الشعر الموريتاني في القرن الرابع عشر الهجري محاولة تصنيف"، بحث لنيل ماستر مناهج البحث في الأدب واللغة كلية الآداب، جامعة انواكشوط 2014م، ص: 4

² - محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص: 40

الأول من هذه السيرورة مثار جدل لما يحسم، فإن طور الاستواء والنضج ربما يمكن اعتباره موطن الإجماع الأوحى بين الباحثين، وهنا يسوغ القول مع المرحوم جمال بن الحسن إن ازدهار الشعر في هذه الفترة ليس سوى تطور أفضت إليه مراحل سابقة زمنيا يقول: "وإذا كان الشعر الشنقيطي قد بدأ يخرج من طور الرقابة الفقهية خلال القرن 12هـ فإنه قد أصبح في القرن الموالي ميزة العصر، وآية الفتوة، والسلاح الحاسم في الصراعات الفكرية، كما تعددت أغراضه وتطورت، وبعثت مواظ اليدالي من أذهان الشعراء، فتغلزوا بالحسان وتناهشوا الأعراض"¹ ليواصل الشعر مسار التطور هذا إلى ما بعد منتصف القرن الرابع عشر، حيث عرفت موريتانيا تطورات كان لها تأثير مباشر على مختلف جوانب الحياة و يمكن اختزال تلك المؤثرات في الاستعمار الأجنبي لبلاد شنقيط (موريتانيا) لاحقا، ثم الاستقلال الذي جاء تنويعا لمقاومة هذا الاستعمار وكان المؤذن بقيام دولة مركزية، وبهذا يكون لهذه الفترة من تاريخ موريتانيا (القرن الرابع عشر) خصوصيتها التاريخية و الثقافية.

2- النفس التجديدي في شعر القرن 14هـ

ينبغي أن نشير إلى أنه بالإضافة إلى محافظة الشعراء على الأغراض القديمة وفاء لمسيرة القصيدة العربية من امرئ القيس وحتى الشاعر الموريتاني، فإن شعراء القرن الرابع عشر قد تركوا لنا شعرا مكتملا مستويا على سوقه قد تنوعت أغراضه، وتباينت أساليبه، نظرا لانتشار مجال تعاطيه ونظرا لما عرفته البلاد من تحولات لعل من أهمها الاستعمار ثم قيام الدولة الوطنية، فكان من ردة فعل الشعراء إزاء هذا الوضع الجديد تطعيم الشعر بأبعاد تجديدية تتعلق بالمضامين الشعرية، كما تمس البناء الفني للقصيدة، فعلى المستوى المضموني نجد أن الشعر السياسي بما يتناوله من مواضيع وطنية قومية وإسلامية يمثل أهم هذه المضامين، بالإضافة إلى الشعر الإصلاحى والشعر المعبر عن الموقف من الاستعمار، ووصف مستجدات الحياة الصناعية، أما على المستوى الشكلي فمع أن النموذج الخليلى كان سيد الموقف الشعري في هذه البلاد إلا أن ذلك لم يمنع وجود محاولات تجديدية، مثل التخلي عن المقدمة باعتبارها تقليدا فنيا قديما، الأمر الذي أنتج وحدة عضوية للقصيدة، وهو ما سيؤول لاحقا ومع نهاية القرن الرابع عشر إلى ظهور بواكير شعر التفعيلة في موريتانيا مع بداية الانفتاح على الساحة الأدبية العربية والأجنبية، وتأثر الشعراء بما وصل إليه

¹ - جمال بن الحسن، المرجع السابق، ص: 121

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الشعر بعد النهضة في المشرق الإسلامي، وإن كانت الذائقة الموريتانية الخيلية إذا جاز هذا التعبير لم تستجب لغير الشعر العمودي، بل لم تعتبر الشعر الجديد خرقاً لعمود الشعر فحسب، بل وصل ذلك الرفض حد اتهام هذا الوليد غير الشرعي بالمساس بالعقيدة، ويمكن أن نلتبس لهذا الرفض مسوغات أولها: أن الذاكرة الجمعية للموريتانيين بسبب معاشتها ومحاورتها للشعر العربي في مختلف عصوره وخاصة العصر الجاهلي، قد اعتادت هذا النمط من الشعر بل ارتبطت به" كما أصبح الشاعر مضطراً إلى البحث عن وسيلة لإخفاء مضمون شعره الرفض للواقع خرقاً من السلطة فلجأ إلى اللغة الرامزة التي تمكنه من ذلك غير مبال بما ينتج عن استخدام هذه اللغة من قطيعة بين الشاعر وجمهوره"¹، أما المسوغ الثاني فإنه بحكم طبيعة المجتمع الموريتاني الصعراوي البدوية، ونظراً لموسيقى الشعر العمودي وغنائيته فإنه قد نشأ نوع من جمال الألفة، طبع أفق الانتظار عند القوم بشكل جعلهم يستسيغون الشعر التقليدي، وهو ما كان عاملاً في عدم تذوقهم الشعر الحر الذي ينخفض فيه مقوم الوزن من منطلق أن موسيقى هذا الشعر الجديد نابعة من العلاقات بين الكلمات، بينما" تتأتى الشحنة الموسيقية في القصيدة العمودية من اندغام أجزاء خارجية وسياقات شكلية، فهي تقرض على الشاعر تشكلاً زمنياً جاهزاً، والتشكيل الزمني نتاج الحالة الشعورية ومعاناة الإبداع على العموم"² على حساب الصور الشعرية التي تعتمد انغموس و الرمز والإيحاء، وتكتيف المتخيل، بحيث "يقع التركيز على البعد الماورائي للغة الشعرية على المستوى "الإيقاعي" والمستوى المعجمي "الرمز" والمستوى التركيبي "التفجير"³ الصوتي وكلها أمور تتألف بساطة البدوي، الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الذاكرة من خلال المرويات الشفوية، والشعر العمودي يسهل حفظه نظراً لخاصية الوزن التي تتضاعل سلطتها في شعر التفعيلة.

¹ - عبد الله بن الدياه، سمات الحداثة في القصيدة الموريتانية الحديثة، بحث تخرج من جامعة انواكشوط، 1991، ص: 21

² - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضايا ومظاهره، نقلاً عن: الخطاب الشعري الموريتاني، مرجع مذكور سابقاً، ص: 39

³ - عبد الله بن الدياه، سمات الحداثة في القصيدة الموريتانية الحديثة، ص: 16

ثالثاً: شعر القرن 14هـ ومشروعية التصنيف

يمكن القول إن التصنيف حاجة أدبية إذا جاز - هذا التعبير - لكونه يترجم تفاعل الأدباء والقراء مع مقتضيات الثقافية "وما حصول التمايزات¹ بين الاتجاهات والأنواع والأساليب، سوى علامة على الانتماءات الثقافية، لكل نمط شعري أو نثري إبداعي أو نقدي، قد يظل حبيس نقاشات فترة، وقد يتعداها من الممارسات الفردية والجماعية"².

"وبما أن التصنيف قراءة، وكل قراءة تأويل، فمن الطبيعي أن يختلف تأويل الإنتاج الشعري تبعاً لخلفية الدارس الثقافية والفكرية والمعايير التي يتبناها (مذاهب أدبية، حقبة تاريخية، ألوان محلية...)".³ فقد عرف الشعر الموريتاني عدة محاولات لتصنيفه، تختلف وتأتلف تبعاً للمعايير والأسس التي يتبناها أصحابها، ومن هذا المنطلق ربما لا تخلو محاولة تصنيف الشعر في (ق14هـ) من بعض الوجاهة إذا ما قبل هذه الفترة وما تلاها حظي بالصنافة من لدن الباحثين.

1. الشعر والتصنيفات السابقة

وسننتخب من التصنيفات ما يمكن أن يعتبر عينة للملح التصنيفي الذي خضع له الشعر الموريتاني من حيث الأسس والمعايير العامة لنبدأ مع:
أ. تصنيف محمد المختار بن أباه⁴:

يرى الدكتور محمد المختار بن أباه أن الشعر الموريتاني تتوزعه اتجاهات ثلاثة:

*-الاتجاه الأول: مدرسة البلاغة والبدیع، ويمثل هذا الاتجاه كل من بن رازكه⁵، واليدالي⁶، والذبيب الكبير¹ حيث "أنشأوا مدرسة خاصة يمكن أن نسميها مدرسة البلاغة والبدیع.

1- هكذا وردت الكلمة في الكتاب وهو خطأ لأن الذي يستقيم به المعنى: التمايزات.

2- سعيد علوش، إشكاليات التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي. ط: 1986، 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص: 15.

3- محمد المختار ابن سيدنا، مقال بعنوان: "أبرز الاتجاهات في القصيدة الموريتانية، مجلة الأديب، العدد الأول، 2006، ص: 31.

4- محمد المختار بن أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط: 2، 2004م، دار الأمان، الرباط، ص: 51.

5- من شعراء القرن الثاني عشر هجري ت: 1144.

6- من شعراء القرن الثاني عشر هجري ت: 1166.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

*-الاتجاه الثاني: أنصار القديم، ومن رواده بن الطلبة، الذي اختار الأساليب الجاهلية قالبا يصب فيه أحاسيسه المرفهة وتعاييره الرقيقة² ومحمد بن حنبل³ الذي امتاز شعره بالرفقة والصفاء ولقد أجاد في القصائد التي قال على منوال مدرسة البلاغة، غير أننا نعدّه بين أنصار الفن الجاهلي ويتجلى ذلك في معارضته لمقصورة أبي صفوان الأسدي، وفي رمليته الرائعة..⁴

*-الاتجاه الثالث: المستقلون

ويدخل في هذا الاتجاه الشعراء الذين لم يكونوا من عباد الصنعة، وخدمة البديع ... فحاولوا ونجحوا في تلك المحاولات خلق فن شعري موريتاني أصيل نابع من عبقرية السكان الذاتية ومعبر عن مظاهر حياتهم الخاصة..⁵

ب - وتصنيف جمال بن الحسن للشعر الموريتاني:

حين تناول المرحوم جمال الشعر الشنقيطي ضمن مقارنته الأسلوبية، رأى في بداية هذا التناول "أن تصنيف هذا الشعر إلى مدارس أمر لا يستقيم لموانع شتى ... من أهمها"⁶
أن الشعراء "كانوا متنازعين بين روافد تراثية متنوعة واتجاهات أسلوبية متعددة"⁷.
"وثاني موانع التصنيف إلى مدارس انعدام الوعي النقدي الصريح بهذا التنوع، وما يلزمه من تنافس وحجاج"⁸.

ورغم هذا التصور فإن الباحث قد صنف شعراء القرن الثالث عشر الهجري إلى نموذجين أسلوبيين:

1- عاش في صدر القرن الثاني عشر.

2- نفسه، ص: 60.

3- من شعراء القرن الهجري الثالث عشر.

4- الشعر والشعراء في موريتانيا، ص: 62.

5- نفسه، ص: 62.

6- جمال بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، ط: 1995، م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ص: 372.

7- نفسه، ص: 270.

8- نفسه، ص: 372.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- نموذج أسلوبى يقوم على المعجم الجاهلي المبتعث، والتشبيه الحسى، والبنية المركبة المنفتحة، وهو النموذج الذي بلغ أقصى صفائه عند ابن الطلحة.... وفي هذا النموذج تغلب وظيفة الأسلوبية على وظيفته المعرفية والمرجعية.

- نموذج أسلوبى يقوم على المعجم الإسلامى والاستعارة والتشبيه والبنية البسيطة المنغلقة وهو النموذج الذي بلغ أقصى صفائه عند الشيخ سيديا... وفي النموذج تكون خصائص الشعر الأسلوبية حلية لمضمون معرفى هو الوسيلة المبتغاة¹.

ج- تصنيفات مقارنة

ونعنى بها تصنيفات كل من محمد بن عبد الحى² ويحيى بن محمد بن الهاشمى³، ومحمد بن عبدى⁴ و محمد بن بو اعلييه⁵ حيث تتقاطع هذه التصنيفات فى إقرارها وجود تيار تقليدى و آخر رومانسى ثم ثالث حدائى، ولعل مرد هذا التشابه فى الطرح والتصنيف صدورهما عن أسس تاريخية وثقافية مقارنة.

2- ملامح شعر القرن 14هـ:

يمكن الركون بشيء من الاطمئنان إلى أن الشعر الموريتانى عموما وشعر القرن الرابع عشر الهجرى على وجه الخصوص يمكن تصنيفه على أساس النزوع أكثر منه على أساس الاتجاه أو التيار من منطلق أن الأول أعم وأقل ارتباطا بالوعى المنهجى الذى لم يكن متبلورا على الأقل فى تلك الفترة، وبناء على الطرح يمكن التمييز فى هذا الشعر بين ما يلى:

¹- نفسه، ص: 370 و 371.

²- محمد بن عبد الحى، التجديد فى الأدب العربى الحديث بموريتانيا، بحث لنيل شهادة البحث العمق، بجامعة تونس 1، 1989، ص: 179-180.

³- مقابلة شفوية مع الدكتور يحيى الهاشمى، بتاريخ 2013/5/2، الساعة 11:30 صباحا.

⁴- محمد بن عبدى، ما بعد المليون شاعر، الإمارات العربية المتحدة 1999، ص: 41.

⁵- باحث وأستاذ بكلية الآداب بجامعة نواكشوط، التصنيف ورد فى كتاب: النقد الأدبى الحديث بموريتانيا، د. محمد الحسن ولد محمد المصطفى، ط: 1 2008م، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط - موريتانيا.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

2- 1- النزعة المحافظة: وقد سميها "نزعة" و لم نقل اتجاهها على اعتبار أن النزعة أعم من الاتجاه الذي يقتضي حدودا وضوابط فنية لا تخلو أحيانا من الصرامة، وما نجده عند الشعراء الموريتانيين في الغالب هو نزوع شعري يجمع خصائص شكلية و مضمونية تبرز بجلاء الانتماء العربي الإسلامي للموريتاني، في حلتها القديمة من خلال احتذاء شعرائه البنية التصويرية والمعجمية والتخييلية للشعر القديم شكلا ومضمونا، ونمثل لهذه النزعة بكل من: محمد بن أحمد (ت 1358هـ)، وماء العينين بن العتيق (ت 1376 هـ) ومحمد المصطفى بن الطالب (ت 1370 هـ)، ومحمد سالم بن الشين (ت 1387 هـ) ومحمد بن حمينا اليدالي (ت 1388 هـ) ومحمد عبد الله بن أحمد (ت 1390 هـ) ومحمد النانه بن المعلى (ت 1402هـ)، ويمكن تبين ملامح هذه النزعة من خلال المستويات التالية:

أ - معمار النص: قبل الغوص في تفاصيل هذا البناء لابد أولا من استقراء المرجعيات النصية المباشرة وغير المباشرة التي شكلت رؤية الشعراء المحافظين، وجعلتهم يلتزمون بنية القصيدة القديمة وقد تطرقنا لبعض هذه المرجعيات، ولكننا نعود فنؤكد أن الشعر العربي في نموذج القديم كان المرجع المباشر الذي استلهمه شعراء هذا المنزع، وصبغ تجربتهم الشعرية، وهو ما تمكن قراءته من منطلق كونه ردا على الواقع، من خلال ابتعاث الصيغة الفنية والدلالية للشعر العربي في مراحل قوته، وليس تقوفا وحصرها للهوية الشعرية في بوتقة الماضي، هذا مع استحضر أن نظرة القدماء إلى القصيدة لم تأت باعتبارها بناء فنيا كليا ذا تماسك وانسجام، بل باعتبار بنية القصيدة العربية السائدة معطى حضوريا أوليا بدليل أن اهتمامهم انحصر في حسن المطلع وبراعة الاستهلال وحسن التخلص وغير هذا من جزئيات المشاغل¹، ومن السمات الفنية لها فيما يتعلق بمكونات الخطاب الشعري.

ب - المعجم: إننا حين نتناول معجم القصيدة الموريتانية المحافظة فسيكون ذلك من خلال مقارنة مستويات وطرائق الاستعمال المعجمي في النص من منطلق أن الشعر الموريتاني عامة وشعر القرن الرابع عشر الهجري بصفة أخص قد ورد بلغة سليمة تطابق قواعد العربية الفصحى، بل إن

¹ - راجع: جمال ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن 13 هـ، ص: 313

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

اللغة قد اعتبرت المقياس الأهم منذ البواكير الأولى للشعر الموريتاني بحيث "أضحى التلحين أي اكتشاف اللحن والتشهير به قضية الناقد الأولى"¹ والمحك الذي يعرض عليه شعر الشاعر.

ج- البنية الإيقاعية: لعل من أهم مكونات الخطاب الشعري مستوى الوزن أو الإيقاع أو الموسيقى، فهو المحدد لهوية هذا الخطاب وإن من زاوية نظر محددة وفي مستوى نقدي معين، وقد مثل العروض الخليلي الإطار الموسيقي الذي انتظم الشعر الموريتاني عامة، ولكنه كان سمة أخص في النص المحافظ، من منطلق أن الشعر الجاهلي بوصفه المرجع لهذا الاتجاه، يمثل شكلا متطورا للإيقاع الشعري بل هو "أول صورة شعرية راقية لأنغام الشعر العربي وألحانه (...)" وهي خاتمة صور كثيرة سبقتها من فجر الإنسانية الذي انبثق في صحراء العرب، إلى أوائل القرن السادس الميلادي، إذ أخذت صيغتها النهائية في تلك الأوزان والبحور التي اكتشفها الخليل في أوائل العصر العباسي² وكما عرف الأزهري الشعر بأنه "القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها"³ فالحد الإيقاعي أهم هذه العلامات وقد مثل الشكل العمودي الإطار الموسيقي الخارجي للنص المحافظ فكان الشعراء أوفياء للعروض الخليلي لاسيما البحور الصافية (الطويل والبسيط والكامل والوافر والمتقارب)، ولا غرابة في الأمر إذا استحضرننا نسب حضور هذه البحور في الشعر الجاهلي بوصفه المرجع الأول لهذا المنزع، حيث التزم النص الشعري المحافظ النظام الموسيقي للقصيدة القديمة بظواهره المختلفة دون تصرف، بل كانوا أوفياء لعروض الخليل ضمن نطاق البحور الستة عشر وإن كانت الهيمنة في معظم مدونة الشعر المحافظ لدائرة المؤلف الخليلية، هذا بالإضافة إلى حضور الدوائر الأخرى وإن على مستوى أخص.

د- الصورة الشعرية: لا خلاف بين النقاد قديما وحديثا في أهمية الصورة في النص الشعري وما تكشف عنه من دلالات ذات أهمية قصوى في سياق البناء الداخلي للنص، والصورة الشعرية في

¹ - جمال بن الحسن، الشعر الشنقيطي، مرجع سابق: ص 235

² - شوقي ضيف، النقد الأدبي، نقلا عن: عبد الرحمن ألوجي، الإيقاع في الشعر العربي، ط: 1989، دار

الحصاد، دمشق - سورية، ص: 10

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (شعر)

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

القصيدة ذات المنحى القديم تبرز تأثره بالنص القديم بلاغيا كصورة الطعينة لحظة تتطلق الهودج يقول ابن العتيق¹:

كيفما الصبر عن طعائن ولت معهن القلوب يوم ارتحال
تتهادى بهن بزل كما قد يتهادين هن فوق التلال
وكأن الحدوج في الآل مزن قد حداها ضحى نسيم الشمال
يحسد السمع إن برزن عيونا حسدته عند استماع المقال

فحين يشبه الشاعر مشي الجمال رويدا رويدا وعليها الهودج، بتهادي النساء اللواتي في الهودج وهن يصعدن الأنجاد بصعوبة، كما يشبه وجوه الحسان بالمزن من حيث، البياض والإشراق والنضارة، فهو يرسم صورة ذهنية بظلال حسية خفيفة يكرس من خلالها صورا نمطية للمرأة اطردت في الشعر العربي القديم وهي صور تستعرض القيم الجمالية التي سنّها المجتمع العربي، يقول بن أحمزيه²:

إذ تراعت لنا ضحى تنتشى بين بيض خرائد وآراد
كل وهنانة عروب هضيم الـ كشح رأد الوشاح غير رواد³

يمكن القول إذا إن الشاعر المحافظ قد استنسخ القصيدة القديمة بمقوماتها الفنية وخاصة الصورة، صورة المرأة وصور الصحراء وصورة الراحلة وصور الطبيعة، وهو ما يلعب فيه تشابه البيئتين الجاهلية والموريتانية من حيث الطبيعة ومظاهر الحياة دورا أساسيا.

هـ - الإطار الغرضي: لم يكن حال المضامين الشعرية ليختلف كثيرا عن بنية القصيدة بالنسبة للشعراء المحافظين حيث سادت الأغراض التقليدية وبصفة أخص المدح بكل ألوانه ذكالمديح النبوي ومدح شيوخ الطرق الصوفية ومدح العلماء والشخصيات ذات النفوذ في المجتمع لاسيما أنه أكثر الأغراض حضورا في المدونة الشعرية الموريتانية في هذا العهد، وإن كان الترتيب الغرضي يتفاوت من ديوان لآخر، بحيث تأتي الإخوانيات في الرتبة الموالية، ثم الغزل والرثاء والمساجلات أو

¹ - الديوان، ص: 326-327

² - الديوان، ص: 38

³ - الوهنانة: المرأة التي بها فتور عند القيام، العروب: - بالفتح - المتحبة إلى زوجها، هضيم الكشح: خمص البطن، الراد: بالفتح والضم الشابة، الرواد: بالكسر الذهاب والمجيء.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

النقائض ثم التوصل الذي عادة ما يتم تناوله من حيث هو مطلب ديني ولا يتم الالتفات إلى البعد الذاتي أو الشخصي الآني و الفني له.

2-2- النزعة المحلية: ويمكن رصدها في الإنتاج الشعري الموريتاني الذي طعمه أصحابه باللهجات المستخدمة في المجتمع كالصنهاجية والبولارية والولفية وطبعا الحسانية بالدرجة الأولى، وقد تواترت تصنيفات الشعر الموريتاني على وجود هذا التيار أو النزعة وإن تحت تسميات مختلفة كالمدرسة الشعبية ويكاد ينحصر هذا الاتجاه في حيز زمني ومكاني حيث بدأ في النصف الأخير من القرن الثالث عشر وحتى النصف الأخير من القرن الرابع عشر في منطقة الكبله، وإن كانت توجد بعض الشذرات في المناطق الأخرى، إلا أنه كان أكثر جديدا وانتشارا في منطقة الكبله¹، وتتمثل هذه النزعة في توظيف مفردات أو أمثال شعبية بأسلوب يتضمن التضمن والاقتراس، ويرجع بعض الدارسين شيوع هذه النزعة إلى رغبة الشعراء في التجديد وسعيا منهم إلى الإبداع والتفرد، ناهيك عن توفهم إلى الاقتراب أكثر من الجمهور البسيط، وخطب وده عن طريق مخاطبته بما يفهم مباشرة دون كبير عناء، ما يسوغ القول إن أصحاب هذه النزعة قد كتبوا "شعرهم وكأنا ليس في أذهانهم سوى ما طبعت البيئة الموريتانية في مخيلاتهم، وما أعطتهم من أمثلة وحكم شعبية، فجاء شعرهم متسما بالعمق والصدق مع بساطة في الصور البديعية، وفي بعض الحالات تخلط الفصحى بالعامية في شكل مشوق"².

ومن شعراء هذا المنزع أحمد بن أحمد يبره الذي يتولى زعامته من الناحية الفنية. ونقول الفنية لأن لهذه الظاهرة جذور وإرهاصات سبقت الشاعر، ويمكن ربط هذه النزعة بما يمكن أن يكون إرثا لها وهو النمط الشعري الذي شاع بين طلاب المحاضر في أوقات السمر وبين التجار في الغربة ثم جرى تجاهله عمدا من قبل المجتمع ربما لأنه يخرج على سلطة الرقيب الاجتماعي من خلال خرقه

1- لاله بنت سيد عثمان، تسريب الحسانية إلى الشعر الفصيح من خلال شعر السفنار بن حامد، بحث تخرج من

جامعة انواكشوط 1990، ص: 12

2- أحمدو بن عبد القادر، النزعات الأساسية في الشعر الموريتاني، مجلة الفكر التونسية، نقلاً عن: ديوان محمد

بن أحمد يوره، إعداد محمد بن أحمدنا، مرقون، ط: 2، 1984، ص: 13.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

السياج الخلفى الذى أقامه ومن ثم يكون عدم التدوين هو العامل الأساسى فى اعتبار هذا النمط بداية حقيقية لهذه النزعة مع أن الذاكرة احتفظت ببعض تلك النصوص .

من الشعراء الذين نزعوا هذا المنزع نذكر على سبيل التمثيل: أبو بكر الفاضلى (ت 1340هـ) ثم موناك بن المصطفى (ت 1358 هـ) ومحمد بن أبى بن أحمد (ت 1363 هـ) وأبو بن لسياد (ت 1363هـ) وشغالى بن أحمد محمود (1389هـ) والمختار بن حامد (ت 1417هـ).

أ - معمار النص: تختلف البنية المعمارية للنص الشعري ذي النزعة المحلية عن بنية النص المحافظ، بحيث تخلى شعراء هذا الاتجاه عن التقاليد الفنية العريقة، وأول هذه التقاليد المقدمة بكافة أنواعها، بل اتجه الشعراء إلى المقطوعات، وعزفوا عن المطولات وهو سلوك ينسجم والبعد المحلى المستجد لهذا النص، فهذا امحمد بن أحمد يورده يسن الدستور النظري لهذا الاتجاه ويقعد له من الناحية الفنية حين يقول¹:

بشعر يني عن فهمه "المتناوش"

ألا أيها الشعور لا تلك ناطقا

فشر القريض الطائل المتفاحش

ولا تطل الأشعار في غير طائل

أي أن ثمة وعيا فنيا إن لم نقل نقديا بلوره الشاعر من خلال دعوته إلى التخلي عن التقاليد الفنية التي كان الشاعر المحافظ يراعيها بل يلتزمها باعتبارها المحدد لهوية النص إبداعيا، ومن هنا تكون السمة الفارقة في بنية النص الشعري لدى هؤلاء هي خرقهم البنية القديمة إلى حد كبير، والميل إلى التخفف إن لم نقل التخلي عن كل مظاهر التبعية والتقليد، وهو أمر يسوغ لنا القول إن النص الشعري انتقل من كونه مرآة عاكسة للشعر الجاهلي مع الاتجاه المحافظ إلى أن أصبح يحمل بعض سمات الشعر العباسي والأندلسي خاصة الموشح فيما يتعلق ببنائه الكرافية ونمط مزج العامية بالفصحى.

ب - المعجم: لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إن المعجم قد ساهم إلى حد كبير في تصنيف القصيدة ذات النزعة المحلية لا من حيث السجلات اللغوية التي استعملها شعراؤها فحسب، بل من خلال طرائق اشتغال مستويات اللغة ومدى انسجامها مع القوانين الشعرية، وقدرة الشاعر على صهر وحدات

¹ - الديوان، ص: 16

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

معجمية لا تنتمي بالضرورة للسان واحد في قالب شعري خاضع لمقتضيات عمود الشعر، ومذعن لعروض الخليل، وعلاوة عن هذا كله يأتي النص بأسلوب طريف يحكي السهل الممتنع. مع أن أهم ما يمكن رصده على مستوى المعجم في هذا الاتجاه هو ظاهرة ازريقه أي المزج بين العامية والفصحى في النص، أو تعريب الشعر اللهجي، والدافع إلى هذا الأسلوب هو النزوع إلى التجديد وكسر ما كان عليه الشعر من رتابة بل برودة عند الشعراء حسب تعبير ولد أحمد يوره حين يقول¹:

أشعارنا أهل هذا العصر باردة

لم تشو شيئا ولم تطبخ بأبزار

لو أنهم أحضروني شأنها طرحت

من بعد ما ملحت شيئا على النار

علاوة عن الغرض الأساسي الذي هو التظرف والتندر، إذ أن الكثير من المقطوعات في هذا المنحى لا يكون لها من موضوع سوى التملح، مثل قول بن أحمد يوره²:

حدثنا الطريف (نجل الصافي)

وما به أخبر (ماه حافي)

أن الذي تكتبه (الهجاله)

من قرّة الأبصار والرساله

وسور القرآن والأمداح

به تريد سرعة النكاح

وقد أخذ التبعد المحلي تجليات مختلفة، وجرى عبر وتأثر متعددة لعل أهمها:

ب-1-توظيف الأمثال والقصص الشعبية: وهي طريقة معروفة عند أصحاب هذه النزعة وقد أكثر الشعراء من استخدامها ضمن صيغة معينة هي أنه في أغلب الأحيان يرد المثل المضمن في آخر شطر من الأبيات، كما أن المثل قد يكون من الأمثال المحلية، وإن كانت "المحلية" هي القيمة الخلافية المميزة لتوظيفه، لأنه ربما يكون المثل عربيا وكان السياق هو الذي يكسبه البعد الجمالي وإن كانت الأمثال العامية أكثر ارتباطا ببنية هذا النص يقول أمحمد بن أحمد يوره³:

تعجبت من حبي (لاعوبش) ضلة

على أنها زلاء كذابة حمقا

وأي فتاة أعجبتك ملاحه

(إذا قلعت منها يقل الذي يبقى)

¹ - الديوان، ص: 16

² - الديوان، ص: 38

³ - الديوان، ص: 31

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهذا مثل حساني "إلى انكلع من اقل ال يبقى" فصحه الشاعر ويضرب لمكانة الشيء بحيث يرجح بما سواه مهما علت قيمته، وهذا الأسلوب من أكثر الأساليب طرافة وأوسعها جمهوراً، لاسيما أن هذه الأمثال تنتزل في الغالب ضمن سياق التنكيت والتندر، ما أكسبها مكانتها في ذهن المتلقي الذي يبحث عن الإمتاع والمؤانسة في النص الشعري، والذي يمثل بهذا الشكل مادة دسمة يكون عليها مدار المجالس الأدبية، وكلما ارتفع منسوب "الأدبية" في النص حتى يبعث في النفس متعة من غير روية ولا تفكير كان تداوله أوسع و الدافع لاستحسانه من قبل المتلقي أقوى.

ب-2- السجل العامي: أو المحلي ونعني به فضلاً عما ذكرنا المفردات التي تنتمي إلى اللهجات المحلية والتي ترد بصيغها الأصلية دون تصرف سوى تعريبها إذا كانت أعجمية من اللهجة الولفية مثل قول محمد بن أبن¹:

ولن قليل فأكهة لديه	فقلت أهلك فأكهة الجنان
فقال: نعم «بنان» فقلت: إني	لمشتاق أحن إلى «بنان»
فمد بنانه وبه: «بنان»	فأمسكت البنان مع «البنان»

ج- البنية الإيقاعية: لقد انتظم النص الشعري ذو النزعة المحلية ضمن الإطار الإيقاعي التقليدي، أي داخل المنظومة الخليلية وما تقتضيه متتالياتها الكبرى (البحور) من قوانين موسيقية ونظم إيقاعية ورثها الشعراء خلفاً عن سلف والتزموا بمعطياتها وإن بمستوى أقل صرامة من النزعة السابقة من خلال استعمال بحور ذات إيقاع سريع كالرجز والسريع والمتقارب، والكامل، إلا أن هذا الالتزام يبقى القاسم المشترك بين الاتجاهين. من حيث خضوعهما لمقتضيات عمود الشعر، كما يلاحظ أن شيوخ المقطوعات في دواوين شعراء هذا المنحى ساهم في خلق تنوع موسيقي ولو كان خافتاً من خلال تعدد البحور والقوافي والتجوزات الإيقاعية المختلفة، وعلى العموم فإنه يمكن القول إن البنية الإيقاعية للنص ذي النزعة المحلية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما وجدنا في النص المحافظ، وإن وجدت بعض الرتوش الخفيفة التي ميزتها عن سابقتها، ومما يذكر في هذا المجال استخدام الوزن الحساني في الشعر الفصيح وفيه مثالين الأول قصيدة " صلاة ربي" والتي ذكر الشاعر أنه قد

¹ - الديوان، ص: 860

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نظمها على إيقاع بعض الأوزان الحسانية، والثاني هو نموذج ينسب لابن الطلبة يجمع فيه بين الرجز و أحد بحور الشعر الحساني¹.

د- الصورة الشعرية: يمكن القول إن الصورة قد أخذت أبعادا فنية جديدة لدى الشعراء ذوي النزعة المحلية، بمعنى أنها لم تعد تلك الصورة المأخوذة من التراث الشعري القديم بتشكلاتها المختلفة، بل كان البعد المحلي حاضرا بتجلياته المختلفة (الزمان والمكان، والخصوصيات الثقافية والاجتماعية من عادات و تقاليد ...)، فقد أصبح النص الشعري مع هؤلاء أكثر دلالة وأصدق تمثيلا للبيئة المحلية لا من خلال ابتداع ازريكه والتخلي عن بعض التقاليد الفنية فحسب، بل عن طريق الصور الشعرية التي نحت منحى بلاغيا بسيطا يبتعد عن التعقيد، وأكثر من ذلك يخاطب الوجدان وبخاصة إذا كان النص في النسيب.

هـ- الإطار الغرضي: يمكن القول إن الخطاب الشعري ذا البعد المحلي قد " حقق نوعا من الانحراف عن الأغراض والمضامين التقليدية إلى مجالات من الإبداع الشعري تطلبه الوضع الاجتماعي والثقافي لبلاد شنقيط قبل قيام الدولة الوطنية بقليل"² وإن كنا نتحفظ على مفهوم "الإبداع" بوصفه حكما قيميا، هذا من منطلق أن ما حصل كان تغيرا في علاقة النص بالمرجع الاجتماعي، بحيث كان لانفتاح النص على الموروث الاجتماعي بأبعاده المختلفة وسلطة هذا الأخير تأثيره المباشر على مضمون النص، كما أصبحت العواطف والمناسبات الوقود الفعلي لمخيلة الشاعر الذي اتجه إلى المواضيع الأوثق صلة بالمجتمع، وإن كان هذا التحول قد تم ضمن دائرة ضيقة، كما أصبحت اللحظة الآنية هي المتحكمة في الإطار الغرضي للنص في المجالس والليالي والحلقات الأدبية، ليتناول قضايا ووسائل حديثة نسبيا اقتضاها نمط الحياة كالتبغ والتبغ

¹- وهي أبيات لم نعثر عليها موثقة في الديوان ولكن الرواية الشفوية تنسبها إليه والأبيات هي:

قد هيجت ما كان بي فنية من العرب
تتلو برحب المكتب تبت يدا أبي لهب
تبين يدا قد رسمت في لوحها حتى انتهت..... إلخ

²- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وتاريخ تشكل الأنواع الأدبية، ط:1، 2001، دار الأمين للطباعة - القاهرة، ص:40

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ووصف السيارة والطائرة، كما كان للوطن نصيبه من الاهتمام من خلال قضية الوحدة والعدالة الاجتماعية، هذا مع حضور الأغراض التقليدية ولكنه حضور كيفه الشعراء مع مقتضيات الزمان والمكان تكييفاً كان محركه الأساس غلبة المقطوعات الشعرية وكثرة النقف وتقلص دائرة النصوص الطويلة، مما يمكن معه القول إن النص الشعري الموريتاني في هذه اللحظة حقق مستوى من التعالق مع الشعر العربي في العصر العباسي الثاني والعهد الأندلسي لا من حيث انتشار المقطوعات، ولكن انطلاقاً من كون المجتمع الموريتاني قد تجاوز مرحلة الحرج في تعاطي الغزل، فانتشر الوصف و رقت الأساليب في سلاسة لغة.

2-3- تجربة الحداثة في الشعر الموريتاني: بعد أن تطرقنا خلال التصنيف إلى ما سميناه نزعة محافظة وأخرى محلية توزع ولاء النص الشعري الموريتاني بينهما على نحو سمح لنا بالتعرف على سمات كل نزعة بالنظر إلى عناصر الخطاب الشعري، كما سيطرت النزعتان جل القرن الرابع عشر وهو ما أجاز لنا تسمية ما تلاهما تجربة الحداثة في الشعر الموريتاني بعد تأسيس الدولة المركزية، وما نتج عن ذلك من انفتاح على الساحة الشعرية العربية والعالمية، تمثل أساساً في دور وسائل الإعلام الناشئة وقتئذ، وفي ما عادت به البعثات الثقافية والطلاب الموريتانيون من الخارج من رؤى وتصورات إيديولوجية جلبها هؤلاء أو استوردوها لا من منابتها الأصلية بل من البيئات التي استوردتها هي الأخرى منبثة عن سياقها الحضاري والفكري الذي أنتجها.

إننا نعني بتجربة الحداثة عدوى التأثير الحداثي التي وصلت متأخرة إلى الساحة الشعرية الموريتانية بالمقارنة مع الساحة العربية، ذلك أنه في الوقت الذي وجد فيه الشاعر الموريتاني نفسه في مواجهة أنساق شعرية مختلفة المنابت والمميزات والخصائص، كانت المشارب الإيديولوجية التي يحركها الشعور بالانتماء العربي، ويدفعها الطموح إلى وحدة وطنية واستقلال حقيقي للدولة الموريتانية الفتية آنذاك، والتي ما تزال في مهب الصراعات الداخلية والأطماع الخارجية، هي التي ساعدته في تحديد موقفه، وتبلور ولاءه الأدبي، وكلها هموم نجدها عند جيل الستينيات من الشعراء من أمثال: شغالي بن أحمد محمود والمختار بن أبلول ومحمد الحنشي بن محمد صالح ومحمد مولود بن أحمد فال ومن بعدهم أحمدو بن عبد القادر ومحمدي بين القاضي و فاضل أمين ...

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهي مرحلة اتسمت من الناحية الفنية بالتخلي عن المضامين التقليدية، ومجانية التقيد ببنية القصيدة القديمة التي حظيت بالتقدير بل بالقداسة ذات قرون من عمر الشعر الموريتاني. إن أهم ما يميز بواكير أو إرهاصات تجربة الحداثة - لأننا نتحدث عن العقدين الأخيرين من القرن الرابع عشر والذين يمثلان بداية هذه التجربة - هو استلهاهما كل المذاهب الأدبية التي صار البعض منها متجاوزا في بيئاته الأصلية ولكنه جديد على الشعر الموريتاني.

رابعاً: الخاتمة

بعد خوضنا غمار محاولة الصنافة هذه، والتي لا تخلو من مجازفة لاسيما وأن الشعر في هذه الحقبة (القرن 14هـ) لم يحظ من قبل الدرس النقدي بكبير اهتمام ولم يحظ من التصنيف إلا بالفضلة إذا صح هذا التعبير، حيث يتم تناوله - غالباً أو حسب ما أتيح لنا الاطلاع عليه على الأقل - عرضاً وذلك حين يكون الدافع صنافة شعر القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهو ما يكسب هذه المحاولة مستوى من الطرافة يجعلها عرضة للقصور المنهجي، بيد أنه ربما شفع لها مستوى من الجرأة حملها على السير في المنحى الصعب الذي هو التصنيف، بعدد كل ذلك يسعدنا أن نقدم للقارئ هذا التصور للشعر الموريتاني في فترة شهدت تحولات جذرية (الاستعمار - الاستقلال) وكان لها تأثير مباشر على القصيدة العربية في موريتانيا، وهو تأثير ليس بالضرورة سلبياً، إذا استحضرنّا أنه ربما كان للتحولات الاجتماعية وعدم الاستقرار السياسي تأثير عكسي على الأدب وخاصة الشعر، يؤدي إلى قوة نفوذه ولربما كان الرباط الجامع بين الخصوم بوصفه سلاحاً نافذاً، ومن أمثلة ذلك ما اتسم به الشعر الأندلسي في عصر الدويلات والطوائف من تطور وقوة، و الداعي إلى هذا الاستطراد هو ما تقع فيه بعض التصورات، من تعميم خاطئ ومجحف، حين تعتبر أن الشعر في هذا القرن عانى من الضعف بسبب التحولات السابقة، وخلاصة القول إن الشعر الموريتاني في (ق14هـ) قد حافظ على مستوى من التعالق مع النص الشعري القديم وهو ما تجلّى في كل مقومات الخطاب الشعري ضمن ما أسميناه النزعة المحافظة، يحدوه إلى ذلك عوامل شتى من ضمنها البيئة والثقافة، قبل أن ينزع منزعاً آخر وسمناه بالنزعة المحلية ليشمل ذلك كل مظاهر تأثر القصيدة بالأبعاد المحلية سواء على مستوى المعجم أو الصور أو معمارية النص، قبل أن يجد القريض نفسه واقفاً تحت تأثير صدمة الحداثة العنيفة، و في مواجهة أنساق جديدة لم تتوان

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الذائقة الجمعية في إيداء صيغ التأبي في تقبلها، على اعتبار أنها تشكل نكازا بل خطرا على الأدب ونمئل لها بظاهرة الشعر الحر التي ما يزال وقعها مريكا لأفق الانتظار رغم مرور ما يقارب زهاء قرن على ميلادها.

وحسب هذه المحاولة من النجاح أن تكون قد وفقت في إثارة مشاغل، وفتحت آفاقا جديدة لقراءة هذا الشعر، وأن تكون حافزا وباعثا على نقاش ما يتعلق بهذا الجزء من المنظومة الشعرية العربية من إشكالات وقضايا جوهرية يمكن أن تنثري الدرس النقدي.

المراجع:

- 1- أحمدو بن عبد القادر، النزعات الأساسية في الشعر الموريتاني، مجلة الفكر التونسية، نقلا عن: ديوان محمد بن أحمد يوره، إعداد محمد بن احمدناه، مرقون، ط:2، 1984
- 2- أحمد ولد محمد عبد الله، أوتار الصحراء، مقال منشور بموقع: جهة الشعر الإلكتروني الرابط: <http://www.jehat.com/Jehaat/ar/Arabia/Mauritania.htm>
- 3- امحمد بكلاي، الخطاب الشعري الإسلامي في موريتانيا جمالية والتزاما من 1979-1989، بحث تخرج من جامعة نواكشوط، سنة 1988-1989م
- 4- ابن منظور، لسان العرب
- 5- أم كلثوم المعلى، " الشعر الموريتاني في القرن الرابع عشر الهجري: محاولة تصنيف"، بحث لنيل ماستر مناهج البحث في الأدب و اللغة كلية الآداب، جامعة انواكشوط، 2014م
- 6- جمال بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، ط:1، 1995م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
- 7- سعيد علوش، إشكاليات التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي، ط:1، 1986، المركز الثقافي العربي، بيروت
- 8- طه الحاجري، شنقيط أو موريتانيا (حلقة مفقودة في تاريخ الأدب العربي)، مجلة العربي الكويتية، العدد 101 - 1967
- 9- عبد الرحمن ألوجي، الإيقاع في الشعر العربي، ط:1، 1989، دار الحصاد، دمشق - سورية
- 10- عبد الله ولد بن احميده، الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، مبحث في النشأة و الأصول، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط:1، 2008م طرابلس
- 11- عبد الله بن الدياه، سمات الحداثة في القصيدة الموريتانية الحديثة، بحث تخرج من جامعة انواكشوط 1991.
- 12- محمد بن عبد الحي، التجديد في الأدب العربي الحديث بموريتانيا، بحث لنيل شهادة البحث المعمق، بجامعة تونس 1، 1989

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- 13- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وتاريخ تشكل الأنواع الأدبية، ط:1، 2001، دار الأمين للطباعة - القاهرة
- 14- محمد المختار بن سيدنا، مقال بعنوان: "أبرز الاتجاهات في القصيدة الموريتانية"، مجلة الأديب، العدد الأول، 2006
- 15- محمد بن أحمد يوره، الديوان، إعداد محمد بن احمدناه، مرقون، ط:2، 1984م، مكتب التوفيق للنشر، انواذيبو، موريتانيا.
- 16- محمد المختار بن أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط:2، 2004م، دار الأمان، الرباط
- 17- مولاي بن عبد الدايم انداه، المدرسة الشعبية في الأدب الموريتاني من خلال امحمد ابن احمد يوره، بحث تخرج من جامعة انواكشوط
- 18- محمد بن عبيد، ما بعد المليون شاعر، الإمارات العربية المتحدة، 1999
- 19- محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث بموريتانيا، ط:1، 2008م، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط - موريتانيا
- 20- ماء العينين بن العتيق، الديوان، جمع وتحقيق محمد الطريف، منشورات مؤسسة الشيخ مريبه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط:1، 2004، مطبعة ازناسي
- 21- لاله بنت سيد عثمان، تسرب الحسانية إلى الشعر الفصيح من خلال شعر المختار بن حامد، بحث تخرج من جامعة انواكشوط، 1990
- 22- يحي الهاشمي، مقابلة شفوية، بتاريخ 2013/5/2، الساعة 11:30 صباحا بقسم اللغة العربية - كلية الآداب جامعة انواكشوط

السرد الموريتاني: القضايا والأسئلة¹

زينب بنت عابدين

طالبة دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

عرفت المدونة السردية الموريتانية مراحل تحويلية مختلفة يمكن تبينها وتتبع مسارات تحولها و تلمس ملامح أدبيتها من خلال الرجوع إلى نصوص هذه المدونة بأشكال كتابتها وأنماطها المختلفة التي شهدت تفاوتاً وتنوعاً على مستوى التشكل من جهة وعلى مستوى الشكل من جهة ثانية، حيث بدأ الشكل السردى يفرض نفسه عبر مسار التحول الأدبي ذي التطورات المتلاحقة بدءاً بالنص السردى التراثى بأنماط كتابته ولحظات تحوله، وانتهاء بالنص السردى الحديث وأشكال كتابته ولحظات تحوله التي مهدت لتحول على مستوى الأدبية المحلية تجلى في تراجع مركزية الخطاب الشعري وسلطته ومظهر المغالبة الإبداعية ثم هيمنة أشكال الخطاب السردى في مرحلة لاحقة أو لنقل حالية. هذا التحول على مستوى النص الإبداعى المحلى (ظهور الأشكال السردية)، وعلى مستوى الخطاب الإبداعى (النص السردى) وانتقاله من النثرية التقليدية إلى نثرية حديثة مهدت لظهور أشكال سردية مختلفة.... كل ذلك يدعونا للوقوف عند الأسئلة والقضايا النقدية التي يطرحها هذا النص الإبداعى (النص السردى المحلى) بلحظات كتابته وأنماطه المختلفة.

إننا إذن بصدد البحث عن جملة القضايا والأسئلة التي يطرحها السرد الموريتاني من حيث سياقات تشكل نصوصه؟ وشعرية أشكاله؟ ومرجعه؟ والآليات النقدية الملائمة لدراسة نصوصه...؟ ساعين للوقوف على أهم القضايا والأسئلة النقدية التي تطرحها المدونة السردية الموريتانية وخطابها السردى المتعدد.

¹ بحث أنجز بإشراف ا. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، في نطاق متطلبات النشر الخاص بنقاش الدكتوراه

1 - السرد الموريتاني وقضايا النص

إن الحديث عن قضايا النص الإبداعي (شعرا أو سردا) يحتم علينا الحديث عن مناهج دراسة هذا النص، ذلك أن أسئلة النص الإبداعي إنما تجد إجاباتها عن طرق المقاربات النقدية المهمة بوصف هذا النص في أبعاده الأدبية والجمالية المختلفة على مستوى لحظتي التشكل والتحول عبر مسارات تطور كتابة النص الإبداعي المتلاحقة. فلا مجال - البتة - للبحث عن تلك الإجابات خارج الإطار النقدي وآلياته المنهجية وتصوراته العلمية الساعية لتفسير الظاهرة الإبداعية في أبعادها الجمالية المختلفة.

إن الباحث في قضايا النص الإبداعي وأسئلته النقدية - على المستوى المحلي - يصطدم قبل الانتقال إلى تلك القضايا والأسئلة بقضية أخرى وإشكال آخر قد بات ماثرا بشكل أكثر إلحاحا على المستوى المحلي نظرا لخصوصية النص الإبداعي الموريتاني من جهة وخصوصية الممارسة النقدية الموريتانية من جهة أخرى، ذلك أن اهتمام الموريتاني بدراسة النص الإبداعي ونقده جاء متأخرا بكثير على إنتاجه لهذا النص بجنسيه الشعري والسرد في مجتمع "منتج للإبداع" معرض عن وصفه ودراسته - على الأقل - من منظور نقدي منهجي، طيلة حقبة ممتدة من تاريخ الإبداع في هذه البلاد. لقد بدت الممارسة النقدية في الحقبة الأولى فردية وذاتية لا تحتكم إلى أدوات نقدية بعينها بقدر ما تنحو نحو الذوق الشخصي والتقييم الذاتي من خلال الممارسات النقدية الفردية التي ظهرت مع تجربة الجيل غير المتخصص¹، وهي تجربة - رغم غزارة معرفة أصحابها وإلمامهم بالتاريخ الأدبي العربي والموريتاني - غير أنها تغيب سؤال التأريخ للنص الإبداعي وسؤال الأدبية بشكلهما العلمي الدقيق الذي يراد له أن يكون مدعما بالبراهين النقدية والأدلة العلمية المتحاكمة إلى أدوات منهجية رصينة. وإذا ما تجاوزنا تجربة "النابعين" من أولى الذوقيات، فإنه يمكننا التمييز بين ثلاث مراحل للممارسة النقدية على المستوى المحلي يشترك أصحابها في المرتكز العام ويتباينون في التصورات النقدية التي ينطلقون منها تبعا للتحويلات النقدية العربية والغربية (لاحقا) وتصوراتها في وصف وتفسير الظاهرة الإبداعية. وهو التصنيف الذي عكسته مجموعة الأعمال النقدية التي أنتجها هؤلاء حول دراسة النص الإبداعي الموريتاني، ومن أبرز التصنيفات التي طالت هذه الأعمال تصنيف الدكتور

¹ يعتبر المختار بن حامد من أبرز ممثلي هذه التجربة من خلال كتاباته وعمله للضخم الذي ضمنه في موسوعته (حياة موريتانيا).

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم الذي يفرق فيه بين ثلاثة تيارات نقدية كبرى لكل منها مرتكزة النقدي المعتمد في دراسة النص الإبداعي هي:

أ- التيار التقليدي ذو المرتكز التاريخي

ويرى الدكتور أن سمة هذا التيار التاريخية هي مصدر توسعه وقبوله في الوسط المعرفي المحلي على امتداد حقبة الستينات والسبعينيات من القرن الماضي « بفعل ما يقوم عليه هذا الخطاب من رواية تروي سير منتجي هذا الأدب وتفاصيل حياتهم وأخبارهم»¹.

ب- التيار الأكاديمي ذو المرتكز المدرسي

ويعتبره بداية تجذر الوعي - الأولى - بالفعل النقدي في بعده المنهجي "الأكاديمي"، أو ما يسميه "الخبرة الواعية بالأدب"، التي مكنت هؤلاء « من تسليط خطاب حول الأدب ونصوصه يخالف في منهجه وأحكامه النقدية خطاب أصحاب الدائرة التقليدية، ذلك أن هذا الخطاب - الأكاديمي - أصبح يصدر عن حد أدنى من الوعي النقدي والخبرة بالتعامل مع النصوص»².

ج- التيار القارئ والمرتكز القرائي النقدي المنفتح

وهو التيار الذي حمل لواءه تلة النخبة الأكاديمية المحنكة بجديد المقاربة النقدية العربية عن طريق الدراسة في الجامعات العربية والأجنبية منذ منتصف الثمانينات³ وهذا التصنيف "الثلاثي" يقدم للقارئ تصورا أوليا عن تاريخ تطور التجربة النقدية في الأوساط العلمية المحلية منذ بدايات الفعل النقدي. ولسنا هنا بصدد البسط في خصائص هذه التيارات أو إعادة تصنيفها أو عرض قائمة المنتمين لكل منها على حدة، ولا البحث عن تيارات ومذاهب أخرى نضيفها إلى ما سلف، وإنما

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني (قراءة لظهور الأنواع والأشكال السردية) مساهمة في التأريخ للأدب الموريتاني من منظور الشعرية، تقديم محسن جاسم الموسوي، دار الأمين - القاهرة، ط 1، (2001م)، ص : 25

² المرجع السابق، ص: 26

³ جذر لهذا التوجه المرحوم جمال (أحمد ولد الحسن) مع منتصف الثمانينات من خلال أطروحته عن الشعر الشفقي في إطار محاولة التأريخ للأدبية الموريتانية من منظور نقدي نصي (الأسلوبية التكوينية).

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نسعى لمساءلتها عن دورها في التأريخ للنص الإبداعي ورصد ملامح شعرية أشكاله، ودرجة إسهام أعمال أصحابها - بتصوراتهم النقدية المختلفة - في إثارة إشكالات النص الإبداعي والإجابة على أسئلته النقدية.

2 - السرد الموريتاني وسؤال النص (تاريخ التشكل وسياق الظهور)

لقد باتت مسألة التأريخ للأدب القضية الكبرى والسؤال النقدي الأبرز في المقاربات النقدية العربية بما تطرحه من أسئلة وما تثيره من اختلاف في الآراء ووجهات النظر المنهجية، وهو أمر يتأكد بشكل أكبر على مستوى النص السردى الموريتاني بأشكال كتابته المختلفة، نظرا لخصوصية هذا النص من حيث كتابته ودراسته على سواء. ولن نتوقف هنا كثيرا عند إشكال تأخر ظهور الخطاب السردى بفعل هيمنة الخطاب الشعري، لأن ذلك - في نظرنا - إشكال سابق على ميلاد النص السردى. ولا يفيدنا كثيرا في التأريخ لهذا النص بشكل علمي ومنهجي رصين ودقيق.

إننا بحاجة لتحديد زمنية تشكل هذا النص، ومن ثمة معرفة سياقات ظهور أشكاله، ورصد لحظات التحول والتطور على مستوى لحظات كتابته المختلفة، ولن يتسنى لنا ذلك دون دراسته والاشتغال عليه بأن يصبح هذا النص مشغلا نقديا أساسا ضمن اهتماماتنا النقدية بطريقة تسعى للتراكم والتنويع من جهة، والمواءمة المنهجية من جهة ثانية، والدقة العلمية من جهة ثالثة. ذلك أدعى لأن نتمكن من الإجابة على الأسئلة النقدية التي يطرحها نصنا السردى، والتي يتصدرها - بلا منازع - سؤال التأريخ لظهور النص السردى وأشكال كتابته وسياقاتها. ونحن بحاجة إلى أن نجيد طرح السؤال أولا قبل البحث له عن تفسير علمي أو إجابة نقدية، وإنما يتم ذلك من خلال وضوح الرؤية النقدية، ومستوى فهم الدارس وتمكنه ووعيه بآلياته وأساليبه المنهجية بصرف النظر عن اختلاف المقاربات النقدية في تعاملها مع الأدب ونصوصه وفي تأريخها له، ومن هنا يطرح سؤال: كيف نؤرخ لتشكل النص الإبداعي؟

- هل يتم التأريخ لنصوص الأدب من خلال قراءتها بالتركيز على سياقاتها الاجتماعية والتاريخية التي لا يمكن عزلها عنها باعتبارها جزءا منها ومساعدًا أولا في فهمها وتفسيرها (كما هو الحال عند أصحاب التيار التقليدي ذو المرتكز التاريخي الاجتماعي)؟

- أم أنه يجب علينا أن ننطلق في التأريخ للنصوص الإبداعية انطلاقا من ذاتها؟ (وفق التصور النصاني - الشعري) باعتبارها بنية دلالية مستقلة لا يتوجب ربطها بالسياقات الخارجية؟

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- أم أنه يلزمنا الجمع بين التصورين (وفق التصور التكاملي) من أجل الإحاطة والتكامل المنهجي الذي يروونه من المباحات النقدية التي لا جناح على أصحابها؟ أم أن الجمع بين التصورين إساءة منهجية قاذبة، وخطيئة نقدية لا يجوز ارتكابها (وفق تعبير دعاة الالتزام بمنهج واحد)؟ وكيف نوفق بين مبدأي "اللزوم والتعدي"¹ في الدراسات النقدية.

وإذن فنحن بحاجة لتحديد السؤال النقدي بمظاهره ومستوياته المتعددة، ثم للانطلاق من الملائم والموائم من بين تلك الخيارات والتصورات النقدية المتباينة.

وإذا كان التصور النصي الجديد (الشعرية) يلغي الاهتمام بالسياق الخارجي (الاجتماعي والتاريخي...) - في إطار تأريخه للنص الإبداعي-، فإنه يقيم مستوى من العلاقة بالسياق الخارجي (الثقافي والفني) من خلال الاهتمام بالتفاعلات النصية عبر مسار تحولات الزمن الثقافي والفني للنصوص الإبداعية وتعالفاتها مع بعضها، حين يعتبر أصحاب هذا التصور النقدي أن التأريخ للأدب « إنما هو تأريخ لزمنية ظهور نصوص هذا الأدب وتاريخية تشكلها الفني في علاقة هذه النصوص وأشكالها الأدبية بتداوليتها الاجتماعية والثقافية داخل الفضاء الذي أنتج هذه النصوص والأشكال إذ أننا نعتبر أن العلاقة التي بيننا وتاريخ أدبنا العربي ما زالت بحاجة إلى الدراسة وإعادة النظر وانبثاقها على أسس وأليات وتصورات هي إلى الأدب وموضوعه أقرب وأدخل منها إلى التاريخ والجغرافيا»².

فهل يمكن اعتبار هذا التصور إقراراً من أصحاب السرديات - من حيث لا يشعرون - بضرورة المزج والتكامل وحتمية الخروج - بنسبة ما - من اللزوم إلى التعدي في دراسة الظاهرة الأدبية ذات الأبعاد الجمالية المزدوجة؟

¹ هذين المصطلحين استخدمهما الدكتور سعيد يقطين -خلال محاضراته في مدرسة الدكتوراه بجامعة نواكشوط سمنير التكوين دجنبر 2016 - للدلالة على ثنائية تصوري المنهج الواحد وتعددية المناهج.

² محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني (قراءة لظهور الأنواع والأشكال السردية)، ص: 32

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تلك أسئلة نقدية تثيرها لحظة الدراسة، تتعلق في جوهرها بإشكال المواعمة المنهجية في دراسة النص الإبداعي بشكل عام، وتبرز وتعدد المداخل النقدية المؤرخة للأدب بأشكاله المتعددة في ظل غياب تراكم نقدي يعين الباحث على نقاش هذه القضايا والإجابة على الأسئلة النقدية التي تطرحها. وبين سؤال التأريخ وسياق الظهور يبرز سؤال "المرجع" في النص السردي الموريتاني، فهل سار السارد الموريتاني في ركاب الشاعر الموريتاني في ارتباطه بالمرجع الثقافي وتحلله من مرجعه الاجتماعي؟ أم أنه خالف نهج سابقه واتخذ لنصه السردي مرجعا مغايرا؟

إن سؤال المرجع سؤال نقدي مطروح على مستوى النص السردي تستدعي الإجابة عليه تتبع سياقات تشكل هذا النص لكشف ارتباطاته وسياقاته المرجعية المشكلة له، إننا بالعودة إلى سياقات ظهور أشكال الكتابة السردية ندرك أن المرجع في نصوص هذه الأشكال مرجع اجتماعي في أغلب أحيانه، وإذا كان المبدع الموريتاني قد شغف في نصه الشعري بالانفتاح على مرجعه الثقافي، فإنه في نصه السردي بدا أقرب وأشد التصاقا بمرجعه الثقافي حتى في لحظات تعالقه مع نصوص التراث السري العربي (الرسالة، المقامة، الكرامة، الحديث...)، ثم تعزز الارتباط بالمرجع الاجتماعي بشكل أكثر على مستوى النص السردي الموريتاني الحديث (الرواية الموريتانية)، حيث انفتح الروائي الموريتاني بشكل واسع النطاق على مظاهره وظواهره الاجتماعية بتجلياتها المختلفة داخل الفضاءين المكانيين اللذين عايشهما هذا المبدع (الصحراء، المدينة)، وارتسمت بذلك إحدى صور خصوصية النص السردي الموريتاني.

3 - السرد الموريتاني وسؤال الشكل (شعرية الشكل)

ونعني بالشكل هنا سؤال "الأدبية" (شعرية النص) بوجه عام، وسؤال النوع (الأشكال السردية)، نظرا لتربط هذين السؤالين وتكاملهما في تشكيل ورسم ملامح الشعرية في نصوص المدونة السردية الموريتانية ذات الأنواع والأنماط السردية المتنوعة¹.

¹ انشغل أستاذي الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم بسؤال الأدبية في النص الأدبي الموريتاني، مثل ما انشغل أستاذه الدكتور أحمد بن الحسن بسؤال الأسلوب في النص الشنقيطي، فصدرت له العديد من البحوث والدراسات النقدية عن السرد الموريتاني انشغلت بشعرية الشكل وسردية النص، وتاريخ ظهور الأنواع وخاصة الرواية

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إننا في هذا المستوى سنكون أمام أسئلة جوهرية من قبيل سؤال: سرديّة النص؟ وسؤال: الشكل السردى لهذا النص؟ وهما سؤالان من أكبر الأسئلة النقدية، وأكثرها حضوراً عبر تاريخ الممارسات النقدية العربية المهتمة بالنص الإبداعي منذ القدم. فطالما أرق هذين السؤالين أصحاب المقاربات النقدية على اختلافها وتنوعها وتطورها.

إن الحال على مستوى إشكال سرديّة النص وشعرية الشكل - في السرد الموريتاني - ليس أحسن منه على مستوى تاريخ التشكل وسياقات الظهور، فلا زلنا بحاجة لجهود مضاعفة وجادة لطرق وتناول هذه القضايا مجتمعة.

وإذا كانت التجارب النقدية الموريتانية اللاحقة على التجربة الذاتية لغير المتخصصين قد استطاعت تطوير مرتكزاتها النقدية ومراجعة أدواتها وآلياتها على نحو علمي ومنهجي، واهتم بعض أصحابها - نسياً - بسؤال التأريخ للنص الإبداعي وشعرية أشكاله، فإن حظ النص السردى من هذا الاهتمام بات ضئيلاً وضامراً إلى اليوم، سيما في شقه التراثى مقارنة بما حظي به السرد الموريتاني الحديث من دراسات تراكمية مع النخبة الأكاديمية الجامعية من خلال أطاريح ودراسات وأعمال نقدية تناولت هذا النص (الرواية الموريتانية) من أوجه ومستويات مختلفة (التشكل، والدلالة، والشعرية...) ووفق مناهج وتصورات نقدية متعددة ومتباينة. غير أن حظ النص السردى الموريتاني من ذلك ما فتئ ضئيلاً ومحصوراً في زوايا محدودة، وهو ما يتجلى - حتى - على مستوى الوعي بأشكال كتابة هذا النص لدى المبدع والمتلقي والباحث في آن¹.

خاتمة

إنه من الغبن وربما المين أن ندعي الإحاطة بقضايا السرد الموريتاني وإشكالاته النقدية في بضع سطور، وإنما نعتبر هذه السطور إثارة لأهم تلك القضايا والإشكالات التي يطرحها النص السردى وأكثرها إلحاحاً في وقت لا يزال فيه هذا النص بحاجة لمزيد دراسة وبحث ووصف وتفسير. إننا هنا

أنظر بحثه "ظهور الرواية الموريتانية تحول من أدبية الشعر إلى أدبية القصة" في الملف الخاص بلامع الأدب الموريتاني الحديث، بمجلة الآداب البيروتية، العدد 3/4 مارس - أبريل 1997، ص ص: 51 - 57.

¹ كثيراً ما يكتب المبدع الموريتاني في أفق تعالق مع أشكال سرديّة يخفق في تمثيلها دون أن يشعر فيبدو نصه مريكاً وغير قار في شكله السردى النهائي، على نحو ما نجد في تجربة كتابة الحديث في السرد الموريتاني.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

لا نقدم إجابات بقدر ما ندل على أسئلة، انطلاقاً من تصورنا ضرورة إثارة الأسئلة النقدية لهذه المدونة والبحث لها عن إجابات علمية دقيقة، ذلك أن حصر الأسئلة النقدية للمنتج الإبداعي أكبر معين على دراسته.

وانطلاقاً مما تقدم فإننا أردنا أن نثبت بعض الملاحظات المهمة التي أمدتنا بها التأويلات الموجزة السابقة.

- أن الوعي بالنص الإبداعي إنما يصدر عن دراسته والبحث حوله، ومتى راكمنا البحث حول هذا النص ودراسته تشكل لدينا الوعي النقدي الذي به ندرك الأبعاد الجمالية المختلفة في النص الإبداعي.
- أن الاتكاء على الذائفة المنطقية في دراسة المنتج الإبداعي أمر يخل بعلمية المنهج ودقة المعطيات، ذلك أن الركون للمتلقي سلوك يرتبط أكثر بالمبدع دون الناقد، فهو مقبول مستساغ من المبدع غير أنه لا مجال لاستساغته من قبل الباحث الناقد الذي يراد منه بناء معرفة علمية حول الإبداع، ومن هنا تختلف منطلقاتهما ودورهما، فهذا (المبدع) ينتج إبداعاً - وفق ميول جمهوره -، وذاك (الناقد) ينتج معرفة.
- أن خصوصية النص السردي تتطلب خصوصية في نمط المنهج والأدوات النقدية المعتمدة لدراسته ووصفه وتفسيره.
- أن منطق المفاضلة في العملية النقدية منطق خاطئ ومغلوط، ذلك أن حركة التطور في المناهج والرؤى النقدية إنما تقوم على أساس المناهضة والمغالبة وفق مبدأ الملاءمة والمواءمة، ومن ثمة فلا عبرة بالحساب الزمني داخل الممارسة النقدية. إنه متى ما صحت المواءمة صحت المغالبة، والمحدد الأول لذلك إنما هو النص الإبداعي نفسه.

ليالي ألف ليلة لنجيب محفوظ:

نموذج للرواية العربية التأصيلية

عبد الرحمن ولد محمد سيديا

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

1. توطئة:

استطاعت الرواية أن تتبوأ مكانة خاصة بين الأجناس الأدبية في الغرب، ثم انتقلت إلى الأدب العربي خلال عصر النهضة العربية الحديثة، فانبهر بها كتاب وسلموا بأنها أهم مقوم يمكن أن تقاس به درجة رقي الآداب فصاغوا نصوصا سردية على شاكلتها⁽¹⁾. ويذهب كثير من مؤرخي الرواية العربية إلى تحديد سنة 1870 كبداية لظهور نصوص روائية بغض النظر عن درجة اكتمالها من الناحية الفنية والشكلية⁽²⁾. ويعود معظم تلك النصوص الأولى إلى بلاد الشام، حيث توافرت شروط ترجمة بعض الآثار، وتم التفاعل مع أجناس تعبيرية جديدة. ولعل تجربة الأدب العربي بالمهجر أن تكون أهم رافد دعم هذا الاتجاه التجديدي الذي شمل الشعر والنقد والرواية⁽³⁾. وبدون التقيد بالتتابع التاريخي لظهور النصوص، وبدون التمييز بين مواطنها، يمكن القول إن بداية الأربعينات من القرن العشرين شهدت ظهور نصوص كثيرة تستوحي شكل الرواية كما أدركه الكتاب، مع ما في ذلك من تفاوت في الفهم والاطلاع على الرواية الأجنبية⁽⁴⁾.

(1) د. فوزي الزمردي: شعرة الرواية العربية، بحث في أشكال تأصيل الرواية العربية ودلالاتها، مؤسسة القدموس الثقافية، 2007، ص: 9.

(2) محمد براه: أسئلة الرواية أسئلة النقد، الطبعة الأولى، 1996، ص: 18.

(3) نفس المرجع.

(4) نفس المرجع، ص: 19.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أما النصوص المتميزة التي استطاعت أن تؤسس عناصر رواية عربية لها سمات فنية ونكهة خاصة فتظل قليلة طوال هذه الفترة. وتقف رواية "حديث عيسى بن هشام للمويلحي علامة بارزة على طريق نشوء الرواية العربية⁽¹⁾.

وتسعى هذه العجالة إلى استجلاء ملامح من المحاولات التأصيلية للفن الروائي في الثقافة العربية تتباين فيما بينها تباينا كبيرا. فمنها ما كان مرتكزه على البعد الشكلي، ومنها ما كان على المستوى الموضوعاتي. يمكن - إجمالا - القول إن النصوص المتميزة التي استطاعت أن تؤسس عناصر رواية عربية لها سمات فنية ونكهة خاصة ظلت قليلة طوال هذه الفترة التي شهدت نشأة الرواية العربية وتطورها، وتقف رواية "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي التي أشرنا إليها آنفا علامة بارزة على طريق نشوء الرواية العربية وتأصيلها، إذ إنه اعتمد على لون سردي تراثي معروف هو فن المقامة ليعبر من خلال شكله عن بعض القضايا الجديدة التي يطرحها عصره.

ولئن كان دخول بعض القامات الشامخة معترك الإبداع، في إطار هذا الجنس الأدبي الجديد، قد قاد إلى تراكم النصوص الروائية التي تتحو منحى غريبا وخفت، نتيجة لذلك، صوت المويلحي أمام رياح التقليد العائنة للرواية الغربية⁽²⁾، فإن صوت الرواية التأصيلية سيتدرد لاحقا على يد محمود المسعدي في روايته: "حدث أبو هريرة قال".

وقمين بنا أن ننبه إلى أن كتاب الرواية التاريخية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، لم يكونوا يحملون هم التأصيل للرواية العربية، وإنما كان يحدوهم هم البحث عن مادة سردية جاهزة، أو كانت تنفعهم رغبة في إطلاع القراء على جوانب مشرقة من التاريخ العربي والإسلامي⁽³⁾. ومع أن هذه الرواية قد صدرت عن رؤية تأصيلية عميقة وواعية تضرب بجذورها في تربة التراث العربي الأدبي والديني، فإنها لم تغير وجهة الروائيين العرب طوال النصف الأول من القرن العشرين، لأن المؤلف لم ينشر نصها الكامل الدال على الانتماء إلى الجنس الروائي إلا في مطلع السبعينات⁽⁴⁾.

(1) نفس المرجع.

(2) شعرية الرواية العربية، ص: 9-10.

(3) نفس المرجع السابق، ص: 9.

(4) نفس المرجع السابق، ص: 10.

ولذلك ظل الطريق ممهدا أمام الرواية العربية للسير على نهج الرواية الغربية، فتسارعت خطاها خاصة بعد أن أعطاها نجيب محفوظ دفعا جديدا، إذ استطاع أن يقطع بها أشواطا واسعة على طريق مواكبة مسيرة الرواية الغربية، فطوعها لسبر واقع مجتمعه وطرق القضايا الاجتماعية والنفسية والسياسية التي تشغله⁽¹⁾.

ورغم ما نتج عن ذلك المسار من احتذاء الرواية العربية لأساليب الرواية الغربية من حيث الشكل والاتجاهات الأدبية، فإن ما حظي به ذلك الجنس الأدبي من منزلة رفيعة، قد أغرى الروائيين العرب بفتح رواياتهم على نفس الحقول التي غدت الرواية الغربية، سعيا من وراء ذلك إلى بلوغ مصاف الرواية العالمية⁽²⁾.

لكن هزيمة 1967، زعزعت القناعات، واحتدمت بفعلها الشكوك لدى فئة من المثقفين العرب في جنوائية مشاريع التحديث التي اتبعتها مجتمعاتهم منذ بداية عصر النهضة⁽³⁾، فقد أسفرت المواقف المقيتة للغرب عن وجهها الكالح، وراح الكتاب يراجعون مختلف توجهاتهم. وفي خضم هذا الجو الحضاري المركب والحائر، دوت في سماء الأدب العربي الحديث نزعات تجريبية تبحث عن أشكال كفيلة بالتعبير عن الواقع العربي إثر الهزيمة، فتزعزع الشكل الكلاسيكي الذي ساد الرواية العربية طوال النصف الأول من القرن العشرين⁽⁴⁾ ولذلك ولى الكتاب وجوههم شطر التراث العربي الذي مثل مشربا رئيسا من مشارب الرواية العربية الصادرة غداة الهزيمة، إذ فتح رواد ذلك المنحى نصوصهم الروائية على متناص تراثي لونها بلون تراثي⁽⁵⁾.

2. المحاولات التأصيلية في الرواية العربية

في رحلة الرواية العربية من النشوء إلى النضج عُرِفَت عدة تطورات كان أهمها ما عرفتته من تأرجح بين التأصيل والتغريب. فإذا كان التغريب يعني الارتباط بالغرب عن طريق تقليد أساليب الكتابة

(1) نفس المرجع السابق، ص: 10.

(2) نفس المرجع السابق.

(3) نفس المرجع.

(4) نفس المرجع السابق، ص: 10-11.

(5) نفس المرجع، ص: 11.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الروائية الغربية، فإن التأصيل يدل على عراقة الشيء الأصيل وتجذره في ماضيه، فقد جاء في المعاجم العربية أن "التأصيل" مصدر من فعل أصل، وأن مجردة أصل، كما أن هذا الفعل يفيد معنى الارتباط بالأصل، فـ"أصل الشيء: صار ذا أصل. وكذلك تأصل". والأصل هو النسب وهو أيضا الحسب: أي ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه⁽¹⁾، أما المقصود بتأصيل الرواية العربية، فهو إنشاء نصوص سردية تنطوي على العناصر الأجنبية المشتركة بين طبقة النصوص الروائية وتفتح في الوقت نفسه لاستيعاب خصائص التراث السردى العربى، بغية معالجة ما يستجد من قضايا بأسلوب مبتكر، ينبئ عن قدرتهم على إبداع نصوص روائية، أصلها ثابت في تربة التراث السردى العربى، وفرعها منفتح على ما تجود به سمات الإبداع العالمى، فلا تقليد للتراث السردى العربى ولا إتباع غير واع لأساليب الكتابة الروائية الغربية، وإنما توازن ببؤى الرواية العربية منزلة بين منزلتين تقود إلى تفاعل مخصب وإيجابي تأخذ فيه الذات المبدعة مكانتها الخاصة⁽²⁾.

ولعل أولى المحاولات على هذا الدرب أن تكون: "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي، إذ بدأ الكاتب نشر روايته في حلقات منذ 1889 بمجلة "مصباح الشرق" لغاية تعليمية إصلاحية. ويبدو جليا لقارئ هذا النص ما يسم شكله من سمات المقامة وأدب الأخبار، كما أن صاحبه فتح فصوله بعضها على بعض فتحا أضفى عليها صبغة روائية⁽³⁾.

وإذا كان هذا المستوى الشكلي قد عكس مرحلة التحول التي يجتازها المجتمع العربى آنذاك لاتصاله بالغرب، فإنه يوحى بأن الكاتب قد أعرض عن إتباع سبيل الذين سلكوا إحياء التراث السردى العربى، مثلما أعرض عن نهج الذين قلدوا أساليب الرواية الغربية، ليكون ذلك دليلا على الطريق الذي ينبغي أن تسير على هديه الحركة القصصية الحديثة التي بدأت تخترق الأدب العربى في عصره⁽⁴⁾.

(1) مادة أصل: القاموس المحيط، المعجم الوسيط.

(2) شعرية الرواية العربية، ص: 9-10.

(3) نفس المرجع، هامش 1/ ص: 9.

(4) نفس المرجع السابق.

ولا تدخل في هذا الباب جهود بعض الروائيين العرب الذين انكؤوا على التاريخ بإدانة المستعمر وأتباعه، ولم يصل بهم الأمر إلى فتح نصوصهم الروائية على خصائص تراثهم السردى، كما أنها لا تنم عن أي ملمح من ملامح التأصيل⁽¹⁾.

3. الكتابة التأصيلية عند نجيب محفوظ

وإذا كان نجيب محفوظ قد انبهر بالرواية الغربية وقلد أعلامها في مرحلة من مراحل حياته الإبداعية، فإنه قد أدرك منذ السبعينات وبعد هزيمة سبع وستين، أنه سلك اتجاها قطع الصلة بين رواياته وذاته، ونأى به عن خصائص التراث السردى العربى، ولذلك صمم على تجنب التقليد واتخذ التراث السردى متكاً لتأصيل روايته، إن استجابت تلك النزعة التأصيلية للنغمة الصادرة من أعماق ذاته⁽²⁾. ذلك أن مفهوم نجيب محفوظ لتأصيل الرواية العربية ينهض على ركيزتين رئيسيتين أولاهما في إعراض القاص العربى عن التقليد، وتقوم ثانيتهما على إنصاته إلى تلك النغمة النابعة من أعماق ذاته، ومن هنا ينبع اهتمام الرواية العربية بواقع مجتمعتها، وتتلون أشكالها بسمات تراثها السردى⁽³⁾. لكن الكاتب يضيف أن فنيات التراث السردى لا تغني أحيانا عن فنيات القصص الغربى الحديثة، كما أنه لم ير مانعا من أن يسلك الروائيون العرب سبيل "المودرنيزم" لأنه لم يعتبر تلك الوجهة تقصى عن التأصيل، ما دام الروائى العربى ينصت إلى تلك النغمة النابعة من أعماق ذاته، ففي ذلك منجاة له من قيود التقليد، وتميز يميز آثاره من غيرها مهما كانت وجهتها⁽⁴⁾. وتجدر الإشارة إلى أن استعمال نجيب محفوظ لمصطلح: "التأصيل" لا يخرج به عن الفضاء الدلالي المحيط بالجذر "أصل"، وبيعض مشتقاته، فقد صرح بأن تأصيل الرواية العربية يفضي إلى ربطها بذوات مبدعيها وبواقع مجتمعاتهم وبتراثهم السردى، في الوقت الذى يهدم فيه التقليد تلك الصلات ويحول الروايات العربية إلى نسخ باهتة من الروايات الغربية⁽⁵⁾.

(1) نفس المرجع السابق، ص: 9.

(2) نفس المرجع السابق، ص: 34.

(3) نفس المرجع السابق.

(4) نفس المرجع السابق

(5) نفس المرجع السابق

4. ليالي ألف ليلة لنجيب محفوظ

تغطي ليالي ألف ليلة ما يقارب ثلاثمائة صفحة، وتبدأ من حيث انتهت حكايات "ألف ليلة وليلة"، ففي فجر اليوم الذي أعلن فيه شهر يار العفو عن شهر زاد، انطلقت الأحداث، إذ بدأت الرواية باسترجاع وحذف، وجاءت فصولها السبعة عشر على النحو التالي:

- أربع حكايات تمهيدية: شهر يار، شهر زاد، الشيخ، مقهى الأمراء.
 - اثنتا عشرة حكاية تمثل أحداث الرواية الحقيقية.
 - حكاية تمثل الخاتمة.
 - أما الحكايات الاثنتا عشرة فهي:
 - صنعان الجمالي (12 مقطعاً سردياً)
 - جمعة البلطي (17 مقطعاً سردياً)
 - الحمال (23 مقطعاً سردياً)
 - نور الدين ودنيا زاد (29 مقطعاً سردياً)
 - مغامرات عجر الحلاق (21 مقطعاً سردياً)
 - أنيس الجليس (20 مقطعاً سردياً)
 - قوت القلوب (17 مقطعاً سردياً)
 - علاء الدين أبو الشامات (18 مقطعاً سردياً)
 - السلطان (7 مقاطع سردية)
 - طاوية الإخفاء (15 مقطعاً سردياً)
 - معروف الإسكافي (11 مقطعاً سردياً)
 - السندباد (6 مقاطع سردية)
 - البكاؤون: ونتعرف من خلالها على ما جرى لشهر يار بعد تجربته مع الدورة الثانية⁽¹⁾.
- وأول ملاحظة تلوح في أفق النص هي أن شهر يار أصبح يحتل الصدارة. وأن شهر زاد قد أزيحت عن المركز الأول، كما أن الكاتب بدأ روايته فجر اليوم الذي صدر فيه العفو عن شهر زاد.

(1) نجيب محفوظ: ليالي ألف ليلة، دار الشروق.

لقد جاءت رواية نجيب محفوظ لتهدم النص السابق ولتقيم على أنقاضه نصا جديدا ببنية جديدة ودلالة جديدة⁽¹⁾. إنه مراجعة للنص الشهرزادي شملت الشكل والمضمون، وإن كان النص اللاحق ظل مسكونا بالنص السابق، إذ وسم الكاتب أكثر فصول روايته بأسماء عدد من شخصيات: "ألف ليلة وليلة"، فقد فتح بعض الفصول على بعض حتى بدا تسلسلها الزمني ليكون ذلك قرينة دالة على ما أثر في مسيرة الشخصيات من عوامل حتى آلت إلى ما آلت إليه من مصير⁽²⁾.

ووفاء منه لبعض ما يميز حكايات النص السابق نراه حريصا على أن تبدأ كل حكاية بالرقم 1، ثم تتسلسل الأحداث بعد ذلك، فإذا انتهت الحكاية، بدأت الحكاية الموالية بالرقم 1،⁽³⁾ ويمكن أن نعلل ذلك بأن كل رقم يشير إلى ليلة معينة.

وتفرض ملاحظة أخرى نفسها علينا وهي أن التراتب الاجتماعي الذي بلورته الجملة الافتتاحية، جاء موازيا للترتيب الزمني في تعاقب الأحداث داخل النص الجديد⁽⁴⁾، ذلك أن أولى الحكايات بعد الفصول الأربعة التمهيدية هي حكاية صنعان الجمالي ولقائه بالعفريت قمقام، والتي كانت حقا الحدث الحاسم الذي قدح شرارة السرد، وأخل بتوازن العالم بعد صدور العفو، وتأتي حكاية معروف الإسكافي التي كانت آخر الحكايات في ألف ليلة وليلة قبل حكاية السندباد ليتم إغلاق القصة بحكاية "الكاؤون"⁽⁵⁾ التي نتعرف من خلالها على ما جرى لشهريار بعد تجربته مع الدورة الثانية من الحكايات التي عاشها بنفسه ولم تروها عليه شهرزاد.

وتأكيدا للتوازي بين الترتيب الزمني للأحداث والتراتب الاجتماعي الذي بلورته الجملة الافتتاحية نجد أن مقهى الأمراء: "تشهد لياليه كثيرين من السادة من أمثال صنعان الجمالي وابنه فاضل، وحمدان طنيشة وكرم الأصيل، وسحلول وإبراهيم العطار وابنه حسن، وجليل البزار ونور الدين وشملول

(1) سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى، رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص: 66.

(2) شعرية الرواية العربية، ص: 57.

(3) نبيلة إبراهيم، الليالي في الليالي، فصول، م 2 / ع 4 / 1982.

(4) صبري حافظ، جدليات البنية السردية المركبة في ليالي شهرزاد ونجيب محفوظ، فصول م 13 / ع 2 / 1994، ص: 38.

(5) ليالي ألف ليلة.

حوايل كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الأحذب، كما تشهد كثيرين من العامة أمثال رجب الحمال وزميله السندباد وعبر الحلاق وابنه علاء الدين وإبراهيم السقا ومعروف الإسكافي⁽¹⁾.

لقد مهدت المشاهد الأربعة الأولى الطريق أمام أحداث الرواية التي ستتطلق لاحقاً، إذ تم في الفصل الأول لقاء شهريار بدندان، وفي الفصل الثاني كانت مقابلة دندان لشهرزاد، أما الفصل الثالث، فقد جاء ليعرف بالشيخ عبد الله البلخي وبموقفه من الأحداث التي انطلقت من قصر شهريار، وما أعقب ذلك من لقاء بالطبيب عبد القادر المهيني بعد أن سأل عنه. وفي لقاء الشيخ والطبيب تساعل الطبيب عن ينقذ الحي من فساد حاكمه على السلولي.

وقد مهدت نهاية هذا الفصل للفصل الرابع بعد أن غادر الطبيب الشيخ إلى مقهى الأمراء الذي مثل الفصل الرابع والذي عرف بالرواد الذين يرتادونه، وفي هذا الفصل أعلن السندباد عزمه على الرحيل⁽²⁾. لذلك جاءت هذه الفصول الأربعة لتمثل مفاتيح للنص، لأنها أرهست بأحداث هامة ستؤثر في مجرى الأحداث.

وإذا ما انتقلنا إلى الفصل الخامس من الرواية والذي يمثل بداية الأحداث الحقيقية في الرواية، نجد أنه قدم تشخيصاً للدوافع التي دفعت صذعان الجمالي إلى قتل حاكم الحي على السلولي..

ويبقى هذا التسلسل علامة بارزة على ارتباط فصول "ليالي ألف ليلة" ارتباطاً زمنياً وحدثياً، رغم ما توحى به عناوينها من انفصال بعضها عن بعض. فالكاتب لم يتكئ على البنية الخاصة لألف ليلة وليلة في تشكيل بنية لياليه وإنما وظف جملة من المناقلاات الشكلية ليضيفي على نصه السردى مسحة روائية تتأى به عن بنية النص السابق، ولذلك نراه يدرج العناصر التي استقاها من النص السابق في إطار بنية حكاية واحدة لها بداية ونهاية، ولها بذلك بناؤها ونحوها الخاص على عكس ألف ليلة وليلة التي تزخر بالحكايات المختلفة بعضها عن بعض على عدة أصعدة⁽³⁾.

ولا يخفى على أولي الأبواب ممن قرؤوا النصين السابق واللاحق أن الكاتب عزز المناقلاات الشكلية بمناقلاات دلالية من أجل أن يبرر قضايا روايته ويحدد مساراً لأحداثها مبرراً حرصه على تغيير

(1) نفس المرجع السابق.

(2) نفس المرجع السابق.

(3) شعرية الرواية العربية، ص: 57.

دلالات النص التراثي ووجهة النظر التي تحكمه وتوجهه. ولذلك عمد إلى توحيد أمكنة الأحداث وأزمنتها حتى يقف نصه السردي على أرضية روائية يحكمها منطقها الخاص⁽¹⁾، ولذلك استطاع محفوظ بفضل المناقشات التي اعتمد عليها تحويل قسم من دلالات ألف ليلة وليلة: "بما أن ميل النصوص اللاحقة إلى تغيير الأطر التاريخية - الجغرافية التي تضم أحداث النصوص السابقة يجبرها حتماً إلى تحويل مكونات أحداثها ومساراتها، ويفضي إلى تحويل دلالاتها تحويلاً سافراً"⁽²⁾. لقد كان الكاتب واعياً حين اختار نصاً تراثياً شعبياً عابراً للتاريخ، ليعبر من خلال شكله الذي تصرف فيه عن رؤية جديدة في أفق جديد، إذ أسست الرواية منذ حكايتها الأولى بنية للعالم تعتمد على التوازي بين الخير والشر من ناحية، وبين عالم البشر وعالم العفاريت، عالم الغيب وعالم الشهادة من ناحية أخرى. ففي مقابل مقام وسنجام اللذين يمثلان الخير، يقوم سخربوط وزرمباجة اللذان يجسدان الشر، ولذلك فإن أحد عناصر البناء الروائي الفاعلة والمهمة في الرواية هي إدخال الخيالي في الواقعي، ومزج عالم البشر بالعفاريت منذ الحكاية الأولى (صنعان الجمالي)، لذلك فإن إرادة العفاريت تحل محل إرادة البشر، أو يكشف البشر الخاملون العفاريت تحت جلودهم باكتشافهم قدراتهم التي تخلق المعجزات، وتلك أداة وظفها النص في رحلته الاستكشافية للعالم. لقد عملت موهبة الكاتب الإبداعية على تحويل حكايات ألف ليلة وليلة إلى واقع معيشي، فأصبح شهریار بذلك عرضة لمجموعة من المؤثرات: حكايات ألف ليلة وليلة التي قصت عليه شهرزاد، والتي مازالت أجواؤها تحيط بالنص الجديد وتؤثر فيه، فهو يردد صداها دائماً، لكنه في نص نجيب محفوظ أصبح يعيش هذه الحكايات واقعا ملموسا، يتجسد أمامه في أحداث تتلاحق، ويأخذ بعضها برقاب بعض، حتى أصبح ريشة في مهب رياح الأحداث، القادمة من الماضي (قصص شهرزاد)، وما يضطرب به الواقع أمامه من أحداث تبعث على العجب، اقتحمت عليه مملكته. أما المؤثر الأخير، فهو حكايات السندباد القادمة من عالم البحر. لقد التقت الأكوان في مملكة شهریار، وتعانق عالم الغيب وعالم الشهادة، مثلما التقى البر والبحر، والعلم والتصوف، والخير والشر، وفعل الزمن فعله من خلال ما مر بشهریار ومملكته من تحولات، وما خضعت له بعض

(1) نفس المرجع السابق.

(2) نفس المرجع السابق، عن جرى الجمل / palimpsestes P340-350.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الشخصيات من تطور، منتقلة من مركز اجتماعي إلى آخر في تأرجح بين الصعود والهبوط، وتبدل في رجال السلطة.

فإذا كانت الحكايات قد انتزحت عن طبيعتها الأجناسية الأصلية تتحول إلى جنس أدبي هو الرواية، فإن ما قصته وباحت به من عجب عجاب، كشف عنه واقع مملكة شهریار التي أصبحت مسرحاً يضج بكل ما هو غريب وعجيب. ذلك أنه بالإضافة إلى ما تقدم نجد أن فضاء هذه المدينة قد أصبح فضاء للعالم الذي اجتمع في مملكة شهریار مثلما أصبح زمنها مجسداً لأزمنة مختلفة، إذ يلوح على مسرح الأحداث آدم أبو البشر وقصة الشجرة المحرمة (فتح شهریار للباب الممنوع)، مثلما تطفو على سطح الأحداث قصة سليمان عليه السلام وخاتمه (طاقة الإخفاء) كما تتسع دائرة المسرح لتبوح لنا الرواية بقصة المسيح عليه السلام الذي نجاه الله من الصلب (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)، مجسدة في قصة جمصة الباطي الذي أنقذه عفريته من الموت، وتجسد قصة جمصة أيضاً التضحية واللامبالاة بالموت من خلال ما ترسله من إشارات دالة على علاقتها بقصة خبيب الصحابي الجليل:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

كما يظهر هارون الرشيد ووزيره وسيفه.

إنها حقاً كتابة روائية لتاريخ البشرية عبر ما يحمل من انتصارات وهزائم، من سعادة وشقاء من خلال أحداثه الكبرى ونماذجه الأصلية.

كما تتسلل إلى النص قضية نظام الحكم، إذ أرسلت الرواية إشارات توحى بنوع من الدلالة المتصل بقضية نظام الحكم عبر التاريخ إلى أن وصلنا إلى ما يشير إلى الآية الكريمة: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين}.

وذلك من خلال ما خضعت له السلطة من تحولات قادت معروف الإسكافي إلى ما انتهى إليه من عز باعتلائه مكانة سلطوية لم يكن يحلم بها. وإذا كانت الرواية قد أكدت صلتها بالتراث عن طريق محاورة حكايات ألف ليلة وليلة محاورة مخصبة، طرحت من خلالها رؤية للعالم عبر تاريخه الطويل، تتخذ من دوران الزمن ومن تحولات الطبيعة، وما يصاحبها من تفاؤل وتشاؤم، وصعود

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهبوط للإنسان، وسيلة للتعبير عن استعادة أحداث التاريخ وتكرار أخطاء الإنسان، وإن تلون كل ذلك بلون عصري.

5. ملاحظات ختامية:

يمكن القول إن ما أدلى به الكاتب من تصريحات حول تجربته الروائية، يقف شاهداً على سعة اطلاعه على الأدب الروائي الغربي، وعلى المذاهب الفكرية الكبرى التي طبعت فكره بطابعها الخاص، وعلى أنه انبهر بالرواية الغربية ونهل من مظانها، إلا أنه رغم كل ذلك كان يشعر بنوع من الضجر والاشمئزاز، بعد أن قطع شوطاً واسعاً على طريق الرواية الغربية، لأن انسياقه وراء تياراتها جعله يشعر بنوع من القصور عن ملاحقة موجاتها التجديدية المتعاقبة، شأن جيله من الروائيين العرب. "وقمنا برحلة طويلة وارتطمنا بأخطاء بدائية، وتخبطنا كمن يسير معصوب العينين، وكان علينا أن نغوص في واقعنا وأن ندرس فن الرواية وأن نؤلف في وقت واحد"، كما صور الأزمة التي تعرض لها جيله: "وتبين لنا أننا مسبقون بأجيال وأجيال وأن تجاربنا تقتضي التعبير بأشكال اعتبرت في مواطنها بالية، وأن الأشكال الحديثة تمثل رؤى لا تبصرها أعيننا". وربما كانت هذه الأزمة التي عكرت صفو الكاتب وأرقته عائدة إلى تخبطه في شباك التقليد؛ لا إلى عجزه عن تمثيل ألوان التجديد في الرواية الغربية.

لقد صرح الكاتب بأنه انبهر بالرواية الغربية، إذ اعتقد "أن الشكل الغربي للرواية هو الشكل العالمي"، كما أعلن أنه انتبه إلى خطئه عندما بدا له أن ذلك الشكل "شكل غربي مرتبط بالحضارة الغربية وأنه توجد أشكال متعددة للرواية والأدب والفن في العالم"⁽¹⁾.

(1) نجيب محفوظ: يتذكر، إعداد جمال الغيطاني، دار المسيرة، بيروت - لبنان.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المصادر والمراجع:

أ) المصادر:

- ألف ليلة وليلة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان

- ليالي ألف ليلة، نجيب محفوظ، دار الشروق

ب) المراجع:

- جمال الغيطاني، نجيب محفوظ يتذكر، دار المسيرة، بيروت - لبنان

- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، رؤية للنشر والتوزيع 2006

- صبري حافظ، جذليات البنية السردية المركبة في ليالي شهرزاد ونجيب محفوظ، فصول م 13 / ع 2 / 1994.

- فوزي الزمردي، شعرية الرواية العربية، بحث في أشكال تأصيل الرواية العربية ودلالاتها، مؤسسة القدموس الثقافية 2007.

- محمد براده، أسئلة الرواية أسئلة النقد، الطبعة الأولى 1996.

- نبيلة إبراهيم، الليالي في الليالي، فصول م 2 / ع 4 / 1982.

من أدوات تحليل النص السردي: الشخصية الروائية

أحمد بن لكبيد

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

لا شك أن القارئ العادي للدراسات الروائية بات ضحية لتعدد المقاربات النقدية للنصوص السردية، واختلاف أصحابها في مسالكهم المنهجية، والتباين الشديد في طبيعة الترسانات التقنية الموظفة في التحليل المباشر للمتن السردية.

وسيجد نفسه في قلب دوامة من التجاذبات بين هؤلاء الدارسين المتجادلين حول تحديد أجرومية هذه الأدوات النقدية، وحصر عناصرها حسب مشمولات الحقل التالي غير الاستقصائي: (المفاهيم، المنهج، البنية، الشخصيات (بموجهاتها المختلفة: الرئيسة/الثانوية، الممثلين/العوامل، الأدوار/الوظائف)، الحوار (بمشتقاته المختلفة: الديالوج/المونولوج، الداخلي/الخارجي، أصوات الرواية)، وجهة النظر/ التثوير، والتناص بمشتقاته المختلفة (التناص، المناصة، الميئانصية...))، الزمان والمكان الروائيان (...))، وسيضيع لا محالة في هذا الصخب النقدي الجدلي، حين يزعم بعضهم أن هذا التخريج أو ذاك يتعلق بسطح النص وليس ببنيتها، وهذا يؤخذ ناقداً على مقارنته لأنه لم يعرف بالمفاهيم النقدية التي وظفها أو لأنه جاء بمصطلحات غير متداولة.

ويذكر في هذا المقام إشكالية الموقف من المنهج المتبع في الدراسة، هل يجب على الناقد أن يتقيد به ولا يخلطه بغيره، أم يجوز له دعمه بالافتراض من مناهج أخرى؟ وفي هذا السياق هل من سبيل إلى الخروج من ثنائية الاختزال/الانتقاء؟! وهل من المشروع إصدار الأحكام القيمية والحديث عن حضور الإيديولوجيا في الكتابات الروائية والنظر في خلفياتها الاجتماعية. وهو ما يقود إلى مسألة المفاضلة بين النقد اللساني البحت وبين النقد السبولوجي، أو مشروعية الجمع بينهما.

وبضاف إلى ما سبق إشكاليات تقديم حد فاصل بين القصة والحكاية، وبين القصة والخطاب، والمسافة بين الرواية كعمل إبداعى تخيلى والتاريخ كمرجع واقعي لمادتها الحكائية . . .

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وزيادة على ذلك نشير إلى ضبابية المصطلحات النقدية في تداخلها وترادفها، إذ تجد المفهوم الواحد يستخدم له أكثر من مصطلح خصوصا داخل الأقطاب النقدية الأوروبية...

لقد شهد النقد السردي نهاية القرن الماضي ثورة في مفاهيمه وطرائقه وتقنياته، فيمكن بشيء من الاختزال الحديث عن وجود ثلاثة أقطاب نقدية، هي الكتابات الفرنسية المشتغلة على التطوير البنيوي للنصوص السردية (رولان بارت، غريماس، جيرار جنت ...)، وهذا الأخير يعتبر نقطة تماس بين النقد الفرنسي والنقد الانجليزي القطب الثاني المهتم بأشكال الحوار وصيغته ووجهة النظر ...، أما القطب الثاني فهو المدرسة الألمانية المشتغلة على زاوية استقبال النص الأدبي وتداوليته.

وفي الحقيقة تتعايش في الساحة النقدية السردية أنماط عديدة، قد تتمازج في النص النقدي الواحد، وتستمد عتادها التحليلي -عن وعي أو بدونه -من المقاربات الأسلوبية والبنيوية، والسرد غير الموثوق، والسميولوجيا، وتحليل الخطاب،¹ ولسانيات النص والبيكاناليز psychanalyse عند كريستفا، وقد تهاجر الدراسات الشعرية إلى المقاربات السردية، فيظهر مصطلح مثل "شعرية النص القصصي".

وربما يمكن القول إنه مع بداية القرن الحالي أخذ النقد السردي مسارا جديدا، إذ أصبح كل ناقد يعمل على جوانب محلية من هذه الأدوات النقدية مراجعة وتوسعة، خصوصا على مستوى (الشخصية، التأثير، المكون الزمكاني...)، وهذا شكل فضاء رحبا لتفاعل غير مباشر وحوار خصب بين كل المشتغلين بالنقد السردي بما فيهم النقاد العرب.

ويمكن أن نمثل لهذا التجاذب النقدي بتتظير عنصر الشخصية، وهو مسمى تنتشعب فيه مسالك التعريف حائرة بين الركون إلى ما قالته عنه المعاجم، أو الاستئناس بتصوره كمصطلح فلسفي، أو الاعتماد على سياقات توظيفه في أدبيات النقد السردي.

وهكذا من باب نشر ما تم طيه في العبارة أعلاه، لا ترفدنا المعاجم القديمة بدلالة تتقاطع مع مبحثنا (على مستوى المحيط في اللغة ومختار الصحاح والمصباح للفيومي ولسان العرب ...الخ)،

¹ مارتين والاس. نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، ص: 9

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فكلها نتناول هذا الحد عبر معاني مختلفة، يمكن تلخيص بعضها بالحقول الدلالية التالية: الجسد¹، الحركة²، النظر³.

ومما تقدم يتضح أن المصدر الصناعي "الشخصية" يبعده الأدبي ظل لفظا غائبا تماما عن القواميس القديمة، وهذا ليس عجبيا، إذ كانت المباحث السردية شبه معدومة في المراجع النقدية العربية. وفي الأزمنة الحديثة بدأ هذا المفهوم يعرف ظهوره في القواميس العربية بحمولة اصطلاحية دالة، مثل ما يقدمه التعريف التالي المأخوذ من معجم "المصطلحات العربية في اللغة والأدب": "فالشخصية الروائية سواء كانت إيجابية أو سلبية، فهي التي تقوم بتحريك وتطوير الأحداث في الرواية، وهي إحدى أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية"⁴. ونجد هذا التحديد يأخذ بعدا أكثر دقة مع صاحب معجم "المصطلحات الأدبية": "تشير الشخصية إلى الصفات الخلقية والجسمية والمعايير والمبادئ الأخلاقية، ولها في الأدب معان نوعية أخرى، وعلى الأخص ما يتعلق بشخص تمثله رواية أو قصة"⁵.

وهذه المحددات المعجمية نجد ما يعرضها في سياق المؤلفات الفلسفية، كما يدل عليه التعريف التالي: "حصيلة التنظيم التكاملي لصفات الفرد الناتجة عن التفاعل الديناميكي المستمر، بين استعداداته ومكوناته الجسمية والعقلية، الموروثة والمكتسبة، وبين المؤثرات المادية والاجتماعية للبيئة التي يعيش فيها، والذي يتحدد به أسلوبه الخاص المميز له عن غيره في التكيف مع هذه البيئة"⁶.

¹ ورد في تاج العروس لمحمد الزبيدي (الكويت 1965) ص8: "شخص الرجل ككرم: بدن وضخم..."، ومحيط المحيط لبطرس البستاني (بيروت 1998) ص 455: "الشخص إنما يستعمل في بدن الإنسان...".

² جاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي (لبنان 1955)، ص 409: "... شخص الرجل من بلد إلى بلد: ذهب وسار في ارتفاع...". وفي محيط المحيط لبطرس البستاني (بيروت 1998) ص 455: "... شخص فلان حان سيره وذهبه...".

³ ورد في تاج العروس لمحمد الزبيدي (الكويت 1965) ص 8: "الرجل شخص بصره: إذا فتح عينه وجعل لا يطرف"، وفي كتاب العين للخليل الفراهيدي (لبنان 2003)، ص 325: "شخص يبصره إلى السماء ارتفع".

⁴ مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984، ص 208

⁵ فتحي إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، (د ط) دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس، تونس، 1988، ص 155

⁶ بركات محمد خليف: تحليل الشخصية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، 1951 ص 25

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهو تحديد يمكن النظر إليه كمنطلق لتلمس ثوابت الشخصية الإنسانية في تصور أكثر شمولية وتجريداً، والذي يفترض أن كل شخصية روائية تلج به في المسار السردى وتمفصلات الحكى ودينامية التفاعل بين أبطال النص الحكائي.

أما في مجال السرديات فنأخذ التعريف التالي لمؤلف "معجم السميوطيقا العامة": إنه كيان بشري متورط (أو من الممكن أن يكون كذلك) باعتباره عاملاً (أو فاعلاً) في فعل متوضع (أي محكي في المدلولات)، ونتاج خيالي لمنتوج سميوطيقي (نص، صورة الخ)¹.

"Une entité anthropomorphe impliquée (ou susceptible de l'être) en tant qu'agent (ou sujet) dans l'action thématisée (c'est-à-dire « racontée » dans les signifiés) et fictive d'un produit sémiotique (un texte, une image, etc)".

هذا التعريف يدمج عدة مكونات، منها إبداليات شخصيات النص السردى، بناء المادة السردية حسب ثنائيات قاعدية، مثل: العامل/الفاعل، الدال/المدلول، الخيالي/الواقعي.

وقد أخذ هذا المصطلح يطور بسرعة مع التحولات التي عرفها النقد السردى، فلا يكاد يخل وعمل نقدي من وقفة مع هذا المصطلح، ونورد على سبيل التمثيل المقبوس التالي ليمنى العيد: "الشخصيات باختلافها هي التي تولد الأحداث ... بإقامة علاقات في ما بينهم، ينسجونها وتنمو بهم، فتتشابك وتتعدد وفق منطق خاص به"².

وهذه البنية الثنائية للنصوص السردية هي التي أفضت إلى أن تتفرش وتتشعب إلى تقابلات أثرت كثيراً زوايا النظر إلى مفهوم الشخصية الروائية، فقد أسس المنظر السميوطيقي آلجرداس كريماس نحود السردى على تمظهرات الشخصية في النص السردى، مفرقا بين البنية العميقة التي حملها على الشخصية/الفاعل actant، وعلى الدور الموضوعاتي role thématique، أما البنية السطحية فقد أدارها حول الشخصية/الممثل acteur، والوظيفة. وهو نفس المذهب الذي سلكه راستييه في بناء حزم مكونات الشخصية من منظور أدوارها وتمظهراتها العاملة. وكل من الباحثين يتوكأ على أعمال فلاديمير بروب في دراسة نحو الحكاية العجائبية.

¹ Louis Hébert : Dictionnaire de sémiotique générale, version 13.11, Date de la version : 28-05-16 dans Louis Hébert (dir.), Signo [en ligne], Rimouski (Québec). P : 155

² العيد يمى: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990، ص 42

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهناك من اهتم بدراسة محددات الشخصية الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية، والمقارنة بين أدوارها من خلال التراكيب النحوية والمقاطع السردية، وهو ما فتح البحث في الشخصية السردية على ما يعرف بلسانيات الخطاب.

ومهما يكن، فقد درج النقد الحديث على تقسيمه ضمن الحقل الإنساني إلى شخصيات محورية رئيسة وشخصيات ثانوية عابرة، فقد اعتبر أرسطو الشخصية عنصراً ثانوياً بالمقارنة مع عناصر العمل التخيلي، وهو موقف تأثر به المنظرون الكلاسيكيون الذين رأوا الشخصية مجرد اسم يسند إليه الحدث¹.

ويستند هذا التنظير إلى طبيعة النصوص السردية السائدة آنذاك، حيث يتم إدخال الشخصية إلى النص الروائي مع مقدمات تخبر عن أوصافها وإطارها المكاني والاجتماعي، كما هو شائع مثلاً في كلاسيكيات الرواية الغربية (الرواية النيكارسية الإسبانية، والرواية التاريخية الفرنسية مع زولا وبلزاك وستندال...)، وفي روايات نجيب محفوظ ذات المنحى الاجتماعي التاريخي. وفي سياق تقديم الشخصية/الإخبار عنها ووصفاً يتم سرد "الملاحم المشكلة لشخصية الحكاية، وهي علامات داخلية وخارجية، وتنتمي لمستويات مختلفة، سردية ووصفية وخطابية، ومستقاة من مصادر متنوعة (السيرة الذاتية للشخصية وأفعالها وحواراتها الداخلية والخارجية)"²، ويتداخل وصف الشخصية والإخبار عنها بمفهوم التأثير، الذي يضع في دائرة الضوء عناصر محددة من المادة الحكائية.

ويتروك هذا البناء السردى للشخصية على مفهوم الشخصية القاعدية، التي هي تجريد لمحددات اجتماعية ومهنية وإيديولوجية شبه نمطية للفئات التي تنتمي لها شخصيات النص الروائي، وغالباً ما يتم بناؤها بلعبة المزج بين المتخيل والمحتمل التاريخي، فبعد تكثيف هذه المحددات يتم إسنادها إلى اسم معين وفق ما أشار إليه التنظير السردى الكلاسيكي الأنف الذكر. وهذه المميزات قد يقدمها الكاتب في مستهل العمل السردى، أو ينثرها على امتداد ذلك العمل بصيغ إخبارية مختلفة.

¹ بحراوي حسن "بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية": ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990

² فاليت برنار "الرواية: مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي"، ترجمة عبد الحميد بورايو، دار الحكمة د.ت، ص 23

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهو مسلك ستنقلب عليه الرواية المعاصرة وفق ما يعرف بطريقة الكاتب الفرنسي أندريه مالرو في كتابة روايته "الوضع الإنساني" La Condition humaine، حيث يتم إقحام الشخصية بدون مقدمات وهي في ذروة التوتر الدرامي، وفي سياق هذه النزعة المنادية بالحد من هوامش الشخصية حاولت الرواية الجديدة التجريبية (آلان روب جرييه، ناتالي ساروت، ميشل بوتور ...) بناء شخصية تتمتع بأقل مميزات ذاتية ممكنة، وفي هذا المقام تقول ناتالي ساروت إن الشخصية - في الرواية الجديدة - فقدت كل ما هو ثمين، حتى اسمها، غدت متحدثة غير معروف، يتحدث بضمير المتكلم، هو لا شيء، وهو كل شيء، وصارت الشخصيات الأخرى مجرد رأى وأحلام وكوابيس وأوهام وتبعات لذلك المتحدث المجهول¹.

وتناولت الدراسات النقدية السردية الجديدة الموضوع من زوايا متعددة، يمكن توزيعها إلى اتجاهين:

- منحى لسانی يدرس الشخصية ضمن سياقها اللغوي التركيبي أو السيكولوجي، ويمكن إدراج تحديد تزييفتان تودوروف للشخصية انطلاقاً من وظيفتها النحوية، فيجعلها بمثابة الفاعل في الوحدة السردية، فهي مجرد كائن ورقي، ليس له وجود خارج الكلمات.

وفي هذا المساق تتدرج دراسة فيليب هامون للقانون السميولوجي الذي يحكم بناء الشخصية في النص السردية، فقد اعتبر مفهوم الشخصية مرتبطاً أساساً بالوظيفة النحوية التي تقوم بها داخل النص، وفي هذا السياق "صنف الشخصيات إلى ثلاث فئات هي: الشخصيات الإشارية، والشخصيات الاستذكارية والشخصيات المرجعية، مطلاً الشخصية ضمن ثنائية الدال والمدلول²، ويستخلص من هذه التحديدات أن الشخصية تكاد تنماهي مع وظيفتها النحوية، مع توسعة هذا التصور الإجرائي عند هامون بتقنيات التحليل اللساني و/أو السميولوجي، والأدوار السردية، وتم الاهتمام بإحياء عنصر وصف الشخصية التقليدي، من خلال البحث في أشكال وصيغ الإخبار عن الشخصية. ولا يظفر القارئ في النهاية إلا بباقة من الصفات التي تم تخريبها بالاغتراف من سطح النص، وبطريقة هي أقرب ما يكون من تحصيل حاصل.

¹ جرييه آلان روب: نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف، مصر، د.ت

² بحراري حسن مرجع سابق ص 213.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

.. اتجاه سمبويقي يهتم بتنظير البنيات السردية المجردة، برز إلى النور مع الشكلايين الروس على يد فلاديمير بروب في كتابه: "مورفولوجيا الحكاية"، حيث اقترح نموذجاً تجريدياً للشخصية، أسسه على الأدوار المتكررة التي تقوم بها الشخصية داخل البناء السردى للحكاية والتي استخلصها من دراسة مدونة قصصية واسعة، ووصل بهذه الأدوار (الوظائف) إلى ما يزيد على ثلاثين دوراً، ضمن تتابع الأفعال التي تتجزأ هذه الشخصيات على امتداد العمل الروائي. وهكذا تم اختزال الشخصية إلى دورها النمطي (شبه الآلي) داخل النص السردى. ومن ثم كان على القارئ أن يرافق الناقد في رحلة الكشف أو الإسقاط لحزمة هذه الأدوار على شخصيات القصة ضمن أفق تنبئي حتمي، ووفق مدونة سردية نمطية منتقاة من القصص الأسطوري، التي يسهل التحكم في بنيتها السردية البسيطة. ولكن ماذا عن النصوص السردية المعاصرة المتميزة بمنحائها التجريبي وأسلوبها الرمزي، وعقدها السردية المفتوحة، والتي تكون في نماذج كثيرة مبهمة وغامضة؟! واستطاع أ. غريماس سواء باستيحاء نموذج بروب السابق الذكر أو بالاطلاع على أعمال الناقد المسرحي الفرنسي إتيان سوريو Etienne Souriau من اقتراح صورة مختزلة لشخصيات النص السردى، تتساند فيها معطيات مصادرها المختلفة التي استقاها من النحو التوليدي والمنطق "المودالي" ونحو الحكايات.

وبذلك أصبح للشخصية بعد ثنائي، قوامه البنية العميقة (العوامل) والبنية السطحية (الممثلون)، ويتحكم في مسارها وأدوارها منطق "الجهة" Modalite، وتتركز على وظائف محدودة ومتعاقبة في البنية السردية العامة للنص الحكائي. وبذلك نقل غريماس أدوار بروب إلى وظائف دلالية وسردية. وأصبح من الممكن لأي عنصر (إنسان، حيوان، آلة، فكرة...) أن يقوم بدور الشخصية المتمتعة بوظيفتها المستقلة ضمن البنية العامة للحكاية.

ولكن القارئ العادي لا يستطيع فهم قيمة الأدوات الإجرائية التي اقترحها غريماس للتحليل السردى إلا بعد أن يستوعب العناصر التالية:

- العوامل الستة، التي تقترح عرضها بالصياغة التالية مع التنبيه بإمكانية وجود صياغات أخرى مغايرة:

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المرسل إليه	الموضوع	المرسل
المعارض	الذات	مساعد

- المربع السميوطيقي وأركانه:

محور التضاد: الشيء وضده

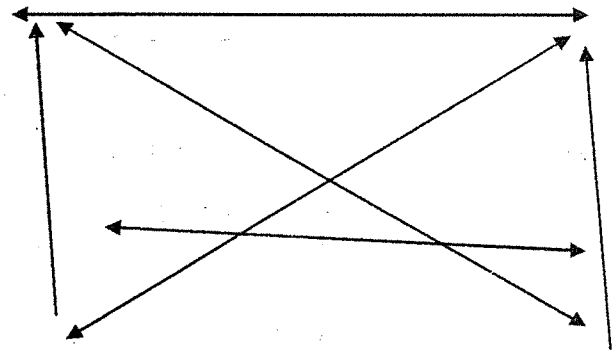
محور شبه التضاد: التداخل في الإثبات والنفي

فمثلا على مستوى الثنائية: الملك/الخائن:

الملك

الخائن

التضاد



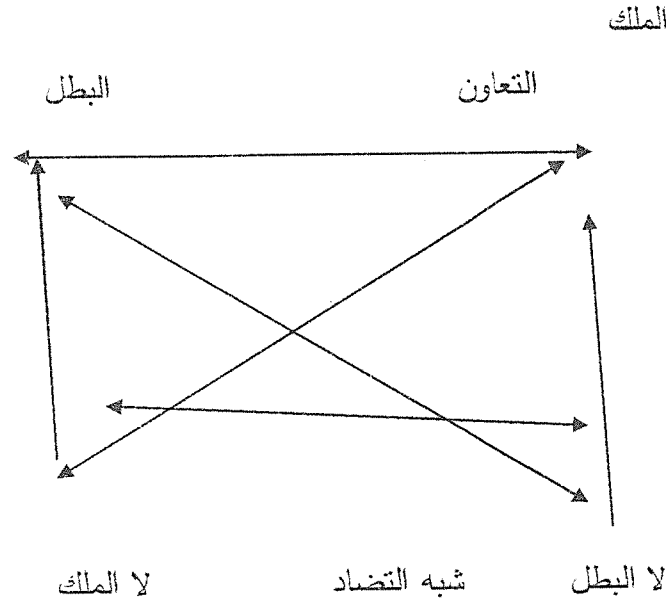
لا الملك

شبه التضاد

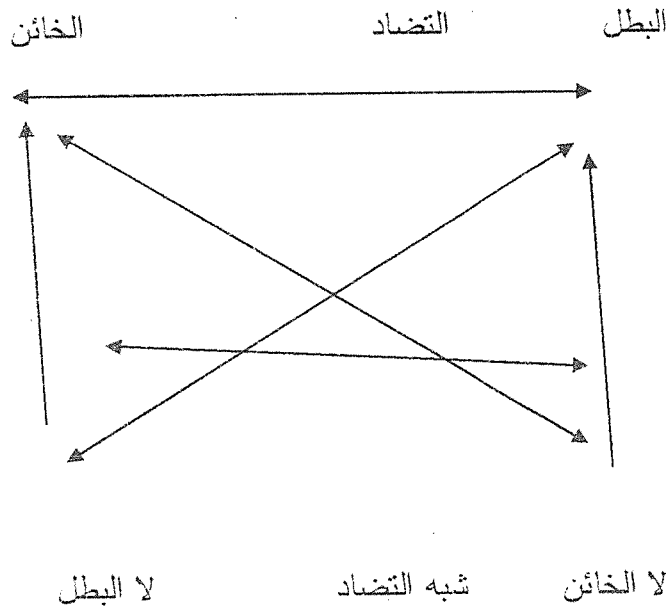
لا الخائن

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وامتدادا للمربع أعلاه يمكن اقتراح إبداليات عديدة ضمن مجال شخصيات البنية العاملة على النحو التالي:



وكذلك المربع السيمائي التالي:



حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويتضح من هذه الصورة لأبطال النص السردى، أن الشخصية السردية أصبحت مركز بؤرة من الوظائف والدلالات، تجعلها محورا ناظما ومبينا لنمو التحولات الحكائية.

- البرنامج السردى العام والبرامج السردية الفرعية: ويتعلق بسرد المسارات العامة التي اتخذتها الحكاية من منظور عناصرها الرئيسة، حيث يتم تخصيص سرد جزئى (فرعى) للحالات والأفعال التي تمر بها شخصية رئيسة داخل الوحدات المتميزة المشكلة لنص الحكاية.

ونشير إلى أننا لا ننوي القيام بشرح هذه المفاهيم وأدواتها الإجرائية ضمن هذا المثال، فمن أراد التوسع فليرجع إليها في أدبيات النقد السردى المعاصر¹.

وقد انعكس هذا التطور في بناء الشخصية على صعيد النصوص الإبداعية على تنظير الحكاية وأدوات التحليل السردى ومسالكها التطبيقية، فبدأت هذه الأخيرة ملتبسة ومتداخلة ومتشعبة.

¹ يمكن النظر في كتبه التي عرض فيها نظرياته وتطبيقاته مثل: حول المعنى 1 و 2 : du sens 1 و du sens 2، والسميوطيقا والعلوم الاجتماعية: *semiotique et sciences sociales*، وهناك مؤلفات عربية كثيرة تعرضت لها بالشرح والتطبيق.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المراجع:

- 1- برنار فاليت الرواية: مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي، ترجمة عبد الحميد بورايو، دار الحكمة د.ت
- 2- بحراوي حسن: " بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية، ط1 المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990
- 3- بركات محمد خليف: تحليل الشخصية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، 1951
- 4- جريبه آلان روب: نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف مصر د.ت
- 5- مارتين والاس نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد
- 6- مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984

المعاجم:

- القاموس المحيط للفيروز آبادي (لبنان 1955)
تاج العروس لمحمد الزبيدي (الكويت 1965)
كتاب العين للخليل الفراهيدي (لبنان 2003)
محيط المحيط لبطرس البستاني (بيروت 1998)

مراجع أجنبية:

- 1-Louis Hébert: **Dictionnaire de sémiotique générale**, version 13.11, Date de la version : 28-05-16 dans Louis Hébert (dir.), Signo [en ligne], Rimouski (Québec
2 - ج. الجيرداس جريماس:

- *Du sens*, Paris, Seuil, 1970
- *Du sens II*, Paris, Seuil, 1983

الكتابة الصوفية عند الشيخ التراد بن العباس

ديوان (نيل المراد) نموذجاً

شيخنا ولد إدوم

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

خلف الشيخ التراد بن العباس تراثاً فكرياً وأدبياً تنوعت أشكال التعبير عنه، وتعددت مصادر المعرفة فيه وجنح في أغلبه إلى التنظير والمناظرة والتأصيل، واجترح من خلال ذلك سبيلاً جمعت بين الترقى بمنازل التصوف إلى درجات الفناء في الله والإحاطة بكونه وعرشه، وبين الاعتصام بالعقيدة السلفية إلى حد التماس مع القول بالتفويض والتعطيل في ذات الله وصفاته، ومشى إلى ذلك على بساط من القول راتقاً ما يفصل فضاءات الأدب عن فيوضات التصوف، شغوفاً بهتك الحجب بينهما. فجمعت كتابته بدينك الأدب شعره ونثره والتصوف، وجعلت منهما رحيقين يرشحان من مشكاة لغوية واحدة، يلجان بالمعنى معارج لا تفتأ تتفخ في طينة المبنى لينفلق تعبيراً دقيقاً عن الأشياء والأفكار والكون والمطلق والله.

وفي الفقرات التالية نحاول أن نسلط بعض الضوء على جوانب من ذلك التراث منشغلين بالدرجة الأولى بأوجهه المرتبطة بنقاط التماس أو التداخل بين الكتابة من حيث هي خطاب صوفي، ومن حيث هي جنيس أدبي، محاولين رصد مساق ذاك التداخل، وقياس مدى سعة الانطباق الراشح منهما. وسيتركز سعينا في هذه المرحلة على قراءة سريعة لديوانه الشعري المسمى "نيل المراد للشيخ التراد" على أن نتبعه، في مرحلة لاحقة، بدراسة نصوص نثرية اخترنا منها أربعة حسبناها تمثل، إلى جانب الديوان، أنموذجاً كافياً للتعريف بما خلفه الشيخ التراد في مجال الأدب والفكر والعقيدة والتصوف. وقد اقتصرنا في دراسة الديوان على الأبعاد الأدبية، والوسائل الفنية المستغلة وتقنياتها وطاقاتها ومميزاتها الذاتية والاتجاهات التي امتاح منها الشيخ التراد شعره.

ولأن إنتاج الشيخ التراد يطال مختلف العلوم والفنون ويغرف من معظم بحور المعرفة، فإن دراسته تتطلب أيضاً سعة الاطلاع وشمولية النظر وهو ما نجزم بافتقارنا الواضح إليه، ويزيد من ذلك أن

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الكتابة عن الشيخ التراد قليلة بدرجة لا تعين الباحث ولا تغنيه عن اللجوء إلى الروايات الشفوية والمعلومات الظنية غير الموثقة مما يعرض البحث إلى شبهة التعجل والارتجال وضعف مصداقية المعلومات، وتلك كلها صعوبات يتعين الإقرار بها والإذعان لما تقتضيه من نقص وقصور.

1. من هو الشيخ التراد بن العباس؟

هو محمد فاضل بن العباس بن الشيخ الحضرمي بن الشيخ محمد فاضل، الملقب بالتراد ورغم شهرة جده الشيخ الحضرمي وجد والده الشيخ محمد فاضل، فإننا لم نجد لوالده العباس، فيما بين أيدينا من النصوص، ما يعرف بشخصيته، لا من حيث نشأته وحياته، ولا من حيث تاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته، حتى إن الشيخ التراد نفسه قد خص عائلته بمؤلف¹ لم يتحدث عنه على الإطلاق، وعلى ذلك أيضا درج حفيده محمد فاضل بن الشيخ المحفوظ في تقديمه لـ "ديوان نيل المراد" إذ لم يتحدث بكلمة واحدة عنه، مع أنه تحدث عن جده الشيخ محمد فاضل، وعن أعمامه وأمه وأخواله². ولد الشيخ التراد في السابع والعشرين من رجب سنة أربع وثلاثمائة وألف (1304) من هجرته صلى الله عليه وسلم، الموافق لسنة سبع وثمانين وثمان مائة وألف (1887) ميلادية، في ضواحي مدينة النعمة، بالحوض الشرقي.

وتربى، خارج عشيرته، بين أخواله وأخوال أمه في منطقة ارقبية³، وكانت عنده لأخواله مكانة أثيرة، عبر عنها، أكثر من مرة، من ذلك قوله عنهم "هم أخوالي وأصهاري"⁴ وأنصاري، وحق لي أن يكون بهم تبججي وافتخاري، فقد أحسن الله علي بهم من صغري وفي كبري، فلست أنسى لهم ذلك إن شاء الله مدة عمري"، ومن ذلك أيضا أنه حين تحدث في "كشف الأستار"⁵ عن أخواله، خص

1 - كشف الأستار عن شرف آل اجيه المختار، كتاب من تأليف الشيخ التراد مخطوط، بحوزتنا نسخة منه مخطوطة

2. انظر الصفحتين 7 و8 من ديوان نيل المراد، الطبعة الأولى الصادرة عن دار الرضوان لإحياء التراث.

3. الحوض الغربي حاليا.

4. ما لدينا من معلومات لا يسمح لنا بتأكيد ذلك إلا إذا كان الأمر متعلقا بخولة لهم مع إحدى زوجاته، ذلك أن زوجه الأولى التي أنجب منها ولديه الشيخ سعد أبيه والشيخ المحفوظ وأختهما كانت بالفعل من منطقة ارقبية، لكنها من قبيلة أخرى أما زوجاته الأخريات فكان من منطقة الحوض الشرقي فيما نعلم، وليس لدينا ما يفيد خلاف ذلك..

5. مرجع سابق

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جهة أمه، فعرف بها وبأبيها وأمها، ثم عرف بأب جده لأمه، ولم يتحدث عن أخواله لأبيه إلا لماماً، وعندما عرض لأب جده الشيخ الحضرمي قال عن أهلها "بلغني أنهم يدعون الشرف، ولم أبحث عن ذلك"¹ مما يؤكد سيطرة تأثير أخواله عليه واعتناؤه بهم.

وتؤكد الروايات أن الشيخ التراد لم يتلق التعليم من غير خاله²، وأنه درس عليه القرآن الكريم، وأجازه في قراءة نافع³.

ونقلت عن حفيده أحمد بن الشيخ سعد أبيه أن خاله هذا أجازه بالسبع⁴، وأبلغني محمد الحسن بن سيدي محمد الملقب إزديبة⁵ أن والده سيدي محمد⁶ أعلمه بما يفيد أن الشيخ التراد كان مجازاً بالقراءات السبع.

وإذا ثبت ذلك يكون من القلائد، الذين كانت لديهم، في تلك الفترة، الإجازة بالقراءات السبع، في الحوض. مع أننا لم نتمكن من الاطلاع على سنده ولا على من شاهده، ولم نتوصل كذلك إلى ما يؤكد أنه قد أجاز أحداً بالسبع.

كذلك لم نطلع على طبيعة المتن الأخرى التي قرأها على خاله، وقد اكتفى مقدم "ديوان نيل المراد"⁷ بالإشارة إلى أنه قرأ على خاله "كل العلوم، من عقيدة وفقه، ونحو وبيان وديع، وسيرة ولغة"⁸.

1 - كشف الأستار عن شرف آل اجيه المختار، ص 46، مصدر سابق.

2 - محمد المختار بن امباله.

3 - هكذا أورده مقدم "ديوان نيل المراد للشيخ التراد.

4 - أحمد بن الشيخ سعد أبيه، حفيد الشيخ التراد، تخرج من جامعة نواكشوط بداية التسعينيات مجازي، وكان موضوع رسالة تخرجه حول الشيخ التراد، ويعمل الآن موظفاً بالجمعية الوطنية، وقد زودني مشكوراً بأغلب نصوص الشيخ التراد التي اعتمدت عليها في هذا البحث.

5 - الأستاذ محمد الحسن بن سيدي محمد الملقب إزديبيه، عالم غزير المعرفة وشاعر متمكن، وشيخ محظرة القويسي يجيز بالسبع والعشر، له مؤلفات عديدة في علوم القرآن، خاصة في مجال القراءات، منها "النبراس" في الخلاف بين قالون وحفص و"الخل الكثير" في الخلاف بين حفص وابن كثير، و"التكميل" في الخلاف بين شعبة وحفص.

6 - عالم ورع كان قاضي "حلة" أهل الشيخ الحضرمي وشيخ محظرتها، توفي سنة 1967 م ودفن في بلدة "بيريافا".

7 - مرجع سابق.

8 - "ديوان نيل المراد" مرجع سابق، ص 8.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بيد أن مراجعة ما خلفه من آثار مكتوبة شعرا ونثرا تنبئ عن اطلاع واسع على أهم المتون المعتمدة في عصره، وعن عمق علاقاته بها، وعن قدرته على استنباط الأحكام والآراء والاستشهاد منها. ولقد تمكنت من إحصاء ما يزيد على ثلاثمائة إحالة على أكثر من مائتي كتاب في مختلف الفنون والعصور، وما أحسب أنها تمثل نصف إحالاته أو عدد الكتب المحال إليها، وحاولت أيضا تتبع قائمة الرجال الذين ذكرهم في متونه آخذا عنهم أو آخذا عليهم، أو منا قشا آراءهم، فأحصيت منهم عددا زاد على خمسمائة رجل، يتوزعون على جميع مرا حل تاريخ الإسلام، ويمثلون معظم أقاليمه، وفي معظم الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية، وفي مختلف الفنون، بذكاء جلي وأمانة علمية رصينة، وقدرة جيدة على استظهار النصوص والإفادة من مضامينها، وتقليب أوجهها، بأسلوب لغوي متين وطريقة منطقية محكمة.

توفي الشيخ التراد، رحمه الله، في مدينة دكار عاصمة جمهورية السنغال، أثناء عودته من الحج، في اليوم السابع عشر من شهر محرم سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف (1304 . 1365) من هجرته صلى الله عليه وسلم، الموافق لسنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف (1945) ميلادية، عن عمر بلغ تسعة وخمسين عاما، ودفن في دكار بمرقد ذي معالم بسيطة¹.

2- طريق الشيخ التراد بن العباس إلى الطريقة

سنتجاوز الحديث عن التصوف من حيث هو طرق وتاريخ وفكر، متكلين على أن كثيرا من البحوث قد كفتنا هذه المهمة، ومتذرعين بأن مقامنا لا يمنحنا من فسحة الوقت والجهد ما يفي بمتطلبات الخوض في هذا اليم الشاسع، وإن كنا سنعود إلى موضوعه في فقرات لاحقة.

وسنكتفي بعرض بعض النتائج التي يمكننا أن تعيننا على ثمل السياق التاريخي والثقافي الذي كتب فيه الشيخ التراد، وعلى فهم بعض القضايا والتوجهات التي عبر عنها.

لقد تبوأ التصوف مكانة فاعلة في المشهد الشنقيطي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وأصبح العمق الروحي للدين الإسلامي لدى العديد من علماء تلك الفترة، بدرجة قل معها أن نجد عالما أو متعلما إلا وله صلة انتساب له، وازدادت طرقه اقترابا من الواقع ومقتضياته. وساهم المتصوفة، من خلال الممارسة التطبيقية للعلوم الصوفية، وخلال استخدام نفوذهم المتزايد،

¹ . أوصى بأن يدفن في قبر بسيط وله في هذا المعنى بيتان من الشعر في ديوانه

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

في تخفيف تأثيرات الواقع الذي كانت البلاد تعيش معه حالة من التناقض الجلي، فمن جهة كانت البلاد تشهد نهضة معرفية وحراكا تعليميا غير مسبوق، ومن جهة أخرى كانت تخضع برمتها لسلطان (السيبة) لمحشوة بالفوضى وانعدام الأمن للأفراد والممتلكات.

وكان لبعض المتصوفة واتباعهم دور معتبر، في مواجهة الاستعمار العسكري والثقافي، وصل في بعض مستوياته إلى المقاومة المسلحة، وهو دور يكاد يكون مخالفا لتاريخ الطرق الصوفية ومنهجها. وقد عرفت البلاد عدة مدارس صوفية ناهزت السبع¹، بيد أن ثلاثا منها، التجانية والقادرية والشاذلية هي التي انتشرت وما يزال يجري تأثيرها حتى يومنا هذا².

وتعد الفاضلية³ من شعب القادرية، وقد عدها المختار بن حامد أحد فروع الغطفية دون أن نتبين مسوغات قوله بذلك.

وقد انتشر هذا الفرع وتمددت أغصانه على أيدي الشيخ محمد فاضل بن مامين وأبنائه الذين توزعوا في أرجاء البلاد وكان لكل منهم مجال فسيح من النفوذ والحظوة.

وأخذ الشيخ التراد الطريقة الفاضلية من عمه الشيخ سعد بوه، وعاد بها إلى منطقة الشرق في وقت كانت تخضع لنفوذ متزايد للفرنسيين رغم استمرار مقاومة مسلحة تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، بالإضافة إلى توترات اجتماعية وأمنية تتغذى على نقاشات حادة بين بعض المراجع الصوفية وبعض فقهاء المنطقة، أدت في بعض الأحيان إلى مواجهات مسلحة، ربما كان للاستعمار الفرنسي دور في تأجيجها.

ولم يكن الوضع الخاص بقبيلة الشيخ التراد إلا جزء من الوضع المحلي العام، يتعلق جانب منه بتنظيم العلاقات الداخلية بين أفراد المجموعة، من حيث تقاسم النفوذ والسلطة والامتيازات، ويتعلق جانبه الآخر بعلاقاتها مع القبائل التي تسكنها، وتتنافس معها على النجعة والماء والنفوذ، لذلك كان على الشيخ التراد أن يأخذ ذلك في الحسبان، حين أقفل عائدا من عند شيخه، فعودته ستفتح

¹ . المختار بن حامدون / الحياة الثقافية، ص 124

² _ جمال ولد الحسن: الأدب الشنقيطي في القرن الثالث عشر / دراسة في وصف الأساليب

³ . نسبة إلى الشيخ محمد فاضل بن مامين

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بابا من التجاذب داخل خريطة النفوذ على المستويين الداخلي والخارجي، ووعيا منه بتلك المقتضيات قرر أن يبقى خارج المنطقة زمنا مختارا.

وحين عاد أنشأ لنفسه تجمعا مستقلا¹، سمح له الفرنسيون بأن يفتح "كناشا" خاصا به يسجل فيه من جاءه طالبا مكاتبته، وقد سبب ذلك اعتراضا من شيوخ مجموعات قبلية خشية استقطاب منتسبيهم، ولأنه بذلك بدأ يجمع بين السلطتين الروحية والسياسية، ويسعى لتكون له مكانة معتبرة على مستوى مجموعته، وعلى مستوى محيطه الجهوي والوطني والإقليمي.

سلسلته الصوفية:

لخص الشيخ التراد سلسلة طريقته في بيتين قال فيهما:

طريقتنا	سعدية ²	فاضلية ³	إلى ابن عطاء الله ⁷ تنمي إلى الجيلي ⁸
جنيديّة ⁴	كرخية ⁵	علوية ⁶	إلى خاتم الأنبياء ⁹ ذي الجود والنيل

وكما يتضح من البيتين فإنه لم يقدم سنداً متصلاً لسلسلة طريقته الصوفية، بل إن السلسلة قد قفزت بعد الشيخ محمد فاضل إلى ابن عطاء الله¹⁰ دون أن نعرف من الذي أخذ عنه الشيخ محمد

1. الواقع أنه بنى تجمعين، الأول يسمى مميل والثاني آغوينيت، رحل عن أولهما واستقر بالثاني

2. نسبة إلى شيخه وعمه الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل

3. نسبة إلى جده الشيخ محمد فاضل بن مامين

4. نسبة إلى أبي القاسم الجنيدي بن محمد بن الجنيدي النهاوندي الأصل، البغدادي القواريري، وروى السيوطي أن الجنيدي أخذ الطريقة من يد خاله السري السقطي الذي أخذها من يد الإمام معروف الكرخي.

5. العارف بالله معروف بن الفيرزان الكرخي رضي الله عنه من أكابر القوم العارفين، الزاهد الذي انتهت إليه رئاسة الطريق، خليفة القطب أبو سليمان داود الطائي المعروف.

6. نسبة إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

7. نسبة إلى ابن عطاء الله الصوفي الناسك المعروف

8. نسبة إلى شيخ الإسلام أبو محمد محي الدين عبد القادر وهو شيخ الطريقة القادرية التي عمّ ذكرها في الآفاق، وإليه ينتسب مشايخ هذه الطريقة

9. نسبة إلى النبي العربي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

10. المذكور سابقاً

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فاضل. إلا إذا خذنا مذهب عمه الشيخ ماء العينين في أن السلسلة الفاضلية تقوم على مسلسل الآباء، بحيث نستطيع من خلال ذلك أن نتبع سلسلة للشيخ التراد وفق شجرة نسبه.

لكن الشيخ التراد شكك في دقة ما ذهب إليه الشيخ ماء العينين، واعتبر أن ما ذكره من أخذ يحي الصغير عن أبيه إنما هو من جهة سند العلم، لأن من المؤكد أخذه سند الطريقة عن زروق، ثم حاول التوفيق بين القول بالأخذ من الآباء ومن غيرهم، فاعتبر أن السند الأول (عبر تسلسل الآباء) قد يكون سندا في الطريقة من وجه، والسند الثاني الذي يتصل بزروق¹ هو سند في الطريقة أيضا من وجه آخر. وإذا كان ذلك كذلك يصبح الحديث عن مزج الفاضلية بين القادرية والشاذلية أمرا مفهوما، لا من الوجه الذي ذهب إليه المختار بن حامدن بربط الفاضلية بالشعبة الغطفية، وإنما قبل ذلك بأخذها عن أحمد زروق² الشاذلي، والسيوطي³ القادري.

لقد تفرغ الشيخ التراد لطريقته وكرس لها حياته تعريفا بها ودفاعا عنها ودعوة إليها، وتجسيدا لقيمتها وترسيخا لنهجها، واتخذ الشعر العربي الفصيح أدواته التعبيرية الأولى، فكان أن ترك ديوانا شعريا ضخما بوأه للارتقاء إلى دائرة نخبة شعراء الصوفية في هذه البلاد.

فما هي حقيقة هذا الديوان ومشمولاته؟

مدخل إلى الديوان

صدر هذا الديوان في طبعته الأولى عن دار الرضوان للنشر وإحياء التراث دون تحديد تاريخ للنشر، وقد اشتمل على تقديم يعرف بالشاعر وينير بعض جوانب شعره، وهذا التقديم، على أهميته؛ اتبع نبرة تمجيدية لا تخلو أحيانا في نظرنا من الإطراء المبالغ فيه، خاصة عند إصدار الأحكام النقدية، فضلا عن خلوه من الهوامش التي توضح الغامض من النص، وتثير روايات المحقق التي

¹ . شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي (من قبيلة البرانس الزناتية بضواحي تازا) الفاسي المالكي، الشهير بزروق، الفقيه، والمحدث، والعلامة الصوفي (846 . 899 هـ / 1442 . 1493 م).

² . ذكر سابقا.

³ . عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين خن الخضيرى الأسيوطي المشهور باسم جلال الدين الأسيوطي، (القاهرة 849 هـ/ 1445 م - القاهرة 911 هـ/ 1505 م) من كبار علماء المسلمين.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يعتمد عليها، هذا فضلا عن بعض الأخطاء التي تظهر بين الفينة والأخرى بدرجة قد تغير المعنى وتفقد قيمته الفنية.

والديوان، من النظرة الأولى، ديوان ضخم يركز على الموضوعات الدينية، وقد نال التصوف القسم الأكبر فيه؛ وذلك لأن جل الأغراض الشعرية التي تضمنها متصلة به، فهو في غزله يستلهم معجم الغزل ومفاهيم الحب والعشق ولكن المعشوق هو الله جل جلاله، وهو عندما يمدح فإن المدح مخصص للرسول صلى الله عليه وسلم، أو لكبار أشياخه من المتصوفة الذين أوصلوه إلى مراتب التصوف والحب والحقيقة... يقول¹ (الطويل):

لقاء رسول الله أحلى من الشهد لدي وأشهى من سنا جنة الخلد
ولشهى لعمري من لقائي بضة عروبا على طول التفرق والصد
ولم لا ولولا طه ما كان طالبا جنانا ولا خودا ولا ذيق من شهد

فحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق كل حب وعشقه فوق كل عشق.
ويقول² (الطويل):

تعالوا إلى كاس سقاني بها سعد وليس لها ساق قبيل ولا بعد
هي الأمن من كل المكاره والبلا إذا ما وعيد الله أنجز والوعد

وفي هذه الأبيات يوضح منزلة شيخه سعد أبيه التي تسمو على كل مرتبة فهو المحبوب والمعشوق؛ لأنه يوصل إلى الحقيقة والشرعة.

ويقول³ (الطويل)

فما أنا من ليلي وأسماء ذا وجد ولكنما وجدي بسعد الورى سعدي
فلا زال يسقيننا كؤوس معارف ولا زال يهدينا كما كان قد يهدي

¹ -الديوان، ص: 29.

² - نفسه: 29

³ - نفسه: 29.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وفي هذه الأبيات يتبرأ من الحب المادي والوجد المنقطع الزائل ليصل إلى حب شيخه الشيخ سعد أبيه الذي سقاه العلم والمعرفة.

إلى داخل الديوان

وسعياً إلى حشد أسباب الوصف الكاشف لما ينبني عليه شعر هذا الديوان من ظواهر فنية مختلفة، اخترنا أن نستنطقه انطلاقاً من مقارنة أسلوبية تستفيد من معطيات علم الإحصاء وما يوفره من مؤشرات دالة، دون أن نلزمنا بالوقوف عند مستوى الدراسة الشكلية التي تعزل الديوان عن سياقاته وفضاءاته التي تكون فيها.

إنما سننطلق منها كمرحلة وصفية ترصد الظواهر الشكلية وتتعرف عليها، وتعتمد الجداول وتحدد النسب، قبل أن توصلنا هذه المرحلة إلى الاختيارات الأسلوبية والدلالية المتبعة، ونقف على الصورة الشعرية، ونقيس من خلالها درجة وطبيعة التخيّل، ووظيفة اللغة استناداً إلى معطيات مادية، مع رصد طريقة استغلال الإيقاع في النص للإيقاع بالمتلقي، وطبيعة البحور، ونوع القوافي.

في بناء النص

قبل أن نصف بنية النص في الديوان ونحدد معالمها نود أن نشير إلى أن النقاد العرب اعتبروا أن نوعين من البنيات تقاسمت الشعر العربي منذ امرئ القيس وحتى العصر الحديث هما: -البنية المركبة: وتتميز معماريتها بتعدد الألوان النفسية، وبطول النفس، وتنوع الأغراض، والبدء بالمقدمات الطللية والتشبيب بالمرأة،

يقول ابن رشيق¹: "قال الحاتمي: من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم، متصلاً به، غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفي معالم جمال".

البنية البسيطة: وتتميز بأحادية الموضوع، ووحدة الغرض والابتعاد عن المقدمات الطللية والغزلية. وقد شاعت في الشعر العربي إثر ما عرفه العرب من تحولات جذرية في مختلف مناحي الحياة الثقافية والفنية ومنها الشعر، فقد تحولت الذائقة الشعرية عند العرب وأصبحوا يميلون إلى القصائد البسيطة.

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه - (1 / 149)

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ولو تأملنا نصوص الديوان لوجدنا أن النصوص الشعرية قصيرة نسبياً فالنصوص التي تزيد على ثلاثين بيتاً تعد على رؤوس الأصابع، بينما المقطوعات والنثف تكاد تكون هي السمة الغالبة على الديوان. ويغلب على هذه النصوص أن تتحدث عن موضوع واحد، لا تتنوع فيه الأغراض، بل الشاعر يتحدث - غالباً - عن الموضوع حديثاً مباشراً دون مقدمات غزلية أو بكاء على الطلول والدمن.

لا ترتبط بنية القصيدة في الديوان ارتباطاً تنتمى فيه الفكرة وتعمق، ولكنها ترتبط عن طريق التداخي الحر؛ مما يجعل النص أحياناً غير محكم الترابط.

- تختتم القصيدة - غالباً - ببيت يصلي فيه على النبي - صلى الله عليه وسلم، وهي سنة شعرية

عند الشعراء الشناقطة الذين ارتبط شعرهم بالموضوعات الدينية¹، يقول: في خاتمة قصيدة² يستنكر فيها ما يلاقيه من حسد واستنكار من بعض الناس: الكامل:

فمن الإله على النبي وصحبه والوارثين مصلاته وترحم

والحقيقة أن كل القصائد الطويلة قد التزمت هذا السنن الشعري الذي يختتم بالصلاة على المصطفى وبالدعاء له.

ولو أردنا أن نفسر اختيار الشاعر لهذا النمط البسيط من البنية، لقلنا إنه ليس اختياراً فنياً وسيبلاً نقدياً، بقدر ما هو استجابة لفلسفة أهل الصوفية الذين ينزعون إلى البساطة والتكشف، ويميلون إلى الوحدة والتوحيد، ويرفضون التعدد.

ونحن لا نريد أن نفسر المسألة انطلاقاً من أحد العوامل السابقة، ولكننا نعتقد أنها متعاضدة جميعها تقف وراء شعراء التصوف في اختيار البنية البسيطة التي تنمى وتتوحد مع فلسفة الوحدة المنغرس في أعماق نفوسهم.

وهذا هو نفس التصور الذي أوحى لنا به معاشة هذا الديوان الذي غلبت عليه هذه البنية البسيطة.

¹ - انظر ديوان مولود بن الجواد اليعقوبي، تحقيق العلامة محمد الحسن ولد أحمد الخديم، صادر عن، فتكاد هذه الظاهرة أن تكون لازمة من لوازم بنيته الفنية.

² - الديوان ص: 45.

المعجم

نقصد بهذه النقطة الوقوف على المكونات المعمارية للجملة في الديوان، أي الدوال التي اختارها الشاعر للتعبير عن انفعالاته، هل حسن اختياره واستطاع أن يختار الألفاظ المناسبة؟ وإشكال اللفظ واختياره من إشكالات النقد الأدبي القديمة الجديدة التي ناقشها النقاد وكانت سببا في الحكم على جودة الشعر أو رداءته، ولو عدنا إلى الديوان لوجدنا أن السجل المعجمي الديني الصوفي هو المعجم المسيطر على الديوان فكل السجلات المعجمية الأخرى متصلة به، فسجل الغزل خارج عن دلالاته التي عهدناها، التشبيب بالنساء كما يقول ابن رشيق، فقد عدل به عن دلالاته التي تصور الهوس بالمحبوب كما فعل شعراء الصوفية من قبله، إذ اتخذوا من الغزل ومعانيه وسيلة من وسائل النفاذ في الحب النبوي والإلهي، وهو ما نجده في هذا الديوان، يقول¹: الطويل

تمايلت للأذكار شوقا لخالقي وما لي لذكر الغانيات تمايل
ولا لوم في شوق إذا كان ذاكرة أمين محب للمهمين واصل

ففي هذين البيتين نلاحظ أن سجل الغزل المعجمي: تمايلت، شوق، الغانيات، قد تحول وانزاح ليعبر عن التعلق بالأذكار والأوراد الموصلة إلى الحقيقة.

ويقول²: الرجز:

هيللتي	يا	قرة	العينين	إني	أحبك	بدون	مين
أنيستي	أنت	فلا	الكواعب	أنسي	بها	كمن	لها
مطربتي	أنت	فلا	المزامر	تطريني	كمن	لها	يسامر

وهذه الظاهرة بارزة في الديوان، وهي من أهم ما يميز معجمه ويؤكد اطلاعه على مدونة الشعر الصوفي. والنصوص التي وقعت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية على مستوى المعجم متنوعة ومتعددة يمكن الرجوع إليها في الديوان، يقول³: الكامل

¹ - الديوان، ص: 43.

² - نفسه: 70.

³ - نفسه: 22.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ولتتخذ حبرا خليلا عارفا فهو الذي تنمى إليه بخلته
واجعل إلى المولى اشتياقك لا تكن مثل المشوق بهنده وبميته
ما ساد باكي مقلة هائلة هاج الغزال له الغرام بمقلته
صبا مشوقا بالحسن متيما سكران من عود براحة قينته
بل إنما حاز السيادة من غد هيمانه في الله طالب وصلته

أما إذا نظرنا إلى المعجم من زاوية أخرى هي زاوية الغرابة والحوشية، فإننا لا نجد في الديوان ألفاظا غريبة ولا حوشية، فكل ألفاظ الديوان سهلة متداولة تبلغ أحيانا درجة من البساطة يجعلها تنزع إلى الوظيفة الإبلاغية أكثر من الوظيفة الشعرية أو الانفعالية، ويدفع بنا إلى تصنيف الشاعر ضمن شعراء المدرسة المتدنية التي تتعالى على الشعر الصرف، وتعدده نوعا من الهزل الذي لا ينبغي للسادة الفضلاء، بالرغم من أن شعراء القرن الثالث عشر الهجري من الشناقطة قد اقتنعوا بالشعر، وأقنعوا الناس بوظيفته الجمالية التأثيرية.

الصورة

الصورة في الشعر مثل اللون في الرسم تضيف على الشعر جمالا، وتسهم في إحداث التخيل الذي عده النقاد عاملا حاسما في تحديد ماهية الشعر، ولا يمكن أن تتحقق وظيفته الشعرية التأثيرية إلا بتوافر مجموعة من القيم والمبادئ الفنية، وتأتي الصورة في التراث النقدي الإنساني في صدارة هذه العناصر. ولو أردنا أن ننظر إلى الصورة بشكل أكثر تفصيلا لوجدنا أن النقد الأدبي، في مستوى من من مستويات تطوره، يطلق مصطلح الصورة على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل، وأن الاستعارة-ربما - أكثر هذه الأصناف شعرية، لأنها أكثرها تجريدا وخيالية¹.

وإذا كانت الصورة الشعرية هي بهذه المنزلة، فكيف تجلت في ديوان الشيخ التراد؟ وما مصادرها التي اعتمدت عليها؟ وكيف وظفها في صباغة لوحاته الشعرية؟ قد يتوقع من شاعر صوفي أن تكون صورته الشعرية مكثفة، يغرق صاحبها في التخيل وبيبالغ فيه؛ لما في فلسفة التصوف من ميل إلى المجردات، وبعد عن الماديات والمحسوسات التي هي زائلة.

¹-انظر فن الشعر لأرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فكيف تجلت الصورة في ديوان الرجل؟ وما مقوماتها الفنية؟

لو عدنا إلى الديوان نستنتقه لوجدنا نماذج من الصور الشعرية يغلب عليها الاستعارة، وبقل فيها التشبيه والمجاز المرسل، يقول¹: الطويل

جزى الله بالإحسان سعاداً² فإنه سقانا كؤوساً لا يمل شرابها

جزى الله بالإحسان من كان ساقياً لأرواحنا حتى أبين حجابها

ففي هذين البيتين نجد أن الشاعر يستغل آلية الاستعارة ليعبر تعبيراً تخيلياً عن حقيقة التصوف والتربية الصوفية، فالتصوف - بالرغم من طبيعته المعنوية - كؤوس تجرع ولا يمل شرابها، وذلك حتى يقرب حقيقة التصوف إلى المتلقي ويحببه إليه عن طريق الصورة التي يمكن أن تحسن صورة الشيء في ذهن المتلقي أو تقبحه.

والسقيا تكون للروح وليس للأبدان على سبيل الاستعارة المكنية، فقد شبه الأرواح بما يشرب كالدواب بجامع الانتفاع بينهما ثم حذف المشبه به، أي الدواب، وأبقى المشبه الأرواح وبعض لوازم المشبه به، وهو الشرب.

كل ذلك ليحرك في المتلقي الخيال ويدفعه إلى المشاركة في تصور المعنى وإدراكه.

وقال في موقع آخر³، في استعارة مكنية جميلة، جعل فيها الفؤاد مثل الإنسان يمكن أن يكسى.

واكس الفؤاد من التذكر حلة واخلع ثياب عماء عنه وغفلته

ويقول في موقع آخر⁴:

خرقت ستور الحجب عني تفضلاً فشاهدت محبوبي وقد كنت في قرب

1- نفسه: 20.

2- سبق التعريف به.

3- نفسه: 20.

4- الديوان، ص: 32.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والواقع أن الصورة الشعرية في الديوان لم تكن ذات حضور كبير ومميز ومكثف، والغالب عليها هو الاستعارة، وهو أمر طبيعي في الشعر الصوفي أن تغلب الاستعارة ألوان الصور الأخرى، فالكناية نادرة في الديوان، يقول¹:

يا ربنا إني جعلت على الثرى خدي لترحمني فكنت كما ترى

فهو يكتفي عن خضوعه لله -تعالى- وتواضعه بجعل خده على الثرى؛ ليبالغ في التذلل لله -تعالى-. أما التشبيهات، وإن كان الديوان لا يخلو منها، فقليلة بحيث لا تحقق خرقاً على مستوى الصورة الفنية. وعموماً فإن الصورة الشعرية في الديوان لم تكن مكثفة بالقدر الذي يتوقع من شاعر صوفي يفترض أن يغرق في التخيل ويبتعد عن المباشرة في التعبير مما يجعل النص الشعري في الديوان ينزح إلى لغة الإبلاغ أكثر من نزوعه للوظيفة التأثيرية الانفعالية.

ولعل اختيار الاستعارة من بين آليات الصورة المختلفة ينسجم مع فلسفة التصوف وعقيدة التوحيد المتجذرة في نفوسهم، فالتشبيه محظور في العقيدة لأنه مفض إلى الشرك، والاستعارة بما تمتلك من طاقات تعبيرية كبيرة تتناسب مع التعبير عن ذات الله تعالى المتعالية على كل شيء. ولعل فهم الشيخ التراد لوظيفة الشعر قد ارتبطت بواقعه الاجتماعي كشيخ تربية وفقه يستغل الشعر كوسيلة تعليمية، ويبتعد عن وظائفه التأثيرية.

الإيقاع

لا تختلف الأمم والثقافات في اعتبار الإيقاع مكوناً رئيساً من مكونات الشعر المائزة له عن صنوه النثر، ويفضل هذه المنزلة فقد دخل الإيقاع في كل حد للشعر.

والإيقاع عند العرب من أهم مراسيم الكتابة الشعرية، لا يخلو منه أي تعريف للشعر، فقد عرفه ابن رشيق بقوله²: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية والامتزاج: ما عرض على الوزن فقبله، فكأن الفعل صار له".

فإذا كان الشعر انتظاماً معيناً للغة يقربها من الموسيقى، فإن الإيقاع هو الذي يمنحها هذه الخاصية ويجعلها -مع مقومات أخرى- قادرة على التأثير في المتقبل.

¹ - الديوان، ص: 32.

² - العمد في محاسن الشعر وآدابه - (ج 1 / ص 37).

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وإذا كان الإيقاع بهذه المنزلة في تشكيل الخطاب الشعري وتمييزه عن النثر فكيف تجلّى الإيقاع في ديوان الشيخ التراد بن العباس؟ وما مظاهر الخرق فيه؟

وبالعودة إلى الديوان نجد أن الشيخ التراد بن العباس قد تفتن إلى منزلة الإيقاع عندما صور تجاربه الصوفية وتوسلاته النبوية على شكل شعري، وهو اختيار يشي بوعي الشاعر بمنزلة الشعر عند المتلقي.

وإذا أردنا أن نصف مكونات الإيقاع في الديوان لوجدنا أن الديوان يحرص على النظم وفق سنن العرب في إتباع البحور الخليلية، وذلك على النحو التالي:

البحر	عدد الأبيات	نسبة استعمال البحر
الكامل	271	% 36
الطويل	212	% 28
الرجز	152	% 21
البسيط	51	% 7
الوافر	33	% 4,4
المتقارب	28	% 7,3
6 بحور	747	% 1,99

فهذا الجدول يبين عدد البحور المستعملة في الديوان وهو ستة بحور، من أصل ستة عشر بحراً، وهو ما يعني أن الشاعر استغل نسبة 37% من إمكانيات بحور الشعر العربي.

وقد اختار البحور: الكامل، الطويل، الرجز، البسيط، الوافر، المتقارب بنسب متفاوتة، وهي تقريباً - إذا استثنينا الرجز- البحور التي كتب عليها أغلب الشعر العربي القديم.

ولكن الغريب أنه لم يستعمل الخفيف الذي يعد من البحور كثيرة الاستعمال في الشعر العربي، هل يعود ذلك إلى أن الخفيف لا يصلح للأغراض الدينية أم أن الأمر مجرد صدفة؟

لا شك أن للرجل أشعاراً أخرى تخرج عن الأغراض الدينية، وربما تخرج عن البحور السابقة مارست عليها الرقابة الاجتماعية عملها حتى خرج شعر الشيخ التراد بهذه الصورة التي يوضحها هذا الديوان، والتي يطبعها طابع واحد هو طابع الشعر الديني أو الصوفي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وإذا أردنا أن نقف على البحور في الديوان فإننا نجد أن بحر الكامل جاء في مقدمتها، إذ بلغت نسبته أكثر من 36% من مجموع الديوان، وهو أحد البحور التي أكثر العرب من النظم فيها لا يتقدمه إلا الطويل والبسيط¹.

ولعل فكرة اختيار الكامل كبحر مؤتلف التشكيلية الإيقاعية موحدها، منسجم مع فلسفة التوحيد والتصوف التي تنشد الكمال والمطلق، وتبحث عن التوحد والإنفراد، والتي هي قوام فلسفة الشاعر الصوفي عموماً، والشيخ التراد بشكل أخص.

وتتأكد الفكرة أكثر إذا عرفنا أن الرجز قد جاء في المرتبة الثالثة في المدونة من حيث الاستعمال، وهو الآخر موحد التشكيلية الإيقاعية، وقد نتحد أحياناً تشكيلته بتشكيله الكامل، وذلك عندما نسكن المتحرك الثاني من تفعيله الكامل فتجيء مستقعلن بدلاً من متفاعلين، وهي نفسها تفعيله الرجز. ويأتي الطويل في المرتبة الثانية في الديوان، إذ بلغ إجمالي أبياته: 212 بيتاً، ومثل نسبة من الديوان، تزيد على 28%.

وهي مسألة طبيعية-في نظرنا-أن يحتل هذا البحر فضاء كبيراً من الديوان؛ ذلك أن هذا البحر طويل المقاطع، قد ظل يتربع على عرش بحور الشعر العربي²، ومن الطبيعي أن تنتفخ نسبته في شعر الشعراء الشناقطة في القرن 13 هـ الذين يعتبرون الشعر القديم نموذجهم الأعلى الذي يجب أن يحتذى. ثم يأتي الرجز. كما أسلفنا في المرتبة الثالثة من حيث الاستعمال، أي بنسبة 21% من مجموع الديوان وهو ما يعني احتلاله لحيز كبير من مساحة الديوان الإجمالية، والغريب أنه يميل إلى استغلال هذا البحر في الابتهالات الدينية، فيطول النفس نسبياً-، خاصة أن تنويع الروي الذي يسمح به النظم قد يوفر له قدراً أكبر من الحرية ويسهل عليه صرامة القوافي الموحدة في البحور الأخرى. وتمثل بحور البسيط والوافر، والمتقارب بقية النسب في الديوان وهي على قلتها تبدو طبيعية لا تمثل نشاطاً ولا خرقاً في الديوان.

¹- انظر أساليب الشعر في الشوقيات لمحمد الهادي الطرابلسي

²- يرى محمد الهادي الطرابلسي أن ثلث الشعر العربي القديم قد استعمل الطويل كقالب فني، انظر أساليب الشعر في الشوقيات مصدر سابق.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وإذا تناولنا الجانب الإيقاعي في الديوان من زاوية أخرى هي زاوية التكرار فإننا نجد نوعين من التكرار هما:

1- التكرار الأفقي: ونقصد به تكرار صوت أو أصوات أفقياً، كما هو الشأن في ظاهرة التصريع التي هي سمة إيقاعية دالة على اختيار للنموذج الشعري القديم.

وإذا نظرنا في الديوان وجدنا أن هذا النوع من التكرار كان حاضراً في الديوان بنسبة كبيرة حيث التزمها في القصائد الطويلة كلها كما أن اختيار بحر الرجز يمثل نسبة كبيرة في الديوان قد وفر لهذه الظاهرة الظروف المناسبة لتنمو وتتشعشع في الديوان.

ومن أمثلتها في الديوان: الرجز

شمر	لخدمة	من	خلقت	لخدمته	فبحقه	شمر	عليك	وعزته
الحمد	لله	الذي	أولى	الصفاء	بفضله	من	لازم	التصوفا

والأمثلة في الديوان كثيرة لا تحتاج إلى توضيح.

2- التكرار العمودي: ونعني به تكرار جملة شعرية تكراراً عمودياً يمنح النص الشعري نوعاً من الإيقاع الداخلي وحيوية موسيقية، وهذه الظاهرة رغم قلتها في الديوان فإننا نجد منها أمثلة متنوعة مثل قوله: الرجز

لطفاً	بنا	فإننا	ضعاف	نسألك	الأمن	فلا	نخاف
لطفاً	بنا	فإننا	أذله	ولا	نطيق	كدرا	وعله
لطفاً	بنا	فإننا	عبيد	عن	باب	الافتقار	لا نحيد
لطفاً	بنا	فإننا	أسارى	وحالنا	عليك	ما	تواري

فالملاحظ أنه يكرر الجملة الشعرية: "لطفاً بنا فإننا" تكريراً عمودياً؛ وذلك ليؤكد مضمونها، وهو يبتهل، ويتضرع إلى الله، وكأنه يحول العملية إلى أنشودة دينية تتردد فيها هذه اللازمة الموسيقية عمودياً.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويقول في نص آخر¹:

ومن إلى الغفران يا غفور أحوج ممن غره الغرور
ومن إلى النجاة والإخلاص أحوج ممن ألف المعاصي
ومن إلى لطفك يا لطيف أحوج مني وأنا الضعيف

ويتواصل التكرار العمودي في هذه الأبيات ليتناغم مع مدلول الانكسار النفسي والتذلل لله تبارك وتعالى في أغنية صوفية يمتزج فيها الإيقاع الداخلي والخارجي، العمودي والأفقي. وتتكاثر هذه الظاهرة وتتناسل في الابتهالات الدينية في الديوان.

القوافي

تغلب على الديوان القوافي المطلقة، مع تنويع لها، فقد استعمل الحروف التالية كقواف وهي: الباء، التاء، الدال، الراء، الضاد، العين، اللام، الميم، النون.

الروي

وتندر فيه القوافي المقيدة مما يدل على أن الشاعر كان انسياقاً ومتحركاً في شعره ينشد المطلق ويتوق إلى الحرية.

وتتنوع القوافي في الديوان من حيث عدد الحركات فيها والسكنات إذ نجد أن الشيخ التراد بن العباس قد استعمل قوافي المتدارك والمتواتر والمتراكب بنسب متفاوتة، وهذا يعني أن الشاعر استنفد طاقة إمكانيات ألقوافي في الشعر العربي

مضامين وأغراض

سنعتني في هذا الجانب من البحث بأهم الأغراض والمعاني التي تقاسمت ديوان الشيخ التراد بن العباس.

الغزل

الغزل أهم أغراض الشعر العربي، وأكثرها التصاقاً بالنفوس، به تفتتح القصائد القديمة وتتهياً للنفوس إلى تقبل الشعر والاستماع إليه "وللشعراء مذهب في افتتاح القصائد بالنسيب؛ لما فيه من عطف

¹ - الديوان، ص: 54.

القلوب، واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل، والميل إلى اللهو والنساء، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده¹.

ولو تأملنا الديوان وبحثنا فيه عن الغزل كغرض شعري مستقل، أو كمقدمات لقصائد في أغراض أخرى كالممدح لوجدنا أنه خال تماما من النصوص الغزلية، سواء منها تلك النصوص المستقلة أو التي هي مقدمات غزلية، فهل يعني ذلك أن الشاعر قد وقف موقفا معينا من الغزل العادي؟؛ بلأنه محسوس ومادي والصوفي يتوق إلى التجرد والمطلق أم يعني ذلك أن رقابة المحيط الضيق للشاعر (الحضرة الصوفية، المشيخة) وما تفرضه من رقابة دينية دفعت بالمحققين إلى أن يهملوا بعض جوانب شعره خاصة منها الغزل والهجاء وهي طريقة عودنا كثير من دارسي الشعر الموريتاني على إتباعها في نشر دواوين ذويهم؟

ومع هذا النفي القاطع لظاهرة الغزل في الديوان، فإننا نقف على كثير من معاني ودلالات الغزل تتداخل مع أغراض شعرية أخرى، ولكن هذه المقاطع الشعرية الغزلية الموجودة في الديوان ليست مقدمات ترصيعية في بداية القصائد، وليست نصوصا شعرية خاصة بالغزل، كما عهدنا عند شعراء الغزل، لكنها مبنوثة في غرض الحب الإلهي والنبوي ترميزا وإيحاء حيث يستغل قاموس الغزل، وتستدعى صورته لتعبر عن محبوب من نوع آخر لا تحده الحدود، ولا يقف عند حدود المحسوس، إنه الله تبارك وتعالى.

يا طالبا حب خير الخلق قاطبة أبشر فإنك ذو حب ومحبوب

لم تطلب الحب إلا عن محبته وطالب الحب محبوب ومطلوب

ففي هذين البيتين نجد أن معجم الغزل تسرب في غرض آخر وداخل نسيجه الشعري، وهو أي هذا الانزياح، الذي وقع على مستوى غرض الغزل هو من أبدع ما جاء في شعر الصوفية عموما، ولا يخلو هذا الديوان من إشارات عديدة إلى هذه الحقيقة.

¹ - العمدة في محاسن الشعر وأدابه - (ج 1 / ص 74

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويقول في موقع آخر¹:

شمر لخدمة من خلقت لخدمته	فبحقه شمر عليك وعزته
ولتجعلها ربع عزة فاعقلا	ولتبتكين بكا كثير عزته
واطلب بعبرتك الشفاء فإنما	يشفي الفتى داء الغرام بعبرته
وأزل بحزمك كل داء علته	نو الداء يرغب في إزالة علته
واجعل إلى المولى اشتياقك لا تكن	مثل المشوق بهنده وبميته
ما ساد باكي مقلة هطالة	هاج الغزال له الغرام بمقلته
صبا مشوقا بالحسان متيما	سكران من عود براحة قينته
بل إنما حاز السيادة من غدا	هيمنه في الله طالب وصلته

ففي هذا النص نجد أن الشيخ التراد قد استدعى رموز الغزل وتجاريه المختلفة ككثير عزة، وهند وميتة اللتين تحيلان على نصوص غزلية بعينها، وقصص غرامية معروفة في تراثنا الأدبي باعتبارها مصدرا للإلهام والوحي الشعري ليستغل هذه الرموز في حب الله تعالى:

شمر لخدمة من خلقت لخدمته فبحقه شمر عليك وعزته

فخدمة الله وعبادته هي أسمى الغايات وأنبى العواطف فهو وحده المستحق للغرام والشوق وبكاء المقل وذرف العبرات والسكر والشوف.... وتتالى الألفاظ الغزلية لتصف حال المحب لله، وهي نفسها كما أسلفنا الألفاظ التي اعتدناها عند الشعراء الغزليين، ولكن أهل الصوفية ومنهم الشيخ التراد قد وظفوها توظيفا جديدا، فإذا كان النقاد القدماء قد اعتبروا أن الغزل هو الشعر؛ لذلك جعلوا لقصائدهم مقدمات غزلية، وورد في الأثر لا تمدحوني بخصي الشعر، أي بالشعر الذي ليست له مقدمات غزلية، إضافة إلى كونه غرضا مستقلا فإن الشيخ التراد كما شعراء الصوفية قد جعلوا معجم الغزل ومعانيه جزء من معمارية القصيدة الصوفية يزين جدرانها، ويؤكد فناء أصحابها بحب الله مستغلين اللوحات الغزلية الصادقة التي تسعى إلى الفناء في حب الآخر.

¹ - الديوان: 22.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهذا العمل الذي لم يسبق إليه الصوفية في تجاربهم الشعرية يمثل تجاوزاً للشعر القديم، ويدفع بنا إلى أن نؤكد خصوصية التجربة الشعرية الصوفية، وكثافة معانيها.

الفخر

الفخر- هو الآخر- من أهم الأغراض في الشعر العربي، وقد حدد النقاد القيم والمبادئ التي يفتخرون بها وهي غالباً شرف الأصل والكرم والشجاعة، أي أنها منظومة القيم التي تستحسنها فلسفة المجتمع وترضى عنها¹ الافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخصص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار¹.

وإذا عدنا إلى المدونة وجدنا بعض النصوص الفخرية التي يفخر فيها الشيخ التراد بأبائه ولكننا عندما ندقق النظر في معاني هذا الفخر لا نجده متفقاً مع معاني الفخر التي تحدث عنها النقاد العرب، فهو يفتخر بأبائه باعتبارهم شيوخ تربية يوصلون للحقيقة ويقيمون الشريعة، يقول²: البسيط

ما نال فضلاً كفضلنا ولو فضلاً من ماجد غيرنا بل إننا فضلاً
إنا بنوا فاضلاً لا نبتغي بدلاً به ولا يبتغي كلاً بنا بدلاً

المدح

ويأتي في المرتبة الثانية بعد شعر التصوف من حيث الكم، ويلاحظ فيه تركيزه على مجموعة من الممدوحين من أهمهم:

-رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد خصص له قصائد عديدة، بل إن الديوان لا يخلو من ذكره صلى الله عليه وسلم فهو حاضر في كل الأغراض الأخرى.

أما القصائد التي خصصت لمدحه فهي خالية من المقدمات الغزلية، وأغلب معانيها يدور حول التوسل به صلى الله عليه وسلم، يقول³: الكامل

والله ما في المصطفى عيب يرى لكنه خير الورى أصل الورى

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه - (ج 1 / ص 158

2- الديوان: 44.

3- الديوان: 32.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والله لا عيب يحل إزاءه قسمني يمينا لست عنه مكفرا
من كان أعلى المرسلين مكانة وهدي فليس على الإله قد افتري

ويقول¹: الكامل:

إني بخير الخلق أحمد مولع فوداده ضمته بني أضلع
ودعت غير الهاشمي ودينه من لم يودع غيره فمودع
طلعت نجوم السعد عند طلوعه وبه نجوم السعد قدما تطلع
عظمى شفاعته لنا وبجاهه نلنا الشفاعة في الأثام فتشفع
بشرى لنا أن النبي شفيعنا يلقي له جاه أتم وأوسع

فالنص يركز على تعلق الشاعر بالنبي-صلى الله عليه وسلم-والمبالغة في حبه، ويبين أنه وسيلته في الشفاعة يوم القيامة.

-ومن الممدوحين أشياخه خاصة الشيخ سعد أبيه الذي يتكرر ذكره في الديوان مرات عديدة، وهو وإن ارتبط بالشاعر ارتباطا عائليا فإن علاقته به في الديوان هي علاقة المريد بشيخه الذي تربي على يديه، وأوصله إلى المراتب العليا من الصوفية التي هي في نظر المتصوفة فرض لا تكمل حقيقة التدين إلا لمن اعتنق مبادئها وتلقى تعاليمها، يقول في مدح شيخه الشيخ سعد أبيه، بعد أن قدم بمقدمة غزلية طويلة²: الكامل

لا تتكرن شجوا على ربع عفا لا هند فيه وأين منه هنوده
لا تتكرن شجوا عليك شهوده سحب المدامع والرقيب شهيده
أغراك فيه هوى الأحبة مثلما أغراك في بحر المكارم جوده
مهدي الورى محيي طريقة جده أما أبوه قسعه وسعيده
لله حلي الكون وهو سراجة والدهر فهو وحيدة وثريده
لله ذو المجد التليد فما عفا من مجده ما قد بناه جدوده

¹-الديوان:40.

²-الديوان:27.

حواليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بل أكد المجد التليد بنفسه وكذا المؤكد نفسه توكيده
 إن قلت من للجود فهو أو الندى فابن الندى وحليفه وحفيده
 غيث متى يهمني وليث باسل يرجى ويرهب وعده ووعيده
 صافي العلي ببره فاختره عبدا مطيعا مذ عصاه صيده

والقصيدة لا تختلف في بنيتها كثيرا عن القصيدة المدحية التقليدية فهي تبدأ بالمقدمة الغزلية ثم تعرج على الطلل وأخيرا تصل إلى الغرض الأساس مدح الشيخ سعد أبيه الذي مدحه بمجموعة من القيم لا تختلف في معظمها عن القيم التي امتدح بها العرب القدماء كبار الممدوحين أمثال هرم بن سنان والحارث بن عوف، وإن تميز عنهم بقيمه التصوفية، فهو كريم جواد مثل المطر، وشجاع مثل الأسد وقد صور هذه القيم من خلال هذه الكناية الرائعة¹:

إن قلت من للجود فهو أو الندى فابن الندى وحليفه وحفيده

ثم يتميز الشيخ سعد أبيه بأنه يوصل مرديه للحقيقة ومنهم الشاعر فهو يتوسل إليه أن يوصله ويثبتته ويهديه²:

لكنما محض الهوى أهدى بدا فأريد ما مثلي يريده

والذي يريده المریدون عادة هو الفتح والترقي في مدارج الصوفية وبلوغ القطبانية.

والخلاصة أن المدح في الديوان وإن اتبع أحيانا مهيع الشعر القديم في معانيه وقيمه وتقاليد الفذبة فإنه في ديوان نيل المراد كثيرا ما ارتبط بالقيم الدينية الصوفية التي ترى في الممدوح صورة المطلق، صورة المثل الأعلى الذي منه تستمد القيم وتتعلم أسس الصوفية وتستقي من بركته النفس³، يقول:

فما أنا من ليلي وأسماء ذا وجدي ولكنما وجدي بسعد الوري سعدي
 فلا زال يسقينا كؤوس معارف ولا زال يهدينا كما كان قد يهدي

¹-نفسه:27.

²-نفسه:27.

³-الديوان:29.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- التصوف ودلالاته

قبل أن نبسط القول في هذا الغرض في الديوان لا بد أن نعرف التصوف من جهة علاقته بالشعر، وهل هناك لون من الكتابة يمكن أن نعتبره كتابة صوفية؟

وقبل أن نصل إلى حقيقة الكتابة الصوفية نشير إلى أننا لن نهتم بالجانب اللغوي الذي يشير إلى لبس الصوف¹ والزهد والتقشف، ولكننا سنهتم بالفلسفة الزهدية باعتبارها "رؤية للوجود لها تعبيرها الخاص والتميز، والذي أطلقنا عليه الكتابة الصوفية، تلك الرؤية المؤسسة على أن الإنسان النسبي يتوق لبلوغ الكمال في كل شيء، حيث يلجأ الشعر الصوفي إلى الانحراف باللغة عن دلالاتها العادية والميل بها إلى الرمز « التعبير بالرمز هو وحده الذي يمكن أن يقابل الحالة الصوفية التي لا تحدها الكلمة، والذي يمكن بالتالي أن يخلق المعادل التخيلي لهذه الحالة، إذ أنه تعبير لا يخاطب العقل بل القلب... فكما أن الحالة الصوفية لا يحكمها مقياس الحس والعقل، ليس في مقدور لغة الاصطلاح والوضع أن تعبر عما يتناقض مع الإصلاح والوضع ».

أما إذا أردنا أن نقف على حقيقة التصوف عند الشيخ التراد من خلال ديوانه، فما يمكن أن نلاحظه هو أن التصوف أغزر الأغراض في الديوان سواء في ذلك كنهه أو كيفه أو معانيه ودلالاته، وتأتي منزلة هذا الغرض في الديوان من صورته في ذهن الشيخ التراد فهو فرض دين لا يستغني عنه أي مسلم، يقول²:

إن التصوف فرض عين يذكر
فجميعنا بعمومه قد يومر
فبسنه المختار طه مؤيد
وكتابه، أنبي يذم وينكر

ثم تتكشف النصوص في الديوان لتعبر عن حقائق التصوف من حيث، هو أذكار وصبر على العبادة والتبتل حتى ينسى المريد شهواته ويدفن رغباته البهيمية وغرائزه الحيوانية راجيا بلوغ غاية الغايات وأسمى المراتب، فيصور النص الشعري في الديوان فلسفة التصوف القائمة على الزهد والتقشف والسخرية من الدنيا الفانية، يقول:

¹ - يردّ بعض الصوفيين كلمة الصوفية إلى كلمة "الصوف" كمرجعية بسيطة تناسب نسبتها اللغوية أو للبسهم إياها، لكن نسبتها إلى الكلمة اليونانية "صوفيا Sophia" التي تعني "الحكمة" يبدو أقرب إلى الصواب، بل إلى المنطق الصوفي ذاته [1] . ا . فلقب "الصوفي" الذي أطلق أول ما أطلق على أبي هاشم الكوفي، المتوفى عام 150هـ/768م.

² -الديوان: 32.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إن الدنية لا يدوم قرارها يا من سبته نساؤها وديارها
كم عانقت فيها الأشاوس خردا قد زانهن حريرها ونضارها
وبنت بها كيما تقر عيونها دورا سما نحو السماء جدارها
وتمايلت أغصانها بجنانها وكست رباها حليها أزهارها
فغدت أشاوسها أسارى فدغد ما للقطا أبدا يتاح مزارها

فهذا النص يوضح فلسفة الزهد والتصوف التي تقوم على احتقار الدنيا واعتبارها متحولة فانية مهما بلغ فيها الإنسان من ملذات ومدارج فانقطاعها ونهايتها دليل على أنها لا تساوي شيئا في نظر الشاعر الصوفي الذي يبحث عن الدائم ويتوق إلى المطلق.

ولكنه في نفس الوقت يرى أن الدنيا دار عبور دار مكابدة ومجاهدة للنفس وصبر على آلام العبادة الدائمة التي يجد فيها الصوفي لذته، يقول¹: البسيط

لله قوم دوام الدهر قد عبدوا حتى أحبهم مولاهم الأحد
إني أكل ولا أراهم أكلوا دهري وأرقد حيث القوم ما رقدوا
فكيف كوني إلى ذي القوم منتميا ولست منفردا إلى ما له انفردوا
لكن سلكت بحمد الله ما سلكوا كذاك نلت شهود كل ما شهدوا

لله قوم دوام الدهر قد عبدوا حتى أحبهم مولاهم الأحد
إني أكل ولا أراهم أكلوا دهري وأرقد حيث القوم ما رقدوا
فكيف كوني إلى ذي القوم منتميا ولست منفردا إلى ما له انفردوا
لكن سلكت بحمد الله ما سلكوا كذاك نلت شهود كل ما شهدوا

فالشيخ التراد يتعجب في هذه الأبيات من سلوك الزهاد والمتصوفة، وصبرهم على الجوع والنصب معتقدا أن هذا السلوك من العبادة والاجتهاد فيه هو وسيلة بلوغ المراد، والمطلب الذي هو معرفة

¹ - الديوان: 30.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الله حق المعرفة، يبلغ عند بعض الصوفية كماله بالاتحاد، ولكن الشيخ التراد لا يقر هذه الفكرة التي قال بها بعض الصوفية¹.

ويرى الشيخ التراد رحمه الله أن هذه العبادة والتبذل موصلة في النهاية إلى الجنة، وهي في الديوان جنتان، جنة دنيوية يمثلها معرفة الله تبارك وتعالى واكتساب العلم اكتساباً لدنيا، وجنة أخروية تكون ختاماً لرحلة الإنسان ونجاحه وتوفيقه من الله في أن ينال هذا الجزاء الأكبر، يقول²: البسيط

لله جنة دنيا إنها عجب	قد كان يطلبها من همه الطلب
وصل وعلم لدني ومعرفة	شهود غيب متى ما تخرق الحجب
من بعدها جنة في دار آخرة	هي النعيم بها الياقوت والذهب
لها كؤوس بها يفوز شاربها	لها قصور وأبكار بها عرب
قد حفتا بمكاره وأنفسنا	تأبى المكاره لو يقضى بها الأرب
بالصمت والجوع والبلواء نيلهما	وباعتزال وأعمال لها تعب

فالشاعر يتصور أن جنة الدنيا يجدها الصوفي الذي أخذ نفسه بالمجاهدة والصبر على العبادة، وهي حب الله والمداومة على العلم حتى يصل إلى درجة المكاشفة التي هي لذته الكبرى، وحين تخرق الحجب يكون ذلك ثمرة أولية لعبادته وتوفيقه، وهو بمثابة الجنة الأولى.

أما الجنة الآخرة فهي التي تختم بها الأعمال وهي محفوفة بالمكاره، يجد فيها المسلم كل ما يشتهي من ملذات، ابتعد عنها في الدنيا، أزلية لا تنقطع.

وإذا كان الشيخ التراد قطبا من أقطاب الصوفية الكبار المدافعين عنها، فإنه لم يبلغ درجة التصوف الفلسفي؛ لأنه أنكر، في آخر حياته، فكرة الاتحاد والحلول وربط التصوف بمقام الإحسان، الذي اعتبره أدنى مقامات الصوفية.

والخلاصة أن شعر الصوفية في ديوانه قد سيطر على جميع الأغراض، فالغزل وظف في خدمة دلالات غرض التصوف، وانحرف به عن دلالاته الأصلية ليعبر عن رؤية الشاعر الصوفي التي

¹ -مثل الحلاج ورابعة العدوية انظر قوله، يا كل كلي، يا سمعي ويا بصري يا جملتي وتباعضي واجزائي
يا كل كلي، وكل الكل ملتبس وكل كلك ملتبس بمعنائتي

² -الديوان: 21.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تميل إلى ترميز الأشياء والتعمق في الأفكار الفلسفية الوجودية، ويقابلها تقشف وعدم احتفاء على مستوى الأسلوب حيث نجد أن الشيخ التراد لم يهتم كبير اهتمام بالأسلوب، وربما كان ذلك جزء من مراسيم الكتابة الصوفية عنده، حيث نجده زهده في الأسلوب يتناسب مع زهده في الأشكال والقوالب، على خلاف المحتوى الفكري والرمزي اللذين اهتم بهما اهتماما كبيرا.

وهو نفس التوظيف الذي نجده في غرض المديح حيث يركز على قيم الممدوح الدينية والصوفية. وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- في مقدمة الممدوحين الذين يوصلون للحقيقة والفتح والتصوف، كما يأتي أشياخه من المتصوفة في مرتبة ثانية حيث يصورون على أساس أنهم الوسيلة إلى بلوغ المرام.

وبذلك يظهر ارتباط شعر المدح بالتصوف، وهو نفس التوظيف أيضا الذي نجده كذلك في الافتخار حيث يفتخر بالقيم الصوفية والمتصوفة باعتبارها منهجا ربانيا وفريضة عين، لا يمكن للمسلم أن يستغني عنها.

الرواية الموريتانية والبحث عن الجذور

التمفصلات الزمنية الكبرى في دروب عبد البركة

الحافظ ولد محمد الفتح

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب، جامعة انواكشوط العصرية

عتبة

يحاول هذا المقال أن يكشف تجليات البحث عن الجذور في الرواية الموريتانية وأهميته في تخطيط الزمن في الخطاب الروائي، وذلك من خلال وصف للتمفصلات الزمنية الكبرى في رواية "دروب عبد البركة" لمحمد ولد محمد سالم. فقد لاحظنا أثر تيمة البحث عن الجذور في بعض الروايات الموريتانية وما ينتج عن غياب الانتماء وما يترتب عليه من ظلم اجتماعي ومعاناة فردية، سواء كان ذلك ناتجا عن غموض في النسب كما هو الحال في حشائش الأفيون أو عن تناقض فيه كما هو الشأن في منينه بلانشي أو فقدان الأب واختفائه كما في النص الذي نتخذه نموذجا. ومن الأسئلة التي نسعى إلى طرحها هنا: كيف يتجلى ذلك في بنية الخطاب الزمنية؟ وهل يمكن أن يكون ذلك راجعا إلى ما واجهته البلاد بعيد استقلالها من معارضة على المستويين الداخلي والخارجي؟ . وقد استقينا هذا العنوان من تكرار كلمة الجذر في النص المعتمد «الجذر هناك غيبه الظلام، فاحمل المشعل وأوقد له ساحتته»¹. وسنقتصر هنا على البنية الزمنية.

أولا: التmfصلات الزمنية الكبرى

إننا قبل أن نقدم التmfصلات الزمنية الكبرى نقدم تلخيصا للرواية لمساعدة من لم يقرأ النص على تبين أدنى حد من المعرفة بأحداث الرواية حتى نسهل عليه متابعة التحليل.

¹ - دروب عبد البركة، ص 25

1- ملخص الرواية

تحكي هذه الرواية قصة مركزية تتبع حياة "عبد البركة" (ليبطيني) الذي يقول عنه صديقه الزاكي بشأنه "وكننت لم أعقل الأحداث حين جاءت تلك المرأة تحمل ولدها الفطيم ويذكر أهل الحي أنها نزلت عليهم بعد مسيرة طويلة بدأتها من أعالي تكانت وظلت تسير أياما وليالي، والذي حملها على ذلك هو الفرار بولدها مخافة أن يقتله إخوته، فقد سمعتُ النساء بعد وفاة "مارية"، وهذا اسمها يتحدثن أنها فرت خوفا على ابنها من زوجة وأبناء سيدها الذي كان قد تسرى بها، فولدت عبد البركة، وعزم الأب أن يعلن بنوة الولد وكان شيخا مليئا (ثريا) وسيدا من عرب العساسين، فشق على الزوجة وأبنائها أن تشاركهم جارية وابنها حظهم من السيد وماله، فدبروا لقتله، لكن إحدى نسائهم رحمته وأخبرتها بما دبروا وزودتها وقالت اخرجي سرا إلى حيث لا يجدونك ولا يسمعون عنك¹. وصلت مارية قرية "التوكة" في ولاية لعصابة فاستقبلوها وعاشت بينهم حتى بلغ ابنها بدأ يخرج للتحصيل، ولما عاد في إحدى المرات وجدها ماتت بسبب إسهال انتشر في المنطقة فحزن عليها ثم ذهب إلى الشرق، ولم يعد إلى القرية، فأصبح سائق أجلاب²، ينتقل بين مدن الشرق والشمال، فأصبح له "أولاد متفرقون في البلاد من شرقها إلى غربها وشمالها"³ حيث يقول "وتزوجت خلال ذلك ست زيجات كانت أولها وأنا فتى في العشرينيات في البادية جنوب لعيون، ثم تزوجت عليها سرا في باسكنو وخلفت من الأولى ولدا وبنيتين، ومن الثانية ولدين ثم انتقلت إلى لبراكنة وخلفت ولدين وطلقت أمهما، ورحلت إلى "أطار" وتزوجت وخلفت ولدا وبنتا، ورجعت إلى انواكشوط فتزوجت وخلفت ولدا ورحلت إلى أكجوجت وهناك كانت المأساة: لقد تزوجت وليتني لم أتزوج، لقد كانت المأساة التي عصفت بحياتي وأفقدتها كل معنى، وسلبتني الأمان، كانت فتاة جميلة تعرفت إلى أهلها بوصفهم أسرة مهاجرة من ناحية أفطوط التي جئت منها، ونزلت ضيفا عندهم شهرا أتردد فيه إلى شركة النحاس طلبا للعمل، إلى أن قبلتني الشركة حارسا فيها، ولم يمض شهران حتى تزوجت تلك الفتاة، ومنذ الأسابيع الأولى بدأت أرتاب في علاقاتها حتى نمت إلى بعض الأصدقاء

¹ - دروب عبد البركة، ص 29

² - ** تعني من يكتري لمساعدة بائعي المواشي الذين يذهبون بها إلى أسواق بعيدة منهم

³ - المرجع السابق، ص 60

أنها على علاقة بشاب وأنه يتردد إليها في غيابي وكنت أتغيب يوما وليلة في الحراسة، فخرجت للعمل ذلك اليوم، وكنا نخرج مساء ونستقل السيارة إلى الشركة ويعود الذين كانوا قبلنا، ولكني في تلك المرة لم أذهب إلى السيارة وأشعرت أحد زملائي قبل ذلك بأنني قد أتخلف ... ثم جئت أتسلل حتى وقفت عند الباب .. وقفزت في الداخل بازغا مصباح الحراسة نحوهما .. ولا أذكر إلا أنني ذبحتها ولم أشأ أن أقتله هو فقطعت مثنائتيه¹. وبعد هذه الحادثة يصبح شريدا في السنغال ليعود متخفيا إلى كرمسين حيث يتزوج من مسعودة ليموت وحيدا تحت شجرة ولا يتم العثور على جثته إلا بعد شهر. أما الحكايات الموازية فأهمها حكاية علي بن عبد البركة المولود في نواكشوط، فبعد أن نجح في الحياة وأصبح موظفا ساميا في وزارة المالية قام بمبادرة البحث عن الأب الذي لم يعرفه، وتولى سرد أغلب الأحداث قبل أن يلتقي بحمزة الضابط أخيه المولود في أطار الذي كان يبحث من جانبه واتصل بإخوته في لبراكنة.

2- زمن القصة وزمن الخطاب

إننا قبل، أن نتحدث عن هذين الزمنين، لابد أن نحدد ماذا يعنينا انطلاقا مما قدم الباحثون في هذا المجال وخاصة سعيد يقطين، فالأول يتجلى " في زمن المادة الحكائية. وكل مادة حكاية ذات بداية ونهاية. إنها تجري في زمن سواء كان هذا الزمن مسجلا أو غير مسجل كرونولوجيا أو تاريخيا"². أما زمن الخطاب فيعني طريقة التصرف في هذا الزمن وتقديمه وفق تمفصلات وفق منظور خطابي معين.

3- التمفصلات الزمنية الكبرى

يتم تقديم النص وفق ست وحدات سردية كبرى تنتظم في ستة فصول هي : 1- درب الطفولة (من ص 7- 25) 2- درب مارية (من ص 26- 38) 3- درب الفلاني (39- 48) 4- درب حمزة (49- 58) 5- درب مسعودة (60- 66) 6- درب النهاية (من ص 67- 70). ويمكن أن نقترح لكل وحدة عنوانا وننتبعا حسب ورودها على النحو التالي:

¹ - المرجع السابق، ص 61-62

² - سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - المغرب الطبعة الرابعة 2005، ص 89

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- الوحدة الأولى: من طفولة علي:

يبدأ زمن الخطاب بإعلان نية البحث عن الأب، وهو " ترهين أول حدث من زمن القصة وهذا ما يسميه جيرار جرينيت بالحكي الأول"¹ " وضمن ذلك يمكن دراسة ترتيب الأحداث أو المفارقات الارجاعية أو الاستباقية التي تتم على مستوى الحكي"² وهو بحث عن (الجذور)، وبين الإعلان والوقوع يروي "علي" جوانب من طفولته مما يعبر عن الدوافع وراء ذلك البحث، فهو المعاناة الناتجة عن فقدان الأب، لذلك سنتبين في الصيغة السردية-لاحقا- حوارات داخلية (monologues) يخاطب فيها الابن أباة. فإذا إلى نظرنا القصة المركزية فهذا إعلان عن بداية سردها بعد أن اكتملت أحداثها، أما بالنسبة للحكي الموازي المتعلق بالابن فهو استرجاع لجوانب من طفولته.

- الوحدة الثانية: طفولة عبد البركة وشبابه:

ويتصل فيه علي بشخصيتين وثيقتي الصلة بأبيه وهما الزاكي وأم العيد ترويان له مقاطع من حياة أبيه: طفولته وشبابه وآخر أخباره، حيث تتم الإشارة إلى زواجه الأول وبحث السلطة عنه إثر قتله زوجته في أكجوجت. ويتأكد النسب من خلال التشابه الكبير بين علي وأبيه كما أكد ذلك الشيخ الزاكي الأعمى ومارية.. يأمر علي نفسه بتثبيت الجذور لمواجهة الماضي " إذا هددك والد سلامي أو طاردك أحد الجيران، فاجأ إلى الركن والنظرات القوية لتحملك وتُخيف من يدنو منك، ثبت الجذور في أصلها ودعها تنمو .. ألا ترى شعاع الضوء النابع من العيون القوية وهي تسرق النظر إليك"³. وتتضمن مقطعا يكشف تحمل علي المشقة من أجل والده.

- الوحدة الثالثة: عبد البركة بين ضواحي لعيون وباسكنو والسنغال.

وفي هذا المقطع يروي سلاك لأخيه ما يعرف عن أبيهما، حيث عاش معهم في ضواحي لعيون فترة ثم في باسكنو، ولما طال غيابه ذهب لمعرفة أخباره، فتبين أنه عاش في السينغال فترة ليغيب غيبة مفاجئة عن صديقه الفلاني الذي يرجح أنه مات حيث وجدوا جثة " غلب على ظنهم أنها جثته"⁴.

¹ - محمد الامين ولد مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء منشورات جامعة نواكشوط كلية الآداب والعلوم الإنسانية 2012، ص49

² - مرجع سبق ذكره، ص 91

³ - المرجع السابق، ص 27

⁴ - دروب عبد البركة، ص 46

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- الوحدة الرابعة: عبد البركة في أطار

ويلتقي علي بأخيه حمزة ليخبره عن عثوره على مسعودة آخر زوجات عبد البركة، ويروي له حياة أبيهم في أطار وتعرفه على إخوة لهم في ألاك. كما يؤكد وفاة الأب من خلال ما أخبره به سائق من كرمسين. وحتى حين حملتك إلى النظرات الثاقبة والشابة أرجأت وقلت حتى أفرغ من أمرك ص 50.

- الوحدة الخامسة: موت عبد البركة

يحكي هذا المقطع عن الفترة التي قضاها عبد البركة قرب كرمسين، وهو ما يناهز عشر سنوات ترونها مسعودة، وتأكد ما كان من خبره في السينغال.

- الوحدة السادسة: لمُ الشمل وزيارة قبر عبد البركة

ويختتم النص بانتقال الأبناء إلى كرمسين، حيث اجتمعوا عند مسعودة وحضر معهم إمام لإقامة صلاة الميت عند قبر الأب. وستتم العودة إلى نواكشوط، وجمع الإخوة وأحفادهم في قرية (التوكة) كما يَعدُّ عليُّ أباه بذلك تحقيقاً لما كان ينوي القيام به.

وتجدر الإشارة إلى أن كل وحدة تشتمل على زمنين حاضر متعلق بالحكي وماض متصل بالقصة، فمثلاً إعلان انطلاق البحث والحوار الذي يدور بين علي وأعمر ابن خالته. يتعلق بالحاضر، في حين أن طفولة علي تتصل بـماض يتم استرجاعه ومتعلق بالقصة، وليس في هذه الوحدة ذكر تاريخ محدد وإنما يمكن أن يستنتج عندما نعرف تاريخ ميلاد علي في الوحدة الرابعة. وغنما يتحدد اعتماداً على أنه ما زال يدرس في المرحلة الابتدائية (سن العاشرة). وسنقدم الإشارات الواردة في الوحدات الأخرى والدالة على الزمن التاريخي، وذلك على النحو التالي:

- الوحدة الثانية ففيها إشارات زمنية مجملية مثل "عاش فيها ابوه منذ ما يزيد على

خمسین عاماً"¹ عندما يتحدث عن قرية (التوكة) قرية قرب باركيول «كان ذلك منذ

ما يقارب ثلاثين عاماً"²، يعني بحث الدرك عن عبد البركة بعد قتله وزجته. "لقد

انقطع عنا خبره منذ أزيد من خمسين سنة"³ حسب أم العيد.

¹- دروب عبد البركة، ص 26

²- مرجع السابق، ص 31

³- المرجع السابق، ص 37

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- الوحدة الثالثة «سلاك الابن الأكبر لعبد البركة يناهز الخمسين»¹ ومرض أم سلاك الذي دام عشر سنين عمل مع الفلاني زمنا أول سنوات الجفاف بعد يومين (48).
 - الوحدة الرابعة: رسالة فيها رقم تلفون 52421 قبل الجوال من مواليد 1956 أكبر مني بخمس سنين. ومنذ أشهر حصلت على رتبة رائد ص 51. أطار سنتين ص 52 توفي في قرينتا منذ سنوات ص 53 أزيد من عشر سنين ص 53 ما يقارب السنتين (ينتظر التوظيف) وقد بعث لي بعد ذلك بأشهر برسالة يعلنني فيها بأنه قبل في وزارة المالية في وظيفة جيدة ص 54 وحصل على سكن حكومي في تفرغ زينة. أرجأت حتى أفرغ من أمرك.
 - الوحدة الخامسة: ثلاث سنوات الباكلوريا الحلم ص 56 منذ أزيد من عشر سنوات ص 59. أنا فتى في العشرينيات ص 61 وفي السنغال تقلبت سنوات في أعمال كثيرة لم يرق لي أغلبها وبعد أن ضرب الجفاف موريتانيا، واضطر أصدتاب الماشية إلى العبور إلى السنغال التقيت رب إيل من الذين عبرت إيلهم هناك وكان له راع ص 62... ومكثت معه أزيد من عشر سنوات ص 63 ليلة ويوما ص 66.
 - الوحدة السادسة: لمُ الشمل وزيارة قبر عبد البركة: في الأسابيع الموالية لعودتهما ص 67 وباتوا ليلتهم ص 68 سنوات طويلة وانت تبحث عنها تطاردها. انتخابات الرئاسة (مستقبل 1992) ص 70
- ويمكن أن نلاحظ أن كل وحدة تحتوي على مقطعين، وبذلك تكون الوحدات الزمنية ستا والمقاطع اثني عشر، إضافة إلى الوحدة السادسة التي تعتبر نهاية الرواية وبداية قصة جديدة هي حياة العائلة الكبيرة في القرية التي آوت الجدة وابنها الصغير (عبد البركة). ومواصلة على حياته في (التوكة)، الأمر الذي أرجأ حتى يعثر على أجبار الوالد.

¹ - المرجع السابق، ص 42

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويوضح الجدول التالي مقاطع الحاضر والماضي في كل وحدة:

رقم الوحدة	مقطع الحاضر	مقطع الماضي
1	إعلان علي نية البحث عن والده (بعد سنة من التوظيف)	طفولة عليّ (حوالي 1971)
2	وصول علي وابن خالته إلى قرية (توكة) آثار الزيارة على نفسية البطل في مواجهة الماضي والمستقبل (حوار داخلي)	- مولد عبد البركة وطفولته وشبابه (منذ حوالي 70 سنة) - إعلان عن قتله زوجته في اكجوجت حسب الدرك (منذ 30 سنة) - الإشارة إلى زواجه في الشرق (منذ 50 سنة) - تحمل على المشقة وإصراره على الدراسة رغم معارضة خاله (من حياة علي: حوار مع الأب) - حلم إنقاذه من اشتعال أثناء المراجعة عندما غلبه النعاس
3	وصول هما إلى ضواحي لعيون تأملات في ماضي علي تكشف جوانب من حياته البائسة محاورة الأب (حوار داخلي)	- عبد البركة في ضواحي لعيون وباسكنو وحياة ابنائه هناك (منذ حوالي خمسين سنة) - وإقامته في السنغال واحتمال موته (منذ عشرين سنة)
4	عودتهما إلى انواكشوط ولقاء حمزة تأملات (وحتى حين حملتك إلى النظرات الثاقبة والشابة أرجأت	عبد البركة في أطار وألاك سنتي 1956 و 1957 ومختصر حياة حمزة بن عبد البركة والإعلان عن وفاة الأب في كرمسين نجاح علي في الباكلوريا وضغط خاله عليه ومواجهته

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

	وقلت حتى أفرغ من أمرك) آثار لقاء حمزة علي علي (محاورة الأب)	والحرص على متابعة الدراسة في الخارج
5	ذهاب حمزة وعلي إلى كرمسين	عبد البركة في كرمسين ومجمل حياته
6	زيارة الأبناء لمسعودة وصلاتهم عند القبر	نهية الماضي والحاضر وبداية المستقبل

(الجدول 1)

وإذا عرفنا "أن لا شيء اعتباطي، ولكل شيء دلالاته"¹ كما يقول سعيد يقطين، فإن توسيع حقب وتقليص أخرى وحذف أخريات له دلالاته على مستوى التخطيط.

4- دلالة التخطيط

أ- **الحاضر والبحث عن الجذور:** وتتضح أهمية الحاضر في البحث من اتخاذه مساراً خطياً تتواصل أحداثه بسرعة، فهو رحلة متواصلة، لذلك جاء الزمن فيه متتابعاً أي خطياً، ولم يستغرق إلا أسابيع مع وقفة زمنية لم يعلن عنها وهي التي تم خلالها جمع الإخوة. إلا أنه مع ذلك هو الذي يحتضن الماضي من الاسترجاع في صيغ مختلفة.

ب- **الماضي وحاجة علي إلى الجذور:** يدخل الماضي سياق السرد باسترجاع جوانب من طفولة علي وهي مرحلة سابقة على الحاضر، حيث أصبح علي موظفاً، إلا أنها لاحقة على بعض ما سيتم سرده في الوحدة الثانية. وانطلاقاً من ذلك فإننا يمكن أن نوسع دائرة مقاطع الماضي لتصل إلى تسعة ونرتبها حسب ورودها في زمن الخطاب من جهة، ووفق موقعها من زمن القصة كما يبين الجدول التالي²:

¹ - تحليل الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 93

² - استرشدنا بما قام به سعيد في تحليل الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 95

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الوحدات السردية	ترتيبها على مستوى الخطاب	ترتيبها على مستوى القصة
طفولة علي بن عبد البركة	1	6
مولد عبد البركة وطفولته	2	1
الإشارة إلى قتله زوجته في اكجوجت	2	7
الإشارة إلى زواجه في ضواحي لعيون	2	2
زواجه في ضواحي لعيون وحياته أبنائه	3	2
زواجه في باسكنو والإشارة إلى ابنه هناك	3	3
خبر إقامته في السنغال	3	8
عبد البركة في أطار	4	5
حياة حمزة في أطار	4	6
الإعلان عن وفاة الأب في كرمسين	4	9
عبد البركة في كرمسين	5	9
ملخص حياة عبد البركة	5	من 2-9

(الجدول 2)

إذا نظرنا إلى الجدول نلاحظ:

- صدارة شخصية علي في البحث عن الجذور: يعلن علي قبل انطلاقه " الجذر هناك غيبه الظلام، فاحمل المشعل وأوقد له ساحتها، أخرجه من مغارته، وادع كل أولئك الذين أغمدوا ألسنتهم الحادة في كبذك، ليروا بأنفسهم. ولن نخجل أن نتحدث

عن أبيك، لن يعود خيالا غامضا لا تدرك حقيقته، إن لك أبا قويا عظيما كريما كما كانت تقول خالك، وأنت ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا لأن دما ذكيا يجري في جروقك. يدفعك من نجاح إلى نجاح حتى أكملت دراستك، وتوظفت وظيفة سامية، وجرت النقود في يدك جريان الماء، فاليوم صل القناة بمنبعها واترك الماء يجري صافيا متدفقا، نهرا يبهز العالم وينبت في الأرض من حوله زروعا وخضرة مورقة¹.

بهذه العبارات يخاطب علي ذاته قبل انطلاق رحلة البحث. وعندما نحاول استنتاج الجدول انطلاقا من العلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب نجد أن ما يتصل بطفولة علي بن عبد البركة احتل الصدارة لأنه يمثل البؤرة الحاضرة بوصفه الباحث عن الجذور والمسروود له في أغلب الأحيان. وأن له تدخلات تسلط الضوء على الدوافع وراء البحث من جهة أو تكشف عن جوانب من حياته البائسة عبر صيغتي محاورة الذات أو محاورة الأب. ولا تكاد تخلو وحدة من هذه التأملات أو الملاحظات الكاشفة عن ماضي هذه الشخصية أو المستشفرة جوانب من المستقبل. (انظر الجدول 1).

- الإشارات الزمنية ودلالاتها: ويسعى الكاتب إلى إشراك القارئ في عملية تخطيط الزمن، وذلك بعدم ذكر صريح للتواريخ، فإذا استثنينا تاريخ ميلاد حمزة وأخته المصرح به وأخيه علي الذي يصغره بخمس سنوات، فلا نجد تاريخا وإنما إشارات كما بينا سابقا. وقد يكون ذلك دالا على ضياع جذور كثيرة عبر التاريخ. كما قد يكون معبرا عن وجودها بشكل مطلق دون تقييد زمني. وتبقى عملية البحث عن الجذور وما يترتب على ذلك من أعباء سيتحملها الباحث عنها، وهو هنا علي وإن كان لكل من إخوته نصيب من البحث، وخاصة حمزة وسلاك.

كما أن للتاريخ المذكور صراحة (1956) أو ضمنا (1961) أهميته، حيث يمثل مرحلة بداية استقلال البلاد وما يترتب على ذلك من جهود نضالية إضافة إلى معاناة إثبات وسط عالم يعارض فيه الكثيرون قيام الدولة المستقلة. كما أن التحاق مواليد أطار وانواكشوط بالمدرسة أكثر من

¹ - المرجع السابق، ص 23

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

التحاق مواليد ضواحي لعيون وباسكنو ومناطق من لبراكنه. وهذا ما يفسر تدرس. علي وحمزة واستفادتهما من الدولة الحديثة، إذ أصبحا يشغلان وظائف في الدولة الحديثة (خبير في المحاسبة موظف سام في وزارة المالية ورائد من الجيش). وقد كانت معاناتهما أكبر في البحث عن الجذور، فقد طلب حمزة التحويل إلى لبراكنه ليجد معلومات عن الأب. وجهاز على سيارة واصطحب معه ابن خالته بحثاً عن الأب في رحلة شاقة.

- **القصة بين الانغلاق والانفتاح:** وعند انغلاق دائرة الزمن في نهاية النص على مستوى الماضي، هل سيبدأ علي بن عبد البركة حياة جديدة يرد فيها الجميل لأهل القرية التي آوت أباه صبيًا وجدته الطريفة؟ ولربما تجاوز ذلك إلى البحث عن أهله الأصليين.

خاتمة

إذا حاولنا أن نربط ما بينا من مركزية البحث عن الجذور على مستوى الزمن وبين الحياة الاجتماعية نجد أنها جدود التسعينات من القرن الماضي، وهي بدايات الديمقراطية التي يشير النص إليها (انتخابات الرئاسة)، وكذلك. وهي فترة الانتظام في أحزاب سياسية مما يتطلب البحث عن الدعم بالأصوات، ويتم استغلال القبيلة وغيرها من أجل ذلك. وبقى أن نذكر أن الصيغة السردية يمكن أن يتم تحليلها لنتبين درجة تأكيدها لما كشفت عنه البنية الزمنية. كما يمكن أن يقارن كل ذلك مع النصوص الأخرى مما يسمح بالتعميم.

1- محمد ولد محمد سالم: دروب عبد البركة. إصدارات دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة 2010

2- سميرة حمادي فاضل: حشائش الأفيون. عمان مكتبة الرائد العلمية. طار الراشد للنشر والتوزيع 2006، عمان -الأردن

3- محمد ولد أمين: مئنه بلانشي. دار الساقى ط1 -2014

المراجع

4- محمد الحسن ولد محمد المصطفى: الرواية العربية الموريتانية. الهيئة العامة المصرية للكتاب بدون تاريخ

5- محمد الأمين ولد نولاي إبراهيم: الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني. دار الأمين ط1. 2001

- السرديات والرواية الموريتانية تنفيذ دار الفكر ط1. 2010

- السرديات وخطاب السرد: تنفيذ دار الفكر ط1 2010

- شعرية رواية الصحراء منشورات جامعة نواكشوط كلية الآداب والعلوم الإنسانية 2012

- بنية الخطاب ودلالاتها في القبر المجهول أو الأصول المكتبة الأكاديمية 2000

6- : سعيد يقطين: -تحليل الخطاب الروائي المركز الثقافي العربي ط4، 2005 الدار البيضاء المغرب

تحليل رواسب الكتبان الهلالية في إقليم انواكشوط

أ. د. كمال إبراهيم صيدم

قسم الجغرافيا

جامعة انواكشوط العصرية

بشير ولد محمد

قسم الجغرافيا

جامعة انواكشوط العصرية

مقدمة

1- تعريف الإقليم: الإقليم الجغرافي هو الوحدة المكانية الطبيعية، أي الوحدة المكانية التي تتجانس فيها الظواهر الجغرافية المختلفة بصورة طبيعية¹. والإقليم هو عبارة عن رقعة من الأرض تتسم بخصائص معينة تميزها عما يجاورها من الأقاليم الأخرى، والإقليم قد يكون مناخيا؛ في هذه الحالة نجد رقعة الأرض تتسم بخصائص مناخية عامة تسودها وتميزها عن غيرها، وقد يكون الإقليم نباتيا أو طبيعيا بصورة عامة، بمعنى أن تتجانس فيه العناصر الطبيعية المختلفة من موقع جغرافي وتضاريس ومناخ وتربة².

ومن هنا جاءت تسميتنا لإقليم انواكشوط حيث إن الموقع الذي يحتله عبارة عن سهل ساحلي (أفطوط الساحلي) يتذبذب ارتفاعه في الغالب بين 1- و1م. ويتميز سطحه بالاستواء والخلو من العقبات التضاريسية، ولا يفصله عن المحيط الأطلسي سوى شريط من الكتبان الرملية (ازبار)، لا يزيد ارتفاعه عن بضعة أمتار.

وتغطي هذا السهل مجموعة من الرواسب الرملية، والتي تشكل الكتبان الرملية الهلالية الثابت منها والمتحرك، كما أن منها الكتبان الحمراء في الشمال والشرق والبيضاء في الجنوب والغرب.

¹ يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1977، ص38

² علي محمد دياب، مفهوم الإقليم وعلم الأقاليم، مجلة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد 2، 2012، ص457.

2- منطقة الدراسة

يقع إقليم انواكشوط عند تقاطع دائرة عرض 17°18' شمالا وخط طول 56°15' غربا، على شاطئ المحيط الأطلسي الشرقي في النطاق المداري (غرب إفريقيا)، وبين المحيط والصحراء الكبرى، لذا يعتبر ملتقى للمنطقتين الصحراوية والساحلية. ويتميز سطح الإقليم باستوائه وخلوه من العقبات التضاريسية. وتقع مدينة انواكشوط فوق نجد رملي يتراوح ارتفاعه في المتوسط بين 7 و10م. ويمتد عبر المسافة التي تفصل المدينة عن المحيط سهل رسوبي ضيق تتخلله سبخات ملحية ويتذبذب ارتفاعه في الغالب بين 1 و1م، ويطلق عليه "أفطوط الساحلي". ويمتد الإقليم شمالا إلى ما يقارب 30كم، وجنوبا حوالي 20 كم وفي الشرق 20 كم وبلغ امتداده الغربي حوالي 4.5 كم. وتقدر مساحة هذا الإقليم بحوالي 1225 كم¹.

إن موقع الإقليم على الساحل جعله عرضة إلى رياح متعددة تختلف في قوتها وتأثيرها على الكثبان الرملية والتي تصل إلى حوالي 200 يوم/السنة، ويبلغ معدل قوتها 4.95 م/ث. وتأتي نسبة 54% من هذه الرياح من الشمال والشمال الشرقي. وتمثل الكثبان الرملية أحد الأشكال الجيومورفولوجية الرئيسة في الإقليم حيث تغطي أكثر من 80% من مساحته، وتتحرك الكثبان الرملية الهلالية فوق أراضي الإقليم المنبسطة حركة دائبة، وتتوقف سرعة الكتب على حجمه وحجم حبيبات الرمال المكونة له². وتدخل الكثبان الرملية ضمن الأشكال الجيومورفولوجية سريعة التشكيل، وتمثل ديناميكيته هذه تهديدا للتوسع العمراني العمراني والأراضي الزراعية، وطرق المواصلات لأنها تتميز بحجم حبيبات ناعمة ومتوسطة. وفهم خصائص هذه الرواسب قد يعتبر العامل الأساسي في التوصل إلى الكثير من الحقائق التي تشير إلى مصدر هذه الرواسب، وظروف إرسابها، والبيئات

¹ كمال إبراهيم صيدم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، الجزائر، رسالة دكتوراه دولة، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا، 2001، ص11

² كمال إبراهيم صيدم، "حركة الكثبان الرملية في انواكشوط"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، انواكشوط، عدد6، 1999، ص15

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المختلفة التي احتوتها، والعمليات المؤثرة فيها خلال فترات زمنية متباينة تركت كل منها بصمات تختلف في مدى وضوحها على هذه الرواسب¹.

3-الدراسات السابقة: لقد حظي هذا الإقليم بالكثير من الدراسات البشرية والحضرية وبعض الدراسات الجيولوجية، ولكن الدراسات التي تناولت الكثبان الرملية كانت نادرة، حيث قام مشروع الحزام الأخضر في انواكشوط بدراسة الرياح المؤثرة في الكثبان وحركتها، وقام بيير باربير بكتابة تقرير 1981 حول الأشكال الرملية في إقليم انواكشوط فقط، كما أعد كمال صيدم² بحث دكتوراه دولة بعنوان "الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط".

4-الهدف من إنجاز الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الكثبان الهلالية³، وكشف مميزاتها في الإقليم، وذلك من خلال دراسة:

- الخصائص الطبيعية (حجم الرمال . الاستدارة والكروية)؛
- الظواهرات الدقيقة لسطح حبيبات الرمال؛
- المعادن الثقيلة في الكثبان الهلالية؛
- التحليل الكيميائي لرمال الكثبان الهلالية.

5-طريقة الدراسة: اعتمدت هذه الدراسة على الدراسة الميدانية لعينات عشوائية من الكثبان الرملية الهلالية. وقد روعي في اختبار هذه الكثبان أن تكون موزعة على الإقليم بقدر الإمكان، وممثلة لأحجام الكثبان الهلالية السائدة فيه.

6-طرق تحليل الرواسب الرملية

يمكن تقسيم الخصائص التحليلية لرمال الكثبان الرملية في الإقليم إلى خصائص طبيعية تهتم بدراسة الخصائص الطبيعية لحبيبات الرمال مثل الحجم والاستدارة والكروية، وملامح سطح

¹ نبيل امبابي، ومحمود عاشور، الكثبان الرملية في شبه جزيرة قطر، الدوحة، ج2، 1985، ص3

² كمال إبراهيم صيدم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره.

³ أنواع الكثبان الرملية: الكثبان الرملية متنوعة وتتنوع باتجاه هبوب الرياح، وهي: . الكثبان الهلالية . الكثبان العكسية . الكثبان الطولية . الكثبان العرضية . الكثبان النجمية.

الحبيبات ثم خصائص معدنية، خصائص كيميائية، ومن ثم يمكن التعرف على الاختلافات المكانية، والعوامل المؤثرة فيها في محاولة للتعرف على مصدر هذه الرمال.

وسنتعرض في هذا البحث لبعض طرق التحليل التي راعينا فيها سهولة العمل وتوفر الأجهزة، كما سنعرض بعض الطرق بشيء من الإيجاز، لأنها أكثر تعقيدا، إلى جانب أنها تحتاج إلى معاهد بحث متخصصة، وإلى فنيين وأخصائيين لتحليل الرواسب ودراسة النتائج، كما أن تكاليفها مرتفعة ولكنها قد تكون ضرورية أحيانا. وتأتي هذه الدراسة في أربعة مباحث كما يلي:

6-1- الخصائص الطبيعية: شغلت الخصائص الطبيعية لحبات الرمال بال الكثير من الباحثين منذ وقت طويل، ومن أهم الخصائص الطبيعية التي اهتم بقياسها وتسجيلها حجم حبيبات الرمال ومدى تصنيفها ودراسة الشكل من حيث الاستدارة والكروية، ودراسة الملامح الدقيقة لأسطح الحبيبات¹. ولدراسة الخصائص الطبيعية لحبيبات رمال الكثبان الرملية في إقليم انواكشوط تم تحليل عينات جمعت من الكثبان في الإقليم وأخذت من السطح ومن أعماق مختلفة: 50 سم و 100 سم وهي تمثل الكثبان الهلالية الحمراء والبيضاء، وتم تجهيزها في المختبر بإزالة المواد العضوية والمواد الكلسية ثم وضع 100 غ من كل عينة من العينات السابق معالجتها على هزاز كهربائي لمدة 10 دقائق. وقد زود الهزاز بمجموعة من المناخل الغرايل سعة فتحاتها (400 . 315 . 250 . 200 . 100 . 63 . 50 ميكرون). وبعد إتمام العملية تم وزن كمية الرمال في المناخل كل على حدة، ثم حسبنا الأوزان كنسب مئوية من وزن العينة التي تمت غربلتها، وقد مثلنا هذه البيانات كرتوغرافيا على شكل مدرجات. ولدراسة كروية الحبيبات واستدارتها وصلابتها تم اختيار 33 حبة رمل، اختبرا عشوائيا من رمال كل حجم من أحجام 315 . 250 . 200 . 100 ميكرون، لتعرض على الميكروسكوب الثنائي العدسات. ولتقدير استدارة كروية حبة الرمل كان يتم مقارنة حدود كل حبة بالصورة الواردة في لوحة Powers² 1953. لوحة رقم (1) ثم يتم تحديد أقرب الفئات إلى حبة الرمل.

¹ جودة حسنين جودة وآخرون، وسائل التحليل الجيومورفولوجي، ط1، الاسكندرية، 1991، ص 207

² نبيل امبابي ونبيل ومحمود عاشور، مرجع سبق ذكره، ص 11.

لوحة رقم (1)

جهد الاستطاعة	مستطوية	شبيهة بمسكورية	شبيهة حذات	حذات	حذات جنا
1.00 - 0.70	0.70 - 0.49	0.49 - 0.35	0.35 - 0.25	0.25 - 0.17	0.17 - 0.12

المصدر: لوحة Powers لقياس الاستدارة

6-1-1- حجم الرمال: كشف التحليل الميكانيكي لعينات الرمال التي جمعت من الكثبان الرملية في إقليم انواكشوط عن أن حجم رمال الكثبان يتراوح بين رمال ناعمة (125 . 250 ميكرون) ومتوسطة (250 . 500 ميكرون) وناعمة جدا (63 . 125 ميكرون) بشكل عام¹.

6-1-1-1 الكثبان الحمراء: أثبتت الدراسة الحبيبية لهذه الكثبان سيادة حبات الرمل الناعمة، التي تقل أقطارها عن 250 ميكرون، حيث بلغت نسبتها على السطح 61.9%، وعلى عمق 50 سم بلغت 76.2%، وتقارب نسبة الحبات المتوسطة والحبات الناعمة جداً، وبلغت الحبات المتوسطة على السطح 23.7%، وعلى عمق 50 سم 11.4%، أما نسبتها على عمق 1م فوصلت إلى 12.6%، أما نسبة الحبات الناعمة جداً فبلغت على السطح 14%، وعلى عمق 50 سم 11.3%، وعلى عمق 1م بلغت نسبتها 18.7%.

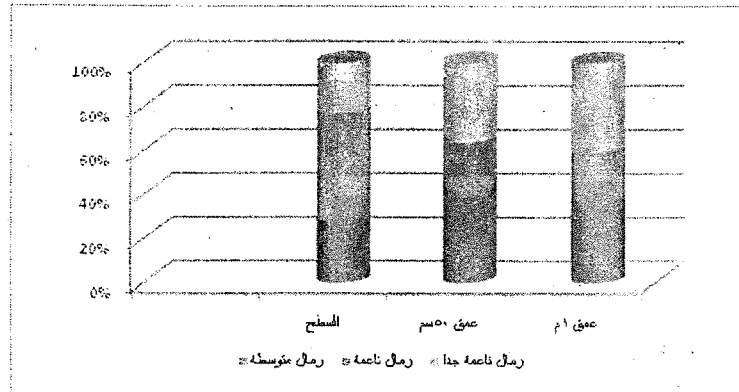
¹ كمال إبراهيم صيدم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 100.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جدول رقم (1) تصنيف أحجام رمال الكثبان الحمراء حسب موقعها على الكثيب (النسبة %)

الحجم بالميكرون الموقع	رمال متوسطة 250-500	رمال ناعمة 125-250	رمال ناعمة جدا 63-125
السطح	23.7	61.9	12
عمق 50 سم	11.4	76.2	11.3
عمق 1 م	12.6	68.3	18.7

شكل رقم (1) المدرج التكراري لتوزيع أحجام رمال الكثبان الحمراء



المصدر: جدول رقم (1)

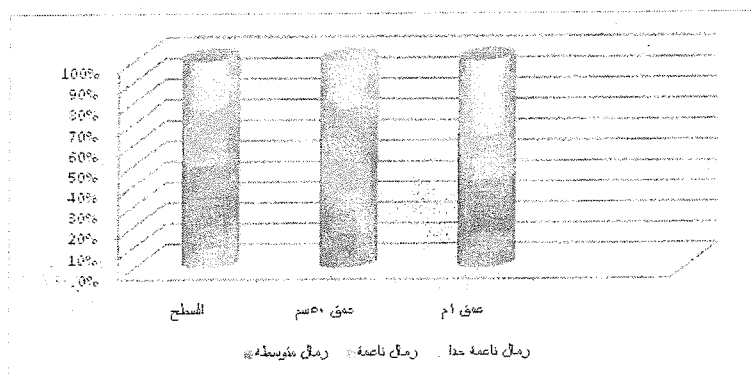
2-1-1-6- الكثبان البيضاء: لقد أثبتت الدراسة الحبيبية لهذه الكثبان أيضاً، سيادة حبات الرمال الناعمة، حيث بلغت نسبتها على السطح 61.8% وبلغت نسبتها على عمق 50 سم 64.9%. أما على عمق 1م فقد بلغت 74.8%. أما نسبة الحبات المتوسطة بلغت على السطح 19% وعلى عمق 50 سم بلغت نسبتها 11.2% فقد وصلت إلى 14%. وبالنسبة لحبات الرمال الناعمة جدا فقد بلغت نسبتها على السطح 18%، وبلغت نسبتها على عمق 50 سم 22.9% وعلى عمق 1م بلغت 10.5%.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جدول رقم (2) تصنيف أحجام رمال الكثبان البيضاء حسب موقعها على الكتيب (النسبة %)

الحجم بالميكرون	رمال متوسطة	رمال ناعمة	رمال ناعمة جدا
الموقع	250-500	125-250	63-125
السطح	19	61.8	18
عمق 50 سم	11.2	64.9	22.9
عمق 1 م	14	74.8	10.5

شكل رقم (2) المدرج التكراري لتوزيع أحجام رمال الكثبان البيضاء



المصدر: جدول رقم (2)

2-1-6. الاستدارة والكروية: أوضح الفحص المجهرى لعينات الكثبان الرملية في الإقليم أن شكل الحبيبات يتمثل في المستدير والكروي والحاد. ومن الأسباب التي تؤدي إلى ارتفاع معدلات استدارة الرمال أنها نقلت أساسا بواسطة الرياح، التي تفوق قدرتها على زيادة استدارة الحبيبات عن قدرة المياه بمعدل يتراوح بين 100-1000 مرة¹. وذلك لأن حبيبات الرمال المتحركة في وسط مائي يغلفها

¹ جودة حسنين جودة وآخرون، وسائل التحليل الجيومورفولوجي، ط1، الاسكندرية، 1991، ص236.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

غشاء مائي رقيق يقلل من فرصة استدارتها وثمة افتراض آخر وهو أن الهواء ليس عامل استدارة جيد، إلا أن حبيبات الرمال تتدحرج أمام الرياح فتحتك ببعضها وبسطح الأرض فيتم صقلها كما تستدير. إلى جانب هذا يعتقد البعض أن استدارة حبيبات الرمل قد تكون مشتقة من صخور رملية تمتاز أصلاً باستدارة حبيباتها. وهناك رأي ثالث يرجع عملية الاستدارة إلى تأثير التجوية الكيماوية. ونرى أن بعد المسافة بين مكان الترسيب والمكان الذي نقلت منه الرواسب يؤدي إلى الاستدارة. وسنلقي نظرة على عينات الكتبان التي درسناها، ومنها:

صورة رقم (2) توضح حبيبات الرمال في الكتبان الحمراء (مكبرة 100 مرة)



6-1-2-1-1-2-1-6- الكتبان الحمراء: أثبتت الدراسة المجهرية لعينات هذه الحبيبات سيادة الحبات الكروية، وبلغ متوسط نسبتها 55%، أما متوسط نسبة الحبات المستديرة فبلغت 22%، وبلغ متوسط نسبة الحبات الحادة 23%. وهذا يدل على التأثير الريحي في هذه الكتبان. وتميزت حباتها بالاستدارة والكروية وانخفاض نسبة كربونات الكالسيوم فيها، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الحبات المتقبة إلى حوالي 51%. هذا ولوحظ بعض الشروخ والمنخفضات المستديرة الشكل. ورواسب سيليكية في

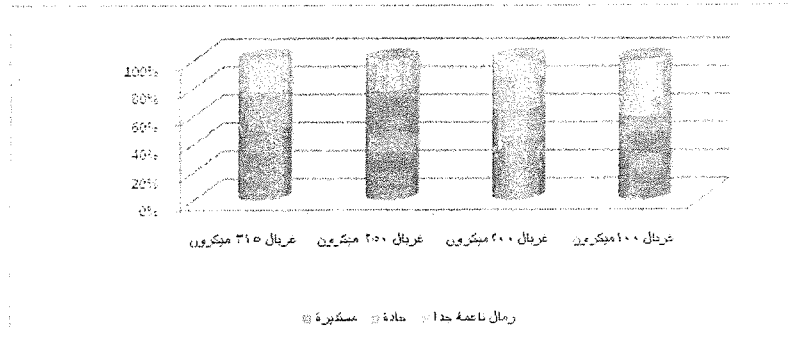
حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الحفر مما يؤكد الملامح الهوائية الأصل السائدة على سطح هذه الحبيبات، وبالتالي التأثير الفعلي للرياح على هذه الكتبان¹.

جدول رقم (3) النسبة المئوية لشكل الحبيبات في الكتبان الحمراء (السطح)

شكل الحبات	غريال 315 ميكرون	غريال 250 ميكرون	غريال 200 ميكرون	غريال 100 ميكرون	المتوسط
كروية	52	56	72	40	55
حادّة	16	24	16	36	23
مستديرة	32	20	12	24	22

شكل رقم (3-أ) المدرج التكراري لشكل حبيبات رمال الكتبان الحمراء



المصدر: الجدول رقم (3)

2-2-1-6. الكتبان البيضاء: لقد أثبتت الدراسة المجهرية لعينات هذه الكتبان سيادة الحبات الكروية، حيث بلغ متوسط نسبتها حوالي 49%، وانخفض متوسط نسبة الحبيبات المستديرة عن الكتبان الحمراء، حيث بلغ 19%، وارتفع متوسط نسبة الحبات الحادة إلى 35%. وتميزت حبيباتها بالاستدارة والكروية المعتمدة إذ بلغت نسبة الحبات المعتمدة حوالي 70%، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة

¹ كمال إبراهيم صيدم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 109

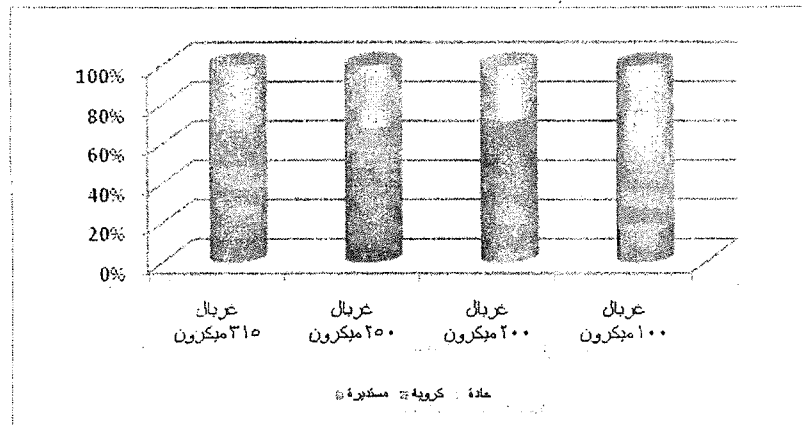
حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كربونات الصوديوم فيها وزيادة مخلفات القواقع، هذا يؤكد أصلها المحلي حيث إنها تغطي منطقة أفطوط الساحل والمنخفضات الموجودة بين الكثبان الحمراء، حيث استمدت رمالها من التربة السبخية الخفيفة التي تميز إقليم انواكشوط¹.

جدول رقم (4) النسبة المئوية لشكل حبيبات الكثبان البيضاء

أشكال الحبات	غريال 315 ميكرون	غريال 250 ميكرون	غريال 200 ميكرون	غريال 100 ميكرون
مستديرة	12	12	12	16
كروية	56	56	60	36
حادّة	32	32	28	48

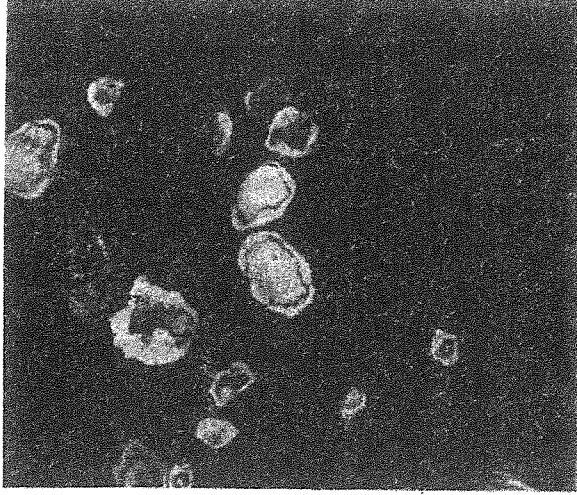
شكل رقم (4) المدرج التكراري لشكل حبيبات الكثبان البيضاء



المصدر: جدول رقم (4)

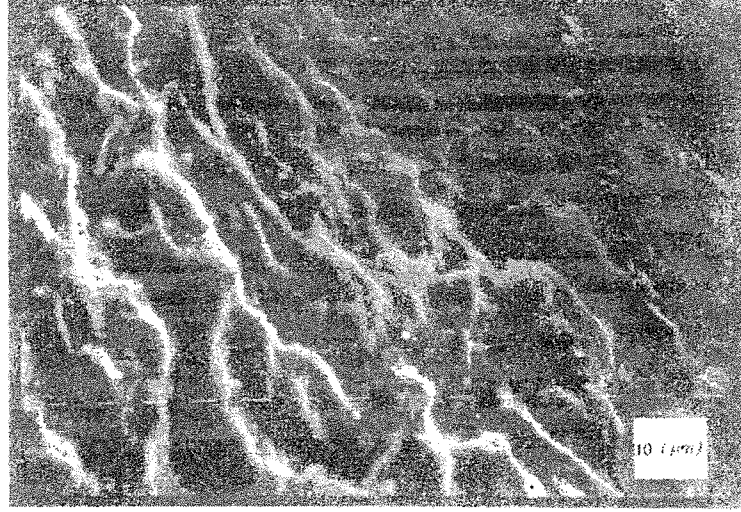
¹ كمال إبراهيم صيدم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 111

صورة رقم (3) توضح شكل حبيبات الرمال في الكتبان البيضاء (مكبرة 100 مرة)



2-6-الظواهر الدقيقة لسطح حبيبات الرمال

أثبتت دراسة سطح حبيبات الكوارتز في السنوات الأخيرة قيمتها في التعرف على البيئات القديمة وفي التوصل إلى معرفة ظروف الإرساب القديمة والحديثة. وقد يكون من أكثر الملامح التي تظهر على سطح حبيبات الكوارتز في البيئات الصحراوية ظاهرة الأطباق المقلوبة أو السلاسل الدقيقة المتوازنة التي تحتل جزء من سطح الحبة. كما يظهر على سطح حبيبات الكوارتز منخفضات طويلة ترجع إلى زحف الحبيبات وبريها.



وهناك بعض الملامح المرتبطة بالتجوية الكيميائية، ولربما من أوضاعها محاليل السيلكا التي ترسب على حبيبات الكوارتز وتعمل على طمس الملامح السابقة مثل الأطباق المقلوبة والمنخفضات. وثمة خاصية أخرى قد تنتج عن النشاط الكيميائي وهي الشروخ القوسية أو الدائرية أو الأشكال المتعددة الأضلاع، وبصفة خاصة في السيلكا التي أعيد ترسيبها. وقد يكون هذا نتيجة تأثير الأملاح على سطح حبة الرمل مسببه اتساع الشروخ الموجودة في الرواسب السيليكية¹.

¹ نبيل امبابي ومحمود عاشور، مرجع سبق ذكره، ص 40

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صورة رقم (5) بعض الكسور الحزونية على سطح حبة كوارتز



ومن المعروف أن بيئة السبخات، والتي يتميز بها إقليم الدراسة، ترتبط عادة بالبيئات المسحراوية ولكن هناك بعض الملامح التي تختص بها رمال السبخات دون غيرها من البيئات الصحراوية. ومن الملامح التي تظهر على سطوح الرمال التي تمر بظروف رطوبة ظاهرة الحفر التي تكون على شكل الحرف الأجنبي "V"، ووجود هذا الشكل على حبيبات رمال الكتبان الرملية أو الشاطئي أو السبخات يكشف عن أن هذه خاصية من خصائص هذه البيئات مما يشير إلى أن حبات الرمال قد أعيد تحريكها عبر المنطقة الشاطئية بواسطة الرياح والماء في إقليم انواكشوط.

صورة (5) حفر على شكل الحرف الأجنبي V على سطح حبة كوارتز



ومن الواضح أن الملاح الهوائية الأصل هي السائدة على سطوح كل حبيبات كثبان انواكشوط الحمراء، وتغطي السيليكات الكثير من الحبيبات مشيرة بذلك إلى ظروف صحراوية حارة. ووجود الكربونات والمتبخرات على حبيبات رمال انواكشوط البيضاء، تشير إلى بيئة سبخات أو مصدر محلي، أما وجود مفتتات القواقع فقد يوضح أن هذه عبارة عن رمال مستمدة من مصدر محلي قريب من خط الساحل. وهذا ما يؤكد كذلك أن رواسب الكثبان الرملية البيضاء من أصل بحري.

3-6. المعادن الثقيلة

إن التركيب المعدني لرمال الصحاري يختلف بين صحراء وأخرى، بل قد يختلف حتى داخل الصحراء الواحدة، ويعود السبب في ذلك إلى الاختلاف في البناء الجيولوجي لتلك الصحراء¹. ومنذ زمن طويل وتحليل المعادن الثقيلة يعتبر طريقة هامة في دراسة المواد الرسوبية، نظرا لأن تجمعات المعادن الثقيلة تمثل دالة لعدة عوامل مختلفة، تتضمن المواد الأصلية للرواسب وعمليات النقل،

¹ مهدي أمين التوم، طبيعة البيئات الصحراوية، الخرطوم، معهد الدراسات البيئية بجامعة الخرطوم، 1981، ص 83

والترسيب، وطبيعة التجوية، وكلما كان من الممكن فهم وتفسير تفاعلات هذه العوامل وتأثيرها فإن تحليل تجمعات المعادن الثقيلة يمكنه أن يمدنا ببعض الأدلة والمؤشرات عن البيئات الترسيبية وعوامل التعرية وكذلك عن عمر هذه الرواسب.

ودراسة المعادن الثقيلة تقدم بوضوح إمكانية جديدة لفحص رمال الكثبان الرملية في إقليم انواكشوط. وأظهرت نتائج التحاليل التي أجريت للمعادن في الكثبان الحمراء والبيضاء أنها قليلة جداً. وتبلغ نسبة المعادن المعتمدة حوالي 20-25% من العينات، أما حبيبات المعادن شبه المعتمدة فتتراوح نسبتها بين 30-35% من العينات.

ويعتبر معدن الأيلمينيت Ilmenite هو المعدن الرئيسي في هذه الكثبان، وهو أكسيد ثلثيوم ($FeTiO_3$) ونظام تبلوره سداسي ويتواجد هذا المعدن عادة في الصخور النارية والمتحولة وبلوراته تأخذ شكل صفائح رقيقة تتجمع على شكل كتل متماسكة وهو أسود اللون أو بني¹. ورغم أن أصل هذه المعادن مجهول حتى الآن إلا أن آخر الآراء التي كتبت عنها بأنها تأتي من تحلل وتفتت صخور القاعدة (النارية والمتحولة) الموجودة في تازيازت وتجريت شرق انواذيبو، حيث حملت الأنهار في الرباعي العلوي المطر هذه المعادن إلى البحر حيث رسبت، وكذلك حملت بواسطة الرياح الشمالية والشمالية الشرقية اتجاه الغرب حيث ترسبت في المحيط، ثم حملت بواسطة التيار الساحلي من الشمال إلى الجنوب حيث رسبت مع الرمال على طول الساحل الموريتاني بما فيها ساحل انواكشوط، وكذلك معدن الزركون $Zircon$ ² مشتق من الصخور النارية. أما باقي المعادن مثل Rutile Tourmaline فهي بنسب قليلة جداً.

6-4- التحليل الكيميائي

التركيب الكيميائي للرمال له أهمية كبيرة جداً فيما يتعلق بإمكانيات استغلال البيئة الصحراوية والدراسات المورفولوجية. ويبدو أنه يختلف باختلاف الظروف المناخية، كما أن معظم مظاهره يمكن إرجاعها بشكل رئيسي إلى جفاف المناخ وطبيعة الغطاء النباتي في البيئات الصحراوية. إن

¹ محمد غالب سيد، علم الفلزات، المزالوجيا، دمشق، المطبعة التعاونية، 1982، ص 269.

² كمال صيدم، إبراهيم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 116

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

رمال الصحراء تكون عادة ذات أصل صخري وحيوي ومزدوج¹. وقد تم تحليل عينتين تمثلان الكتبان الحمراء والكتبان البيضاء، وهي الكتبان الرملية التي توجد في الإقليم موضوع الدراسة (جدول رقم (5)).

جدول رقم (5) التحليل الكيميائي لعينات الكتبان الرملية (% من الوزن)

العناصر	الكتبان البيضاء	الكتبان الحمراء
أكسيد السليكون	53.85	79.20
أكسيد الحديد	0.825	1.58
أكسيد المنيوم	0.50	0.6
أكسيد مغنيزيوم	3.80	4.60
أكسيد كالسيوم	3.50	2.52
أكسيد صوديوم	13.5	0.950
أكسيد بوتاسيوم	0.495	0.715
فاقد الاحتراق	23.50	9.46
المجموع	99.97	99.625

يوضح الجدول رقم (5) نتائج تحليل العينات إلى عناصر وذلك على هيئة أكاسيد. أما فاقد الاحتراق الذي سجل نتيجة للانصهار فهو يرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية، وهي فاقد في الماء، وفاقد في ثاني أكسيد الكربون أثناء تحلل المعادن الكربوناتية، وتأكد المواد العضوية ويوضح الجدول أن السيليكا هي العنصر الذي يشكل أكبر نسبة في كل العينات حيث تتراوح بين 79.20% في الكتبان الحمراء و53.85% في الكتبان البيضاء².

¹ مهدي أمين التوم، مرجع سبق ذكره، ص 98

² كمال صيدم، إبراهيم، الرياح وزحف الرمال في إقليم انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 117.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ونلاحظ من خلال الجدول رقم (5) ارتفاع نسبة أكسيد الصوديوم في الكثبان البيضاء 12% وانخفاضها في الكثبان الرملية الحمراء حيث بلغت 0.950%. وهذا يوضح التأثير البحري على الكثبان البيضاء. وانخفاضه في الكثبان الحمراء يدل على تأثير العامل الريحي على هذه الكثبان. وتشير نتائج الجدول أن الرمال الحمراء في الإقليم تعكس ظروفًا بيئية شديدة الجفاف استمرت لفترات طويلة. ويدل معدن الجبس على نتائج التبخر الذي يرى بوضوح في سبخة اندرغمشه. واتضح من نتائج الدراسة أنها تتفق مع وجهة النظر القائلة بأن الرواسب الهوائية في انواكشوط والمتمثلة في الكثبان البيضاء مشتقة من مصادر ساحلية محلية نتيجة إعادة تحريك لهذه الرواسب.

7- النتائج النهائية

كشفت الدراسة التحليلية لرواسب الكثبان الهلالية عن السمات الآتية:

- 1 - حجم رمال الكثبان الهلالية يتراوح بين رمال ناعمة ومتوسطة وناعمة جدًا؛
- 2 - سيادة الحبات الكروية حيث بلغ متوسط نسبتها حوالي 55% في الكثبان الحمراء و49% في الكثبان البيضاء؛
- 3 - بلغ متوسط الحبات المستديرة في الكثبان الحمراء حوالي 22%، وفي الكثبان البيضاء بلغت 19%؛
- 4 - انخفاض نسبة كربونات الكالسيوم في الكثبان الحمراء وزيادتها في الكثبان البيضاء؛
- 5 - ارتفاع نسبة كربونات الصوديوم في الكثبان البيضاء وزيادة مخلفات القواقع؛
- 6 - سيادة الملاح الهوائية الأصل على سطوح حبات رمال الكثبان الحمراء والمتبخرات على حبيبات رمال الكثبان البيضاء وهذا يشير إلى بيئة السبخات؛
- 7 - قلة المعادن الموجودة في الكثبان الرملية الحمراء والبيضاء؛
- 8 - بلغت نسبة المعادن المعتمدة حوالي 20-25% من العينات، وشبه المعتمدة تتراوح نسبتها بين 30-35% من العينات؛
- 9 - أثبت التحليل الكيميائي لعينات الكثبان الرملية أن السيليكا هي العنصر الذي يشكل أكبر نسبة في كل العينات حيث تمثل 79.20% في الكثبان الحمراء و 53.85% في الكثبان البيضاء.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المراجع المعتمدة

- التوم، مهدي أمين، طبيعة البيئات الصحراوية، الخرطوم، معهد الدراسات البيئية بجامعة الخرطوم، 1981.
- الفارس الشمري، مشروع جيولوجيا عن الكتبان الرملية، مركز البحوث الزراعية، الإدارة المركزية للإرشاد الزراعي، وزارة الزراعة واستصلاح الأراضي، المادة العلمية. مركز البحوث الزراعية، نشرة رقم 854 / 2003.
- امبابي، نبيل ومحمود عاشور، الكتبان الرملية في شبه جزيرة قطر، الدوحة، ج 2، 1985.
- بوابة "أراضينا" إحدى بوابات "كناانة أونلاين".
- جودة، حسنين جودة وآخرون، وسائل التحليل الجيومورفولوجي، ط1، الاسكندرية، 1991.
- سيداء، محمد غالب، علم الفلزات . الميزالوجيا، دمشق، المطبعة التعاونية، 1982.
- صيدم، كمال إبراهيم، "انواكشوط المدينة المهددة"، مجلة الأراضي الجافة، معهد الأراضي القاحلة بمدنين، تونس، عدد 1، أكتوبر، 1998.
- صيدم، كمال إبراهيم، "حركة الكتبان الرملية في انواكشوط"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، انواكشوط، عدد 6، 1999.
- صيدم، كمال إبراهيم، "الأشكال الكثيبية التي تهدد إقليم انواكشوط"، مجلة التعليم، المعهد التربوي الوطني، انواكشوط، عدد 44، 2002.
- صيدم، كمال إبراهيم، "البيئات الجافة وشبه الجافة"، انواكشوط، الشركة الإفريقية للطباعة والنشر، 2006.
- صيدم، كمال إبراهيم، "تباك إقليم انواكشوط، دراسة جيومورفولوجية"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 8، 2010.
- صيدم، كمال إبراهيم، "الكتبان الرملية في انواكشوط"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، عدد 48، ج 2، يناير 2011.
- مجلة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد 2، 2012.
- توني، يوسف، معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1977.
- معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي.

الحدود الموريتانية المالية ومراحل تعيينها

الشيخ محمد ولد انجاي

قسم الجغرافيا

جامعة انواكشوط العصرية

الكلمات المفتاحية: حدود . موريتانيا . اتفاقية . الاستعمار . الاستقلال . الولايات . سياسة.

ملخص البحث

يتناول هذا الموضوع أهم مقوم للدول حيث يتناول إشكالية الحدود، والتي كثيرا ما تكون معقدة. ونظرا لأن حدود موريتانيا طويلة جدا (حوالي 5300 كلم)¹، وخاصة منها الحدود مع مالي التي تصل حوالي 2140 كلم. وللوصول إلى الهدف المنشود اعتمدت منهجية تعتمد الانتقال من العام إلى الخاص، حيث بدأ البحث بوضع موريتانيا الجغرافي والحدودي، ثم التعديلات التي عرفتها الحدود في الفترة الاستعمارية، وأخيرا التعديلات الحدودية بعد الاستقلال. وكانت الخاتمة بمثابة توصيات.

يدخل هذا البحث في مجال الجغرافيا السياسية، ويعتبر من أهم المواضيع التي تتناول الأمن والاستقرار والقوة والضعف. وتحتاج كل دولة لضبط حدودها من خلال اتفاقيات دولية أو ثنائية. وموضوعنا ذو أهمية خاصة لأنه يتعلق بدراسة حدود دولة فتية ذات حدود برية وبحرية ونهرية، ومستقرة وغير مستقرة. ولم يكتب عنها الكثير، بل إن بعضها مازال قيد الترسيم.

ولإبراز الحدود وتبسيط طريقة فهمها، اعتمدنا منهجية الانتقال من العام إلى الخاص، حيث بدأ البحث بوضع موريتانيا الجغرافي والحدودي، وتمت مراجعة التعديلات التي عرفتها الحدود في الفترة الاستعمارية، ثم التعديلات الحدودية بعد الاستقلال. وكانت الخاتمة بمثابة توصيات.

تحتل مسائل الحدود الدولية مكانة كبيرة في العلاقات الدولية بين الدول المتجاورة لارتباطها بالحيز المكاني الذي تمارس عليه الدول اختصاصها. وجاءت نزاعات الحدود في العقود الأخيرة من

¹ بشيري ولد محمد الولاتي، جغرافية موريتانيا، ط1، انواكشوط، نشر، 1993، ص18.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الزمان في مقدمة أسباب التوتر الدولي والتأثير على العلاقات الدولية بين أطرافها، وربما تتحول إلى مواجهات عسكرية إذا لم تفض بالطرق السلمية.

تعريف

الحدود السياسية هي خطوط وهمية من صنع البشر ولا وجود لها في الأصل¹، ويتم رسمها كخطوط متصلة أو مقطعة على الخرائط باستخدام الصور الجوية لتبين الأراضي التي تمارس فيها الدولة سيادتها، والتي تتمتع فيها هذه الدولة وحدها بحق الانتفاع والاستغلال. وبفضل تقدم فن تقنية رسم الخرائط، أصبحت غالبية الحدود السياسية في العالم والتي تفصل دولة عن أخرى واضحة المعالم ومحددة بدقة².

والحد³، هو الموقع الجغرافي الذي تلتقي عنده سيادة دولتين، أو ينتهي عنده نفوذ كل منهما وقوانينهما. ولم تكن الحدود قبل قرنين تحاط بهذه الهالة من المعاهدات والمواثيق، لكن بعد تعدد الوحدات السياسية ظهرت مشكلات واقع التعارض في المصالح بين حدود الوحدة السياسية والوحدات المجاورة⁴. ويدخل من ضمن أراضي الدولة ورقعتها السياسية المسطحات المائية التي تقع داخل حدودها السياسية، سواء كانت أنهاراً أو بحيرات أو قنوات مائية، وكذلك أجزاء البحار التي تجاور شواطئها والتي تعرف بالمياه الإقليمية، وطبقة الجو التي تعلو هذه الرقعة السياسية المحددة. وعند هذه الحدود تنتهي سيادة الدولة وتبدأ سيادة دولة أخرى مجاورة لها بما لها من نظم سياسية واقتصادية خاصة بها وقوانين مختلفة⁵. فالدول لم تكن تعرف هذه الخطوط للفصل فيما بينها، بل

¹ محمد زاهر سعيد السماك، الجغرافيا السياسية المعاصرة، ط 11، أريد، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1998.

² محمد عبد المجيد عامر، الجغرافيا السياسية والدولة، الاسكندرية، دائرة المعرفة الجامعية، بدون تاريخ، ص 303

³ الحدود السياسية عبارة عن خطوط ترسم على خرائط لتحديد رقعة الأرض التي تمارس فيها الدولة سيادتها وتستغل مواردها الطبيعية والبشرية. ويدخل في هذه الرقعة المياه الإقليمية والطبقات السفلى لسطح الأرض ومجالها الجوي.

(بشيرى ولد محمد الولاتي، مرجع سبق ذكره، ص8)

⁴ بشيرى ولد محمد الولاتي، مرجع سبق ذكره، ص8

⁵ ماهر حمدي عيش، الجغرافية السياسية، دار الوثائق، شيبين الكوم، 2005 - "الحدود السياسية"، جريدة الوطن،

بتاريخ 25 مارس 2010.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كانت متعارفة على إقليم التخوم، ولم يكن بينهما من هذه الأقاليم إلا نقاط معينة تنفذ من خلالها التجارة وتقام عندها الجمارك¹.

وفكرة إقامة الحدود ترجع إلى القرن 19، ذلك فإجراءات السفر وما يرتبط بها من مشكلات التنقل من دولة إلى أخرى لم تشع إلا نهاية القرن التاسع عشر. ويعرف الحد في اللغة العربية بأنه الفصل بين الشئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وجمعه حُدود. وهناك تداخل بين مفهوم الحد ومفهوم التخم. فالتخم، وجمعه تخوم، فهو الفصل بين الأرضين من الحدود والمعالم². هناك فروق جوهرية بين الحدود والتخوم. فكلمة تخوم توصف بأنها الواجهة المتقدمة لحضارة ما. أما الحدود فهي توصف بأطراف الأراضي أو الإقليم الذي تحده. وبذلك تقوم التخوم في اتجاه الخارج، والحدود في اتجاه الداخل بالنسبة للدولة³.

والحدود كمصطلح جغرافي تعنى حافة الإقليم السياسي للدولة. ويتضمن المفهوم التاريخي للحدود على أنها تمثل انعكاسات لتعامل الدولة وتوسعها وانكماشها وتجزئتها، وتعبّر عن فلسفتها ودرجة قوتها أو ضعفها خلال مراحل زمنية متتابعة⁴.

معايير تخطيط الحدود

وتوجد عدة معايير لتخطيط الحدود السياسية أو تغييرها، والمعيار المسيطر لتغيير الحدود عبر السنين هو معيار القوة، يمكن تلخيصها في: ⁵ المعيار الطبيعي، المعيار القومي، المعيار التعاقدية، المعيار الهندسي، معيار القوة. وهناك أربعة معايير أساسية لترسيم الحدود السياسية، أولهم المعيار الاستراتيجي في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، والمعيار الإثنوغرافي الحضاري في فترة ما بين

¹ محمد زاهر سعيد السماك، الجغرافيا السياسية المعاصرة، دار الأمل للنشر والتوزيع، أريد، الطبعة الحادية عشر 1998، ص: 107.

² "انثروبولوجيا الحدود في الوطن العربي"، المحرر، العدد 218، السنة 13، 2005.

³ شرح كلمة التَّخْم | التخوم، كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس، الإسكندرية.

⁴ بيتر تايلور وكولن فلنت، الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة: عبد السلام رضوان وإسحاق عبيد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2003.

⁵ Jones, S S.P, Boundary Concepts in the Setting of place and Time, AAG, 1959, NO. 44, PP 241 - 255.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الحربين العالميين، والمعيار الاقتصادي في الوقت الحاضر، أما المعيار الرابع فهو القوة والقهر والاتفاقات الغير متكافئة¹. ويتم تخطيط الحدود السياسية بين دولتين حسب المراحل الأربعة التالية²:

- 1- **مرحلة التعريف:** وهي مرحلة صياغة معاهدة الحدود بين الدول الأطراف، وكلما كان وصف الحدود تفصيلياً ودقيقاً ومتضمناً لإحداثيات جغرافية تحدد مسار الحد السياسي، كلما كانت احتمالات النزاع بين الدولتين قليلة.
- 2- **مرحلة التحديد:** وهي تتضمن عملية توقيع الحد من مجرد نص في المعاهدة إلى خط على الخرائط. ويمكن تضمين هذه المرحلة ضمن المرحلة السابقة.
- 3- **مرحلة التعيين:** تتضمن تلك المرحلة تحديد خط الحدود أو تعيينه على الطبيعة باستخدام طرق مختلفة، كالأسلاك الشائكة أو الأعمدة الخرسانية أو الأسوار وغير ذلك.
- 4- **مرحلة إدارة الحد:** وهي مرحلة دائمة تتضمن المحافظة على الحد الخطي السياسي، ودوام فاعليته وحراسته.

تصنيف الحدود السياسية

يمكن تمييز نمطين من الحدود السياسية³:

- **الحدود البرية:** وهي التي تفصل بين الدول على يابس الخريطة السياسية للعالم، أي أنها تقتصر على الحدود بين الدول في قارات العالم، ويُطلق عليها أيضاً الحدود في الرمال.
 - **الحدود البحرية:** وهي الحدود التي تحدد نطاق الولاية البحرية للدولة التي تطل على ساحل بحر أو محيط. وهي تتضمن خطوط الأساس، وحدود الحافة القارية، أو المنطقة الاقتصادية الخالصة، والحدود بين الدول ذات السواحل المتجاورة والمتقابلة.
- ويجمع بين الحدود البرية والحدود البحرية أوجه شبه، كما يميز بينهما نقط تباين واختلاف. ووجه الشبه قليلة، منها أن الهدف من رسم الحدود سواء في البر أو البحر واحد، وهو تأمين حدود الدولة. وأن الأسانيد والحجج المستخدمة في الحالتين متشابهة، كالأسانيد التقنية والتاريخية

¹ محمد محمود إبراهيم الديب، ماهية الجغرافيا السياسية، مجلة المنهل، العدد 538، مارس 1997، ص: 113.

² نفس المرجع.

³ Thomas, B.L., International Boundares: Lines in the sand (and the sea), Oxford, 1994, P. 87.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والاقتصادية والثقافية والقانونية. وأنه في حالة عدم توصل الدول الأطراف إلى اتفاق ثنائي، فإنها تلجأ إلى التحكيم، أو إقامة منطقة محايدة تقسم مواردها¹.

التصنيف المورفولوجي للحدود السياسية

يمكن تصنيف الحدود السياسية شكلياً إلى أربعة تصنيفات رئيسية:

الحدود الطبيعية

هي الحدود التي رسمت بالاعتماد على بعض الظواهرات الجغرافية الطبيعية كالجبال والأنهار وغيرها، ويطلق عليها أيضاً الحدود الفيزيوجرافية. إلا أن التصنيف غير دقيق في واقع الأمر، لأن كل الحدود صناعية غير طبيعية لأنها من صنع الإنسان، ولا توجد حدود تفصل بين البلدان في الأصل.

الحدود الجبلية

تمتاز الجبال بأنها ظاهرة بارزة ووعرة وصعبة العبور، مما يجعلها حدود فاصلة بين الدول. وهناك أمثلة كثيرة على الحدود مع الجبال كالحدود بين الصين والهند (جبال الهيمالايا)، والحدود بين تشيلي والأرجنتين (جبال الأنديز).

الحدود النهرية

تتفق بعض الحدود السياسية مع الأنهار. وبالرغم من أن الأنهار تتمتع بمميزات، من حيث كونها ظواهرات واضحة على الخرائط وفي الطبيعة، إلا أن هناك بعض العوائق التي تعتري اتخاذ مجاري الأنهار حدود سياسية، منها أن الأنهار في الأصل هي عوامل وصل وتوحيد أكثر منها عوامل فصل وتقسيم. مما يترتب عليه الفصل التعسفي بين جماعة عرقية واحدة حول المجرى النهرية. ويسير خط الحدود في الأنهار إما مع ضفة من ضفتي النهر، أو مع الخط الأوسط للنهر، أو مع خط وسط المجرى الملاحي، وهو ما يعرف بخط التالوج². ومن الملاحظ أن الأنهار غير مستقرة، حيث أنها تغير مجراها كل فترة من الزمن، كما أن ضفافها غير ثابتة بسبب الفيضان والنحت

¹ Prescott, J.R.V., Political Frontiers and Boundaries, London, 1987, PP. 1 – 14.

² خالد المسائمة، الأرض العربية المحتلة - الأحواز، بوخوم - ألمانيا، مطبعة جامعة الرور، الطبعة 2، 2008، ص: 12.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والإرساب. ويعد نهر "الريو غراندي" الذي تسير معه الحدود السياسية بين الولايات المتحدة الأمريكية والولايات المتحدة المكسيكية من أوضح الأمثلة على تغيير الأنهار لمجاريها¹.
الحدود الهندسية

تبدو الحدود الهندسية في أشكال مختلفة هي²:

- حدود فلكية بحتة تتفق مع خطوط الطول ودوائر العرض، ويشيع هذا النمط في أفريقيا وأمريكا الشمالية وأوقيانوسيا. وأطول الحدود الفلكية في العالم هي الحدود بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية.

- خطوط مستقيمة تصل بين نقطتين معلومتين.

- حدود على أبعاد متساوية من ساحل أو سلسلة جبلية.

وتتميز الحدود الهندسية بالاستقامة الواضحة، وتجاهلها للظروف الطبيعية والبشرية التي تمر بها، وإن تميزت كذلك بسهولة التخطيط. فقد ظهرت على قطاعات من تلك الحدود الهندسية مشكلات الفصل بين مناطق متصلة بشرياً واقتصادياً، كالحد المصري السوداني الذي يسير مع دائرة عرض 22° شمالاً³.

الحدود الحضارية

وتسمى أيضاً بالحدود الإثنوغرافية، وهي الحدود التي رُسمت لفصل مجتمعين سياسيين متجاورين يتحدث كل منهما بلغة مختلفة، أو يدين كل منهما بدين مختلف، أو يميز بينهما عوامل ثقافية أخرى. وظهر هذا النوع من الحدود بعد الحرب العالمية الأولى. ويعد بعض الجغرافيين من أفضل أنواع الحدود السياسية لقلة المشكلات الحدودية به. ومن أشهر الأمثلة على الحدود الحضارية هي الحدود في قارة أوروبا، خصوصاً في وسط أوروبا، فقد رسمت على أساس اختلاف اللغات بين شعوب أوروبا⁴.

¹ أنهار قارة أمريكا الشمالية، موسوعة المقاتل.

² محمد محمود إبراهيم الديب، مرجع سبق ذكره.

³ ماذا سيفعل المشير البشير إذا تحركت القوات المصرية من منطقة الحلايب واحتلت بورتسودان؟ حركة العدل والمساواة السودانية، بتاريخ 1 يونيو 2011.

⁴ ماهر حمدي عيش، الجغرافية السياسية، دار الوثائق، شبين الكوم، 2005.

الحدود الجوية

وهي الحدود في الفضاء الجوي، أي أن لكل دولة الحق في السيادة الكاملة الخالصة على الفضاء الجوي فوق إقليمها. وبناء على ذلك فإن الامتداد الأفقي للفضاء الجوي يتحدد على اليابس بحدود الدولة البرية، بينما يتحدد في البحر بالحد الخارجي للمياه الإقليمية. أما في حالة الدول الحبيسة فيتم تحديد الامتداد الأفقي بالحدود مع الدول المجاورة. وبطبيعة الحال فإنه في حالة وجود بعض النزاعات حول امتداد الحدود السياسية أو نشوب نزاعات إقليمية، فإن تلك النزاعات سوف تمتد إلى الفضاء الجوي فوق منطقة النزاع¹.

الحدود الموريتانية

لم تعرف موريتانيا الحدود السياسية الدولية قبل عام 1899م، ولكن تجسدت صورة موريتانيا الحالية في ظل التنافس الأوروبي الذي عمل على تقسيم القارة الإفريقية عقب مؤتمر برلين 1885. وتحتل مسائل الحدود الدولية اليوم مكانة كبيرة في العلاقات الدولية بين الدول المتجاورة لارتباطها بالحيز الجغرافي الذي تمارس عليه الدول اختصاصها ويظل ترسيم الحدود وأمنها بين موريتانيا ومالي من أهم وأبرز الهموم المشتركة بين هذين البلدين، ويعد من أكثر القضايا حساسية في المنطقة نظراً لارتباطه بالأوضاع الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلدين، وهذه الحدود عبر تاريخها الطويل لم تشهد سوى الأحداث العادية والتي تحل بالطرق السلمية أو في إطار تقليدي نسبة للتداخل العرقي والثقافي بين كل منهما.

وقد مرت علاقات موريتانيا بمالي بكثير من حالات الشد والجذب وتأرجحت بين تبادل المنافع والعداء والتلويح بالحرب، في ظل غياب البعد الاستراتيجي للمصالح المشتركة بين انواكشوط وباماكو في كثير من الأحيان وتأثره بالقضايا القبلية والحدودية المتداخلة.

ويظل أمن الحدود بين موريتانيا ومالي من أهم وأبرز الهموم المشتركة بين البلدين، ويعد من أكثر القضايا حساسية نظراً لارتباطهما بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلدين، وهذه الحدود عبر تاريخها الطويل لم تشهد سوى الجرائم العادية مثل الاعتداء على الأفراد والممتلكات والأراضي، وكانت تحل هذه المشاكل في الإطار التقليدي بسبب التداخل العرقي والثقافي بين كل منهما.

¹ المرجع نفسه.

وسيناقش البحث المحاور الآتية:

أولاً - وضع موريتانيا الجغرافي والحدودي

ثانياً: التعديلات الحدودية في الفترة الاستعمارية

ثالثاً: التعديلات الحدودية بعد الاستقلال

رابعاً. رؤية مستقبلية للحدود.

أولاً - وضع موريتانيا الجغرافي والحدودي:

ظهرت لأول مرة تسمية هذه المنطقة بموريتانيا سنة 1843 على يد الضابط كاييه، حينما سمي سكان المنطقة الواقعة شمال نهر السنغال بـ "شعب موريتانيا". ولكنها لم تأخذ صبغتها الإدارية الرسمية إلا بموجب القرار الصادر من وزارة المستعمرات الفرنسية في 27 ديسمبر 1899 مع الإداري الفرنسي كابولاني¹. والمهم أن كاييه لم يصرح علناً بحدود المنطقة الجغرافية التي سماها موريتانيا، عكس ما فعل كابولاني الذي أشار في تقرير له إلى امتداد المنطقة التي ذكر قائلاً إنها تشمل الترارزه والبراكنة وإدوعيش (تكانت) وأولاد امبارك (الحوض) والصحراء. وهذه هي المناطق التي تشكل مجتمعة موريتانيا الحالية. ويعتبر هذا التقرير أول إشارة عرفت حتى الآن عن تسمية هذه المنطقة بموريتانيا، وقد انتظرت التسمية أكثر من نصف قرن من الزمن لتري النور مع كابولاني قبل أن تأخذ طابعها الأكثر رسمية سنة 1960 غداة استقلال البلد².

وتقع موريتانيا في الجزء الشمالي الغربي من القارة الأفريقية، وهي بهذا تعتبر أقصى أقطار المغرب العربي تبلغ مساحتها 1031000 كلم². وهو ما يمثل 7.4 % من مساحة الوطن العربي و 30/1 من مساحة القارة الأفريقية. وموريتانيا حسب موقعها الجغرافي تشاركها أربع دول في حدودها، حيث تشترك مع مالي في حدودها الشرقية والجنوبية الشرقية (الجزء الشرقي من الحدود الجنوبية)، والجزائر في الشمال والصحراء الغربية في الشمال الغربي، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب يحدها النهر السنغالي.

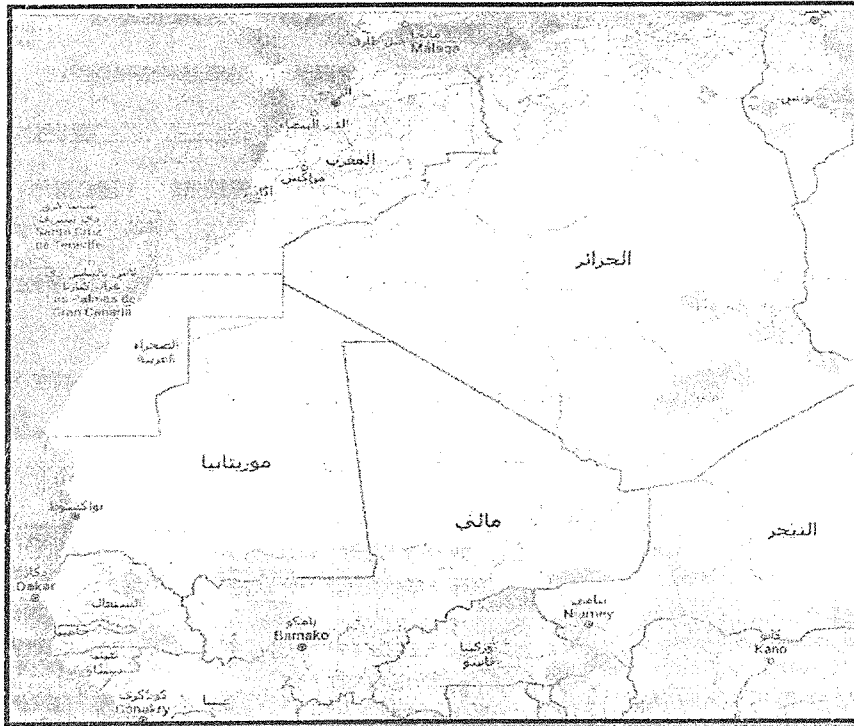
¹ تقرير حول تجارة الصمغ العربي كتبه الجنرال الفرنسي فيديرب سنة 1853 ترجمة وتعليق سيدي أحمد ولد الأمير (WWW.AQLAME.COM)

² مجلة حوليات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص 56

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وتقع فلكيا بين خطي طول 4.5° و 17.8° غربا وبين دائرتي عرض 14.30° و 27.24° شمالا. وبهذا فهي تقطع أكثر من 13 خطا طوليا وأكثر من 13 دائرة عرضية، مما يجعل شكلها رباعيا، لولا جيب الصحراء الغربية. وتبعد أقصى نقطة في الشمال عن أقصى نقطة في الجنوب مسافة 1450 كلم، بينما تبلغ المسافة بين أقصى نقطة في الشرق عن أقصى نقطة في الغرب 1250 كلم¹.

خريطة رقم (1) توضح حدود موريتانيا الخارجية



المصدر: <https://www.google.com.sa/maps>

وتصرف الباحث فيها بإضافة الاطار

¹ بشيري ولد محمد الولاتي، جغرافية موريتانيا، ط1، 1993، ص15.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وهذا يعني أن جزءاً منها يقع في المنطقة المدارية، حيث تسود الحرارة المرتفعة، ويسود الجفاف بزيادة العروض. وكما تظهر السهول الجرداء الشاسعة والكثبان الرملية العملاقة.

ورغم أن معظم الأراضي الموريتانية صحراوية إلا أنها تتميز بساحل مطل على المحيط الأطلسي يبلغ طوله حوالي 754 كلم. ويعتبر بمثابة النافذة المطلة لهذه الصحراء المترامية على البحر. وقد زاد هذا الشاطئ من أهمية موقع موريتانيا وفتح لها آفاقاً للاتصال والربط بالعالم الخارجي.

ولموقع موريتانيا الجغرافي أثر في تنوعها العرقي والثقافي حيث أن الوضعية الجغرافية التي امتازت بها موريتانيا باعتبارها همزة وصل بين المغرب العربي وإفريقيا السوداء قد مكنتها من الحصول على مكانة إستراتيجية فريدة من نوعها، حيث كانت تتحكم في المبادلات التجارية بين إفريقيا جنوب الصحراء والمغرب العربي. وهي بهذا الموقع الجغرافي وتركيبتها العرقية شكلت في الماضي وبشكل دائم لبنة أساسية في الخريطة السياسية على المستويين الإقليمي والقاري¹.

ولم تكن الحدود بين موريتانيا والبلدان المجاورة موضع نقاش فني، لأنها لم تكن آنذاك مضبوطة ولا معينة. ويمكن القول أن جوهر مشكلة الحدود في إفريقيا هو التناقض بين عدم الرضا عن الحدود القائمة وبين الحاجة إلى عدم المساس بها، لما سوف ينتج عن ذلك. في حالة السماح به. من نشأة عدد هائل من الدول الهشة القائمة على تقسيمات عرقية أو لغوية. وتعود جذور مسألة الحدود في إفريقيا الغربية بشكل عام ومسألة تعيين الحدود الموريتانية بشكل خاص إلى الفترة الاستعمارية، حيث سعت فرنسا إلى خلق وحدات سياسية وإدارية في الأقاليم التابعة لسيطرتها، وذلك من أجل تسهيل مهمة إدارة المجتمعات التي تسيطر عليها.

وفيما يتعلق بوضع موريتانيا الحدودي، فلا بد أولاً من توضيح الإطار المفاهيمي للحدود الدولية. فقد عرف شراح القانون الدولي الحدود الدولية حيث يشير "أوينهايم" بقوله كلمة (Boundory) تعني الخطوط الوهمية على سطح الأرض التي تفصل إقليم دولة من إقليم دولة أخرى وعرفها Adonu بأنها الخط الذي يعين النطاق الذي تستطيع أن تمارس فيه الدولة سيادتها². والحدود هي عبارة عن

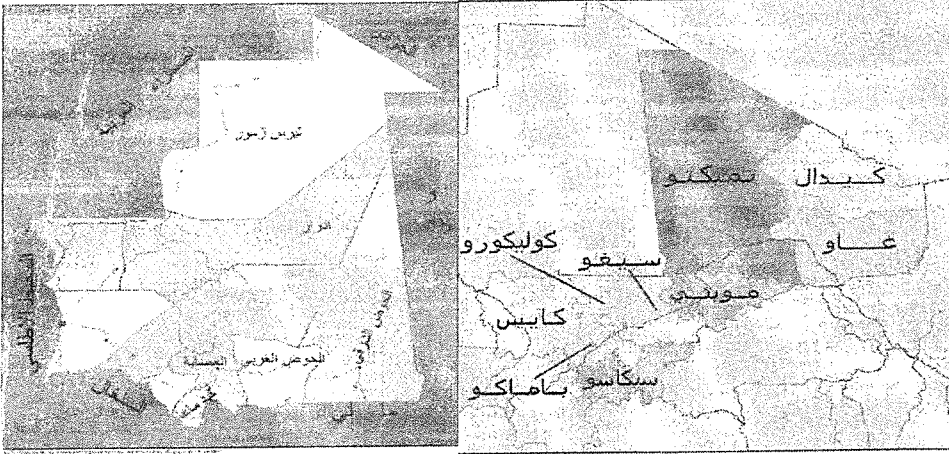
¹ فيصل عبد الرحمن على طه، القانون الدولي ومنازعات الحدود، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، 1982، ص 62

² نفس المرجع.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

خط يحيط بالدولة ويفصل إقليمها عن إقليم الدولة المجاورة وبه تبدأ سيادة الدولة داخل نطاقه وتنتهي سيادتها خارجه وهي ظاهرة اتفاقية بشرية لأن اختيارها وتعيينها وتخطيطها يتم بواسطة الإنسان. وإذا كان لا يتصور وجود دولة بدون إقليم كذلك لا يتصور وجود إقليم محدد واضح المعالم ومن هنا تم رفض النظريات التي تؤدي عدم ضبط حدود الدولة ومن أمثلة هذه النظريات النظرية السوفيتية التي تعرف بنظرية الحدود القائمة والمذهب النازي الخاص بالدولة ذات الحدود المتحركة¹.

خريطة رقم (2) توضح الولايات الحدودية بين موريتانيا ومالي



المصدر: <https://www.google.com.sa/maps>

ومفهوم الحدود يحتوي على سمتين: الأولى: سمة مركبة تبرز من خلال المعاني العديدة التي يشير إليها خط الحدود الذي يفصل بين إقليمين أو بين سيادة دولتين متجاورتين. والثانية: سمة جدلية تبرز بصورة واضحة في حقيقة أن الحدود وأن استندت في نشأتها إلى واقعة الاختلاف والتمايز، إلا أن خط الحدود يشكل أداة اتصال ومعبّر لتبادل المنافع واختلاط العادات والأفكار المختلفة. وكان للمستعمر دوره في تعيين حدود موريتانيا مع جيرانها، ففرنسا عينت حدود موريتانيا مع كل من مالي والجزائر والصحراء الغربية والسنغال.

¹ حسين عبد الرحمن سليمان، الحدود الدولية والمياه الإقليمية - مفهومها والقواعد المنظمة لها، أبو طيب، 2009، ص 11

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وموريتانيا كغيرها من الدول الأفريقية ورثت حدوداً بعد نيلها الاستقلال حددت دون إرادتها، واتسمت بالعديد من النواقص والعيوب نتيجة لتعميم الوصف وانقسام القبائل، وعدم التخطيط والترسيم. وبالرغم من ذلك فقد تعهدت موريتانيا كغيرها من الدول الأفريقية باحترام الحدود القائمة عند الاستقلال والموروثة من الاستعمار في مؤتمر القمة الأفريقي الأول عام 1963.

وحول الوضع القائم لحدود موريتانيا مع دول الجوار، هنالك اتفاقيات ومعاهدات أبرم المستعمر جزءاً منها وأصبحت هي المنشئة للحدود الحالية لموريتانيا، فالحدود مع مالي يبلغ طولها 2237 كلم هي الأطول لكلا البلدين، ومعظمها يقع في صحراء قاحلة مترامية الأطراف، وعرة المسالك والطرق. تطل على تلك الحدود من الجانب الموريتاني ست ولايات هي الحوض الشرقي، والحوض الغربي، ولعصابة، وكيدماغا، وآدرار، وتيرس الزمور. وتطل عليها من الجانب المالي أربع ولايات هي تمبكتو، وسيكو، وكوليكورو، وخاي. وظلت، المنافع الاقتصادية، والعلاقات الثقافية والروحية والأواصر الاجتماعية والقبلية هي السائدة على جانبي الحدود.

ثانياً: التعديلات الحدودية في الفترة الاستعمارية

رسمت الحدود بين موريتانيا ومالي (السودان الفرنسي سابقاً) سنة 1913¹، ومرت بعد ذلك بعدة تعديلات إبان الفترة الاستعمارية، عند ما شعرت السلطات العليا في دكار أن منطقة انيور الساحل والتي كانت تضم الحوضين غير مستقرة، وتصعب إدارتها، ودعت إلى عقد مؤتمر إداري المنطقة، انعقد في 14 ديسمبر 1942 في عيون العتريس وذلك لإيجاد الوسائل التي تضمن وضع حد نهائي لعدم استتباب الأمن في تلك المنطقة. وفي محضر هذا المؤتمر ظهر فيه دور الزاوية الحموية بنيور بمثابة العقل السياسي المدبر لسكنة المنطقة، مما حدا بالسلطات الاستعمارية في التفكير في تجميع كل البدو الرحل وإتباعهم لإدارة واحدة². وبعبارة أخرى إتباع الحوض الشرقي (النعمه، تمبدغة، ولاته) والحوض الغربي (عيون العتريس ومنطقتها) للأراضي الموريتانية.

¹ Soudan français-Mauritanie, une géopolitique coloniale (1880-1963), hors série n°2, 2003, page 173

² Alioune Traoré, L'islam face à la colonisation française en Afrique de l'ouest, Cheikh Hamahoullah, Homme de foi et résistant, L'Harmattan, Paris, 2015, Edition revue et augmentée, page 259.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كان هذا هو المقترح الرئيسي لمؤتمر لعيون، مما يعني كذلك تجميع كل البيضان في إطار إدارة واحدة وكانت منطقة عيون العتروس النقطة الأصعب رقابة الشيء الذي أدخل عدة تعديلات على الحدود الترابية¹. وأدت المشكلات الإدارية الناجمة عن قرار تعيين الحدود الصادر سنة 1944 إلى الجدل الجيوسياسي حول الحدود الموريتانية السودانية من قبل الحكومة العامة، والذي اعتمدت فيه على مقترحات بعثة "بورريكان" (BORRICAND). ولقد أدى هذا الإصلاح الذي شرع في تطبيقه ابتداء من فاتح يناير 1945 بالفعل إلى صعوبات أخرى لحكومة الساحل السوداني. وأفضى اعتماد الإجراءات الأخيرة التي يرجح أنها سهلت إعادة التنظيم الإداري والعسكري والاقتصادي في الحوض بنقل الصلاحيات إلى مطالبة الإدارات الاستعمارية بمرحلة انتقالية يقبل خلالها التقاضي عن المسلكيات والعادات المحلية التي ظلت محل رفض من طرف الإداريين إلى ذلك الحين².

وهكذا اعتمد حاكم موريتانيا في مارس من سنة 1945 تطبيق الاقتراحات التي من شأنها التسهيل التدريجي للإصلاح الذي يؤمل أن يعطي نتائج على المدى البعيد فقد اقترح هذا الحاكم قبول مرحلة انتقالية يري أنها ضرورية تماما يتم خلالها احترام المبادئ التالية:

1. منح البدو الرحل في الساحل حرية التزود بالحبوب من السودان،
2. منحهم حرية الانتجاع في المناطق الواقعة جنوب الحدود الجديدة.
3. إجراء إحصاء في موريتانيا لأدوابه والسماح لهم بالإقامة بأراضيهم الزراعية في السودان. مع ذلك فإن الإجراءات الأخيرين اللذين من المفترض أنهما يساعدان على الإرساء التدريجي للإصلاح، دون إثارة الكثير من الاستياء أو الكثير من الخسائر في مجتمع البيضان في موريتانيا، يبدو أن أول وهلة في تناقض مع أهداف التعديلات الإصلاحية، أي إقامة حدود جنوبية للانتجاع يجسدها رسم الحدود وتعقيد نمط إدارة أدوابه الذين يتم إحصاؤهم في مستعمرة بينما هم يقيمون في مستعمرة أخرى. وبالرغم من وجود بعض المغوقات، فإن الأمر لا يخلو من وجود العديد من الفوائد التي من بينها إمكانية تجهيز الأرض التي تستقبل الوافدين مثل دائرة عيون العتروس الإدارية، وكانت حينها خالية من أية منشأة مائية قبل إيوائها لبعض السكان البيضان الذين فصلوا عن السودان أو السكان

¹ Soudan français-Mauritanie, page 174.

² Lettre n°70 /Ap du gouverneur de Mauritanie, au gouverneur général du 13 mars 1945, 15G/46, Arc.CARAN.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الموريتانيين من الرحل الذين اعتادوا أن يقيموا بها لفترة طويلة من السنة. ويتوخي المستعمر من هذا الإصلاح أن يسمح باستكمال اقتصاد جديد في الساحل من خلال وضع وانجاز خطة مائية - رعوية بشكل تدريجي. تتضمن تلك الخطة بناء سدود لفرض تنمية الأراضي الزراعية وحفر آبار في المناطق التي توجد بها مراعي، ولم تستغل نظرا لانعدام الماء فيها. من شأن هذه الإصلاحات أن تسهل نقل أدوابه بشكل سلس إلى أراضي زراعية جديدة وتحويل مسار انتجاع البدو الرحل إلى الشمال¹. إن إعادة تنظيم الحوض الموحد اقتصاديا والتي تستهدف مجموعة البيضان مسألة مهمة لأنها تنبئ عن سياسة اقتصادية حقيقية في تلك الفترة تتدرج في صميم السياسة الإقليمية للحوض. لقد بدت الجغرافيا البشرية، وقد كانت مرتكز الجغرافيا السياسية الفرنسية في هذا المنوال، سهلة بفعل وجود نمط من "الجغرافيا الاقتصادية" التي شكلت رابطا بين الناس والأرض، وتمت ببعض المميزات التي لا تناسب النمط الاقتصادي. وبإدخال تعديلات على الأرض واستصلاحها بحيث تصبح قابلة للسكن وملائمة لحياة السكان ونمطهم الزراعي².

لقد كان من المتوقع، خلال تلك الفترة، أن يكون للإدارة الفرنسية دور اجتماعي، علما بأنها المسؤولة عن تفكيك مجتمع البيضان. هكذا تعين في هذا المستوى من الإصلاح اللجوء إلى مسلكيات يجب أن تتسم بالبراعة من أجل سد النقص الحاصل في الإصلاح، ويكون ذلك عن طريق تصحيح الأخطاء الناجمة عن ظروف الاستعجال. في الواقع لا يتعلق الأمر بالرجوع إلى الوضعية السابقة رغم التمنيات التي عبر عنها السودانيون إدارة ومستعمرين أكثر من مرة، ثم ما فتئ الإصلاح يتجسد في الأفعال ويشمل كافة مستويات الإدارة السودانية التي حرصت على تسوية عيوب الإصلاح بالاتفاق مع موريتانيا. ظهرت من جديد ملامح زرائع السياسة الإدارية أثناء المؤتمر المنعقد في داكار بتاريخ 11 ديسمبر 1945، والذي جمع كلا من حاكم موريتانيا ليجريت (Laigret) وحاكم السودان كالفل (Calvel)، وكذلك مدير عام APAS برلان (Berlan).

وقد اعترف المشاركون في المؤتمر الذين كان عليهم استكمال الإصلاح الإقليمي الصادر في يوليو 1944 بالمبادئ التي تم عرضها من طرف حاكم موريتانيا قبل ذلك بأشهر، والتي تتمثل في ترك

¹ mars 1945, 15G/46, Arc .CARAN

² Soudan français-Mauritanie, page 175

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الحرية المؤقتة لحركة الانتجاع على جانبي الحدود السودانية - الموريتانية، وكذلك حرية تزود البيضان بالحبوب. مع أن الحدود الجديدة لم تعرقل حركة المبادلات طبقا لتوصيات بوريكاند (Borricand) سنة (1944-1945)¹.

يمكن أن نلخص هدف هذا المؤتمر الذي اتصفت به حينها السنوات القلائل التي عقيت الإصلاح، والذي دعت إليه موريتانيا من أجل تقييم مستوى تقدم مختلف المهام التي تم تكليفها بها عقب الإصلاح الهيكلي المقرر بمقتضى القرار رقم 5 يوليو 1944، ومن أجل تحديد اقتراح الإصلاحات التي سوف تسهل أو تكمل إنجازها طبقا للمصلحة العليا.

لقد لاحظ الإداريون المشاركون في المؤتمر من خلال استعراضهم للحصيلة المستخلصة من الإصلاح بعض العيوب في رسم الحدود. وهي العيوب التي يذكرها اليوم كتاب تاريخ الحدود الإفريقية.² فمن المؤكد أن محضر المؤتمر لاحظ النجاح الذي أحرزه التصحيح فيما يتعلق بالحد من الاضطرابات التي أثارها الحموية بالحوض، إلا أنه يبدو أن الأوصاف التي تتعدت التعيين الجديد للحدود، والمتعلقة بالانعكاسات السلبية التي تتجاوز تلك التي يمكن أن تتجم عنها فوائد، كانت تنتقد بشدة السياسة الإقليمية المتبعة في هذا الإصلاح الإقليمي الذي يعين حدودا تفسفية بين منطقتين متكاملتين.

وكما كان من المتوقع حصول عدد من المشاكل المتعلقة ببنية رحيات المجموعات، عزز استخدام فكرة التعسف في تعيين الحدود الموريتانية-السودانية الجدلي التاريخي حول الفكرة القائلة بأن تعيين الحدود يقرره عدد محدود من الأشخاص، كما يمكن أن يقرره عدد كبير. تشتمل الفكرة هذا على معنى خاص هو الحكم على تعيين الحدود بأنه أقرب إلى السيئ منه إلى الجيد، بالنظر إلى غياب المنطقية الذي تمت ملاحظته بعد فوات الأوان، والمتمثل في فصل سكان أقاليم ظلت على مر الدهور ملتزمة وفصل أتنية مرتبطة اجتماعيا وعرقيا عن بعضها البعض. كان هذا الاختلال أيضا موضع ملاحظة ذات مغزى ترسم صورة مشابهة لما تقدم ذكره عن الحدود «الفاصلة».

¹ المبروم الفرنسي الصادر في 05 يولييه 1944 المعين للحدود الموريتانية مع السودان الفرنسي.

² Soudan français-Mauritanie, page 176

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويرى التقرير السياسي السنوي لموريتانيا سنة 1945، أنه «إذا كانت توجد حدود لا وجود لسكان مستقرين شمالها وحدود لا يوجد جنوبها بدو رحل فإن هذين الحدين لا يلتقيان: فالحد الأقصى في اتجاه جنوب الانتجاع هو في مكان قصير؛ إن الحد الأقصى بين سكان الحضر وبين الحدين يتمثل في شريط من الأرض يتراوح عرضه ما بين 2 إلى 300 كلم يتجه من الشرق إلى الغرب؛ وفي هذا الشريط يختلط العنوان اختلاطا حميما إلى درجة أن يكون فصلهما مستحيلا¹.

يبدو أن التداخل الجزئي بين المناطق الحضرية والبدو الرحل على امتداد مسافات طويلة كان هو السبب الكامن وراء تعيين هذه الحدود "المصطنعة" التي لا تركز على سياسة ناجحة، نابعة عن تفكير ورؤية، ولا تلائم بين الجغرافيا الإدارية. في نفس المحضر يلاحظ النجاح الذي أحرزه تكوين كتلة البيضان في حدود دائرة عيون العتروس الإدارية، حيث طالبت مجموعات البيضان التي لا تزال مقيمة بالسودان (دائرة كوندام)، والتي لم يكن من المقرر نقلها للسلطات المحلية في العيون من حاكم موريتانيا التفضل عليهم بتحويلهم². تبين هذه الطلبات مع ذلك إنشاء دائرة عيون العتروس وما مارسته من جاذبية على كل المنمين الرحل في الساحل السوداني وأنها تمثل حقيقة كيانا جغرافيا وأثنيا، بدا أيضا أن الجغرافيا السياسية أفلحت في تجميع مجموعة أثنية على إقليم واحد.

إزاء التداخل التام بين مناطق الرحل وسكان الحضر وبين أدوابه وقرى سكان الحضر من الزنوج، قررت الإدارة الاستعمارية مع ذلك تحسين مستوى الإصلاح وحل مشكل يصعب حله. واقترح محضر مؤتمر ديسمبر 1945 استصلاح الحدود التي يحتمل أن تمنح موريتانيا "جيب ناخارا" و"باكو" و"آدوابه" مختلفة واقعة في حدود مقاطعة النعمة³.

لقد أعطت هذه التصحيحات نفسا آخر لعهد تعديلات الحدود الذي عقب الإصلاح، حيث قيل حاكم السودان بناء على طلب من موريتانيا بالحاق "جيب ناخارا" بموريتانيا في رسالة موجهة إلى الحاكم العام في ديسمبر 1945. "إن موريتانيا تطالب أن يلحق بها الجيب المسمى "جيب ناخارا" (دائرة خاي) والذي يغطي مساحة تقدر بحوالي 300 كلم². وعلى الرغم من أن المنطقة المعنية

¹ Conte-rendu de la conférence Soudan-Mauritanie, Dakar, 11 décembre, 1945

² Soudan français-Mauritanie, une géopolitique coloniale (1880-1963, page 176

³ Soudan français-Mauritanie, page 176.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تضم 4 قرى من السوننكي، فقد أعطي حاكم السودان الموافقة المبدئية على الضم المزمع القيام به. وكانت موافقة السودان مخالفة لموقفه الذي ظل إلى ذلك الحين محل اعتراض. وكان مناوئا لأي تصحيح إضافي لحدوده المشتركة مع موريتانيا¹.

يمكن أن نستغرب ملاحظته بالنظر إلى الملاحظة التي أبداه حول وجود قرى من سكان الحضر السودانيين على الأراضي التي كان من المقرر فصلها وتحويل إدارة هذه القرى التي أسندها إلى موريتانيا مخالفا بذلك السياسة الإقليمية المعمول بها في السودان. بيد أن السودان تعاون شيئا ما أثناء مؤتمر "انيور" والمنعقد ما بين يومي 18 و 20 مارس 1946 بين حاكم "انيور" وحاكم عيون العتروس. تجسد هذا التعاون بتصحيحات تعيين الحدود المشار إليها آنفا على أرض الواقع ولقيت تشجيعا من قبل ممثلي موريتانيا والسودان على كل مستواه. سهلت الجهود المقام بها على كل مستويات الإدارة السودانية السياسة الإقليمية الاستعمارية بقدر ما خدمت أهداف موريتانيا وأسندت مهمة تحديد الحدود في "باكونو" وكذلك في المنطقة الواقعة جنوب فصاله وشمال نارا إلى الإداريين المحليين أي إلى رؤساء القطاعات الإدارية السودانية والموريتانية الذين خولهم رؤساؤهم المباشرون وغير المباشرين سلطة العمل المشترك والاتصال إلى حلول تواقفية².

لنأخذ على سبيل المثال عملية تعيين الحدود في منطقة باكو التي استكملت أثناء الجولة المشتركة التي قام بها ممثل دائرة انيور والإداري المسمى "دواتي" صحبة الممثل المقيم لمنطقة تمبوغه المسمى "دي لاكامبان" في الفترة ما بين 10 إلى 21 يونيو من سنة 1946. فبعد ما زارا معا آدوابه طبقا للأوامر التي تلقياها من رئيسيهما على التوالي حاكم دائرة "انيور" وحاكم دائرة عيون العتروس، باشرا معالجة المشكلة على نحو مماثل وعلى نحو ما هو منصوب عليه سنة 1945 وهو: "عدم السماح بتداخل فئتين من السكان يؤدي إلى تصحيح للحدود على نحو أفضل". وقد وجدا أن هؤلاء السكان مختلطون بعضهم ببعض بشكل يستحيل معه الفصل بينهم، لأن آدوابه البيضان ملاصقة لقرى سكان الحضر الزوج. وقد نصح مندوبا الإدارتين السودانية والموريتانية، وبعد الدراسة الميدانية التي قاما بها لتعيين الحدود بإبقاء الحال على ما هو عليه والكف عن أية محاولة إضافية.

¹ PV. De la réunion de Nioro, 18-20 Mars 1946 entre les commandants de cercle de Nioro et de Aioun El Attrous.

² Op. Cit

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وفضلا الطابع التعسفي لهذه الحدود، فقد جاء في تقارير الجولة الأخيرة تعيينها بشكل يجعل الحدود الفاصلة في هذه المنطقة تبدو "كحدود اصطناعية صرفة ولا تستجيب لأية ضرورة جغرافية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية..." ومن شأنها أن تقسم إلى جزأين بشكل تعسفي منطقة كانت متجانسة.

إن هذا الحل المتمثل في عدم القبول بأي حل جمع في كفة واحدة إدارتين متنافستين ولكنهما مع ذلك اكتشفتا بوضوح خطأ الجغرافيا السياسية الشاملة على النحو الذي دبرت عليه.¹ وأكد الإداريون في معالجتهم للنتائج المحتملة لتصحيح الحدود باحتدام المشاكل التي تتجم عن تشتيت الشمل والإمعان في فصل أناس من نفس الأصول الأثينية والثقافية. وعلى الرغم من المصلحة الواضحة التي وجدها السودان في رفض التصحيح الجديد، فإنه كان أفضل من الناحية الجيوسياسية من أي عمل آخر. وهكذا وجهت قساوة حكم الإداريين المنتدبين ضربة قاسية إلى «تعسفية» الحدود. وقد عادت فكرة تعسفية الحدود مع المتخصصين المعاصرين في إفريقيا، وهي القائلة بعدم قبول الفصل بين الرجل والسكان الحضر الذين يشكلون كتلة يحكمها منطق إداري وجغرافي وثقافي خاص بها ومناسب لها. كانت ضرورة وضع حدود في مكان ما في الحوض دون آخر تستجيب بشكل رئيسي لضرورات ناجمة عن السكان. ومهما يكن من أمر فإن الإصلاحات الناجمة عن مؤتمر 11 ديسمبر 1945 تدخل من جديد في الأراضي الموريتانية أغلبية أدوابه التي لم يشملها إصلاح 1944. وبهذا تكون سياسة أدوابه وسياسة الفصل في المناطق الشائكة بحكم اختلاط البشر فيها قد نجحت. وبدا أن النقاش حول الإصلاح قد تم إغلاقه ولم يحصل بعد أي شيء.²

ثالثا: التعديلات الحدودية بعد الاستقلال

ولكن بعد استقلال البلدين ظهرت الحاجة ملحة إلى إعادة النظر في التعيين الموروث من المستعمر لهذه الحدود، والتي عينت حين كان البلدان يخضعان لسيطرته، وذلك لتفادي كل الخلافات حول المشاكل الحدودية. وبالفعل جرت الاتصالات بين المسؤولين في كل من البلدين، وقامت مفاوضات عديدة، ومعاهدات عدة³ ابتداء من اتفاقية 1 أبريل 1958 بين وزيري داخلية

¹ Op. Cit.

² المختار ولد داداه، موريتانيا علي درب التحديات.

³ معاهدة خاي الموقعة في 16 فبراير 1963 والتي حددت معالم الحدود بين البلدين.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

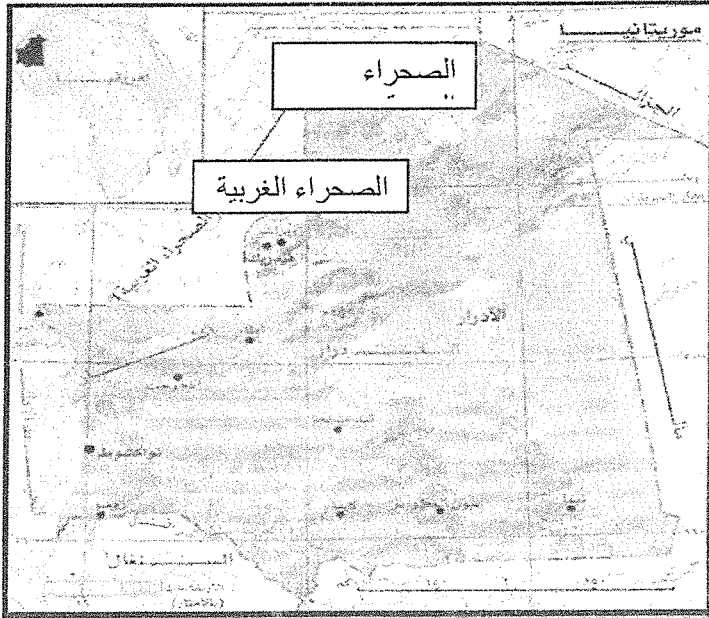
موريتانيا والسودان الفرنسي حول الخلافات في منطقة تيلمسي، وبحضور المستشار "كلاتورز" Qlatorz الممثل للمفوض السامي لفرنسا في إفريقيا الغربية الفرنسية آنذاك، حيث تم الاتفاق على ما يلي:

الاتفاقية الحالية تلغي كافة الموائيق والاتفاقيات السابقة

1- النقطة الأولى: فيما يخص استعمال الآبار في المنطقة تم الاتفاق على مايلي:

- أ. لأولاد داود النعمة الحق في ملكية أبار: "بو زريب"، "حاسي اطويل"، "الرنب".
- ب. لإديلب كوندام الحق في ملكية الآبار التالية: "بورشك"، "زكرك"، "إدار"، "بئر السلام"، "حاسي الهريات". على "إديلب" "كوندام" عدم حفر آبار جديدة في التراب الموريتاني.
- إن ملكية هذه الآبار لا تمنع من الحق العام المطبق في المنطقة البدوية بحيث أن الملكية لا تمنع استعماله لأي بدوي. في حالة عدم وجود قبائل مالكة للآبار للسابق في البئر حق استعماله أولاً.
- إن القبائل المالكة للآبار لها الحق كل الحق في صيانتها وتعميقها حيث يعترف بملكيتها لها.
- وانتهاءً "بالاتفاق الذي عقد في انواكشوط في 15 يناير 1960.

خريطة (3) تضاريسية توضح الحدود والموقع الفلكي لموريتانيا



المصدر : <https://www.google.com/search?q=>

وقد تصرف الباحث في إضافة الإطار الخارجي للخريطة والصحراء الغربية.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وفي كيفه في أغسطس 1962 وآخرها المعاهدة المعروفة بمعاهدة خاي والتي أبرمت في 16 فبراير 1963 والتي أصبحت نافذة المفعول بعد التوقيع عليها وتبادل وثائق التثبيت في أول يوليو 1963 في بامكو. وهي الاتفاقية التي حددت معالم الحدود الفاصلة بين الجمهورية الإسلامية الموريتانية وجمهورية مالي¹. وبموجب هذه المعاهدة تبدأ الحدود من نقطة على النهر السنغالي بين بلدي "كيس" و"بكل"، وتتبع مجري "كاركور" الذي يفصل منطقة "العصابه" - "أفله" حتى "بلكوات" (مدينة مالية). وتسير الحدود من هذه المنطقة مع الخط المار بقرى الطفرة، "التسكاية لكليت"، "دافور كابرا" (وهي قرى تابعة لمالي)، ويمر الخط بقرى "بوريل"، "الشلخ" (وهي قرية موريتانية) حتى ملتقى مجري "تيركول" و"كولمين" ثم إلى جيل "مايل"، ومنها إلى "كنبيه" بخط مستقيم متجه إلى الغرب، ومن "كنبيه" تمتد الحدود في شكل قوس ضيق يتجه أولا جهة الشمال مارا بقرى "اندياندوم كورديام"، "بولولي" (وهي قرى مالية)، ويتجه الخط جنوبا حتى التقائه بخط عرض $15^{\circ}30'$ شمالا، ثم تتبع حدود هذا الخط حتى نقطة تقاطعه مع خط طول $5^{\circ}30'$ غربا. ومن هذه النقطة يبدأ الخط الشرقي من الحدود الموريتانية المالية حيث تتبع هذه الحدود خط عرض $16^{\circ}20'$ شمالا مع خط طول $5^{\circ}20'$ غربا ثم تتجه الحدود نحو الشمال في خط مستقيم يمر بآبار "الكسيب اوتان" و"اكريفتن" حتى تقاطعه مع خط عرض 25° شمالا ثم تتبع الحدود خط العرض المذكور إلى الشرق حتى حدود الجزائر². وتعتبر هذه الاتفاقية آخر مرجع قانوني لهذه الحدود.

رابعا: الاتفاقيات الحالية حول الحدود

لعل من أبرز أسباب النزاع بين موريتانيا ومالي هو اللبس المترتب عن عدم ترسيم الحدود ووضع علامات واضحة تزيل اللبس لدي ساكنة الشريط الحدودي بالرغم من استكمال المسطرة القانونية والفنية التي يترتب عليها هذا الترسيم.

وقد عقدت السلطات الموريتانية المالية اجتماعا للجنة الفنية المشتركة لترسيم الحدود بين البلدين التي استمرت أشغالها خلال الفترة من 22 إلى 24 أبريل 2016 بمباني جامعة لعيون الإسلامية،

¹ نفس المرجع.

² نفس المرجع.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وبحث الاجتماع مواضيع من قبيل الانتجاع والمشاكل المختلفة بين الجانبين والبرنامج الحدودي لتسيير الموارد الرعوية بين البلدين لتكون موريتانيا ومالي مركز إشعاع في شبه المنطقة الإفريقية. وبأتي الاجتماع بعد اختتام اجتماع الولاية والعمد الذي استمر يومي 19 و20 أبريل حول التبادل الأمني والجمركي والصحي. وعقد في مدينة لعيون عاصمة ولاية الحوض الغربي بمشاركة الجانب الموريتاني ممثلا في ولايات كيديماغا ولعصابه والحوضين والجانب المالي ممثلا في ولايات خاي وكولي كورو وسيكو وتمبكتو وبحضور الولاة الماليين الأربعة برئاسة والي ولاية خاي السيد بابا حمان ميكا رئيس الوفد المالي ووالي كيديماغه والحوض الغربي ولعصابه ومستشار والي ولاية الحوض الشرقي، بالإضافة إلى 8 عمد عن الجانب المالي و7 عمد عن الجانب الموريتاني والمصالح المعنية: الصحة البيطرة، والبيئة، والأمن، والجمارك، ومسؤولي الحدود.

رئيسا الوفدين الموريتاني والمالي أشادا بالعلاقات الموريتانية المالية وأواصر التاريخ والجغرافيا بين البلدين وسعي قيادتهما إلى توطيد وتطوير هذه العلاقات وتسهيل التبادل بينها وبلورة التعايش السلمي بين البلدين عبر حرية تنقل الأفراد والممتلكات ومحاربة الإرهاب والتطرف الديني والاتجار بالبشر والمخدرات.

وفيما يتعلق بالجانب الأمني من أجل السلم والتنمية لابد من:

1. إنشاء القوات المشتركة الثلاثية بغرض حماية الحدود بين الدول الثلاث.
2. التنسيق الثلاثي بين وزارات الداخلية للسيطرة على عمليات النهب والتهرب والتسلل عبر الحدود ومكافحة الجرائم المنظمة والعابرة للحدود.
3. العمل على تشجيع الانصهار والتعايش السلمي بين القبائل الحدودية المشتركة ومعالجة الخلافات بين القبائل الرعوية العابرة للحدود بطرق سلمية.
4. تشجيع العودة الطوعية للاجئين والسماح لسلطات الدولة المعنية بالزيارات الراجعة لمعسكرات اللاجئين من مواطنيهم في إطار القوانين والأعراف الدولية التي تحكم ذلك، والعمل على حماية اللاجئين من الاستغلال وممارسات الاتجار بالبشر.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

5. إنشاء آلية للتعامل مع القضايا الأمنية والعسكرية تجتمع دورياً للتقييم وتقديم المشورة، وتطوير هذه الآلية إلى آلية تنفيذية تقوم على أسس تمكنها من ممارسة صلاحياتها التنفيذية والإدارة الفعلية لآليات الاتفاقيات.

وفي الجانب السياسي والدبلوماسي :

1. التشاور حول القضايا الإقليمية والدولية والمساندة في المنابر الإقليمية والدولية والسعي لتعزيز التواصل بين الأجهزة السياسية والمنظمات الشعبية،
2. إقامة الأطر والآليات المناسبة لتعزيز التعاون بين الولايات والمحافظات الحدودية بغرض تحويل الحدود المشتركة إلى منطقة تكامل.

وفي جانب التجارة والخدمات ليشمل:

1. إنشاء منطقة تجارة تفضيلية وإقرار بروتوكول لتنظيم تجارة الحدود واتفاقية لتجارة الترانزيت؛
2. تكوين لجنة مشتركة للمتابعة ومعالجة المشاكل والنزاعات التجارية التي تنشأ بين الدول الأطراف؛
3. الالتزام برفع معدلات التبادل التجاري وتشجيع الاستثمارات المشتركة لتحويل مناطق الحدود إلى مناطق تكامل اقتصادي.

وتتمثل مهام القوات المشتركة في ضبط التفتلات الأمنية في الحدود بتسيير دوريات مشتركة ومحاصرة قطاع الطرق وعمليات النهب والسلب والتعاون في مجال اختطاف العربات وتحرير منتسبي المنظمات الدولية العاملة في المنطقة.

خامساً. رؤية مستقبلية للحدود

تمثل حدود موريتانيا مع مالي وضعاً متميزاً ومتفرداً لحدود موريتانيا الدولية عند الرجوع للأصل التاريخي والقانوني، حيث يلاحظ أن المنطقة الحدودية تكاد تكون واحدة بالنسبة لعدد من العوامل المتشابهة، سواء كانت في القبائل والأصول المتشابهة، أو في العادات والتقاليد والثقافة العربية الإسلامية، التي تكاد تكون واحدة على طول خط الحدود المشترك. وقد ساعدت تلك العوامل على وجود الروابط التاريخية الأزلية التي تربط بين المجتمع الموريتاني ومجتمع إفريقيا جنوب الصحراء، بالرغم من أن الاستعمار الفرنسي كان يعمل على إعاقة مسيرة العلاقة بين البلدين بغرض منع انتشار الثقافة الإسلامية في تلك المناطق.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ومما يميز هذه الحدود أنها أرض سهلية منبسطة وكلما اتجهنا شمالاً تصبح الأراضي أكثر جفافاً وأكثر صحراوية، لذلك فإن البرك والوديان والمنخفضات تشكل مصادر مياه متاحة في المنطقة، وبالتالي كانت تحدث الكثير من المشاكل والخلافات في هذه المناطق ولكنها لم ترق إلى مستوى النزاع الحدودي. والمهم أن وضع هذه الحدود متميز وغير معقد، فالثوابت والوقائع التاريخية والعوامل الجغرافية للمنطقة والمناخ السياسي في ظل أغلب الحكومات السابقة للدولتين قد خلق هذا الوضع القائم وساعد على حل هذه الخلافات. ويمكن القول بأن الرؤى المستقبلية للمنطقة الحدودية مع مالي تكمن في ضرورة الاتفاق حول وثائق الحدود ثم إعادة ترسيم هذه الحدود المشتركة، مما يخلق الاستقرار في المنطقة وزوال كل المشاكل والخلافات التي تهدد الأمن وبالتالي تتطور العلاقات بين هذه الدول الحدودية وتشجيع التجارة التفضيلية في المنطقة، وربط المناطق الحدودية بوسائل المواصلات والاتصالات مما يساهم على المدى البعيد من خلق منطقة تكاملية. وهناك عوامل مشتركة ربما تساعد في إقامة منطقة تكاملية في مناطق الحدود أهمها:

1. طبيعة الامتداد الجغرافي والتي تعتبر أحد المدخلات الإيجابية في دعم وتطوير التكامل بين الدول، حيث لا توجد حواجز طبيعية أو مصطنعة بين دولتين، مما يسهل حركة والانتقال للسلع والبضائع والأفراد فيما بينها
2. التاريخ المشترك والامتداد الطبيعي لعنصر السكان بما في ذلك القبائل والأعراق المشتركة، والتأثير بالثقافة الإسلامية.
3. الإرادة الصادقة للشعبيين في التعايش السلمي وتبادل المنافع والخبرات خاصة على المناطق الحدودية، لأن المناطق الحدودية عرضة أكثر من غيرها لمسائل الانفلات الأمني على طول الشريط الحدودي.

خاتمة

يتضح أن موريتانيا من خلال الموقع الجغرافي الذي يعتبر فريداً من نوعه في القارة الأفريقية تمثل الجسر الرابط لشمال القارة الأفريقية بجنوبها، إذ أنها تتمتع بحدود مع أربع دول بالإضافة إلى المحيط الأطلسي، وبالتالي يمكن أن تلعب دور الوسيط الإقليمي والقاري بالمنطقة.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ويتضح أن هنالك عيوب أمنية تشكلت على مناطق الحدود وساهمت بشكل أو بآخر بتوتر العلاقات، لذلك فإن التحدي الذي يمثل أمام شعوب هذه الدول يكمن في تحقيق قدر أفضل من مستوى الأمن والاستقرار وضمان العيش الكريم والنمو الاقتصادي وتنمية المجتمعات باتجاه تحقيق السلام والتعايش السلمي بين كافة فئات المجتمع ضماناً لسلامة تعايشها السلمي في المستقبل.

ولتفادي أي مشاكل في المستقبل، يمكن طرح التوصيات التالية:

1. تنمية وتطوير المناطق الحدودية وتكثيف تواجد العنصر البشري للحفاظ على الاستقرار والأمن بها.
2. تقوية العلاقات الثنائية بين البلدين، وتوسيع مجالات التعاون لتشمل كافة المجالات مما يساعد على خلق منطقة تكاملية في المناطق الحدودية للدولتين ونظراً لأن مالي دولة حبيسية (ليست لها حدود بحرية)، وكانت السنغال تنفرد بعبور بضائعها وحركتها التجارية، إلا أن موريتانيا بدأت منذ إنشاء ميناء الصداقة بإبرام بعض المعاهدات معها محاولة منها كسب قبولها لاستيراد أو إيراد بعض البضائع بواسطتها. وكان من بين التسهيلات إنشاء مخازن خاصة بمالي في ميناء الصداقة، وإنشاء طريق لعيون خاي.
3. تفعيل التعاون الأمني لتأمين الحدود ونشر القوات المشتركة بصور أكبر، لضمان حل الخلافات والنزاعات الحدودية محلياً.
4. ترسيم الحدود المعينة منذ 53 سنة، ووضع علامات واضحة تزيل اللبس لدى ساكنة المناطق الحدودية، نظراً لاستكمال المسطرة القانونية والفنية التي يترتب عليها هذا الترسيم.
5. تشجيع الدراسات المتعلقة بتطوير العلاقات بين دول الجوار والأوضاع الحدودية، وتوفير المعلومات التي تتعلق بهذه الدراسات من قبل جهات الاختصاص ومراكز البحث العلمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قائمة المراجع

- (1) خليل، سعد، تكوين موريتانيا الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1977
- (2) السماك، محمد زاهر سعيد، الجغرافيا السياسية المعاصرة، دار الأمل للنشر والتوزيع، أريد، الطبعة الحادية عشر 1998. بيتر تايلور وكولن فلنت، الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة: عبد السلام رضوان وإسحاق عبيد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2003.
- (3) الديب، محمد محمود إبراهيم، ماهية الجغرافيا السياسية، مجلة المنهل، العدد 538، مارس 1997.
- (4) على طه، فيصل عبد الرحمن، القانون الدولي ومنازعات الحدود، ط1، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، 1982.
- (5) سليمان، حسين عبد الرحمن، الحدود الدولية والمياه الإقليمية، مفهومها والقواعد المنظمة لها، أبو طيب 2009.
- (6) عامر، محمد عبد المجيد، الجغرافيا السياسية والدولة، الإسكندرية، دائرة المعرفة الجامعية، بدون تاريخ.
- (7) عيسى، صلاح عبد الجابر، مدخل إلى جغرافية الوطن العربي، مطابع جامعة المنوفية، شبين الكوم، 2004.
- (8) عيش، ماهر حمدي، الجغرافية السياسية، دار الوثائق، شبين الكوم، 2005.
- (9) مجلة حوليات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، السدس، 1999.
- (10) المرسوم الفرنسي الصادر في 05 يولييه 1944 المعين للحدود الموريتانية مع السودان الفرنسي
- (11) المسالمة، خالد، الأرض العربية المحتلة - الأحواز، مطبعة جامعة الرور، بوخوم، الطبعة الثانية 2008.
- (12) معاهدة خاي الموقعة في 16 فبراير 1963 والتي حددت معالم الحدود بين البلدين.
- (13) الولاتي، بشيري ولد محمد، جغرافية موريتانيا، ط1، نشر، 1993.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

(14) ولد داداه، المختار، موريتانيا علي درب التحديات، 2003.

(15) تقرير حول تجارة الصمغ العربي كتبه الجنرال الفرنسي فيديرب سنة 1853 ترجمة و تعليق

سيدي أحمد ولد الأمير (WWW.AQLAME.COM)

- (1) Traoré, Alioune, 2015, L'islam face à la colonisation française en Afrique de L'Ouest, cheikh Hamahoullah, homme de foi et résistant, L'Harmattan, Paris, Edition revue et augmentée.
- (2) Boggs, S.W., 1940, International Boudaries Astudy of Boundary Functaions and problems, New York.
- (3) Conte-rendu de la conférence Soudan-Mauritanie, Dakar, 11décembre, 1945.
- (4) Jones, S S.P, 1959, Boundary Concepts in the Setting of place and Time, AAG, NO. 44.
- (5) Lettre n°70 /Ap du gouverneur de Mauritanie, au gouverneur génial du 13 mars 1945,15G/46, Arc .CARAN .
- (6) Prescott, J.R.V., 1987, Political Frontiers and Boundaories, London.
- (7) PV. De la réunion de Nioro, 18-20 Mars 1946 entre les commandants de cercle de Nioro et de Aicun El Attrous
- (8) Pv. de la conférence du 11décembre1945, Dakar.
- (9) Soudan français-Mauritanie, une géopolitique coloniale (1880-1963), hors série n°2, 2003.
- (10) Thomas, B.L., International Boundares: Lines in the sand (and the sea), Oxford, 1994.
- (11) Weigert, H., Principle of Political Geography, New Yourk.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الخدمات التعليمية بولاية لعصابة الواقع والتحديات

محمد الأمين ولد لماند،

باحث في الجغرافيا

تقديم:

شكلت الدولة الفاعل الأساسي في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية منذ فجر الاستقلال إلى اليوم وعلى هذا الأساس كانت لها محاولات مهمة في عملية إعداد التراب الوطني وتنظيم المجال، ولو أن ذلك ظل متعثرا بحكم تناقض القرارات السياسية، وعدم استقرار الأنظمة المتعاقبة على السلطة، وتتالي سنوات الجفاف الذي ضرب البلاد في مطلع السبعينات من القرن المنصرم، مؤثرا بذلك في مسار الخطط التنموية التي كانت تتبعها الحكومة آنذاك. لكنه منذ منتصف الثمانينات كانت هناك رغبة واضحة من طرف الدولة في استحداث تقطيع ترابي جديد قصد تهيئة المجال، والحد من التفاوتات التي يعيشها سكان هذا البلد في الكثير من مناطقه، حيث عملت على إنشاء إدارات ومؤسسات وطنية ممثلة على الصعيد الجهوي ... استفادت منها ولاية لعصابة في إنشاء مجموعة من البنيات التحتية الأساسية... ففي الميدان الاجتماعي قامت الدولة بإنجاز مجموعة من التجهيزات تهتم مجالات التعليم، والصحة، والمياه، والكهرباء والطرق، إلا أن حصيلة هذه الجهود رغم أهميتها لم ترق لحل إشكالية التنمية الجهوية والمحلية بالولاية، لكن ذلك لا يمنعنا من التساؤل عن ما هو نصيب ولاية لعصابة من مختلف جهود الدولة في مجال التعليم؟ وإلى أي حد استطاعت هذه الجهود أن تساهم في الاستجابة للانتظارات الملحة التي ظلت تتطلع إليها ساكنة هذه الولاية باستمرار؟

I-توطئة منطقة الدراسة:

تقع ولاية لعصابة في الجزء الجنوبي من التراب الموريتاني وفي القسم الشمالي من المنطقة اإمدارية بين دائرتي عرض 15° و 18° شمالا وبين خطي طول 10° و 12.5° غربا¹ وتمتد على مساحة تقدر

¹ بشيري ولد محمد الولاتي "جغرافية موريتانيا" انطبعة الأولى، موريتانيا 1993، ص: 15.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

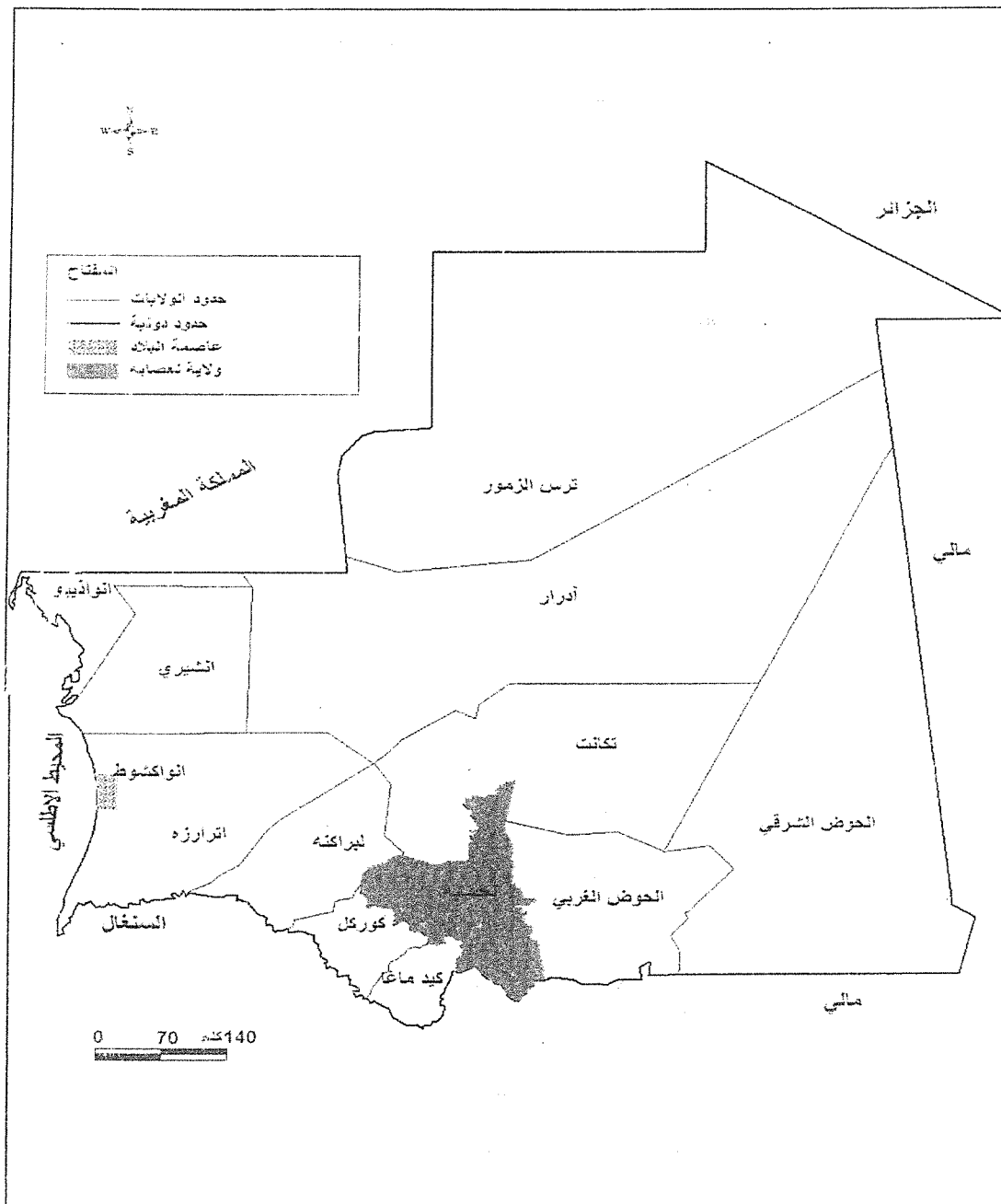
ب 36.600 كلم² (أي ما يعادل 3.5% من إجمالي مساحة البلاد)¹. وهي بهذا الموقع الجغرافي تمثل منطقة انتقالية بين المناخ الصحراوي في الشمال والمناخ الساحلي السوداني في الجنوب، حيث يمثل الجزء الواقع ضمن المنطقة الصحراوية نسبة 41% من المساحة، كما يمثل الجزء الواقع ضمن المنطقة السودانية نسبة 59% منها². أما عن الحدود الإدارية لهذه الولاية فتحددها من الشرق ولاية الحوض الغربي ومن الشمال ولاية تكانت ومن الناحية الشمالية الغربية تحدها ولاية لبراكنة بحدود ضيقة مع مقاطعة باركيول، كما تحدها ولاية كوركول من الناحية الجنوبية الغربية، ومن الجنوب تحدها ولاية كيديماغا، أما من الجنوب الشرقي فتحددها دائرة خاي بجمهورية مالي³. وتتقسم الولاية إداريا إلى خمس مقاطعات هي مقاطعة كيفه المركزية، ومقاطعة كنكوصة في الجنوب، وباركيول في الغرب، ومقاطعة كرو في الوسط الغربي ومقاطعة بومديد شمالا، كما يوجد بالولاية مركزين إداريين هما: مركز "لعويسي" التابع لمقاطعة باركيول ومركز "هامد" التابع لمقاطعة كنكوصة والذي يعتبر ذا أهمية اقتصادية كبيرة لموقعه على الحدود بين الولاية وجمهورية مالي المجاورة والخريطة التالية تبين موقع وحدود ولاية لعصابه.

¹ OULD SALEH Taher Moustapha, *Crise du Monde Rural et Sédentarisation en Mauritanie Sahélienne : Exemple de la Région de l'ASSABA*, Nouakchott du 23 au 25 Février 1989, p. 2.

² السالك ولد مولاي ولد أحمد شريف، "دور الماء في تنظيم المجال والتنمية بولاية لعصابه" بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 2000-2001، ص: 7.

³ إسلم ولد محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، الجزء الأول "تاريخ وجغرافية موريتانيا" الطبعة الأولى، موريتانيا 1994، ص: 5.

الخريطة (1): الموقع الجغرافي لولاية نعصابه



المصدر: وزارة الداخلية واللامركزية بموريتانيا.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

II - البنيات التحتية التعليمية بولاية لعصابه:

كانت أول منشأة مدرسية عرفتها ولاية العصابة قد أنشئت في عهد المستعمر الفرنسي سنة 1911 بمدينة كيفه عاصمة الولاية، وكان عدد تلامذتها آنذاك لا يتعدى 21 تلميذا، إلا أنها أخفقت في الاستمرار نظرا لعدة أسباب منها معارضة العلماء لمدارس المستعمر حينها وانتشار المحاضر القرآنية واعتبار التعليم الأجنبي مخالف للدين الإسلامي.

وقد تضافرت كل تلك العوامل الراضة لكل ما يأتي به المستعمر لتجبر الإدارة الفرنسية على إغلاق هذه المدرسة، حيث لم يبق فيها في سنة 1911 سوى 4 أطفال فقط. وبعد 23 عاما تم افتتاح هذه المدرسة من جديد، وذلك في سنة 1934 وسجل فيها آنذاك 30 تلميذا، كما استجلبت لها الإدارة الفرنسية معلما من إحدى الدول الإفريقية¹. وبعد استقلال البلاد سنة 1960 تزايدت أعداد المدارس والمؤسسات التعليمية بمختلف أنواعها، وتزايد كذلك اهتمام المواطنين بالتعليم النظامي على مستوى عموم التراب الوطني، إلا أن هذا التعليم ظل حبيسا لمشكلتي البطء والتردد، لذلك كان رهان هدف التعليم المعمم رهان صعب المنال لحد الآن وأحد مظاهر التباين بالمجال الموريتاني، وعائقا أمام التنمية الاجتماعية المتكاملة في البلاد، يتجسد هذا الوضع من خلال فوارق التعليم على مستوى الولوج المدرسي، وتوزيعه المتباين حسب الجنس والعمر والمناطق الجغرافية، وتفاوت الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم ما بين الوسطين الريفي والحضري، وتدني جودة ونوعية التعليم، ثم عدم التوازن في مراحلها وتخصصاته، وكان من نتائج ذلك استمرار الأمية في المجتمع، ولاسيما في صفوف النساء وفي العالم القروي بحيث إن حجم التعليم ما يزال متواضعا في الابتدائي، وضعيفا في الإعدادي والثانوي، كما أن أعداد الفتيات الملتحقات بأسلاك التعليم ما بعد الابتدائي بالأرياف هزيلة جدا في أغلب المناطق الريفية التي وصلها. وإذا كانت هذه الوضعية حكمت على التعليم بتدني مستويات التمدن بالأوساط الريفية فإن تدبير الشأن التعليمي التربوي بالمجال الحضري لا تزال تعوقه هو الآخر مشاكل مرتبطة بطبيعة المنظومة الحضرية، تجلت انعكاساتها أساسا في ضعف انسجام الخريطة المدرسية على المستوى الوطني، وتفاقم الاكتظاظ وتدني مستويات التأطير التربوي.

¹ - إسلم ولد محمد الهادي، مصدر سابق، ص 52.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وعلى مستوى ولاية لعصابة عرف هذا القطاع توسعا بالغ الأهمية خلال السنوات الأخيرة سواء على مستوى التزايد في أعداد المؤسسات التربوية أو الموارد البشرية العاملة بهذه المؤسسات من مدرسين وعمال دعم وغيرهم، لكن ذلك لم يرق لحل معظم الإشكاليات التي تعوق المنظومة التعليمية في هذه الولاية. وذلك ما سنقف على البعض من مظاهره من خلال تتبع الوضعية الراهنة لهذا القطاع.

1- التعليم الأساسي: سجلت موريتانيا خلال العقود الأخيرة تقدما مهما وخاصة في ميدان الارتفاع من مستوى التمدرس وتجسد هذا التقدم في توسع بنى التعليم الأساسي وزيادة هامة في أعداد التلاميذ كمؤشر على أهمية التمدرس الذي ارتفع معدله الخام من 45.8% سنة 1990 إلى 87% سنة 2001 ثم إلى 90.9% سنة 2008 وتبعاً لذلك تضاعف عدد المدارس والأقسام التربوية أربع مرات ما بين سنتي 1983 - 2000 كما ارتفع عدد التلاميذ من 166.036 تلميذا سنة 1990 إلى 360.677 سنة 2001¹ ليصل إلى 512.998 سنة 2009 وبالمقابل بلغ عدد المدارس 3.793 مدرسة في تلك السنة مقابل 2.980 مدرسة سنة 2006²، لكن ذلك لم يمنع التعليم الوطني من وجود سلسلة من الهفوات اعترضت مساره منذ استقلال الدولة حتى اليوم ترتبط بضعف الجودة وتدني التسيير والتخطيط، وهو ما استشعرته الدولة حين قامت سنة 1999 بتبني إصلاح تربوي جديد يهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف من بينها تعميم المدارس مكتملة الأسلاك وعقلنة تسيير الوسائل المادية والبشرية والقضاء على الفوارق ما بين الجنسين وتطبيق خطة عشرية 2001-2010 لتطوير النظام التربوي.

1 - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة 2002، ص: 24.

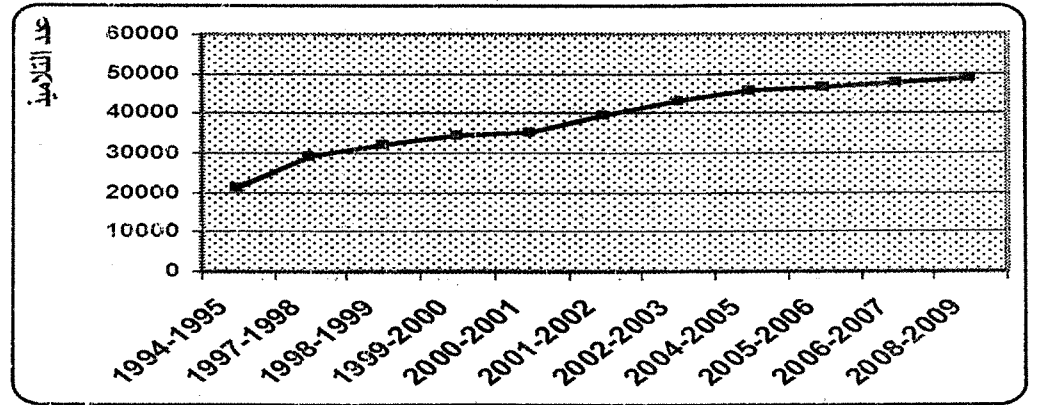
2 - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر 2006-2010، ص: 29.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1-1- البنية التربوية للتعليم الأساسي:

ارتفع عدد تلاميذ المرحلة الأساسية بولاية لعصابه من 21.202 تلميذا خلال العام الدراسي 1994-1995¹ إلى 48.523 تلميذا خلال العام الدراسي 2008-2009 وبالمقابل ارتفع عدد المدارس من 189 مدرسة خلال تلك الفترة إلى 459 مدرسة وارتفع عدد المعلمين من 462 معلما إلى 1001 معلما، كما ارتفع معدل التمدرس الخام من 14% سنة 1985 إلى 58.7% خلال السنة الدراسية 2003-2004، ثم إلى 67.7% خلال العام الدراسي 2008-2009² مما نجم عنه ارتفاع متواصل في منحني أعداد التلاميذ نستشفه مما يلي:

الشكل (1): تطور أعداد التلاميذ بولاية لعصابه خلال الفترة ما بين 1995-2009



المصدر: الإدارة الجهوية للتعليم بمقاطعة كيفه 2010.

ومن جهة أخرى فإن مستوى الولوج إلى السنة الأولى من التعليم الابتدائي يصل إلى حدود 30% وهو معدل مرتفع مقارنة بنظيره على المستوى الوطني الذي يظل في حدود 27%، كما أن معدل

¹ - سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا الثنائي الحرج، بحث لنيل شهادة الدكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 1996-1997، ص: 281.

² - RIM. Ministère des Affaires Economiques et du développement, Office Nationale de la Statistique, Profil de la Pauvreté en Mauritanie, Septembre 2008, p : 60 .

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

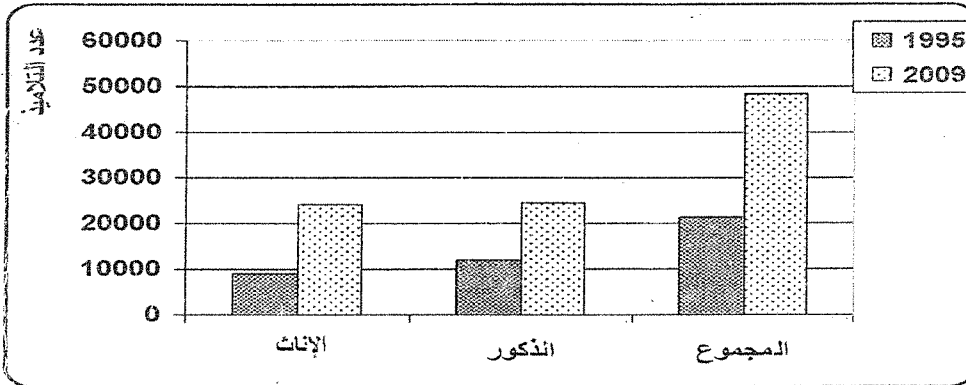
الرسوب لجميع السنوات الابتدائية يبلغ 10% على مستوى الولاية، في حين أنه يصل إلى 16% على المستوى الوطني، وفي المقابل يصل معدل النجاح 38% مقابل 34% على المستوى الوطني¹.

الجدول (1): عدد التلاميذ والمعلمين في المدارس الابتدائية بولاية نعصابه (2008 - 2009)

عدد الأقسام التربوية	عدد الفصول	عدد المدارس	المجموع	عدد التلاميذ		عدد المعلمين
				الذكور	الإناث	
1336	1120	459	48523	24041	24482	1001

المصدر: الإدارة الجهوية للتعليم الوطني بمقاطعة كيفه 2009

الشكل (2): تطور أعداد التلاميذ بولاية نعصابه حسب الجنس 1995 - 2009

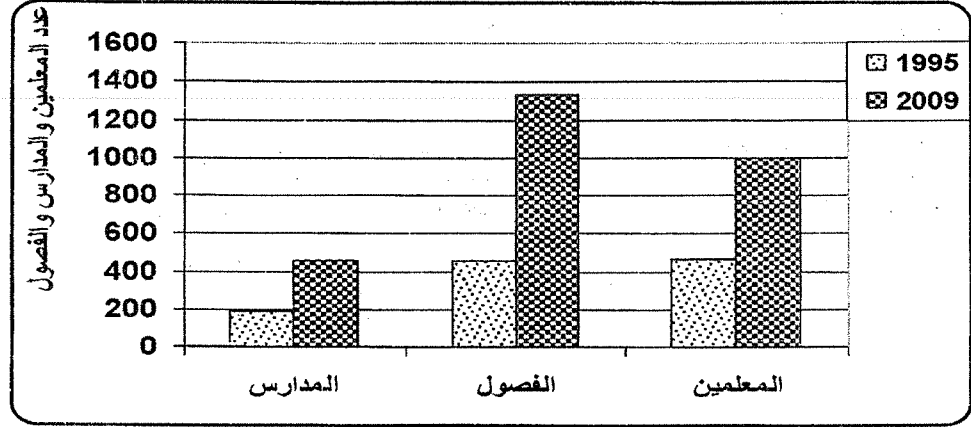


المصدر: الإدارة الجهوية للتعليم الوطني بمقاطعة كيفه 2009

¹ - RIM. Ministère de l'Affaire Economique et de développement, Programme Régional de lutte Contre la Pauvreté wilaya de L'ASSABA «Août. 2004, p : 18

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الشكل (3): تطور أعداد المعلمين والمدارس والفصول بولاية لعصابه 1995-2009.



المصدر: الإدارة الجهوية للتعليم الوطني بمقاطعة كيفه 2009
يتضح من خلال الشكلين (2) و(3) أن أعداد التلاميذ والمعلمين والمدارس والفصول بولاية لعصابه تضاعفت بما يزيد على النصف خلال الفترة ما بين 1995-2009 وهو مؤشر مهم للكشف عن حصيلة تدخلات الدولة في مجال التعليم الأساسي الذي يعد الاهتمام به أفضل سبيل لوضع اللبنة الأولى لتكوين رأس المال البشري. وهو الأمر الذي لا يمكن تحقيقه ما لم يكن هناك توزيع عادل لمن يتولون مسؤولية التدريس والإشراف التربوي.

الجدول (2): توزيع المعلمين حسب تخصصاتهم ومستوى التغطية بمقاطعات الولاية 2009

المقاطعة	عدد المعلمين حسب التخصصات			المجموع	مستوى النقص في أعداد المعلمين		
	عربية	فرنسية	مزيج		عربية	فرنسية	مزيج
كيفه	285	76	120	481	12	14	0
كنكوصة	57	22	128	207	26	10	5-
باركيول	13	07	107	127	4-	2-	7
كرو	68	34	37	139	16	4-	0
بومديد	21	6	20	47	4	3	2-
مجموع الولاية	444	145	412	1001	54	22	0

المصدر: الإدارة الجهوية للتعليم الوطني - كيفه 2009.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

من خلال الجدول أعلاه يتأكد ما سبق سلفا وهو أن توزيع المعلمين يتم بشكل غير عادل على مقاطعات الولاية، والأمثلة حسب الجدول متعددة منها على سبيل المثال لا الحصر أن مقاطعة كرو تعرف زيادة في معلمي العربية تفوق 16 معلما، في حين أن مقاطعة باركيول تحتاج إلى 4 من معلمي اللغة العربية، وعليه فإن توزيع المعلمين يجب أن تتم مراعاته تفاديا للاختلالات المجالية، التي لا تخدم تحقيق مسار تربوي متوازن، فإذا ما استمر هذا النهج فإنه سيعمل بدون شك على زيادة الاختلالات التي يعرفها توزيع السكان، والتي كانت أسبابها ذات ارتباط عميق بسوء توزيع الخدمات الأساسية على مستوى الولاية.

1-2- التوزيع الجغرافي لمؤسسات التعليم الأساسي بولاية لعصابة:

تمثلت سياسة الدولة في نهاية العقد الأول عقب الاستقلال في محاولة خلق توازن جغوي بين مناطق البلاد، وذلك للوصول إلى خلق تنمية اجتماعية متوازنة تحد من الاختلالات المجالية العميقة بين المدن والأرياف، عن طريق توفير مجموعة من التجهيزات الاجتماعية والاقتصادية لتلبية حاجيات السكان في مختلف مقاطعات البلاد. والجدول التالي يوضح توزيع مؤسسات التعليم الأساسي بمقاطعات ولاية لعصابة خلال العام الدراسي 2006-2007.

الجدول (3): توزيع التلاميذ والمدارس والأقسام حسب البلديات 2006-2007.

المقاطعة	عدد المدارس	عدد التلاميذ	الذكور	الإناث	عدد الأقسام	عدد التلاميذ/قسم	عدد المعلمين	عدد التلاميذ/معلم
كيفة	150	17364	8624	8740	402	43.2	445	39
كنكوصة	130	11764	6083	5681	267	44	183	64
باركيول	105	9010	4821	4189	185	48.7	109	83
كرو	51	7331	3580	3751	137	53.5	117	63
بومديد	22	2235	1167	1068	46	48.6	40	56
المجموع	458	47704	24275	23429	1037	46	894	53

المصدر: ONS :Service Régional de la Statistique, Wilaya de l'ASSABA 2009.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تعود المعطيات الواردة في هذا الجدول إلى العام الدراسي 2006-2007 لكن الهدف من الرجوع إليها هو فقط من أجل الاطلاع على التوزيع المجالي للبنية التربوية على مستوى الولاية من، حيث توزيع التلاميذ ونسبهم إلى الأقسام والمعلمين، كمؤشرات يتحتم الكشف عنها لقياس مستوى فاعلية التعليم الأساسي بالولاية انطلاقا من مقارنته مع الأهداف التربوية المنشودة على المستوى الوطني. هكذا يلاحظ من خلال الجدول أن تعداد تلاميذ التعليم الأساسي بولاية لعصابه بلغ 47.704 تلميذا خلال العام الدراسي 2006-2007، تمثل نسبة الإناث منها 49.11%، وعلى مستوى توزيع التلاميذ على مقاطعات الولاية يتضح أن مقاطعة كيفة وحدها تضم 17.364 تلميذا، أي ما يمثل نسبة 36.4% من مجموع التلاميذ، تليها مقاطعة كنكوصة بمعدل 11.764 تلميذا، ثم باركيول 9.010 تلميذا فيما ينخفض عدد التلاميذ في مقاطعة كرو إلى 7.331 تلميذا، ولا يتجاوز 2.335 تلميذا في مقاطعة بومديد، وهنا يلاحظ أن مقاطعة باركيول التي تتساوى مع مقاطعة كنكوصة من حيث عدد السكان، وتفوقها من حيث عدد البلديات تقل عنها من حيث عدد التلاميذ، وهو ما يؤثر لرابطة قوية فيما بين مستوى الظروف الاجتماعية للمجتمع وت مدرس الأبناء؛ فهذه المقاطعة المصنفة كمنطقة فقر على مستوى الولاية لا يتجاوز معدل التمدن فيها 38.2% سنة 2008 ولا يتجاوز أيضا 57.3% بمقاطعة كرو المعدة من أحسن مقاطعات الولاية ظروفًا اقتصادية، لكن سبب انخفاضه بهذه المقاطعة يرجع لوضعية مغايرة مفادها أن ساكنة هذه المقاطعة تؤثر التعليم المحظري على التعليم النظامي.

أما فيما يتعلق بعدد التلاميذ للقسم فيبدو مرتفعا، إذ يبلغ 46 تلميذا على مستوى الولاية، ويرتفع إلى 53.5 تلميذا في مقاطعة كرو، وأزيد من 48 في مقاطعات باركيول وبومديد، ويصل 44 تلميذا في مقاطعة كنكوصة و 43 في مقاطعة كيفة، وعلى مستوى عدد التلاميذ لكل معلم يرتفع هذا العدد إلى 83 تلميذا بمقاطعة باركيول، ويتجاوز 60 تلميذا في مقاطعات كنكوصة وكرو، ويبلغ 56 بمقاطعة بومديد، فيما ينخفض إلى 39 تلميذا بمقاطعة كيفة، وبإستثناء هذه الأخيرة تعد هذه المعطيات عموما مرتفعة مقارنة بأهداف الخطة العشرية الوطنية للتعليم 2001-2010 التي كانت تهدف إلى أن يصل هذا المعدل إلى 40 تلميذا عند الانتهاء من تنفيذها.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إن عدد التلاميذ يتجاوز في بعض الأحيان 100 تلميذا في القسم الواحد، في حين أنه يقل عن 20 تلميذا في بعضها الآخر، وهنا يتعلق الأمر أساسا بالمناطق النائية الهشة (مناطق أدوابه)، وتتسبب هذه الوضعية الأخيرة الناجمة عن عدم متابعة التلاميذ للدراسة بشكل منتظم إلى إغلاق العديد من المدارس نظرا لعدم توفر كم يسمح بمواصلة الافتتاح، كما أن بعض المدرسين لا يعود إلى مكان عمله بعد العطلة الصيفية متذعرا بصعوبة العيش والنقل، خصوصا بالنسبة للمناطق النائية من الولاية، وهذا ما أشارت إليه الإدارة الجهوية للتعليم بولاية لعصابه في تقريرها السنوي 2008-2009 حين أوضحت أنه من بين معلمي الولاية يوجد 150 مدرسا بالوسط الريفي في وضعية عدم انضباط، أكثرهم يقع في البلديات الريفية لمقاطعات كنعكوصة وباركيول. ويزيد من هذه الوضعية هشاشة البنايات المدرسية، وانعدام التجهيزات الضرورية، وحسب معطيات التقرير الجهوي لمحاربة الفقر بولاية لعصابه 2009 فإن 62% من مدارس الولاية مبنية بالأسمنت، و35% منها بالطين، و3% مدارس في شكل أعرشة من الحطب، ومعظم هذه المدرس يزاول العمل في وضعية رديئة¹ خصوصا على مستوى بلديات تناها وأويد أجريد التي ما تزال أغلبية المدارس بهما مبنية بالطين 81% و83% على التوالي². أما فيما يتعلق بالخدمات مثل المياه الصالحة للشرب، والكفالات المدرسية فإن نسبة 12% من المدارس هي التي تتوفر على كفالات مدرسية خلال العام الدراسي 2007-2008 والجدول التالي يبين توزيع الكفالات المدرسية بولاية لعصابه وأعداد التلاميذ المستفيدين منها سنة 2007.

¹ - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، البرنامج الجهوي لمحاربة الفقر بولاية لعصابه 2009، ص: 28.

² - RIM. Ministère de Affaire Economique et de développement, Programme Régional de lutte Contre la Pauvreté wilaya de LASSABA, Op.cit.p :18.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الجدول (4): توزيع الكفالات المدرسية بولاية لعصابة حسب المقاطعات 2007

المقاطعة	عدد الكفالات	عدد المدارس	الأولاد	الإناث	المجموع	الإناث %	الذكور %
كيفة	68	150	3314	3084	6398	48.2	51.8
كنكوصة	53	130	2880	2470	5350	46.2	53.8
باركيول	50	105	2330	2035	4365	46.6	53.4
كرو	31	51	2167	1928	4095	47.1	52.9
بومديد	15	22	728	687	1415	48.6	51.4
المجموع	217	458	11419	10204	21623	47.2	52.8

المصدر : ASSABA EN CHIFFRES 1995- 2007 P:29

2-التعليم الثانوي: لا تختلف وضعية التعليم الثانوي بولاية لعصابة عن باقي ولايات البلاد، حيث تنسم بنقص ملاحظ في عدد البنيات التحتية مما جعلها لا تستجيب لحاجيات التلاميذ الذين تتزايد أعدادهم من سنة لأخرى، هذا إضافة إلى تفاقم مشاكل التجهيز المتعلقة بالأقسام الدراسية، وطاولات الجلوس، والمكتبات، والمياه والكهرباء، والمراحيض والسياح... إلخ. زد على ذلك ضعف مستوى التأطير في صفوف الأساتذة والمراقبين، وضعف مستوى التلاميذ، وتفاقم ظاهرة الرسوب وهجر الدراسة، ولا تقل مشاكل النقل والبعد عن أماكن الدراسة عن ذلك، وكلها عوامل من بين أخرى لا تزال تشكل عائقا كبيرا أمام تطوير التعليم الثانوي بولاية لعصابة.

2-1-تطور بطيء في أعداد البنية التربوية للتعليم الثانوي بولاية لعصابة:

ارتفع عدد التلاميذ في مؤسسات التعليم الثانوي من 2208 تلميذا خلال العام الدراسي 1994-1995¹ إلى 5812 تلميذا خلال العام الدراسي 2006-2007 تمثل نسبة الإناث منها 49.7% في حين كانت تمثل نسبة 28.5% خلال السنة الدراسية 1994-1995، كما ارتفع عدد الأساتذة خلال تلك الفترة من 92 أستاذا إلى 198 أستاذا، أما عدد المؤسسات فقد ارتفع من 4 مؤسسات إلى 12 مؤسسة، كما ارتفع عدد الفصول من 47 إلى 108 منها 4 ثانويات تتوزع على مقاطعات كيفة-

¹ - سيدي عبد الله ولد المحبوبي، مرجع سبق ذكره، ص: 283.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بومديد - كرو - كنكوصة و 8 اعداديات منها أربعة بكيفه والأربعة المتبقية تتوزع بمعدل إعدادية واحدة بكل من بلديات اغورط، لقران، باركيول، احسي الطين. مع الإشارة إلى أنه خلال العام الدراسي 2011-2012 تم بمقاطعة باركيول افتتاح إعدادية جديدة في بلدية بولحراث، مما سيوصل عدد مؤسسات التعليم الثانوي بولاية لعصابه إلى 13 مؤسسة.

الجدول (5): توزيع مؤسسات التعليم الثانوي حسب المقاطعات 2006-2007

المقاطعة	عدد المؤسسات	عدد الأقسام	عدد الأساتذة	عدد التلاميذ		
				الذكور	الإناث	المجموع
كيفه	6	65	120	1900	2038	3938
كنكوصة	1	4	8	151	100	251
باركيول	2	9	17	96	107	203
كرو	2	11	22	221	247	468
بومديد	1	19	31	556	396	952
المجموع	12	108	198	2924	2888	5 812

المصدر: ONS : ASSABA EN CHIFFRES 1995- 2007

يبدو من خلال الجدول الذي يستعرض توزيع مؤسسات التعليم الثانوي بولاية لعصابه خلال العام الدراسي 2006-2007 أن أزيد من 50% من هذه المؤسسات توجد في مقاطعة كيفه لوحدها، كما تضم نسبة 60.6% من الأساتذة ونسبة 67.75% من تلاميذ التعليم الثانوي بالولاية ترتفع فيها نسبة الإناث إلى 51.75% وهي أسباب لها ما يبررها بحكم أن هذه المقاطعة تمثل العاصمة المركزية للولاية، وتتواجد بها نسبة 90% تقريبا من الخدمات الإدارية والتجارية والتعليمية والصحية، ولذا فإن الإمكانيات المتاحة لساكنتها تتنافى كثيرا وتلك المتاحة لباقي المقاطعات الأخرى، ومن الطبيعي أن يكون لذلك انعكاس على واقع التعليم الثانوي، كما أنه من الطبيعي أن يرتفع عدد الإناث بهذه المؤسسات مقابل عدد الذكور الذين يستحوذ القطاع غير المهيكل على أعداد كبيرة منهم فيتحولون في وقت مبكر إلى جزء من اليد العاملة النشطة، بدافع ضرورة المساهمة في إعالة

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الأسر، وخصوصا بالنسبة لمن ينحدرون من أسر فقيرة أو متفككة اجتماعيا تؤثر ذلك التوجه وتسهم في إذكائه، ولعل ظاهرة انتشار الأطفال في السوق التجاري "النقطة الساخنة" بمدينة كيفه يشتررون و يبيعون مواد خفيفة الوزن والأثمان، وانتشارهم كذلك على ظهور عربات الحمير لتوزيع المياه أو نقل الأفراد والبضائع أكبر دليل على ذلك.

من جهة أخرى يلاحظ من خلال الجدول أن متوسط عدد التلاميذ لكل أستاذ كأحد المؤشرات المترجمة لفاعلية التحصيل الدراسي يبلغ على مستوى الولاية 29 تلميذا، وهو معدل منخفض مقارنة مع أهداف الخطة العشرية (2001-2010) التي كانت تريد له أن ينخفض على المستوى الوطني إلى 36 تلميذا في السلك الأول من التعليم الثانوي (التعليم الإعدادي)، و 31 تلميذا في السلك الثاني¹ (التعليم الثانوي)، وبالتالي فإن مشكل نقص الأساتذة الذي يطرح للبعض من مناطق التراب الوطني لا تتأثر به ولاية لعصابه، فمتوسط عدد التلاميذ للأستاذ يظل في حدود 30 تلميذا على مستوى ثلاث مقاطعات هي كيفه وكنكوصة وبومديد، في حين أنه ينخفض إلى 21 تلميذا في مقاطعة كرو، ولا يتجاوز 12 تلميذا في مقاطعة باركيول، إلا أنه إذا كانت نسبة التلاميذ إلى الأساتذة لا تبدو مرتفعة فإن الأمر على النقيض من ذلك عندما يتعلق الأمر بعدد التلاميذ للقسم أو الحجرة الذي يصل متوسطه 54 تلميذا على مستوى الولاية، ويرتفع إلى أزيد من 60 تلميذا بمقاطعات كيفه وكنكوصة، مما يعكس ارتفاع مستوى الاكتظاظ داخل الأقسام الدراسية.

2-2- أبرز التحديات التي تعوق التعليم الثانوي بولاية لعصابه:

زيادة على ما تم ذكره آنفا يواجه التعليم الثانوي بولاية لعصابه مجموعة من التحديات من أبرزها ما يلي:

أ- استمرار تأخر التمدرس في الأرياف: تعد مسألة التباين في معدلات التمدرس ما بين الوسط الريفي والحضري (12.8% و 53.5%²) على التوالي من أكبر التحديات التي لا تزال تواجه السياسة التعليمية في البلاد، وذلك لعدة أسباب من بينها تباعد الفوارق دائما بين الواقع والمتوقع، وتراكم

¹ - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة والفقر 2005، ص: 51.

² - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر 2011-2015، ص: 9.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أعداد المحرومين من الولوج إلى التمدرس مع مرور السنين، مما أدى إلى ارتفاع نسب الأمية في صفوف من يحظوا بالالتحاق بالمدارس. وعلى مستوى ولاية لعصابه يتجلى هذا البعد بوضوح؛ فعلى مستوى التعليم الأساسي تضم الولاية 925 قرية ولا يوجد بها سوى 459 مدرسة، مما يعني حرمان الأطفال فيما مجموعه 466 قرية من الولوج إلى التعليم الأساسي، وعلى مستوى التعليم الثانوي تضم الولاية 21 بلدية ريفية ولا يوجد بها مجتمعة سوى أربعة اعداديات، تتركز في القرى الرئيسية لبلديات أغورط ولقران واحسي الطين وبولحراث، وهذا ما يعني وجود 17 بلدية ريفية لا تتوفر على أية بنية للتعليم الإعدادي والثانوي. وهو الأمر الذي أدى إلى تفشي ظاهرة الأمية فيما بين سكان الولاية وخصوصا أرياب الأسر ليكون ذلك سببا في عدم اكتراثهم بأهمية تمدرس الأبناء.

ب- استمرار اللامساواة بين الذكور والإناث: على الرغم من أن هذا الإشكال ظل يتصدر قائمة اهتمام الدولة في مجال التعليم بهدف تجاوزه والقضاء عليه، وكرست لذلك مجموعة من الجهود والبرامج منذ منتصف السبعينات، وحظي بالأولوية في الخطة العشرية للتعليم 2001-2010¹ فإن تحقيقه لا يزال أحد المبتغيات المفقودة وبالأخص في الأرياف والبوادي، مع أنه لا يمكن إنكار تزايد وتيرة التمدرس عند الإناث بشكل عام، لكنه بالمقابل لا يمكن إنكار أن هذه الوتيرة تصطدم بمعوقات مركبة، منها ما هو طبيعي يرتبط بضعف اهتمام الأسر الريفية بتعليم الفتيات، ثم الانسحاب المبكر عن المدرسة، ومنها ما هو موضوعي يتمثل في الظروف الصعبة للتمدرس نتيجة لضعف التغطية المدرسية، وتدني مردودية التعليم بسبب تزايد نسب التكرار والتسرب، وانخفاض نسب البقاء بالدراسة، فخلال العام الدراسي 2000-2001 كانت نسب التكرار في صفوف الإناث على المستوى الوطني تبلغ 36.2% مقابل 25% لدى الذكور، كما لوحظ أنه من أصل 1000 بنت يتم قبولها في السنة الأولى من التعليم الإعدادي تتجاوز منها 574 تلميذة فقط إلى المرحلة

¹ - RIM. Ministère de l'Éducation Nationale, Programme National de développement du Secteur Éducatif 2001-2010. Diagnostic et Stratégie. Tome I, 2001. p: 17.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

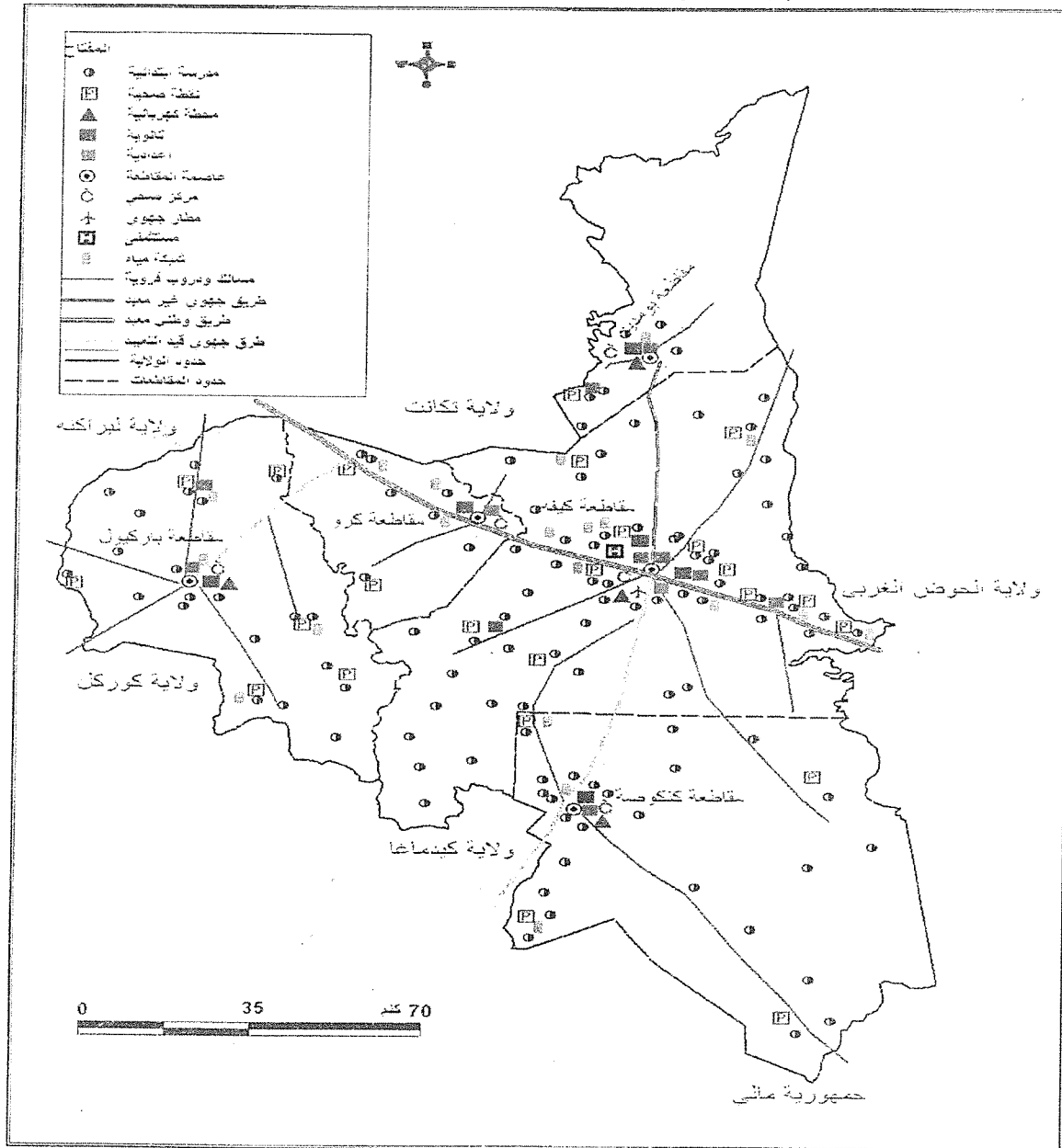
الثانوية، وتصل 441 من هذا العدد الأخير إلى السنة السادسة (النهائي)، ولا يحصل منها على شهادة البكالوريا سوى 73 تلميذة، مما يعني أن 927 تلميذة تصبح في عداد المتسربين بعد انقضاء تلك المرحلة¹. وتعتبر ولايات لعصابة وكوركل ولبراكنه وكيدماغا من أكثر ولايات البلاد تعرضا لظاهرة تسرب البنات، ففي سنة 1999 كانت نسبة نجاح الإناث في شهادة البكالوريا بولاية لعصابة لا تتجاوز 0.8% مقابل 15.9% بالسنة للذكور على مستوى الولاية و9.9% من الإناث على المستوى الوطني². وعموما يواجه تدرس البنات بالولاية جملة من المعوقات الاجتماعية والثقافية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الزواج المبكر، وعجز الكثير من الأسر عن توفير المستلزمات المدرسية لهن، إضافة إلى العجز عن تحمل الأعباء الأخرى كالنقل والمتابعة... إلخ، وغالبا ما تكون البنات هن أول من يتم التفكير من سحبهن من الدراسة، نظرا لأهمية الدور الذي يلعبه إلى جانب أمهاتهن في ترتيب شؤون البيت، لذا فإنهن قد يصبحن في وقت مبكر يتحملن جزءا كبيرا من هذا الترتيب قد يكون مبررا لدى البعض بتخليهن عن الدراسة. زد على ذلك أن البعض من الأسر التي لا تتوفر بمكان إقامتها مؤسسات للتعليم الثانوي لا تستطيع إرسال بناتها لتدرس عند الأقارب أو أيا كان، لأنهم يعتبرون أن في ذلك نوعا من التسيب والخروج عن السيطرة قد تترتب عنه نتائج وخيمة، وبالتالي فإن تزايد أعداد النساء الأميات أو النساء ضعيفات الاندماج يجد تفسيره في القيود والعقبات التي تقف أمام تعليمهن وهن في مقتبل العمر.

¹ - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة 2002، مرجع سبق ذكره، ص: 51.

² - نفس المرجع السابق، ص: 25.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الخريطة (2): توزيع البنيات التحتية الأساسية بولاية عصابه



المصدر: مختبر الدراسات والبحوث الجغرافية بجامعة انواكشوط.

الخلاصة وأهم التوصيات:

يستنتج من خلال وضعية البنى التحتية التعليمية بولاية لعصابه أن الدولة كانت حاضرة من خلال توفيرها لعدد مهم من التجهيزات التعليمية، لكن هذه التجهيزات بمختلف مستوياتها لا تزال عاجزة عن تغطية حاجيات المنطقة؛ فقطاع التعليم بها مازال يعاني من هشاشة البنيات وقلتها، وانعدام التجهيزات الضرورية، ثم نقص المدرسين وتغيب أغلبهم عن أماكن العمل، واكتظاظ الأقسام التربوية، وضعف مستويات التلاميذ، وتباين الفوارق فيما بين الجنسين، ثم انتشار ظاهرة التسرب المدرسي، وارتفاع مؤشرات الأمية في صفوف السكان على الرغم وجود برامج وطنية لمحاربة هذه الظاهرة. ومن أجل الرفع من واقع الخدمات التعليمية بالولاية اقترحنا مجموعة من التوصيات نستعرضها فيما يلي:

أ- تزويد كل القرى والأحياء بمدارس أساسية وثانوية مكتملة ومجهزة: تتوفر على الظروف الملائمة والمقبولة من أجل تعليم أفضل وذلك عبر ترميم الحجرات الدراسية القائمة، وبناء مدارس وحجرات جديدة لحل مشاكل الاكتظاظ، وتزويد المعلمين والأساتذة والتلاميذ بمختلف المعدات التربوية والتجهيزات المدرسية اللازمة هذا إضافة إلى الرفع من واقع التعليم الثانوي عبر التوزيع العادل لمؤسساته، وعلى ذكر ذلك يجب تزويد مختلف الإعداديات بمؤسسات ثانوية مكتملة لتمكين أبناء هذه القرى من استكمال دراستهم الثانوية مع ذويهم، دون أن ننسى إيلاء العناية اللازمة للتكوين المهني الذي يساهم في تهيئة الشباب للاندماج في الحياة النشطة، والبحث عن فرص الشغل بحظوظ وافرة.

ب - الرفع من مستوى التمدريس: يتوجب في نظرنا مضاعفة الجهود من أجل استقطاب جميع المتدربين عن طريق التوزيع العادل والمكتمل للبنية التربوية في جميع أطراف الولاية، وضمان تدرجهم الدراسي على نحو متواصل ومكامل بالنجاح على أوسع نطاق، للقضاء تدريجيا على الإنقطاع والفشل الدراسي والمتابعة المنقطعة أو الصورية للدراسة¹. ثم ضرورة توحيد الزي المدرسي على غرار ما هو في أغلب مؤسسات التعليم الأساسي في البلدان المجاورة لأن ذلك من شأنه أن يخفي بعض الفوارق فيما بين التلاميذ بحيث لا يشعر أبناء الأسر ضعيفة الدخل بالنقص والحرمان.

¹ - العربي وافي، أي تعليم لمغرب الغد؟ مطبعة النجاح الجديدة، منشورات مجلة علوم التربية 2005، ص: 140.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ج- تشجيع تـمدرس البنات:أشرنا من قبل أن تعليم البنات بولاية لعصابه يصطدم بالكثير من المعوقات نتحاشى سردها هنا مخافة التكرار، لكننا نؤكد على ضرورة تبني هذا الخيار الذي يمثل توجه مختلف بلدان العالم وخصوصا النامية منها، فخلال مؤتمر دكاكر المنعقد سنة 2000 أكد مدير صندوق الأمم المتحدة للسكان على حقيقة هامة قائلا " لقد أحرزت الدول التي استثمرت خلال الثلاثين سنة الماضية في تربية الفتيات باعتبارها أولوية تربوية، ومقاربة مندمجة في التنمية الاجتماعية نتائج ممتازة، حيث أظهرت كل هذه الدول نموا سكانيا محدودا، ونموا اقتصاديا سريعا، ومستوى مرتفع من التماسك الاجتماعي"¹.

د-محاربة الأمية ودعم التعليم المحظري: إن محاربة ظاهرة الأمية تعتبر اليوم ضرورة حتمية تستدعي توحيد جهود مختلف الفاعلين المعنيين نظرا لارتفاع معدلاتها بين سكان الولاية، وبالتالي يتطلب الأمر تكثيف فصول محو الأمية بشكل جدي في كل القرى والبلديات وتشجيع القائمين عليها ماديا ومعنويا، إضافة إعادة الاعتبار للتعليم المحظري (الكتاتيب) فقد تبين أن المناطق التي يتوفر فيها هذا النوع من التعليم كان أهلها من أقل ساكنة الولاية تأثرا بظاهرة الأمية.

¹ - نفس المرجع السابق، ص: 145.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قائمة المراجع:

- ❖ إسلام ولد محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، "الجزء الأول"، تاريخ وجغرافية موريتانيا، الطبعة الأولى-موريتانيا- 1994.
- ❖ بشيري ولد محمد الولاتي "جغرافية موريتانيا " الطبعة الأولى، موريتانيا 1993.
- ❖ العربي وافي، أي تعليم لمغرب الغد؟ مطبعة النجاح الجديدة، منشورات مجلة علوم التربية 2005.
- ❖ السالك ولد مولاي ولد احمد شريف "دور الماء في تنظيم المجال والتنمية بولاية لعصابة" بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 2000-2001.
- ❖ سيدي عبد الله المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا الثنائي الحرج، بحث لنيل شهادة الدكتوراه الدولة في الجغرافيا، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 1996-1997.
- ✓ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستدامة لسنوات 2002-2005.
- ✓ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر لسنوات 2006-2010-2011-2015.
- ✓ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، البرنامج الجهوي لمحاربة الفقر بولاية لعصابة 2009.
- OULD SALEH Taher Moustapha, *Crise du Monde Rural et Sédentarisation en Mauritanie Sahélienne : Exemple de la Région de l'ASSABA*, Nouakchott du 23 au 25 Février 1989.
- RIM. Ministère de l'Education Nationale, *Programme National de développement du Secteur Éducatif 2001-2010*. Diagnostic et Stratégie. Tome1, 2001.
- RIM. Ministère de Affaire Economique et de développement, *Programme Régional de lutte Contre la Pauvreté*, wilaya de LASSABA, Août. 2004.
- RIM. Ministère des Affaires Economiques et du développement, Office Nationale de la Statistique, *Profil de la Pauvreté en Mauritanie*, Septembre 2008

التمدد المجالي لمدينة نواكشوط أسبابه ونتائجه

كواد ولد سيدي

باحث في الجغرافيا

المقدمة:

أنشئت مدينة نواكشوط عام 1957 لاعتبارات سياسية محضة، لينتقل مجالها من منطقة مهجورة وقرية معزولة خلال النصف الأول من القرن الماضي إلى أكبر مدينة في موريتانيا وأهمها من النواحي الديمغرافية والسياسية والاقتصادية والخدمية في النصف الثاني من القرن نفسه، وهو ما جعلها جديرة بالدراسة من جوانب جغرافية عديدة، إذ بلغ عدد سكانها 958399 نسمة حسب تعداد 2013، وتمتد مجاليا على مساحة تقدر ب 204 كلم². يتناول هذا البحث التمدد المجالي في مدينة نواكشوط أسبابه ومظاهره.

وقد حظي التمدد المجالي للمدن باهتمام كثير من الجغرافيين والمخططين وغيرهم باعتباره محصلة موضوعية لمجموعة من التحولات وفي مقدمتها التزايد السكاني وما قد يترتب على تلك التحولات من مشكلات حضرية كضعف التغطية بالخدمات وهدر الوقت بين أماكن السكن ومركز المدينة فيما يعرف بمشكلة الوصول، ومدى قدرة المدينة على توفير فرص العمل، ومشكلات البيئة وغيرها.

أهداف البحث:

يتتبع هذا البحث ظاهرة التمدد العمراني لمدينة نواكشوط والعوامل الجغرافية المؤثرة فيه سواء كانت محفزة له كالطرق والخدمات وتزايد حجم السكان وهي عوامل بشرية والسهول والمناطق المرتفعة نسبيا كعوامل طبيعية، أم كانت تلك العوامل معيقة لتمدد المدينة كالكتبان الرملية والسباح الملحية كعوامل طبيعية، والحيازات العقارية وسياسات التهينة الحضرية وغيرها كعوامل أعاققت تمدد المدينة في بعض الاتجاهات، كما يهدف هذا البحث إلى معرفة الآثار المترتبة عن تمدد مدينة نواكشوط مجاليا بغية وضع تصور للحلول المناسبة لتلك المشكلات.

منهجية البحث:

اعتمد الباحث على المنهج التحليلي السببي للوقوف على العوامل المؤثرة في التمدد العمراني لمدينة نواكشوط، كما اعتمد على المنهج الوصفي والمنهج التاريخي لتتبع العلاقة بين العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية التي أدت إلى تمدد مدينة نواكشوط وفق المسارات الحالية بالتحديد والمآلات التي قد تؤول إليها في المستقبل المنظور.

أولاً-نشأة المدينة وتمدها المجالي:

يمكن التطرق لنشأة المدينة وتطورها العمراني قبل تناول واقعها الراهن لإدراك أهمية التحول الذي طرأ عليها في فترة تزيد عن نصف قرن من الزمن (1957-2016).

1- نشأة المدينة:

جاء إنشاء مدينة نواكشوط كإحدى بواكير ثمار جهود المقاومة الموريتانية على طريق إنشاء دولة مستقلة تدار من داخل الأراضي الموريتانية لا من السنغال، ودون التطرق إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بإنشاء مدينة نواكشوط يظهر أن مطالب الموريتانيين لاقت تجاوباً بل رغبة الفرنسيين التي تمثلت في المصادقة على طلب الموريتانيين بتاريخ 12 يوليو/تموز 1956 بنقل العاصمة إلى الأراضي الموريتانية، بدل مدينة سنلوي السنغالية عاصمة المستعمرات الفرنسية في إفريقيا الغربية، فوافقت الحكومة الفرنسية على هذا الطلب الذي قدم كإقتراح من الوالي الفرنسي على الإقليم الموريتاني، وذلك في 24 يوليو/تموز 1957، بعد أن نال الاقتراح ثقة الجمعية الإقليمية في 19 يناير/كانون الثاني 1957 لتولد مدينة نواكشوط عاصمة موريتانيا من رحم القرارات السياسية.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الصورة رقم (1) قام وزير فرنسا لأقاليم ما وراء البحار بوضع حجر الأساس 1958.

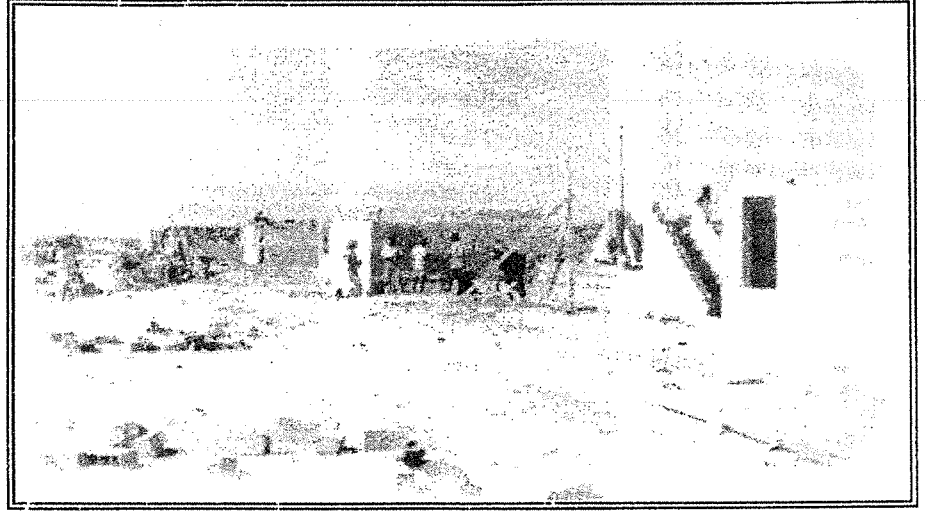


تم وضع حجر الأساس في 5 مارس/آذار 1958 من قبل وزير فرنسا لأقاليم ما وراء البحار⁽¹⁾ في موضع القصر الرئاسي في قلب المدينة حالياً، وأتبع هذا القرار بدراسات لمهندسين قدموا نماذج ومخططات لمدينة صغيرة تقوم بدور العاصمة السياسية والإدارية، وخصصت فرنسا مبلغاً مالياً زهيداً قدره (1500 مليون فرنك إفريقي) لبناء المدينة التي افترضوا أن عدد سكانها لن يتجاوز 8000 نسمة سنة 1970 و30000 نسمة سنة 2000. وفي أكتوبر/تشرين الأول سنة 1959 انطلقت أعمال البناء وتشديد المباني العامة والمرافق الخدمية تحضيراً للاستقلال في 28 نوفمبر/تشرين الثاني 1960 ولكن ما هي دواعي اختيار هذا الموقع؟

⁽¹⁾ ولد المحبوب سيّد عبد الله، الهجرات الداخلية إلى مدينة نواكشوط، مرجع سابق، ص 7.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الصورة رقم (2) أعمال بناء العاصمة نواكشوط 1960.



اقترح الموريتانيون على الفرنسيين أماكن عدة في موريتانيا يمكن أن تلعب دور العاصمة السياسية للإقليم الموريتاني، فاختار الفرنسيون من بينها موقع نواكشوط بدافع سياسي يهدف إلى إبقاء عرى الترابط بين البلدين وثيقة لتحقيق مصالح فرنسا السياسية والاقتصادية في موريتانيا عبر الموانئ البحرية، كما كان دأب الدول الاستعمارية في اختيار عواصم مستعمراتها⁽¹⁾، ورأى الموريتانيون في موقع نواكشوط موقعاً استراتيجياً يحقق الوحدة الوطنية ويتوسط أقاليم موريتانيا الاقتصادية والبشرية وذلك من خلال النقاط الإيجابية التالية⁽²⁾:

- 1- يحتل هذا الموقع نقطة وسطية على سواحل موريتانيا بين مصب نهر السنغال جنوباً ومدينة انواذيبو شمالاً، ولا يبعد عن الشاطئ سوى خمسة كيلومترات مستقيماً من الصيد والنقل البحريين ومن نسيم البحر لتلطيف مناخه الحار.
- 2- يقع على أهم طريق يربط شمال البلاد؛ حيث المناجم في (الزويرات واكجوجت وانواذيبو) بجنوبها الرعوي الزراعي.

⁽¹⁾ بوجي جارنييه، جاكليين، دراسات في جغرافية العمران الحضري، مرجع سابق، ص 163.

⁽²⁾ Frérot Marie Anne et Ould Mahboubi Sidi Abdoullah, "Du Parcours à la Ville : l'Imprévu" in Espaces et sociétés en Mauritanie, cahier d'URBMA; N° 33, Tours 1998, P : 35.

3- يحتل موقعاً وسطاً بين منطقة النهر التي يقطنها الزنوج والمناطق الشمالية والوسطى؛ حيث ينتشر العرب، ويكاد هذا الموقع يكون محايداً لنفوذ القبائل والإمارات الموريتانية القديمة، ويخرج في الوقت نفسه عن تأثير نفوذ المدن السنغالية، كما يبعد عن تأثير المغرب الذي كان يطمع في ضم الإقليم الموريتاني إلى أراضيه، فهو موقع محايد سياسياً وإثنيّاً يستطيع توحيد جميع المكونات الإثنية للدولة الموريتانية الجديدة (بيضان، هالبولار، سنونكي، وولوف، بمباري) وقد أصبح بوتقة للأمة الموريتانية.

2 - التمدد المجالي لمراحله واتجاهاته:

آ- نواكشوط قبل انطلاق أعمال البناء 1958:

ظلت نواكشوط ردياً من الزمن مكاناً قفراً يخلو من كل مظاهر العمران البشري سوى بئر حفرت قبائل البدو الرحل في تاريخ غير معروف على وجه التحديد، وفي سنة 1903 حط القائد الفرنسي المشهور "أفرابي كبولاني" الرحال بهذا المكان عندما كان يقوم برحلات استطلاعية في الأراضي الموريتانية التي أضحت حاجزاً بين مستعمرات فرنسا في غرب إفريقيا وشمالها الغربي، وكان موقع نواكشوط المرتفع ووقعها على الطريق الواصل بين السنغال والجزائر إستراتيجياً لإقامة حامية عسكرية في نظر القائد الفرنسي، فصدر تعليماته بإنشائها وتم ذلك في نهاية سنة 1903، لكنها ما لبثت أن نقلت إلى مكان آخر إلى الجنوب نظراً لمتطلبات الأمن ثم أعيد بناؤها من جديد سنة 1929 وبدأت أسر بدوية تتجمع حولها مشكلة بداية لنشأة قرية لكصر. وفي منتصف ثلاثينيات القرن العشرين اتخذ الناقلون عبر الطريق المذكور من هذه القرية محطة توقف واستراحة، وفي سنة 1950 دمرت فيضانات نهر السنغال قرية لكصر ليعاد بناؤها بدعم من الإدارة الفرنسية وبعد ذلك بخمس سنوات 1957 بدأت المشاورات لإنشاء عاصمة للإقليم الموريتاني فوق الاختيار على نواكشوط. بعد الاجتماع الأول للحكومة الموريتانية تحت خيمة سنة 1957 تعبيراً دقيقاً عن قلة العمران بهذا الموقع، وهو أمر لا يمكن تصديقه اليوم نظراً لاتساع البون بين حالة المدينة آنذاك وواقعها الحالي.

أ- تمدد مدينة نواكشوط منذ عام 1958 - 2012م

يرجع التمدد المجالي الذي شهدته مدينة نواكشوط إلى الوظائف السياسية والإدارية التي أنشئت من أجلها، وكانت الاستعدادات المحضرة لنقل العاصمة الموريتانية من السنغال إلى نواكشوط بمثابة البداية لهذا التمدد، وبدأت أعمال بناء المدينة الوليدة على بعد كيلومترين تقريباً إلى الجنوب من

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

القلعة الفرنسية القديمة وقرية لكصر، ولبناء المدينة تم اختيار "كثبان" "أمكرز" الثابتة آنذاك، واستبعدت المناطق الواطئة والكثبان الشاطئية⁽¹⁾ وبذلك دخلت نواكشوط منعطفًا جديدًا جعل منها ورشة للبناء والأشغال في جميع المجالات مثل الإدارة والإسكان والطرق وغيرها. ولم تكن المدينة تنهي وضع المرتكزات والدعائم الضرورية لتأدية وظائفها القيادية حتى غمرت بسيل المهاجرين من البادية والريف الذين قدموا فرارًا من جفاف أتى على الأخضر واليابس فتزايد سكانها تزايدًا مذهلاً وتطورت وظائفها واتسعت رقعتها المبنية "من 240 هكتار سنة 1960 إلى 660 هكتار سنة 1970 لتبلغ 3100 هكتار سنة 1980 وقد وصلت عام 1994 إلى حوالي 10000 هكتار⁽²⁾ وهو ما دفع السلطات الإدارية إلى تعديل حدود المدينة سنة 1980 لتصبح 1325 كلم² بدل 66 كلم² سنة 1950 وقسمت تلك المساحة إلى خمس مقاطعات (أحياء) حضرية سنة 1974 ولكن استمرار معدلات النمو السكاني المرتفعة وتطور الأنشطة والوظائف الاقتصادية بالمدينة أجبرت السلطات على إنشاء أربعة أحياء حضرية جديدة سنة 1989 وبذلك تكون المدينة مقسمة إلى تسعة أحياء حضرية⁽³⁾، ومن مقارنة الخرائط والصور الجوية لمدينة نواكشوط في تواريخ مختلفة يمكن تقسيم التمدد المجالي للمدينة إلى ثلاث مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: تأسيس المدينة العاصمة (1958-1973):

نتج عن بناء العاصمة الجديدة على بعد 2 كلم إلى الجنوب الغربي من حي لكصر القديم وجود نواتين أو حيين منفصلين يربطهما شارع رئيسي يقسم الحي الجديد (حي العاصمة المعروف بـ «كابيتال capitale») شطرين فعلى يمينه شيدت الوزارات والقصر الرئاسي وغيرها من الإدارات المرتبطة بالقيادة وكذلك سكن الطبقة الراقية، بينما خصص الشطر الآخر لإقامة سوق إلى جانب سكن الطبقة المتوسطة وبعض الخدمات كالتعليم، وذلك وفق المخطط الحضري الأول الذي أعد لبناء العاصمة سنة 1957. وفي السنوات التالية أخذ التمدد المجالي يلتهم المساحة الفاصلة بين الحيين دون التحامهما، وبدأت مرحلة جديدة من النمو العمراني على أطرافهما وبخاصة الحي

⁽¹⁾ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، مرجع سابق، اللوحة 7.

⁽²⁾ المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

⁽³⁾ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، مرجع سابق، اللوحة 7.

الجديد (كابيتال) لاسيما طرفه الجنوبي؛ حيث شيد الحي السكني المعروف بـ (مدينة) والشمال الغربي الذي أصبح فيما بعد نواة حي تفرغ زينه، وكان التوسع على مستوى حي لكصر القديم الذي تحاصره التلال من الشمال الغربي والمطار من الجنوب الشرقي ضعيفاً إلا أن تزايد السكان وتطور وظائف المدينة في منتصف الستينيات أدّى إلى تمدد المدينة على أطراف المطار، وأخرجها المدينة عن إطارها القانوني، فلجأت السلطات المعنية إلى وضع ثاني مخطط توجيهي في تاريخ المدينة سنة 1970 الذي يهدف إلى تنظيم تمدد المدينة وتنمية ودمج أربع نويات كانت قد تبلورت في العقد الأول من عمرها، وهي حي العاصمة وحي لكصر والمرافأ على شاطئ الأطلس وقرية الصيادين "ويعود الفضل في بقاء مركز "لكصر" التاريخي الذي نافسه بقوة إنشاء حي "العاصمة" الجديد إلى مجاورته للمطار ولمواقف سيارات نقل الأشخاص إلى كافة الولايات واحتوائه على السجن، وقد خصص تخطيط حي "العاصمة" مساحات لإقامة وظائف جديدة تمتد على طول الطرق الفسيحة، فالقصر الرئاسي ووزارات السيادة ترسم منظراً كجادة كبيرة شمالية جنوبية تقضي إلى شارع جمال عبد الناصر وهو الطريق الرئيس الذي يربط "لكصر" والمطار بالمجمع الحضري الجديد"⁽¹⁾.

تميزت هذه المرحلة من تمدد المدينة بالاعتدال نظراً لاعتدال النمو السكاني ولكن أهميتها تكمن في تشييد المباني والمؤسسات التي تحتاجها العاصمة للقيام بوظائفها على الوجه الأكمل ففي بدايتها تم توصيل المياه من بحيرة إديني 56 كلم شرق العاصمة، ومد شبكة من الطرق طولها 50 كلم، إذ تم الانتهاء من معظم الأشغال الضرورية لوظائف المدينة العاصمة كما بدأت ظاهرة السكن العشوائي تتفاقم مع قدوم المهاجرين الريفيين الأول، وفي سنة 1968 أعطيت مدينة نواكشوط صفة الولاية بعد أن كانت بلدية حضرية منذ سنة 1963م، كما تم وضع ثاني مخطط توجيهي للمدينة سنة 1970 وقد بلغت مساحتها بموجب هذا المخطط 536 كلم² بدلاً من 66 كلم²؛ أي أن مساحة المدينة تضاعفت خلال العقد الأول من حياتها أكثر من ثمان مرات، وفي 1973 قسمت المدينة إلى خمسة أحياء حضرية تحمل أسماء عديدة هي: الحي الأول والثاني والثالث والرابع والخامس نتيجة توسع

⁽¹⁾ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، مرجع سابق، اللوحة 7.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المدينة، وإن ظلت مقسمة إلى كتلتين رئيسيتين منفصلتين هما حي لكصر وحي العاصمة رغم تناقص المساحة بينهما وتوسعهما باتجاه بعضهما بعضاً⁽¹⁾.

المرحلة الثانية: مدينة نواكشوط قبله للمهاجرين (1974-1990):

تعد هذه المرحلة من أهم مراحل التمدد المجالي الذي عرفته المدينة بشقيه المنظم والفوضوي، فهي توافق مرحلة اشتداد الهجرة الداخلية إلى مدينة نواكشوط؛ حيث وفد إليها آلاف السكان من مختلف أنحاء موريتانيا، ولم تفلح محاولة الدولة توفير القطع الأرضية المخططة لهم فقد وزعت 7500 قطعة أرض مجاناً في الحيين الأول والخامس (تيارت والسبخة) على المهاجرين ومع ذلك اضطر الكثير منهم لإنشاء مساكن غير نظامية مشكلين أحزمة من العشش حول المدينة التي تمددت تمداً مشوهاً جعل السلطات الإدارية تقوم بوضع ثالث مخطط حضري لمدينة نواكشوط سنة 1982 زاد مساحة المدينة الإدارية إلى 1300 كلم² فتضاعفت مساحتها بذلك أكثر من مرتين عما كانت عليه سنة 1970 وحوالي عشرين مرة عما كانت عليه سنة 1960، وذلك بإدخال أراضي جديدة من جميع الجهات في حدود المدينة.

ظهرت أحياء فوضوية على هوامش المدينة كحي "توجنين" الذي ظهر إلى الشرق من المدينة على بعد ثمانية كيلومترات وتم ضمه إلى المدينة سنة 1981 بعد أن كان تابعاً لمركز أبي تليميت الحضري ويحيل هذا الحدث لظاهرة حضرية ميزت توسع المراكز الحضرية في القرن العشرين وهي ضم التجمعات والمراكز العمرانية القريبة والتهام الأراضي الزراعية المجاورة. وفي سنة 1981 التحمت الكتلتان العمرانيتان (لكصر والعاصمة) بشكل كامل في نقطة تعد أقرب إلى حي العاصمة الجديدة⁽²⁾. صدر مرسوم سنة 1990 يحدد ويعيد تقسيم المدينة إلى تسعة أحياء حضرية⁽³⁾ هي: (1) حي تيارت إلى الشمال من الحي القديم لكصر (2) حي لكصر (3) تفرغ زينه (4) توجنين شرق المدينة (5) حي السبخة إلى الجنوب الغربي من المدينة (6) حي الميناء جنوب غرب حي السبخة وهو أقرب أحياء المدينة للمحيط الأطلسي.

¹⁾ Frérot Marie et Ould Mahboubi Sidi Abdoullah, "Du Parcours à la Ville : l'Imprévu", Op.Cit, P 38.

²⁾ Ibid, P. 36.

³⁾ وزارة الثقافة والشباب والرياضة بالتعاون، نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاماً من التحدي، مرجع سابق، ص 136.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ولا يمكن إرجاع النمو العمراني لمدينة نواكشوط إلى الرفاه الاقتصادي ولا إلى تسهيلات الهيئات المالية ومؤسسات الإسكان بالمدينة لتعميرها، ذلك أن مثل هذه العوامل لم تلعب في تمدد المدينة سوى دور محدود، فقليلة هي البنوك التي وفرت قروضاً للإسكان كما أن بعض المبادرات التي ظهرت في هذا المجال سواء من قبل المنظمات غير الحكومية أو من طرف الدولة لم يكن لها تأثير كبير في توفير السكن والمرافق العامة.

استمرت الهجرة الداخلية إلى مدينة نواكشوط في الوقت الذي استهلك فيه التمدد المجالي جميع الأراضي القريبة من مركز المدينة وأحيائها القديمة وبدأ عمرانها يزحف إلى الخارج على الأراضي القريبة من الشوارع الرئيسية وبالتحديد تلك التي تربط المدينة بالداخل مما حتم على السلطات الإدارية إنشاء ثلاثة أحياء حضرية جديدة وهي أحياء (دار النعيم وعرفات والرياض) وبذلك أصبحت مدينة نواكشوط مقسمة إدارياً إلى تسعة أحياء حضرية بعد أن انتهت آخر مرحلة من تقطيعها الإداري دون أن يتوقف نموها السكاني أو تمددها المجالي.

المرحلة الثالثة: تنظيم المدينة ومواجهة التحديات (1991-2015):

خفت في هذه المرحلة معدلات النمو السكاني بالمدينة لتراجع إسهام الهجرة الداخلية إليها، لكن الزحف العمراني تواصل على أحياء دار النعيم وعرفات والرياض وهي الأحياء الجديدة، وكذلك الأحياء الطرفية كحي تيارت وتفرغ زينه والميناء، وذلك لقوة الجاذبية التي مارسها الطرق المتجهة نحو الداخل بالنسبة لأحياء تيارت وتفرغ زينه ولأهمية الأنشطة الاقتصادية لاسيما الصناعة والنقل في حالة حي الميناء. وإجمالاً لا يزال تمدد المدينة مستمراً جراء تزايد سكانها وتطور وظائفها وخدماتها حتى اليوم؛ إذ لا زالت أشغال البناء والتعمير تتشط على أطراف المدينة في حين يشهد مركزها بعض عمليات التبدل لإحلال العمارات الشاهقة والأساليب الحديثة محل الأبنية القديمة المؤلفة من طابق أو طابقين وبعض المباني التي فضل أصحابها إعادة بذائها وفق معايير جديدة.

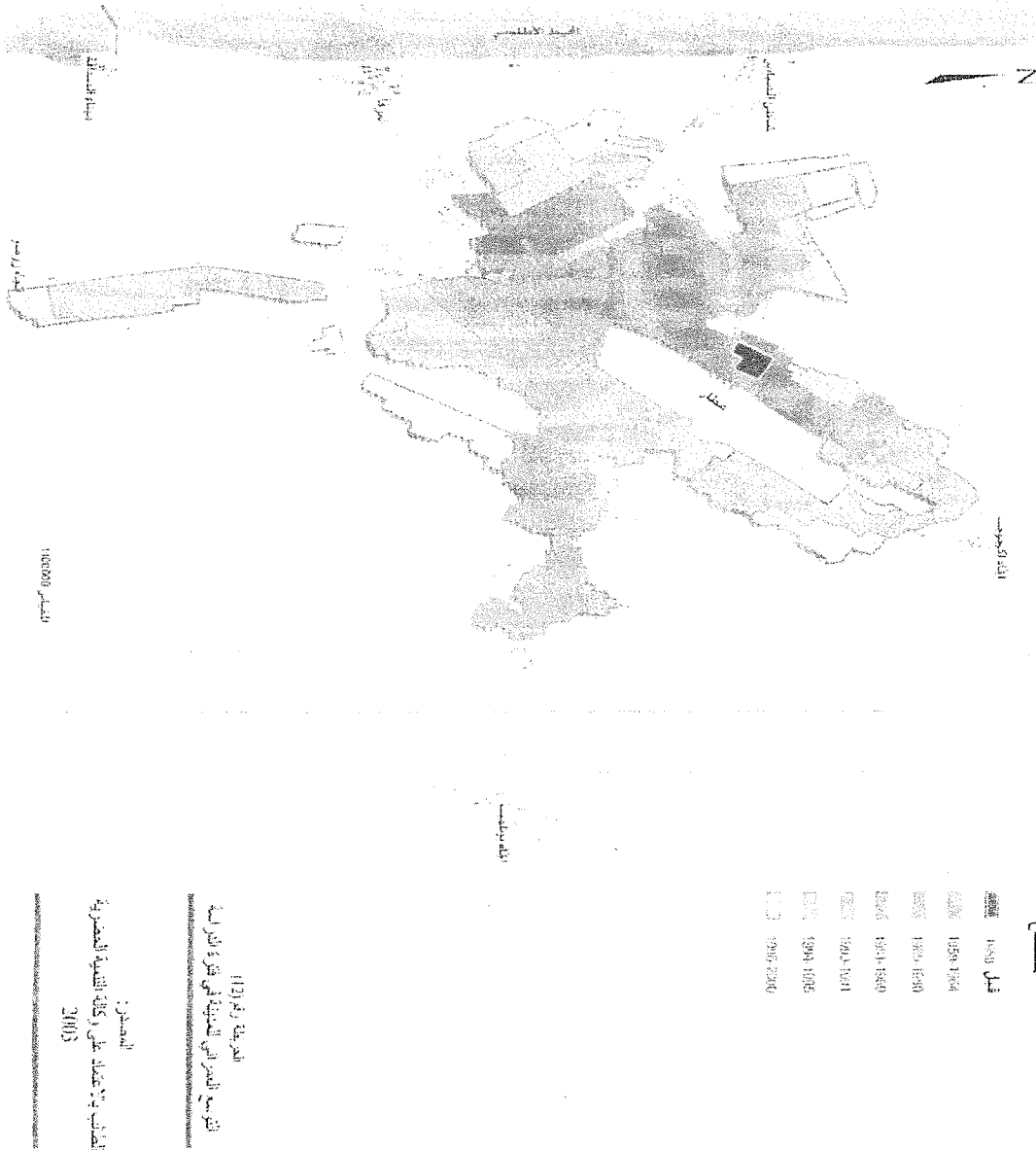
بدأت السلطات الإدارية في هذه الفترة تترك حجم المشكلات التي تعاني منها المدينة لذا قامت بالعديد من الدراسات كان من أهم نتائجها إنشاء المجموعة الحضرية لمدينة نواكشوط سنة 2001 وهي مؤسسة تعنى بالإشراف على تسع بلديات قسمت إليها المدينة بعد أن كانت بلدية حضرية واحدة منذ 1986، ويهدف هذا الإجراء إلى تسهيل العمل المشترك وتنسيقه بين البلديات الأعضاء

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

من جهة، وبينها وبين بقية المتدخلين في مختلف المجالات الحضرية بالمدينة من جهة أخرى، كما أنشئت وكالة للتتمة الحضرية سنة 2001 وعهد إليها بالعديد من المهام كتحسين مستوى معيشة السكان وتخطيط النمو العمراني للمدينة ومراقبته، وذلك لتحقيق تنمية حضرية واقتصادية واجتماعية متوازنة، وذلك بتشديد الطرق والأحياء السكنية والتخلص من السكن العشوائي وغيرها من عمليات التخطيط والإعمار التي تجعل من رفاهية السكان وإسعادهم أهدافاً إستراتيجية لها وكان من أهم أعمالها المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط الذي أصدرته الوكالة سنة 2003 وهو المخطط السادس والأخير لمدينة نواكشوط.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الخريطة رقم (1): مراحل تمدد مدينة نواكشوط



ج- اتجاهات التمدد المجالي لمدينة نواكشوط:

أخذ تمدد المدينة أساليب وأنماط عدة أملت فيها طبوغرافية المكان ومعدلات النمو السكاني المتسارع، إضافة إلى المستويات الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء السكان والسياسات الحكومية المختلفة، فقد

حواليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ظهر تأثير هذه العوامل وغيرها بنسب متفاوتة حسب مراحل التمدد المجالي وظروفه، مما جعل اتجاهات هذا النمو تتباين من فترة لأخرى، فعند تأسيس المدينة كان التمدد المجالي باتجاه سد الفراغ الذي يفصل المدينة الجديدة عن النواة القديمة، وفي الوقت نفسه كانت كتلة كل من الحيين تنمو نمواً مضطرباً في جميع الاتجاهات مع طغيان النمو على المحور الواصل بينهما والمتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

أثرت العوامل البشرية في تحديد اتجاهات النمو العمراني بمدينة نواكشوط وبأباني النمو السكاني المطرد في مقدمة هذه العوامل فقد اشتدت الهجرة الداخلية إلى المدينة في العقدين السابع والثامن من القرن العشرين لتبدأ مرحلة جديدة من تمددها فخرجت عن ثنائي لكصر - العاصمة، مما أدى إلى ظهور الأحياء العشوائية على أطراف المدينة، و"مع مطلع الثمانينيات بدأت محاور النمو تتخذ اتجاهات جديدة ممتدة على طول محاور الطرق الرئيسية بادئة بالاتجاه الشرقي (تتسولم وتوجنين) مع بناء طريق الأمل، ثم نحو الجنوب إلى الشرق من طريق روصو"⁽¹⁾ مشكلة أحياء عرفات والرياض، ثم المحور الشمالي الشرقي (أحياء دار النعيم، تيارت)، كما أن الطريق الذي تم الانتهاء منه مؤخراً والمنطلق باتجاه مدينة نواذيبو أخذ يشهد نشاطاً عمرانياً على طرف المدينة الشمالي الغربي. وإلى جانب النمو السكاني ومحاور الطرق ساهمت السياسات الحكومية في تمدد المدينة بطرق مباشرة وغير مباشرة؛ إذ شجعت الحكومات بعض سكان المناطق الداخلية على الهجرة إلى نواكشوط والاستقرار فيها واتخذ هذا التشجيع طوقاً عدة منها إغراء المهاجرين بالمعونات كمنح قطع الأراضي للبناء والسكن وتوزيع المساعدات الغذائية لاسيما بعد الجفاف الذي حصل في السبعينيات من القرن العشرين، ومن الطرق غير المباشرة حرص الدولة على بناء عاصمتها وذلك بتخصيص قسط وافر من الاستثمارات للعاصمة. وفي ظل إمكانات مالية وفنية محدودة اقتصر تلك الاستثمارات أساساً على البنى التحتية والخدمات الحضرية الأكثر إلحاحاً في حين حرمت بقية المدن والأرياف من مثل تلك الاستثمارات، مما أدى إلى تدفق المهاجرين على مدينة نواكشوط، ومما لا شك فيه أن الأنشطة الاقتصادية والخدمات قد أسهمت هي الأخرى في توجيه النمو المجالي للمدينة من خلال حاجتها للأراضي وتنافسها على المواقع المناسبة.

⁽¹⁾ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، مرجع سابق، اللوحة 7.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يظهر تأثير العوامل الطبيعية في تمدد مدينة نواكشوط وفي شكلها الخارجي من خلال تأثير طبوغرافية الموضع الذي أقيمت عليه المدينة؛ حيث حاصرتها الكثبان الرملية من جهات الشمال والشمال الشرقي والجنوب الشرقي وحالت صعوبة حفر الأساسات فوق الكثبان والترتبة الرملية وزحف الرمال الدائم على منشآت المدينة دون التمدد في تلك الجهات وفي المقابل شكلت مناطق السباح في جهات الغرب والجنوب الغربي محدداً طبيعياً آخر لتوسع رقعة المدينة؛ إذ ترتفع نسبة الملوحة بتلك السباح مما يؤدي لتآكل المباني، كما أن انخفاض مستواها عن مستوى سطح البحر وغمرها بمياه الأمطار يحول جزءاً مهماً منها إلى مستنقعات للمياه الراكدة، ويبقى احتمال اجتياح فيضانات نهر السنغال أو غمر المحيط الأطلسي لهذه الجهة من المدينة خطراً كبيراً، وقد أدى نقص الأراضي أو بالأحرى احتكارها إلى استخدام مناطق مرتفعة نسبياً فوق الكثبان الرملية وأخرى تتخفف عن مستوى سطح البحر. ولم يلتزم التمدد المجالي بالمخطط الحضري الأول ولا بالمخططات اللاحقة له والتي جاءت أكثر تفهماً لواقع ومستقبل نمو المدينة الديمغرافي والعمراني، وهكذا تمددت المدينة تمداً هستيرياً حتى أصبحت على مشارف مكبات النفايات التي تشكل تلالاً من القمامة تجمعت على مدى عقود من الزمن مثل ما هي الحال عند المدخل الشمالي الغربي للمدينة (طريق نواذيبو) وأطراف مقاطعة الميناء. وتمتد مساحة المدينة المبنية اليوم على أكثر من 79 كم² ويبلغ طولها من الجنوب إلى الشمال 18 كلم متر وعرضها من الشرق إلى الغرب 14 كلم. تحدد هذه العوامل الطبيعية والبشرية الشكل النهائي للمدينة التي لا تزال تشهد تمداً مستمراً على أطرافها الجنوبية والجنوبية الشرقية ضمن أحياء الرياض وعرفات وعلى الأراضي الفضاء التي تفصل بينهما والشيء نفسه تشهده الناحية الشمالية الغربية من المدينة أيضاً.

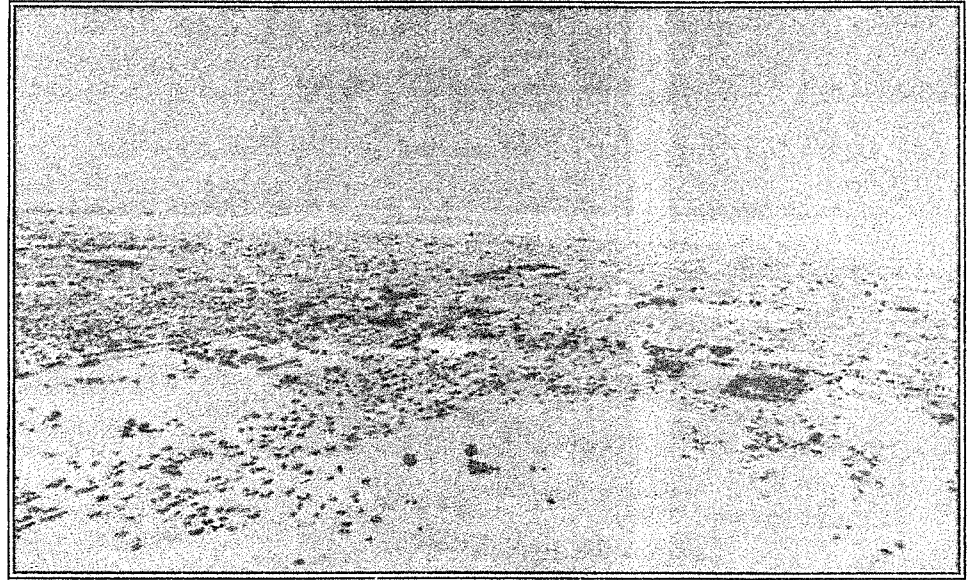
تمثل العوائق الطبيعية (الكثبان الرملية، والسباح) والبشرية (كالنقل بما فيه المطار، الطرق البرية والشبكات العسكرية وكذلك الاستخدام الزراعي) فراغات ملاصقة للاستخدامات الحضرية الأخرى من سكن وغيره ويعطي هذا الثنائي للمدينة شكلها العام الذي "يتحدد بناء على العلاقة بين الكتلة والفراغ"⁽¹⁾ وبذلك تكون الخصائص الطبوغرافية لموضع المدينة ومحاور الطرق واختيارات إقامة

⁽¹⁾ أحمد الشريعي، الدراسة الميدانية أسس وتطبيقات، مرجع سابق، ص 511.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

البنى الأساسية (المطار والمنشآت العسكرية)، أضفت على المدينة الشكل النجمي ذي الفروع الخمسة والامتداد غير المتساوي مع وجود اختلاف قوي في الاتجاه من الشرق إلى الغرب⁽¹⁾. يمكن القول إجمالاً إن مدينة نواكشوط لا تتمدد لضرورة بقدر ما يأتي تمدها مرة بعد أخرى استجابة لجشع سيطرة الأراضي وسخاء الإدارة في توزيع القطع الأرضية والفوضى العارمة التي تحكم سوق المدينة العقاري وتخطيطها الحضري.

الصورة رقم (3) العمران المخالف كما يبدو من أعلى في ضواحي مدينة نواكشوط.



رابعاً-مشكلات التمدد المجالي لمدينة نواكشوط:

أصبحت مدينة نواكشوط تحوي نسبة كبيرة (27%) من سكان موريتانيا وهي تعيش نوعاً من العجز المتزايد عن تلبية حاجات سكانها إلى الخدمات من إسكان وصحة وتعليم ومياه وغيرها، فظلت مشكلاتها تزداد تعقداً وذلك رغم الجهود التي بذلتها الجهات المعنية وحظيت بدعم جهات عديدة وطنية ودولية كالبنك الدولي وغيره.

تتلخص مشكلات مدينة نواكشوط في انتشار السكن الفوضوي، ونقص مياه الشرب، وسوء صرف المياه العادمة، وازدحام السكان وقلة المساكن، وانتشار البطالة والفقر المدقع، كما تعاني المدينة

⁽¹⁾ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، مرجع سابق، اللوحة 7.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

سوء التسيير والتنظيم، وصعوبة إيقاف سيل المهاجرين المتدفق عليها يومياً من كل حذب وصوب فراراً من ظاهرة الجفاف⁽¹⁾، وإن كانت معدلات النمو السكاني قد تراجعت بسبب تراجع الهجرة الداخلية إلى المدينة إلا أن تلك المشكلات مازالت قائمة.

بلغ سكان الأحياء المخالفات السكنية في مدينة نواكشوط 271591 نسمة سنة 2000، أي أن نسبتهم تقارب 49% من سكان مدينة نواكشوط في تلك السنة يعيشون في الأحياء القصديرية، بينما بلغت مساحة تلك الأحياء 2454 هكتار بكثافة سكانية قدرها 111/هـ مع وجود اختلافات جوهرية بين الأحياء المذكورة.

تحتل مشكلة السكن مكانة أساسية في الوسط الحضري وحسب المسح الذي أجري للمساكن في عام 1998، تبين أنه يعيش أكثر من ربع سكان نواكشوط في مسكن رديء (خيمة، كوخ، أو خص)، وفي تلك الأحياء يحصل 18% من المساكن على الكهرباء وتستخدم قرابة 80% الخشب وفحم الخشب وقوداً، كما أن الظروف الصحية فيها سيئة جداً؛ إذ لا يستفيد ثلث الأسر بشكل مباشر من مياه الشرب، بينما يحصل عدد أقل من الثلث على خدمات صحية مناسبة (صرف المياه، دورة مياه)⁽²⁾. من أهم مشكلات التمدد المجالي بمدينة نواكشوط:

✓ تمددت مدينة نواكشوط تممداً مشوهاً وساد العمران العشوائي وما صاحب ذلك من ترد في الخدمات الحضرية.

✓ وجود المطار والثكنات العسكرية وسط المدينة.

✓ نقص الأراضي المخططة حيث قدرت حاجيات مدينة نواكشوط من الأراضي التي تجب تهيئتها من جديد والتي لم يشيد فيها أي شيء سابقاً بـ 550 هكتار خلال الفترة 2005-2010 وكان ذلك سنة 2000⁽³⁾.

⁽¹⁾ حليمي عبد القادر، التحضر في موريتانيا، مرجع سابق، ص 104.

⁽²⁾ وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، المفوضية المكلفة بحقوق الإنسان ومكافحة الفقر والدمج، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر 2001، مرجع سابق، ص 10.

⁽³⁾ وزارة التجهيز والنقل، إدارة الإسكان والتحضر، مخطط الإسكان والتحضر لعشر سنوات قادمة (2005-2015) ص 6.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- ✓ الارتباك الناجم عن كثرة المتدخلين في المدينة واختلاط أدوارهم وتداخلها بل وتناقضها في بعض الأحيان مما يعيق تقدم الإجراءات التي يعول عليها السكان في التخفيف من حدة معاناتهم.
 - ✓ تردي الخدمات المختلفة بل غيابها على مستوى بعض الأحياء، نقص السكن وارتفاع أسعار القطع الأرضية والإيجار نتيجة المضاربات العقارية.
 - ✓ تلوث بيئة المدينة الحضرية وشواطئها البحرية.
 - ✓ زحف الرمال على المنشآت الحضرية.
 - ✓ نقص الشوارع المعبدة والمزودة بإشارات المرور وأماكن الانتظار.
 - ✓ نقص الحدائق والمنترهات وأماكن الترفيه.
 - ✓ ارتفاع معدلات النمو السكاني وما ترتب عليه من تضخم المدينة التي تحتوي اليوم حوالي 27.1% من سكان موريتانيا حسب تعداد 2013 و56% من سكان المدن مما طرح مشكلات جمة على مستويات التخطيط والتنظيم وغيرها.
 - ✓ نقص الخدمات التعليمية والكوادر البشرية المدربة وارتفاع معدلات الأمية.
 - ✓ تدني الأجور والرواتب وارتفاع الأسعار والضرائب وانتشار البطالة والفقر.
 - ✓ تردي الخدمات الصحية.
 - ✓ مشكلات اجتماعية كانهدام الأمن المتمثل في عصابات اللصوص وقطاع الطرق والأشرار، وتفشي ظاهرة الطلاق والأخلاق المخالفة وغيرها.
- وهو ما يفسر بعجز البلديات والإدارات المعنية عن الاضطلاع بدورها على الوجه المطلوب. وهناك علاقة وطيدة بين هذه المشكلات، فالأسر الفقيرة لا تقدر على تأمين سكن لائق لذلك تقطن نسبة 43% منها في مساكن غير نظامية مقابل 27% من الأسر الغنية، وتفسر حالة هذه الأخيرة ما يعانيه الكثير من الأسر التي تملك القدرة المالية على بناء مساكن جيدة لكن عدم تملك الأرض يمنعها من البناء. وحسب التقرير الوطني حول التنمية البشرية والفقر في موريتانيا لعام 2005 فإن نسبة 12% فقط من سكان المدينة يملكون مساكنهم⁽¹⁾، ولا شك أن مشكلة غياب سياسة وطنية

⁽¹⁾ وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية بالتعاون، مرصد التنمية البشرية المستدامة والفقر، التقرير الوطني حول التنمية البشرية والفقر في موريتانيا، نواكشوط 2005، ص 37.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

للإسكان الجماعي وتوفير السكن تأتي في مقدمة الصعوبات التي تواجه السكان وتعمق مشكلات العمران في مدينة نواكشوط.

مستقبل تطوير مدينة نواكشوط:

مرت مدينة نواكشوط بمراحل مختلفة خلال تمددها المجالي، أدت إلى ما وصلت إليه المدينة من مشكلات عمرانية تعكسها بجلاء استخدامات الأراضي بالمدينة من خلال نسيجها الحضري المشوه وشوارعها وأزقتها المتشابكة وأحيائها السكنية المتردية والتي تتباين في مستوياتها المعماري وفي المستويات الاقتصادية والاجتماعية لسكانها أيضاً وهو ما يجب أخذه في الحسبان عند تخطيط المدينة إذ تتحتم معالجة مشكلاتها ووضع خطط تنموية لمستقبلها. وقد أدركت السلطات المختصة هذه الحقيقة منذ بعض الوقت ورسمت لها مجموعة من الأهداف أهمها "المصادقة على الإطار القانوني والتشريعي للتنمية الحضرية، الجرد العقاري للأراضي الشاغرة أو الممنوحة وغير المستثمرة، إقامة نظام مبسط للمعلومات العقارية، تحديد إستراتيجية للإسكان، إعادة هيكلة واستصلاح منطقة الصيد التقليدي بنواكشوط"⁽¹⁾. ويعد إعداد مخطط تنظيمي للمدينة أهم الأهداف التي تحققت حتى الآن.

لذلك يمكن الحديث عن مستقبل مدينة نواكشوط من دون التطرق لمضمون المخطط التنظيمي الذي أعدته وكالة التنمية الحضرية عام 2003 كإستراتيجية للتحكم في نمو المدينة وتطويرها في أفق زمني لا يتجاوز 2020. وقد رسمت هذه الوثيقة خمسة أهداف لتحقيق تنمية منسجمة لمدينة نواكشوط وهي⁽²⁾:

- 1- تكثيف الأحياء السكنية.
- 2- مواجهة النمو الفوضوي للمدينة.
- 3- تسوية مشكلات الأحياء الشعبية وتجهيزها وإعادة تنظيمها.

* تعابير شعبية مستخدمة في موريتانيا.

⁽¹⁾ وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر 2004، مرجع سابق، ص 53.

⁽²⁾ وزارة التجهيز والنقل، إدارة البناءات والإسكان والعمران، وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتنمية الحضرية لمدينة نواكشوط أفقي (2010-2020) نواكشوط 2003، ص 2.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

4- إيقاف التمدد المجالي للمدينة في المناطق غير الصالحة للسكن وحماية البيئة.

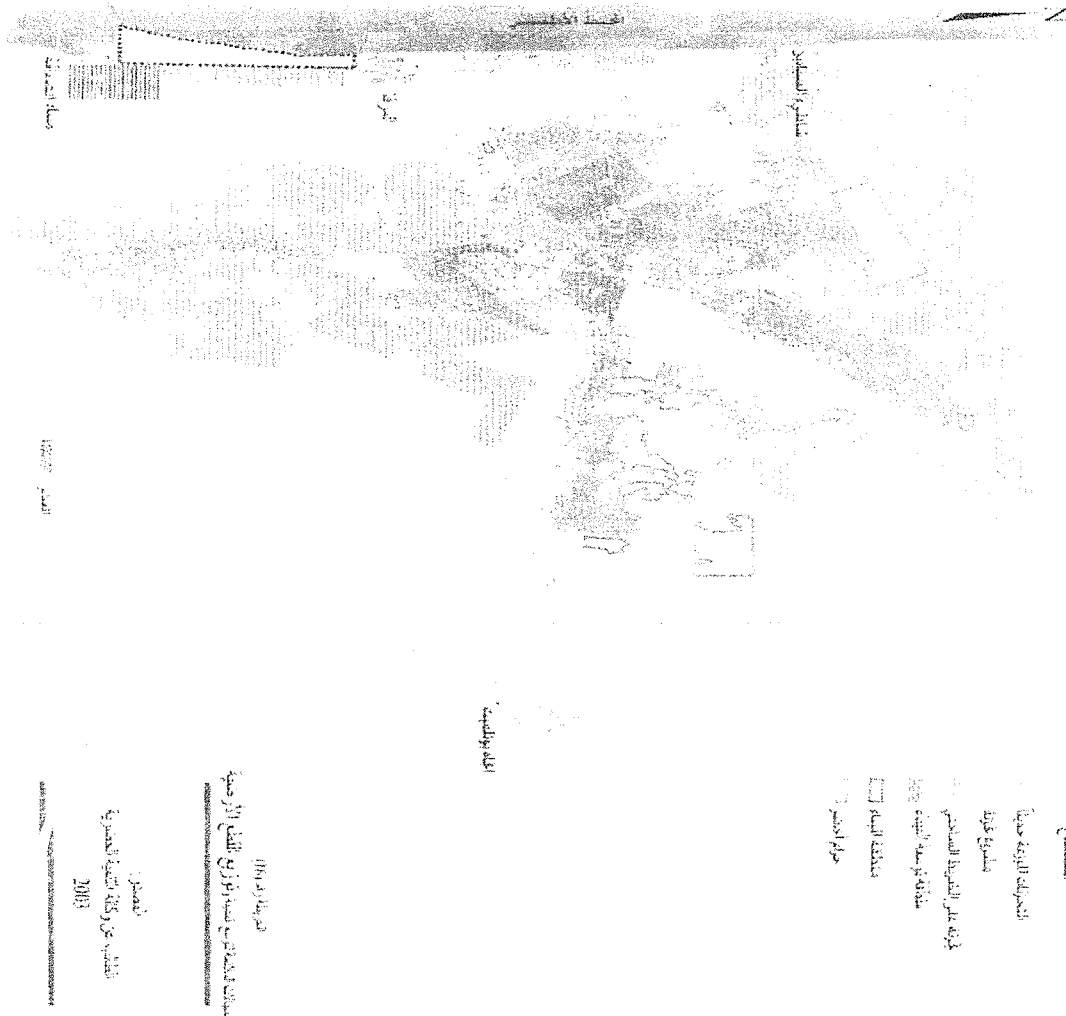
5- تسهيل النمو الاقتصادي.

هناك عدة خيارات يمكن للتمدد المجالي أن يتبعها عند تخطيط المدينة ولكل مدينة خصوصيتها التي تجعل اعتماد هذا الخيار أو ذاك أكثر فائدة، وهذه الخيارات هي: (1) أن يمتد العمران على الأراضي الملاصقة للمدينة (2) أن يتمشى التوسع العمراني مع ظواهر طبيعية كالأنهار أو بشرية كالطرق في شكل امتدادات شريطية (3) إنشاء أو تطوير مراكز حضرية بعيدة عن المدينة وإيقاف توسع المدينة (4) إنشاء ضواحي متخصصة في مجالات متعددة وتكون منفصلة عن المدينة الأم، ويعدّ هذا الخيار الأخير أكثر ملائمة لحالة مدينة نواكشوط وإن كان بناء مدن جديدة إلى الجنوب من المدينة بالقرب من تمديدات مياه أفطوط الساحلي وكهرباء سد منتتالي قد يخفف الضغط على العاصمة ويسهم في تنمية المنطقة الساحلية.

تعد الأطراف الشمالية والجنوبية من مدينة نواكشوط أراض ملائمة للتمدد المجالي في الوقت الراهن وفي المستقبل لذلك يجب تقدير الخدمات والاستثمارات التي سيحتاجها مثل هذا التمدد ورصد ميزانيات لتنفيذ تلك الخدمات والاستثمارات، كما ينبغي لهذا التمدد أن ينبع من حاجة حقيقية للأرض، لا من المصالح الضيقة للأفراد والفئات المتنفذة في الدولة. (الخريطة 3) المجالات الملائمة للتمدد المجالي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الخريطة رقم (3) المجالات الملائمة للتمدد المجالي لمدينة نواكشوط



يهدف تخطيط المدن إلى "التوصل إلى ترتيب أو تنظيم معقول ومناسب من استخدام الأراضي وتحديد مواقع الأنشطة المختلفة داخل المدينة وتقرير شبكة مناسبة للشوارع والطرق التي تحقق أكبر فائدة عملية للسكان، وبما يؤدي إلى اختيار مواضع مناسبة لاستخدامات الأراضي التي توفر لسكان المدينة الإحساس بالراحة والجمال"⁽¹⁾، وفي غياب هذا التخطيط يدفع السكان الثمن باهظاً

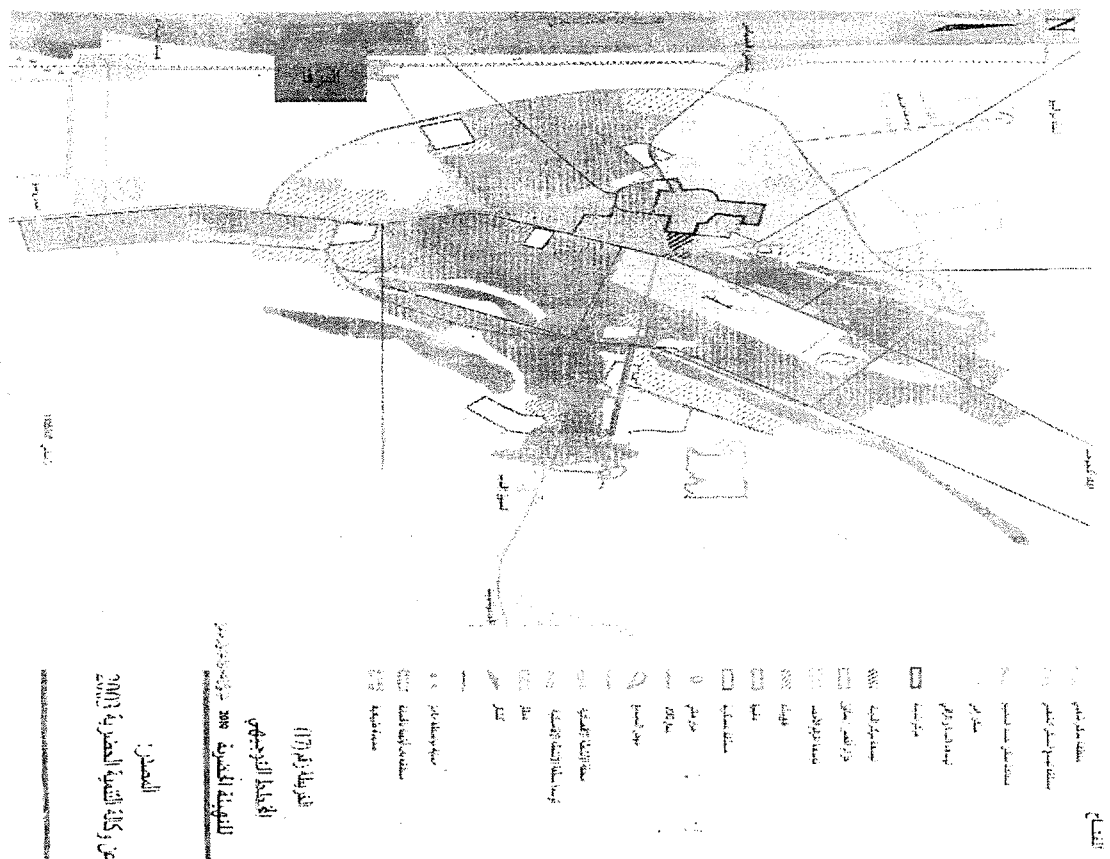
⁽¹⁾ إسماعيل علي أحمد، دراسات في جغرافية المدن، الطبعة الرابعة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة 1988، ص 357.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

حيث " تصبح أرض المدينة خاضعة للتنافس الذي يتحكم فيه سعر الأرض وتفاعله مع العرض والطلب، وفي ظل سوق حر لبيع الأراضي فإنه تستخدم من أجل تحقيق أكبر عائد في أقل مدى زمني ممكن".⁽¹⁾

وعند تخطيط المدينة "لا يمكن إغفال الجوانب الاقتصادية ذات العناصر المتشابكة لأن المدن تمثل تركيزاً للأنشطة الاقتصادية في بقعة محدودة من سطح الأرض".⁽²⁾

الخريطة رقم (4) المخطط التوجيهي لمدينة نواكشوط 2010.



⁽¹⁾ المرجع ذاته، ص 358.

(²) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

ومن المؤكد "أن النمو العمراني ضروري لتلبية الحاجة المتزايدة للفرد والمجتمع وأماكن السكن والعمل والمرافق والخدمات غير أن التوسع قد يحمل أخطاراً كبيرة على البيئة والإنسان إذا لم يكن مدروساً ومحددأ بضوابط تحقق التوازن ما بين الحاجة الاجتماعية والمادية للمجتمع"⁽¹⁾ في إطار تنموي شامل.

لقد أدى الفرق الشاسع بين معدلات النمو السكاني في مدينة نواكشوط ومعدلات النمو السنوي من المساكن والخدمات إلى ظهور الكثير من المشكلات وفي مقدمتها مشكلة السكن التي أدت إلى إنشاء أحياء الصفيح بشقيها الكبات والكزرات، ولا شك أن جهوداً كبيرة بذلت للتصدي لهذه الظاهرة على الأقل في المخططات التنظيمية الثلاثة اللاحقة على إنشاء المدينة والتي كان آخرها المخطط التوجيهي لمدينة نواكشوط أفقي 2010 و2020 ومع ذلك فإن نقص الإمكانيات المادية والخبرة في مجال التخطيط الحضري وغيرها حالت دون تجنب العديد من الأخطاء التي لا تزال المدينة وساكنتها يدفعان ثمنها يوم بعد آخر.

يتطلب النمو والتطور المستقبلي لمدينة نواكشوط بصفة سليمة التركيز على العديد من المحاور المتكاملة تشترك فيها الإدارات المعنية كل في مجال تخصصه وتعتمد على دراسات تقوم بها لجنة من اختصاصات مختلفة في مجالات العمارة والهندسة المدنية والكهربائية إلى جانب الاقتصاديين والجغرافيين والاجتماعيين وخبراء المياه والبيئة وأخصائيي التخطيط الحضري والإقليمي الذين يعول عليهم في تحقيق تنمية منسجمة ومتكاملة بين مدينة نواكشوط وبقية المدن والأرياف الموريتانية. وإذا لم تضمن العملية التخطيطية قدرأ من التوازن والتكافؤ في توفير الخدمات والفرص بين العاصمة والداخل فإن أية نتائج تنموية لمدينة نواكشوط ستكون آنية ومحدودة لأن سيلاً من الهجرة الداخلية سيغمر المدينة من جديد مخلفاً المشكلات الحالية ذاتها.

ومن أجل حل مشكلات التمدد المجالي للمدينة وتطويرها مستقبلاً يمكن اعتماد النقاط التالية:

- استبدال المساكن الهشة في الأحياء العشوائية المخططة حديثاً بمساكن جديدة تستجيب للمعايير المعمارية والصحية والجمالية وتراعي الظروف المناخية لمدينة نواكشوط.

⁽¹⁾ أحمد الشريعي، الدراسة الميدانية أسس وتطبيقات، مرجع سابق، ص 258.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

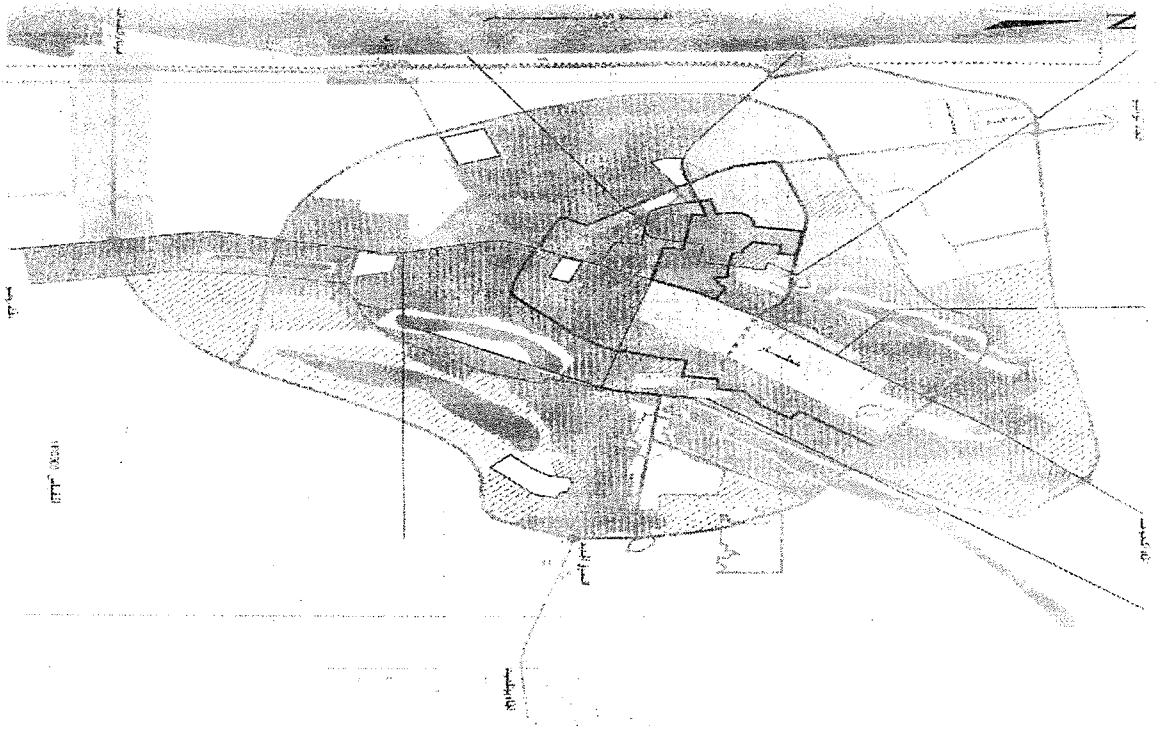
- استكمال تخطيط الأحياء العشوائية في مدينة نواكشوط وتهيئة وتزويد المجالات المناسبة لتمدها المجالي مما يشجع السكان والمستثمرين على الالتزام بالتوسع في هذه المجالات.
- ربط جميع المساكن والمصانع والمرافق الحضرية الأخرى بشبكة المياه وإنتاج كميات تغطي جميع حاجيات المدينة من المياه.
- توفير الطاقة الكهربائية اللازمة للأنشطة الاقتصادية والاستخدام السكني.
- تحسين حالة النقل والمواصلات عن طريق توفير عدد كاف من وسائل النقل وتشبيد محطات النقل وملتقيات الطرق وتوسيع الشوارع وتخصيص بعضها لاستخدامات محددة كتخصيص شوارع للشاحنات والسيارات الكبيرة وأخرى لسيارات النقل العام والخاص، وربط أطراف المدينة مباشرة بالشوارع لتخفيف الضغط عن مركزها وانسياب حركة المرور.
- تشييد البنى التحتية الحضرية، كالخدمات الهاتفية وخدمات المصارف والانترنت وغيرها.
- وضع آليات كفيلة بتنظيف مدينة نواكشوط ومعالجة القمامة والنفايات الصلبة.
- الحد من السكن العشوائي وحظر البناء في المناطق المخالفة ما لم تخطط وتجهز بالخدمات الضرورية.
- توزيع الأراضي المخططة والمجهزة بطريقة عادلة تضمن استفادة سكان السكن العشوائي منها.
- إنشاء حدائق ضمن الأحياء السكنية يجد السكان فيها مكاناً ملائماً للراحة والاستجمام.
- زيادة أسواق الأحياء السكنية وتطوير الأسواق القائمة بحيث يستطيع المواطنون تلبية كل حاجاتهم بدلاً من الذهاب إلى مركز المدينة كلما أرادوا اقتناء حاجات بسيطة وضرورية وذلك من خلال تنظيم الأسواق وتوسيعها ودعمها بمؤسسات للبيع بالجملة والمفرق تكون مدعومة من الدولة.
- تركيز المؤسسات والإدارات التابعة لقطاع واحد في حي أو شارع واحد بحيث لا يضيع يوم المراجع بين إدارات متباعدة من أجل استخراج وتوقيع الوثائق والعقود.
- تحقيق لامركزية وطنية تحد من الهجرة الداخلية وتعمل على استقرار سكان الداخل بمناطقهم.
- تطبيق عقوبات صارمة على كل من يخالف القوانين المنظمة للمجال الحضري بدءاً بالتخلص من القمامة وحتى البناء في أماكن غير مخططة.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- تحرير الأراضي التي تغطيها القمامة وأسواق بيع الحيوانات والباعة المتجولون وغيرهم من المحتلين للأرصعة والأماكن العامة.
- القيام بحملات توعية للمواطن ليتحمل مسؤولياته تجاه نظافة مدينته والمحافظة على بيئة نظيفة والتخلي عن أخلاقيات البداوة التي لا تتماشى مع العيش في المدينة.
- مراعاة العوامل الطبيعية والبشرية في تخطيط المدينة ومواصلاتها ومداخلها والتحكم في اتجاهات النمو العمراني المستقبلي للمدينة.
- تكثيف البناء من خلال استغلال المناطق المفتوحة وضمن نسيج المدينة والاهتمام بالنمو الرأسي بدل النمو الأفقي لتسهيل تعميم الخدمات وتطويرها.
- منع المدد المجالي في المناطق غير الملائمة مثل أماكن السباح الملحية والكثبان الرملية.
- تنظيم السوق العقارية بتوفير القطع الأرضية المخططة والمساكن للبيع والإيجار بأسعار مناسبة لمنع المضاربة العقارية.
- إخضاع الملكية العقارية لنظم المعلومات الجغرافية الحديثة لتسهيل التعاملات العقارية وضبط حالات المخالفات والحرائق ومشكلات الشبكات الحضرية وتقديم تسهيلات للمستثمرين بإشراف الحكومة.
- توجيه النمو العمراني إلى داخل المدينة عن طريق تهيئة الأراضي الواقعة بين الأذرع التي تخرج من كتلة المدينة العمرانية.
- تقدير حجم السكان مستقبلاً بناء على عدة احتمالات لمعرفة حاجاتهم المستقبلية.
- متابعة تنفيذ الخطط والبرامج على جميع أصعدتها ومراحلها حتى تصل المدينة إلى الأهداف المرسومة لها.
- تحقيق تنمية متوازنة في موريتانيا لا للتقليل من الهجرة إلى مدينة نواكشوط فحسب؛ وإنما لإغراء بعض سكانها بالعودة إلى مناطقهم الأصلية أيضاً ولن يتحقق ذلك إلا إذا توفرت فيها كل الظروف التي توفرت في العاصمة وشجعت الهجرة إليها.
- فتح مراكز لتكوين وتأهيل السكان للانندماج في سوق العمل وتقوية العلاقة بين مخرجات نظام التعليم ومدخلات سوق العمل.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الخريطة رقم (5) المخطط التوجيهي لمدينة نواكشوط 2020.



الخاتمة:

أدى التزايد المطرد لسكان مدينة نواكشوط منذ تأسيسها نهاية خمسينيات القرن الماضي حتى اليوم إلى تزايد الطلب على الأراضي وهما أمران لما يكونا في حسابان الجهات القائمة على تخطيط المدينة وتطويرها مما ولد نوعاً من الإرباك في التعاطي مع مشكلات المدينة عائد في جزء منه إلى نقص الخبرة في مجال التخطيط الحضري ونقص الموارد المالية الكفيلة بوضع وتنفيذ المخططات التنظيمية المناسبة، وقد ترتبت على ذلك مشكلات عديدة من أهمها تمدد المدينة مجالياً على أراض شاسعة وما يطرحه من متحديات، ذلك أن توصيل المياه والكهرباء وغيرها من الخدمات الحضرية إلى أحياء المدينة لاسيما الأحياء العشوائية المخططة حديثاً وأحياء الترحيل التي تطوق أطرافاً من المدينة يحتاج إلى استثمارات كبيرة وغير مربحة اقتصادياً، ولأن حجم السكان المستهدفين فيها قليل نسبياً، كما أن فقر هؤلاء السكان وعدم قدرة أكثرهم على دفع تكاليف تلك الخدمات يقلل من أعداد المشتركين فيها ويحول دون قيام استثمارات ذات شأن من قبل السكان أنفسهم أو من قبل القطاعين العام والخاص.

قائمة المراجع والمصادر:

أولاً- المراجع:

1. إسماعيل علي أحمد، دراسات في جغرافية المدن، الطبعة الرابعة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة 1988.
2. صافيتا، محمد، وعذنان عطية، جغرافية المدن والتخطيط الحضري، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2006.
3. الشريعي، أحمد البدوي، دراسات في جغرافية الحضر، دار الفكر العربي، القاهرة 1995.
4. الشريعي، أحمد البدوي، الدراسة الميدانية أسس وتطبيقات في الجغرافيا البشرية، دار الفكر العربي، القاهرة 2004.
5. بوجي كارنييه، جاكليين، دراسات في جغرافية العمران الحضري، تقديم وتعريب، محمد علي بهجت الفاضلي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000.
6. عطوي، عبد الله، جغرافية المدن، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت 2001.
7. عطوي، عبد الله، جغرافية المدن، الجزء الثالث، دار النهضة العربية، بيروت 2003.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

8. وزارة الثقافة والشباب والرياضة بالتعاون، "نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاماً من التحدي"، ترجمة محمد المصطفى ولد سيد أحمد، دار سيبيا، 2006.
9. وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، التقرير الوطني حول التنمية البشرية والفقر في موريتانيا 2005، نواكشوط 2005.
10. وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، المفوضية المكلفة بحقوق الإنسان ومكافحة الفقر وبالدماج، الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر، نواكشوط 2004.
11. مجموعة نواكشوط الحضرية، الحضرية للمعرفة، مجلة دورية تصدر عن رئاسة مجموعة نواكشوط الحضرية، العدد الأول، ديسمبر 2002.
12. وزارة التجهيز والنقل، إدارة البناءات والإسكان والعمران، وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفقي (2010-2020) نواكشوط 2003.

ثانياً - الأطروحات:

1. ولد سيدي كواد، النمو السكاني والتوسع العمراني لمدينة نواكشوط منذ عام 1960-2005 (دراسة في جغرافية المدن)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق 2008.
2. ولد محمد ناصر محمد ببا، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في موريتانيا؛ نواكشوط نموذجاً، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة محمد الخامس أكاد 2007.
3. ولد المحبوبي سيد عبد الله، الهجرات الداخلية إلى مدينة نواكشوط، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض 1984.
4. ولد النحه، محمد المختار، تصنيع موريتانيا، دراسة جغرافية، أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس 2000.

ثانياً - المراجع الفرنسية:

- 1) Commune de Nouakchott et Amextipe, Stratégie de développement de la ville de Nouakchott, phase 1, diagnostic, rapport final, Nouakchott 2000.
- 2) Frérot Marie Anne et Ould Mahboubi Sidi Abdoullah, "Du Parcours à la Ville : l'Imprévu" in Espaces et sociétés en Mauritanie, cahier d'URBMA, N° 33, Tours 1998.
- 3) Pirte, J.R. Nouakchott, capitale de la Mauritanie, in Publication du Département de géographie de l'Université de Paris-Sorbonne, N° 5, Paris 1977

فقهاء شنقيط والاستعمار الفرنسي 1850-1960: مسار التعبئة وبيوادر الجهاد

المسلح عند منظري قطب الرفض

حامد ولد محفوظ

باحث في التاريخ

يتكون "قطب الرفض"، بشكل أساسي، من الشيخ سيدي الكبير كأول عالم يعي حرج الموقف الديني أمام السببية وأمام تزايد النفوذ الفرنسي في فجر القرن 19م/13هـ، ثم الشيخ ماء العينين وابن عيينه وابن حبت مع نهاية هذا القرن وبداية القرن العشرين... وكل من يقع في دائرة الإشعاع الروحي والاجتماعي لهؤلاء أو يخضع لنفوذهم الروحي أو السياسي؛ وقد أوجب هؤلاء، كل حسب سياقه الزمني والمكاني وموقعه الاجتماعي، جهاد الفرنسيين الغزاة، كلما كان ذلك ممكناً، أو الهجرة عنهم حين يتعذر مثل ذلك الجهاد، بحجة أن مساكنهم ومعاشرتهم مفسدة للدين، وبحجة أن مصلحة الدين مقدمة على غيرها من المصالح الدنيوية.

وبذا، يكون هذا التيار قد استنفذ جميع قواه الفكرية للتنظير ضد الاحتلال التغلغل والاحتلال الفرنسي، منطلقين من مرجعية دينية، باعتبار أن الدين يمثل أهم عامل وحدة في المجتمع الموريتاني، ألا وهو الدين؛ أما في هذا المقال فسيتمج التفكير إلى معرفة مدى استجابة هؤلاء في مواقفهم وأنشطتهم السياسية والعسكرية وفي مجهودهم التعبوي إلى تلك التنظيرات وتلك الفتاوى، استجابة عملية، هي على هذه الدرجة أو تلك من الانسجام مع الأطروحات الفقهية الاجتهادية لهؤلاء الفقهاء ومن أطروه.

ففي ماذا تجسد التعامل العملي والميداني لهؤلاء مع الظاهرة الاستعمارية؟
للإجابة على هذا التساؤل نسوق جملة من المواقف والأعمال التي اضطلع بها هذا التيار في مواجهته الاستعمار الفرنسي.

يمكن تصنيف تعامل "قطب الرفض" مع التوغل الفرنسي إلى أنماط مختلفة من حيث الطبيعة والامتداد الزمني، وإن كانت كل منهما مكملتا للآخرى، ومعتمدة عليها، فيمكن النظر إلى هذه الأنماط من خلال المراحل التالية:

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- 1- مرحلة التهيؤ للجهاد مع اتضاح الخطر الاستعماري، من 1850-1902؛
- 2- مرحلة تنشيط وتأطير الجهاد من 1903 م إلى 1905 م؛
- 3- مرحلة الجهاد المسلح من 1905 م إلى 1934 م؛
- 4- مرحلة المقاطعة السياسية والثقافية، من 1935 إلى 1960.

ولتوضيح خصوصية كل مرحلة، لا بد من الإلمام بمختلف الأحداث التي تمت والمواقف التي اتخذت في كل الفترات السابقة التحديد، فما هي الملامح العامة لكل مرحلة من هذه المراحل؟ غير أننا سنقتصر في هذا المقال انسجاماً مع العنوان الذي حددناه له على عرض مسار المجهود التعبوي والتأطير، الذي هياً لإعلان الجهاد المسلح.

1- مرحلة التهيؤ للجهاد مع اتضاح الخطر الاستعماري:

لم يكن الخطاب الرافض للاستعمار مجرد تفعيل ظرفي لـ "مؤسسة الجهاد" التي هي جزء من نظام التمثلات السياسية في كل مجتمع إسلامي فحسب، بل يمكن اعتبار هذا الخطاب كذلك امتداداً فكرياً واجتهادياً للتيارات الإصلاحية التي ظهرت في بحر القرن الـ 19 م/13 هـ؛ فقد عرف هذا القرن عدة آراء اجتهدية تتصل بإصلاح الوضع السياسي القائم في البلد والمتميز بغياب السلطة المركزية، "ونظام" السبية الناجم عن الصراعات القبلية بين القبائل الحسانية الحاملة للسلاح، وإن كانت رهانات تلك الصراعات تتجاوز الثأر إلى الاحتماء السياسي من أداء المغرم أو تأمين مصادر منتظمة للمغرم، باعتباره وسيلة إنتاج هامة لدى هذه الفئات. ولمواجهة هذا الواقع فقد نشأ وعي سياسي ديني في أوساط الأرسقراطية الزاوية، بداية من منتصف القرن 13 هـ/19 م، وقد اتخذ هذا الوعي شكل دعوة سياسية فقهية لإعادة ترتيب الخريطة السياسية للبلاد بوجه عام¹.

¹. تشكل هذه النصوص جزء من الجدل الفقهي والسياسي المحتدم في منطقة الصحراء الغربية منذ القرن 13 هـ 19 م، كصدى من أصداء الفراغ السياسي المتمثل في غياب السلطة المركزية وشيوع الفوضى المنظمة والاتضاح المتزايد لخطر النفوذ التجاري والسياسي الأوربي، فهي امتداد فكري وإيديولوجي لنفس التنظير الفقهي الذي عرفه هذا العصر حول السبية وتنصيب الإمام والجهاد...

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وبخصوص الموقف من الظاهرة الاستعمارية فقد مر هذا الوعي بثلاث مراحل متميزة ومتداخلة: فكان النصف الثاني من القرن 19 فترة تحدد الخطر وإحساس بأن غريما دينيا وسياسيا "تاريخيا" بدأ يتضح؛¹ بينما كان الربع الأول من القرن 20 فترة التعامل الفقهي مع "النازلة" الاستعمارية في صيغتها الكلية الإجمالية رفضا أو قبولا؛ أما فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، فكانت فترة التعامل الفقهي مع محتويات وجزئيات النازلة الاستعمارية على وجه التفصيل.

ففي مرحلة تحدد الخطر، تنتزل دعوات وفتاوى فقهية صريحة لا تتحصر في الدعوة إلى إقامة "الإمامة" الإسلامية وبيعة الإمام أو تنصيبه فقط، وإنما تتجاوز ذلك إلى إعلان الجهاد، تارة ضد النصارى وبني حسان، وتارة ضد النصارى مع السكوت عن الموقف من بني حسان، وأحيانا إلى جمع الشمل والتوحد للجهاد ضد النصارى الذين بدأ نفوذهم يتزايد على الشواطئ وفي حوض نهر السنغال، خصوصا بعد هزيمة أمير الترارزة القوي نسيبا محمد لحبيب (ت 1860) على يد "قذرب" سنة 1856، كما أسلفنا.

وقد عبرت هذه الفتاوى والدعوات عن نفسها، تارة بالفتوى الفقهية المكتوبة نثرا والمؤصلة فقهيا وأصوليا، ولكنها في أغلب الأحيان قد امتطت الشعر الغنائي والأنظام، في هذه المرحلة من تطور الوعي السياسي لدى الأريستوقراطية الدينية.

ولعل أبرزها ما نقرؤه في هذا الصدد هو كتابات محنض بايه ولد اعبيد (ت 1277 هـ 1870 م) والشيخ محمد المامي (ت 1272 هـ 1855 م)، واجدود بن اكتوشني (ت 1289) والشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي (ت 1869) ... وكلهم عاشوا في القرن الـ 19 م/13 هـ.

فما هي أهم الآراء الإصلاحية التي أدلى بها هؤلاء لترميم الوضع السياسي وتكييفه للائم النصوص الشرعية والثقافة الفقهية لـ "الحفدة الجدد" للمرابطين؟

بعيدا عن التتبع الشامل لكل الفتاوى والنوازل والتخريجات والأحكام القضائية التي أنتجها القرن 19، فإنه يمكن، في شيء من التبسيط والاختزال، أن نتمسك بالإرهاصات الأولى لهذه الأدبيات الفقهية

¹ رغم أن تواجد وتصاعد النفوذ الغربي على الشواطئ الموريتانية وحوض النهر بدأ قبل ذلك بقرنين. را.

Abdel wadud O. Cheikh, nomadisme islam, et pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Thèse inédite, Paris v, 1936.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

السياسية في عدة آراء اجتهادية ظهرت في تلك الأيام؛ ورغم تنوع وخصوصية هذه الآراء، إلا أنه يمكن التمييز داخلها بين ثلاثة اتجاهات متباينة وخطوط تفكير متميزة، يمكن تحديدها كما يلي:

أ. اتجاه يدعو إلى نصب الإمام تمهيدا لبدء الجهاد ضد النصارى وبنى حسان، وهو ما نقرؤه بوضوح في آراء ومواقف ابن اكتوشني؛ وقد انبثق هذا التيار الثوري من تربة "المسالمة" ونبذ السلاح التي نظر لها اليدالي غب هزيمة الزوايا في حرب "شربه"¹، وتعد آراء عبد القادر ولد محمد سالم تكييفاً أشعرياً سنوسياً لهذا الموقف مع مبادئ الفقه المالكي²؛ ولكي نفهم طرح هذا الجيل من المفكرين الإصلاحيين لمسألة الإمامة لا بد أن نتمثل العقيدة الأشعرية لأنها، في نسختها السنوسية، تؤسس مع المذهب المالكي للنظرية السياسية عند كل الفقهاء المغاربة، بمن فيهم فقهاء البلاد³.

أما أجود بن اكتوشني (ت 1289)، فيذهب أبعد من ذلك إذ يدعو صراحة إلى حمل السلاح، وهي دعوة إلى التحرر من حالة "المسالمة" السالفة الذكر؛ يقول في تهكم مخاطباً الزوايا:

¹. را. أمر الولي ناصر الدين، للشيخ محمد اليدالي، مخطوط بحوزتنا.

². فالأصول السياسية الأشعرية القائلة بوجوب الإمامة لخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وثبوت إمامة المتغلب ووجوب طاعته، ودور أهل الاختيار في تحديد وبيعة الإمام، ووجوب طاعة الإمام ولو كان غير عدل ولا عادل... هذه الأصول التي توجب نصب الإمام متعارضة مع الشروط الظرفية التي عاشها هذا الفقيه الزاهد وهو ما سيدفعه إلى تناول مسألة نصب الإمام من مسلكين:

1. تقرير وجوب نصب الإمام "والنصب للإمام إن وجد من فيه شروطه"، يعني أنه إذا وجد من توفرت فيه شروط الإمامة فإنه يجب نصبه إجماعاً، "لأنه به قوام الدين والدنيا بدون مين"... وهو في هذا المسلك ينقل عن السنوسي تبريره لنصب الإمام في قوله: "إنما وجب نصب الإمام لما تضمنه نصبه من المصالح، فإننا نعلم ضرورة أن البلد إذا حصل فيه رئيس ماهر، يأمرهم بالأفعال الجميلة ويزجرهم عن القبائح فإن حال أهل في البعد عن المفساد والقرب من المصالح ورفع الضرر عن النفس والحرم والمال قريب متيسر، وكل ما يوجب ذلك فهو واجب بإجماع الأئبياء وكل الأديان؛ لا يقال هذه المصالح معارضة لمفساد، لأنه ربما يظلمهم ويأخذ أموال الضعفاء، لأن كل عاقل يعلم رجحان تلك المصالح على هذه المفساد، والمعتبر الراجح، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير".

2. وأما مسلكه الثاني: فيتمثل في المخرج من عهدة هذا الواجب، فمن الممكن أن يكون استناده إلى عدم السعي إلى نصب الإمام هو ما ذكره في البيت 634، حيث قرر أنه بانعدام الشروط يسقط الوجوب ويبقى الجواز: "وحيث لا فنيصه يجوز".

³. را. يحيى بن البراء، "الفقه والسلطة والمجتمع". نشر المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انو كشوط 1994. ص. 34.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مالككم ليس فيكم سلاح ما عدا سلاح الحبارى
لا تكونوا بآخر الدهر عزلا من يكن أعزل يكن حمارا
ولا تخرج رائية ابن الشيخ سيدي عن هذا الإطار:

حماة الدين إن الدين صار أسيرا للصوص وللنصارى؛

ب. واتجاه يدعو إلى نصب الإمام ومحاربة السببية والنصارى دون التعرض للموقف من بني حسان وهو ما نجده في دعوة محنض باب ابن اعبيد، ويتميز هذا الفقيه بكونه عاش قرب الأمير محمد لحبيب وكان قاضيه؛ ورغم ذلك فقد دعا إلى نصب الإمام دون مواربة وبذل في ذلك جهدا لم نطلع على أن أحدا من الفقهاء قام بمثله على نحو ما ينبئ عنه كاتب سيرته "عيون الإصابة في مناقب محنض بابيه"¹. يقول الشيخ محنض بابيه في قصيدته المشهورة في موضوع نصب الإمام:

حرض على نصب الإمام فإنه بدوائه يشفى من الأسقام
فرض الجهاد على الأنام فريضة يعصي إذا تركت جميع الأنام
كيف الجهاد وكيف كف محارب من معشر فوضى بغير إمام
أم كيف يقهر من أبى عن حكمه إلا بسطوة ناصر الحكام
إلى أن يقول محددا طريقة نصب الإمام:

فاغدوا على نصب الإمام بقرعة وابغوا بذاك نصيحة الإسلام

وفي نفس الاتجاه يسير الشيخ محمد المامي بن البخاري حين يقول:

وقلتم لا جهاد بلا إمام نبايعه فهل لا تتصبونا
وقلتم لا إمام بلا جهاد يعززه فهل لا تضربونا

¹. إذ يقول فيه: "وقد لبث الشيخ رحمه الله يدعو إلى نصب الإمام وإقامة دين الله، إذ يجوز ذلك على الأصح في بلاد لا تجري عليها أحكام الإمام، فصار معه في ذلك جماعة فركبوا وجالوا في البلاد يرفعون عقيرتهم به في كل واد، وحضوا عليه بالنظم والنثر وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر فوجدوا الناس ماتت قلوبهم عن الحق وسمت آذانهم وعميت أبصارهم حتى كأنه لم يأت به بشير نذير وداع إلى الله بإذنه". را . عيون الإصابة في مذاقب محنض بابيه، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ثم يقول:

أما ترون كل بني تميم من الصخر العظيم يحملونا
ويعجز بعضهم عنها وليسوا إذا اجتمعوا عليها يعجزونا
كذلك أنتم حيث اجتمعتم على نصب الخليفة تقدرونا
وينفي ظلم بعضكم لبعض وبالحد المقام وتظهرونا
وواضح مما سلف أن "السبية" هي القضية المركزية التي لا يستسيغها العقل السياسي الأشعري ثم
السنوسي لهذا التيار، في ظل الضعف المتزايد للسلطة الأميرية؛ وقد اتضح ذلك بجلاء سواء في
رؤية ودعوة محنض بابه أم في رؤية الشيخ محمد المامي ودعوته، حيث يشدد في هذه القصيدة
على ضرورة نصب الإمام والجهاد وينكر على الزوايا ترك السلاح ويسخر منهم في قوله¹:
ترى البطل الشجاع وذات طفل مملأة الدبالج والبرينا
سواء في النكاية غير طرف تروع به قلوب الناظرينا
ويسترسل في تعداد مزايا الإمام:
فينفي ظلم بعضكم لبعض وبالحد المقام وتظهرونا
لتمتثلن أو لأكفرنكم كحسان الآلي تكفرونا²
ج. ثم اتجاء يدعو إلى لم الشمل، وإصلاح ذات البين تمهيدا لنصب الإمام أو بيعة "سلطان
المغرب" تمهيدا لجهاد النصاري. ويمثل هذا التيار الشيخ سيدي الكبير، الذي عمل كل ما في
وسعه لجمع شمل السلطات الأميرية، في محاولة لكبح جماح "قديرب".

¹. ففي جو توسلي تضرعي، يعبر محمد المامي عن توقه إلى الدولة القوية، وتجاوز المنزلة "البرزخية" التي تعيشها البلاد:

واجعل بلادنا بلاد الدين ورحمة المحتاج والمسكين
واجعل لها بين البلاد صوله ورحمة ونعمة ودوله
بجاه نور وجهك الكريم وجاه سر ملكك العظيم
فهل لدعوته هذه علاقة بمصاهرتة للحاج عمر الفوتي؟

². نصب الإمام في الفقه السياسي الإسلامي وآراء العلماء الشناقطة، (الفقه السياسي الإسلامي بين رحابة التشريع وقيود الواقع)
إعداد الطالب: أحمد ابن احميدي، إشراف الأستاذ: محمد محمود بن محمد، السنة الجامعية: 98 - 99، المعهد
العالي للبحوث والدراسات الإسلامية. نواكشوط.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وفي نفس الإطار، رتب الشيخ سيدي لمؤتمر "تتدوجه" 1272هـ/1855م، الذي جمع ثلاثة أمراء لإمارات متجاورة ومتاخمة للنهر الذي بدأ الفرنسيون ينشطون في حوضه، وهي: البراكنة آدرار الترارزة؛ في هذا الإطار، يقول الشيخ سيدي في رسالته إلى أحمد بن عبيد أمير آدرار، بشأن هذا المؤتمر: "إعلم أنا نعزم عليك ونجزم بتوجيه أمرنا بالقدوم مع حامل المرسوم، حتى تتبخ بين أيدينا عند "بوتيلميت"، في سبعة من رؤساء قومك، لنؤدي نحن وأنتم ما يجب علينا من السعي والاجتهاد في إصلاح ذات بين المسلمين"¹.

ولعل القاسم المشترك بين هذه النزعات الثلاث هو أن ليس فيها ما يدعو إلى التعامل أو التعاون السياسي مع النصاري، هذا التعاون الذي وصل مع بعض زعماء الجبل الثاني من هؤلاء المتقنين الفقهاء إلى مستوى التحالف الاستراتيجي الصريح خلال الربع الأول من القرن العشرين. وفي ما يخص التيار "الرافض" للتعامل مع النصاري، أثناء توغلهم في البلد، فقد تمثل في عدة دعوات فقهية سياسية ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كتعبير عن حالة استياء عامة، سرعان ما تحولت إلى نوع من الرفض والاحتجاج على وضع الفوضى السياسية والاقتصادية القائم في البلاد؛ ومع أن هذه الدعوات لم تأخذ شكل "استدعاء" أو "دعوة" فقهية للنصاري بالدخول إلى البلاد، كما سنرى مع مطلع القرن العشرين، إلا أنها، على كل حال، كانت تعبر عن "استئفاف" النظر الفقهي في السياسة، أو عودة الأرستوقراطية الدينية إلى ممارسة السياسة من خلف الستار الديني، استجابة لتحسن الظروف السوسيو ديموغرافية والاقتصادية لهذه الطبقة التي ينتمي إليها معظم هؤلاء المنظرين "المجتهدين"، مدعومة بتجارة الدسمغ العربي وامتلاك شغيلة يدوية، ونظام عبودي متصاعد؛ هذا علاوة على انتشار نظام "حاضرة الشيخ" الذي هو في الواقع نظام استقطاب يتجاوز التربية الصوفية والعلمية إلى نظام متطور للإنتاج والتبادل والتكافل...

وتساوقاً مع هذا السياق، قد دعا الشيخ سيدي الكبير إلى الجهاد، واستخدم نفوذه السياسي والروحي في المنطقة من أجل تجاوز الخلافات بين الأمراء والتعبئة الشاملة لجهاد الكفار، وكذلك ابنه الوحيد الشيخ سيدي محمد الذي خلفه والذي اشتهر بقصائده في هذا الصدد.

¹. المنارة والرباط، الخليل النحوي، ص. 316. تخطيط الخط من لدنا.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فلقد دعا الشيخ سيدي الكبير إلى حلف ثلاثي بين إمارتي النهر (الترارزة والبراكنة) وإمارة آدرار قصد مجابهة العدو المشترك والمتمثل في التواجد الفرنسي على الضفة اليسرى للنهر؛ هذا الحلف الذي تم تشكيله بعد مؤتمر "تندوجه" قرب "بوتيلميت" 1856، بين ممثلي الإمارات الثلاثة وبإشراف من الشيخ سيدي الكبير¹.

وهو حدث سياسي كان من المفروض أن يؤسس لتنظيم الجهاد وتنسيق، وتوحيد الجهود، التي ظلت مشنتة بحكم تناقض المصالح السياسية والانقسامية بين الإمارات الحسانية الثلاثة، وبحكم التاريخ الثأري الدامي بين السلالات dynasties العائلية القائمة في الإمارات في هذه الإمارات. كما بعث الشيخ سيدي الكبير رسالة إلى السلطان مولاي عبد الرحمن مطالبا إياه بالسلاح والذخيرة، قصد إعلان الجهاد ضد الكفار؛ إلا أن السلطان لم يستجب لهذه المطالب معللا ذلك بنقص في الإمدادات الحربية عرفه المغرب الأقصى في تلك الطريقة².

وتدخل هذه الرسالة في إطار الجهد الدبلوماسي للشيخ سيدي الكبير، والهادف إلى تنشيط البعد القومي والديني لجهاد النصاري، حتى لا نقول: تدويل هذا الجهاد بواسطة جملة إعلامية استنجاجية بسلطان المغرب.

كما شارك الشيخ سيدي نفسه في عملية "الركبة" التي دارت بين البراكنة والفرنسيين صيف 1856، وتفسر المصادر الفرنسية فشل القوات الفرنسية في تلك المعركة بحضور الشيخ سيدي بين مقاتلي البراكنة، ربما بسبب الكاريزما الروحية للشيخ واعتقاد أتباعه في "تمكينه" وقدرة تسييره لـ "عالم الغيب"، وهو اعتقاد طالما عمل الزوايا على تنميته "كرامات الأولياء"، فكان من بينهم من ألف كتباً وسيراً لأولياء وأشياخ شهيرين، ككتاب: "كرامات أولياء تشمشه" لوالد ولد خالنا، وأمر الولي ناصر الدين للشيخ محمد اليدالي، والطوائف والتلائد في مناقب الوالدة والولد للشيخ سيدي محمد بين الشيخ سيدي المختار الكنتي³.

¹. عبد الله فال، م س د. ص. 40.

². محمد يحي ولد حبيب الله. دراسة تطبيقية للجانب العلمي والسياسي من حياة الشيخ سيدي بابو، جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا. ص. 96.

³. عبد الله فال، م س د. ص. 43.

وعلاوة على حضور المعارك، نجد كذلك، رسالة من الشيخ سيدي الكبير موجهة إلى "قديرب" الوالي الفرنسي على السنغال، يدعو فيه إلى الإسلام ويحذره من التدخل في شؤون المسلمين، فهي رسالة تدخل في الحرب النفسية ضد النصارى نظرا لما تتضمنه من وعيد بالهزيمة الدنيوية وسوء العاقبة في الآخرة، وتبدو مقتبسة من رسالة النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل عظيم الروم، وهو المنحى الذي انتحاه الزعيم الروحي للثورة الإيرانية آيات الله الخميني في رسائله إلى زعماء الغرب¹. أما في الربع الأخير من نفس القرن، فقد برز الشيخ ماء العينين كقوة دينية وسياسية عسكرية في منطقة الصحراء الغربية، حيث ربطته علاقات وثيقة مع السلطان مولاي عبد الرحمن في وقت مبكر من ظهوره كزعيم سياسي وديني لقبائل البدو المتجمعين في الصحراء الغربية؛ فقد توقف الشيخ ماء العينين في مراكش وهو في طريقه إلى الحج سنة 1857، حيث التقى بالسلطان مولاي عبد الرحمن الذي تأثر إلى حد كبير بذكائه وأوحى لممثليه بطنجة بتنظيم حج الشيخ ماء العينين². وسواء كانت العناية السلطانية بالشيخ ماء العينين نتيجة "للتأثر بذكائه" أم كانت نتيجة لحلف سياسي واستراتيجي رأى خلاله السلطان عبد الرحمن في شخص الشيخ ماء العينين رجلا كاريزماتيا قادرا على ترسيخ الولاء للعرش المغربي لدى تلك القبائل البدوية التي لم تألف الحكم المركزي... مهما كان سبب هذه العناية فإن العلاقة بين العرش المغربي والشيخ ماء العينين ستتوطد حتى تصل إلى مستوى تجاوز التحالف الاستراتيجي بين تيانين سياسيين منفصلين إلى مستوى التماهي السياسي والعسكري الشامل في مواجهة الفرنسيين، سواء تعلق الأمر بالبوابة الموريتانية أم تعلق بالبوابة الجزائرية.

وهنا نلمس الإرادة القوية التي كان مولاي عبد الرحمن قد أبداهما في دعم الزعماء الدينيين المحليين، في ظرف كان المخزن المغربي يشعر فيه بأنه مهدد من طرف القوى الأوربية، خاصة بعد احتلال الجزائر ومعركة "إيسلي" التي دارت 1844 بين جيش السلطان الداعم للمقاومة الجزائرية والجنود الفرنسي قرب مدينة وجدة المغربية حاليا، وما أسفرت عنه من تداعيات، لعل أهمها اتضاح التفوق

¹. مخطوط بحوزتنا.

². محمد ولد الطلبة، المجتمع الموريتاني تحت ظل الاستعمار. مذكرة تخرج من المدرسة العليا للأساتذة، العام

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

التقني للقوات الفرنسية على جيش السلطان، وهي المعركة التي ينظر إليها كثير من المؤرخين على أنها كانت البداية الفعلية لتطور النفوذ الفرنسي في المغرب الأقصى. فقد كان التحالف مفيدا بالنسبة للفريقين، حيث كان المخزن يهتم بحشد الإيرادات النضالية بغية الوقوف في وجه الإطماع الأجنبية وكان الشيخ ماء العينين يستفيد ولو معنويا، وبشكل لا يستهان به من اعتراف المخزن به كقوة سياسية وروحية في منطقة الصحراء.

وتوطيدا لهذا التحالف، وبعد عودة الشيخ ماء العينين من الحج في شهر مارس 1859، استقبل من طرف الرسميين المغاربة في كل من مكناس ومراكش، وعاد إلى "الحوض" عبر الساقية الحمراء في وقت كان يفكر فيه، على ما يبدو، في مكان ملائم لاستقراره حيث وقع اختياره على الساقية الحمراء بالصحراء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

2- مرحلة تنشيط وتأطير الجهاد:

ما إن عبر "كزافي كبلاني" النهر وعقد مؤتمر "سهوة الماء" 15 دجمبر 1902 حتى بدأ قطب الرفض حملته الشاملة ضد الغازي الكافر الداخل إلى دار الإسلام عنوة، ففضلا عن الفتاوى التي اصدر بموجب الجهاد أو الهجرة بالنسبة لمن لا يستطيع الجهاد؛ بدأت الرسائل وحملات التعبئة وتسليح المجاهدين من أقصى الشمال إلى الجنوب؛ وهي فترة برز فيها الأمير بكار ولد اسويد احمد كقائد ميداني للجهاد المسلح وظهير استراتيجي لرافضي الحماية الفرنسية في إمارتي الترارزة والبراكنة؛ بتنسيق مع الشيخ حسنه بن الشيخ ماء العينين؛ فقد ضاعف من رسائله إلى سلطة كبلاني محذرا إياه من احتلال البلاد مع دعوته إلى ترك المسلمين وشأنهم، في رسالته الموجهة إلى حاكم كيهيدي في صيف 1903¹. وبعد احتلال الترارزة 1903 بدأ كبلاني يطور أهدافه نحو البراكنة حيث دعم سيد اعلي بن محمد الأمين أميرا بدلا من الأمير أحمدو ولد سيد اعلي الذي أعلن الجهاد ورفض الحماية بمآزرة ودعم وتنسيق مع الأمير بكار الذي أمد ولد سيد اعلي بجيش من إيدوعيش، وشارك معهم في معركة ألاك وشكار في دجمبر 1903².

¹. نص الرسالة. مخطوط بحوزتنا.

². أحمد طالب ولد الطالب هامة، بكار ولد اسويد أحمد ودوره في المقاومة، مذكرة نهاية الدراسة. المدرسة العليا للأستاذة. 1987. ص. 22.

وفي مطلع 1903 شكل بكار وفدا مثلت فيه كل الزعامات التقليدية في البلاد وسافر إلى الشيخ ماء العينين بالسمارة بحثاً عن دعم عسكري ومعنوي من السلطان المغربي، وقد أرسل معهم الشيخ ماء العينين ابنه الشيخ حسنه للجهاد وأمدهم بالسلاح.

كما استقطبت الحركة كثيراً من المجموعات القبلية بما فيها بعض القبائل التي سبق وأن قبلت الحماية الفرنسية؛ مما يمكن اعتباره إعادة اكتساح الساحة وسحباً للبيساط من تحت زعماء قطب القبول.

وقد تصدى بكار للفرنسيين الذين كبدوا المجاهدين خسائر معتبرة في معركة "باركيول" 1903. فرد عليهم بكار بهجوم عنيف قرب مدينة "كيهيدي" على الضفة اليمنى لنهر السنغال، فأرغم كبلاني على إيقاف زحفه لمدة ثلاثة أشهر¹.

ثم توالى معارك "ميت" حيث خسر المجاهدون 70 شهيدا والفرنسيون 5 قتلى ومعركة "كومل" حيث انسحب المجاهدون أمام التفوق الكبير للجيش الفرنسي؛ في هذا الظرف وزع الشيخ حسنه بتوجيه من الشيخ ماء العينين رسالة مطولة إلى كل مراكز النفوذ بالبلاد من أمراء ومشايخ وغيرهم مبشراً بقدوم السلطان المغربي لإعلان الجهاد إن لم يغادر الكفار البلاد (مطالباً من الشيخ سيدي) الانضمام إلى المجاهدين بسرعة قبل تصنيفه في خانة أعداء المسلمين².

وفي يناير 1903 وبالتنسيق مع الأمير بكار انضم سيد ولد محمد فال المطالب بإمارة الترارة بالجهاد المقدس ضد الفرنسيين.

وفي صيف 1903 تم إعلان الحرب المقدسة في تكانت وحرر عثمان ولد بكار مع الشيخ حسنه ولد الشيخ ماء العينين رسالة تم توجيهها إلى كل مراكز النفوذ بالبلاد تطالب بإعلان الحرب المقدسة ضد فرنسا مبرزين توفر الإمكانيات للجهاد ووجوبه.

وظل الأمير بكار يقود المجاهدين رغم كل المعارك التي أبرزت التفوق النوعي للجيش الفرنسي، كما ظل بكار يؤمن بقضيته وضرورة مواصلة الجهاد حتى دارت معركة "بوكادوم" التي أعد لها الفرنسيون جيشاً كبيراً بقيادة النقيب "افيرجاء" الذي فاجأ الحي الأميري المجاهد فجر 1- 04- 1905، حيث دارت معركة خاطفة، وتم استشهاد الأمير بكار ولد اسويد أحمد، في هذه المعركة...

¹ . A . N. E2/119

² . Ibidem

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وتبرز الأحداث السابقة الدور الميداني البارز والحاسم لأمير "تكانت" بكار ولد اسويد أحمد في جهاد النصاري، تماما كما تمثل التنسيق الضيق بين الأرستقراطيتين السائدتين في مجتمع "البيضان"، حيث تم تعطيل الآليات الانقسامية والفئوية وتم تنشيط آليات الدفاع الذاتي للمجتمع ككل في مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في "الآخر" الذي هو فرنسا في بعدها العسكري المتشابك، عبر ذاكرة البيضان، مع بعدها الديني الصليبي.

وعلى العموم فقد قام "قطب الرفض" منذ بداية التوغل الفرنسي ببذل كل جهوده من أجل التعبئة الشاملة ضد الفرنسيين، فبالإضافة إلى الفتاوى الشرعية التي أصدرها، فقد تبادل الكثير من المواصلات وفاوض أحيانا مع كل مراكز النفوذ في البلاد في سبيل بناء إجماع وطني لمواجهة الاستعمار. وبفعل هذا التحرك استطاع "قطب الرفض" اكتساب القوى السياسية التقليدية في الشمال المتمثلة في إمارة أولاد يحيى بن عثمان، وذلك بتتصيب الأمير الشاب سيد أحمد بن عيده المتحالف مع الشيخ ماء العينين، كما ضم إمارة "إيدوعيش" بقيادة الأمير بكار ومن يخضع لنفوذ هذه الإمارة ومجموعات مجاهدة من اترارزه وليراركة إلى معسكر المقاومة، واستطاع "قطب الرفض"، في هذه المرحلة المتميزة، أن يستفيد من التناقضات الأوروبية حيث اعتمد على الدول المنافسة لفرنسا في المنطقة مثل ألمانيا وغيرها كمصادر للتمويل والتسليح، والتي أعطته التزاماتها بالإعانة الدبلوماسية¹. وكذلك اعتمد على تجارة التهريب على السواحل الصحراوية كمورد هام للسلاح إلا أن كل هذه المكتسبات ظلت تتأثر سلبا وإيجابا بميزان القوى في أوروبا وبالتنافس الامبريالي خصوصا. كذلك، استطاع "قطب الرفض"، بفعل أنشطته التأطيرية، مد نفوذه السياسي والديني إلى جبال قبائل الحوض، شرقي البلاد، كـ "مشظوف" و"لغال" و"إدوعيش"، وكل القبائل الصحراوية بـ "نيريس" والساقية الحمراء" التي كانت تتخذ من أهل الشيخ ماء العينين مصدر توجيهها السياسي والديني. وبذا لم يعد الانتماء العرقي يحدد النفوذ السياسي داخل "قطب الرفض" بل ظهر الإسلام من جديد، كإطار انتماء عام يتجاوز غيره من الانتماءات القبلية والجهوية والفئوية... إطار يوحد الكل بقيادة الشيخ ماء العينين، ويوجه ويستغل كل التناقضات الداخلية التقليدية لمجابهة العدو المشترك، وإن ظل ذلك مرحليا وضعيف البنية كما سنرى.

¹. Ibidem

حواليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تلكم كانت الملامح العامة للموقف الميداني الذي واكب عملية التوغل الفعلي في البلاد، فما هي أهم الأعمال الحربية التي قامت بها المقاومة بعد مقتل كزافيي كبلاني؟ وهو ما قد لا يتسع هذا المقام للإجابة عليه.

الموروث السلطاني بين الواقع والتمثيل من خلال مفهوم الجماعة الشرعية عند الفقهاء الشناقطة

باب ولد أحمد ولد الشيخ «سيديا
باحث في التاريخ

إن الحديث عن الموروث السياسي في "البلاد الموريتانية"؛ معناه أن نبحت عن تاريخية هذا الخطاب، وفق رؤية المعنيين وممكنات عصرهم دون إسقاط ولا تجن، مع النظر إلى دلالاته البنوية التي على أساس منها يتحرك وينبني الفعل السياسي الساذج والناضج في الفضاء المدروس¹. لذا فإن هذا المقال يسعى إلى وضع تصورات حول المفهوم السياسي في منطلقاته وآثاره؛ مركزاً على الفتاوى والأحكام التي أصدرها علماء المنطقة في وصف الأحوال وإصدار الأحكام أو تعطيلها، انطلاقاً من المصلحة العامة وضروريات المرحلة المعيشة. اعتماداً على الرؤية التحليلية عبر الزمن الطويل لتاريخية هذا المجتمع.

غير أن النظر إلى هذه الدلالات والمعاني، لا ينبغي أن يكون بحثاً في فن السياسة وتعريفها المختلفة، بقدر ما يكون توجهاً إلى معرفة أحوال الناس وحاجتهم إلى ممارسة العمل السياسي، وفق المصالح والضرورة التي تنتج تلك الرؤية المنبثقة من تصورات معينة حول الحاكم والمحكوم، انطلاقاً من سياسة شرعية تؤسس للصالح العام والخاص سيرا على سنن من قبلهم، أي من لهم

¹ تكثر الأسباب الداعية لكتابة تاريخية وطنية شمولية تتجاوز السرد والأفكار الجزئية إلى محاولة فهم المنطقة بشكل شمولي في سياق الجماعة المتحدة في المجال، وإن كانت هذه الدعوة أو هذا المنطلق الأكاديمي ليس تنفيذاً ولا استقصاءً للأعمال المقدمة حتى الساعة لباحثين متميزين حازوا قلم السبق شكلت دراساتهم الرصينة محاولات شمولية من أجل فهم المجال الشنقيطي وتاريخيته بالنظر إلى المواضيع المتناولة وطرق معالجتها، غير أن هاجس المصادر وسرديتها مازال يقف حجرة عثرة وراء الكثير من التصورات الحداثية حول الفكر والتاريخ والكتابة عن العقليات والتحولات المجتمعية لا في إطار الرصد والتأريخ للحدث كمعطي حدث فعلاً، وإنما البحث عن جميع المقاصد والأسباب التي دعت إليه وتأثيره في البنية الشمولية.

حوايل كلىة الآداب والعلوم الإنسانية

المرجعية الأخلاقية في وضع التصورات والمفاهيم القائم عليها الفعل في قواعده وأصوله ومنطلقاته الجامعة للأمة¹.

على أن هذا القول في مفهوم السياسية نظرا وتحليلا عاما، يدفعنا إلى القول بأن الممارسة في تجلياتها، ما هي إلا تعبير صادق عن ذوق على أساس منه اتفقت الجماعة سواء في مفهوم الشرع، إذا ما نظرنا إلى التأصيل الإسلامي والذاكرة الجمعية²، أو كان على مستوى ما يكفل

¹. يؤسس الماوردي للظاهرة السلطانية بدلالاتها الإسلامية الناصعة رجوعا إلى الأصول واستنادا بالموروث السياسي، من خلال قوله: "... إن الله جل اسمه ببليغ حكمته، وعدل قضائه جعل الناس أصنافا مختلفين، وأصوارا متباينين، ليكونوا بالاختلاف مؤتلفين، وبالتباين متفقين، فيتعاطفون بالإيثار تابعا ومتبوعا، ويتساعدون على التعاون أمرا ومأمورا، فوجب التفويض إلى إمرة سلطان مسترعي، ينقاد الناس لطاعته، ويتدبرون بسياسته ليكون بالطاعة قاهرا، وبالسياسة مديرا، وكان أولى الناس بالعناية بما سيست به الممالك، وديرت به الرعايا والمصالح، لأنه زمان يقود إلى الحق، ويستقيم به أود الخلق".

ولا يخفى التمييز من خلال هذا النص بين معطين اثنين يرتكزان على طبيعة النظم السياسية القائمة في المجال العربي. وما للإمام من محاسن دأبت الأدبيات الإسلامية على التأريخ لها والنظر فيها. للاستزادة أكثر ينظر الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار العلوم العربية، ط 1، 1987 م، ص. 87.

². تتأسس هذه الدراسات على منطلقين أساسيين من الضروري إيرادهما من خلال قراءة الموروث السلطاني الإسلامي وطبيعة الوظائف المنسجمة مع الرؤية الدينية وأحوال الناس وهما:

. الوظيفة الدينية وتقوم على مبدأ سياسية الدين وحفظه، ثم الوظيفة الاستخلاقية القائمة على مبدأ إقامة العدل والنظر في أحوال الناس ومعاشهم وعمرانهم، يقول الماوردي: "إن الدين يسلح سرائر القلوب، ويمنع من ارتكاب الذنوب، ويبعث على التأله والتناصب، ويدعو إلى الألفة والتعاطف، وهذه قواعد لا تصلح الدنيا إلا بها ولا يستقيم الخلق إلا عليها، وإنما السلطنة وما تم لحفظها، وباعث على العمل بها ويرى ارتباط مصلحة الجماعة بالقيام بهذه الوظيفة « فلذلك وقفت مصالحهم على دين يقودهم إلى جسع الشمل، واتفاق الكامة وينقطع به تنازعهم، وتنحسم به أطماعهم واختلافهم... »، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، م، س، ص. 88.

ولعل الآراء النظرية التي طرحها تتجسد في نظريته السياسية حول الأحكام السلطانية وما يجب على الحاكم اتجاه رعيته تفصيلا انظر: البارون كارادفر، مفكرو الإسلام، ترجمة عادل زعتر، القاهرة، الدار المتحدة للنشر، 1979م، ص. 255.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

للإنسان تصوراته وحرية الفكرية والعقدية متجسدة في البحث عن غطاء تصوراتي على أساس منه ينتخب ويقرر ويحكم ويؤسس¹.

لذا فإن التقاليد السلطوية أو الممارسة الفعلية، تختلف باختلاف هذه المنطلقات السالفة الذكر والمجالات الجغرافية والرؤية الثقافية السلطوية حول السلطان في ذاته وواجباته المقدسة اتجاه رعيته، من هذه المنطلقات تشكل الوعي السياسي في البلاد الشنقيطية كحال الأمم والشعوب من بني جلدتها ممن جمعهم الشكل والمطلب وإن اختلف الهدف والحال، فقد ظل هذا الصقع يعاني من سياقات تحولاتية أنتجت سلطة قبلية تنشأ من الفرد إلى الثلاثة كما هو مؤسس له في الأدبيات الفقهية، إلى سلطة حسب المجال والأفراد ممن جمعتهم عصبية وقوة و نفوذ، إلى سلطة جامعة في ثوب الدولة تنطوي تحت لوائها المجالات الجغرافية وفق مطالب المجموع².

ولعل إطلالة بسيطة على المرجعيات التأسيسية الشنقيطية، لا يجد صاحبها كبير عناء في الكشف عن مواطن الخلل والتذمر والنقد أحيانا غير المبرر بأوجه شتى وطرائق قديدا، وفق قراءة ماضوية للتراث الثقافي من وجهة نظر البلاد السائبة التي لا سلطان فيها، وبين النظرة المفضية إلى نوع من السلم الأهلي معيش بإنتاجه لسلطة صامتة إن جاز الاستعمال وفقها تسير الأحوال وتقام

¹ إذا ما تجاوزنا التعريف اللغوي للسياسية نظرا لكثرة تداوله وشيوعه، فإن الفعل السياسي في غاياته يبحث عن سعادة ورفاهية الإنسان، فالتعريف السائد يعبر عن السلطة القائمة بوصفها مجتمعا تكتمل فيه جميع العناصر من أجل الوصول إلى مطلب أو غاية معينة " المجتمع الكبير أي الدولة ينطوي على مجتمعات صغيرة تعيش في داخله، وإشكال هذه المجتمعات متعددة ومتباينة الأغراض، وفي كل جماعة من هذه الجماعات توجد سلطة تعمل على تحقيق أغراض الجماعة"، عبد الله إبراهيم ناصف، السلطة السياسية ضرورتها وطبيعتها، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، 1982م، ص، 13، على أن ثمة بعض الآراء تستعيز عن هذا الرأي بتعبير آخر يمكن أن ينسجم مع المجتمعات البدائية أو الغير منتظمة تحت إطار الدولة ليشكل مفهوم "السلطة الاجتماعية" أصدق تعبير على وصف نموذجها السلطوي، للاستزادة أكثر روبرت م، ما كيفر، تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب، بيروت، دار العلم للملايين، 1966م، ص 108

² نشير هنا إلى العمل الرصين الذي قام بها يحيى بن البراء في محاولته التأصيلية التي أوضح من خلالها ما للجماعة من أدوار ومساهمات قامت بها في ظل الأحوال الاستثنائية التي كان يعيشها المجال الموريتاني، يحيى بن البراء، انفعاله والسلطة والمجتمع، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص، ص. 64-65

حواليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الضروريات دفعا لسنة شرعية، ودعما لفرضية المجال الاستثنائي المقامة في أرضه سلطة حتمت وأظهرت تعالي القوم عن مرتكزات ثابتة وقواعد بينة في الحكم والسياسة¹، ليجد من نظر ومن تفاني فيه كل المبررات في ازدهار ثقافي معين تألفت البلاد به وصار علما لساكنتها².

ليبقى التعالق بين الثقافة والسياسية أمرا واقعا وحتميا يفيد بتعارضهما في المعادلة الشنقيطية، نفيا لقاعدة ثابتة لعلها من المرتكزات القائم عليها التفكير والإبداع والمؤسسة له في الأدبيات الفكرية لنظام الدول بدءا من انتشائها إلى نهايتها أو ذبولها وفق التقاليد والأدبيات المؤرخة لها³.

يقال إن التنظير السياسي ورغم غياب الأرضية اللازمة له، كان مواكبا لجميع الفترات التاريخية المعيشة في بلاد شنقيط، ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إن المتون الفقهية المنطرة للواجب السلطاني والمؤرخة لأحواله، كانت استثنائية لكثرتها وتنوعها، وعلى أساس منه قاست الظرف والحال متمنية حينما ما لم يوجد، وواجدة المبررات الشرعية لرؤيتها المقاصدية التي تساس بها الأمور، وتستمر بها الأحوال.

¹ تشير هنا ضرورة إلى الإشكاليات الكبرى التي حدثت في تاريخ المنطقة والتبريرات الفقهية لها انطلاقا من تكييف الوقائع المحلية وفق قواعد شرعية تستند إلى فقه الواقع والمصالح الضرورية للمجتمعات خصوصا إذا ما أولت القضايا المعيشية تبعا لهذه الأنماط سواء تعلق الأمر بالاستعمار والنظر في نازلته وإشكالياته وفق المنطلقات المعيشية، أو تعلق الأمر بمناقشة ملكيات الأرض أو الأحكام في الإشكاليات الفقهية التي نتجت عن هذا التحول إبان نشأة الدولة الموريتانية، ينظر للاستزادة أكثر: باب بن الشيخ سيديا، فتوى بشأن الاستعمار، مكتبة أهل الشيخ سيديا، ص. 10، محمد يحيى الولاتي، فتوى حول التلغراف، المعهد العالي للدراسات والبحوث، صص. 1-15.

² لعل الأمر هنا يتعلق بالصورة المتميزة التي خلفها الشنقيطي في البقاع التي زارها من علم وتمكن ودراية بالعلوم الشرعية قد تكون معاكسة لأنماط المعيشة في العالم الإسلامي عموما، حماد الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص. 232-233 وما بعدهما.

ولعل من أهم الأعمال التي حدثت عن هذه الفترة بقدر كبير من التمهيد، الناني ولد الحسين، "جوانب من حياة قاضي المرابطين، الإمام الحضرمي"، حواليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 6، 1999، ص. 89-96.

³ محمد عابد الحابري، العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص. 66.

أولاً: الدعوات الإمامية والرجوع إلى الأصول السلطانية:

من نافلة القول إن البلد لم توجد فيه سلطة جامعة مانعة، إلا ما كان من كيانات تتنقى في لحظتها التاريخية النشاز، لتشكل استثناء وحالة شاذة في تاريخ أهل هذه البلاد، من هذا الوعي أو هذه اللحظة الفارغة تشكل الوعي السياسي في عدم وجود حاكم متسلط يسوس أمور البلاد والسياد بأي منطق شاء أو رؤية أراد، إلا ما كان من صورة وريدية تركها إرث مرابطي يعد المرجعية الأخلاقية في الحكم وفي فهم مراد الرعية المثالي من الحاكم¹. مستوحى من أثر حضرمي في الفكر والسياسة لحاجة الدولة الجديدة إلى إنشاء مرجعية تكون السند والحجة للأمير في أفعاله وتصرفاته، أو في التصورات التي يجب أن يكون عليها الإمام المراتبي قائدا مستقبليا مجاهدا، ولعل استدعاء نموذج من هذا الكتاب يعبر بجلاء عن المقصد المراد هنا إثباته وتشابه الأنماط الوعظية المقدمة في إطاره بالتجارب الأخرى الباحثة في الآداب السلطانية²، عندما يقول مخاطبا الأمير المراتبي: "أما بعد أطل الله بقاءك في عز لا يزال الولي يحمده، والعدو يحسده، وأدام ارتقاءك في مجد لا تزال الأيام تجددته والتوفيق يؤكدده، وأتم نعماك في شرف لا تزال الحكمة تعضده والسياسة تعزده"³، على أنه إذا ما انتهت الأسباب الوجيئة التي دعت إلى الكتاب فسرعان ما تظهر النظرة الفلسفية والفكرة التي على أساس منها ألف المتن السياسي: "(فإن الارتفاع إلى المعالي صعب والانحطاط عنها أسهل، ولن تنال معالي الرتب إلا بالحكمة فمن أحب المعالي أدركها بالحكمة ومن

¹. إذا ما حاولنا تفكيك البنية المعرفية الشنقراطية في أصولها المتخيلة على الأقل من قبل النخبة الدارفة والمالكة للسلطة التقديرية. أي العلماء والفقهاء. لوجدنا استعادة النموذج المراتبي على أساس أنه الأفضل والمثالي مما أدي إلى تعالق كبير بينه وبين مسار البحث عن الأصول التاريخية لكثير من الإشكاليات المجتمعية، المختار بن حامدن، حياة موريتانيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص. 50-51.

². إسماعيل ولد شعيب، الخطاب السياسي لئدي الحضرمي الأزوكي دراسة تحليلية نقدية مقارنة في فكر أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، نواكشوط، المطبعة الوطنية، 1997، ص. 5.

³. المرادي الحضرمي، الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أحب الحكمة أدركها بالنظر المنتظم، ومن عني بالنظر في الأمور أدركه بمسائلة العلماء، ومجالسة الحكماء وإدمان الفكرة في خلواته واستشارة ذوي الرأي من ثقافته¹.

هكذا كانت الصورة "المتخيلة" أو أريد لها أن تكون، رغم التنظير السياسي على المفقود والمروي في ثوابت الأمة، من مرور تقاليد سلطوية راسخة شهد القاصي والداني بنضوجها، وتداول سياقاتها في بلدان مجاورة من باب بروز الأنا التاريخي في المجتمعات العربية، بما يعطي من دلالات ذاتية أخرى إذا اختلط المفهوم بسياقات أخرى تتعلق بمعادلات المركز والأطراف وحاجة هذه الأخيرة إلى كل ما من شأنه أن يكون دافعا في مركزيتها وأهمية مجالها في المجموع الثقافي العام².

لذا لم تكن التحولات السياسية التي حدثت في المنطقة حدثا فجائيا على مقياس الأحداث المؤثرة والصناعة للتاريخ، بقدر ما كانت نتاجا لأحوال الناس وتوجهاتهم الفكرية في مرحلة من تاريخهم، تشكل فيها الوعي القبلي السياسي على رؤية معينة يبنى عليها الصالح العام، تبعا لفقه الضرورة لأهل هذا المنكب المركزي.

لنتشكل هذه الآراء وغيرها محل نقاش مستفيض من قبل العلماء والنخبة الفقهية، وعلى أساس منها قاسوا الآراء المتعلقة بأحوال هذا المنكب البرزخي استنادا على الاستئناس بالتجارب الماضوية وذكر المآثر السلطوية، وما للإمام من أدوار شرعية ومصالح مرسلة، لا يختلف في تأصيلها الداعي إليها والمبنية عليه، وإن ظلت هذه الآراء خجولة أو مسكونة بهاجس ظل يقوم ويحدد أي محاولة من هذا القبيل³.

¹ نفس المصدر، ص. 54.

² ناقش هذه الأطروحة المفضية على عدم إمكانية المجتمعات البدوية لامتلاك تقاليد معرفية؛ عبد الودود ولد عبد الله في نقد حصيف للرؤية الخلدونية في هذا المجال، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2015، ص. 8 وما بعدها.

إضافة إلى العلاقة الجدلية الذي تناولها أكثر من باحث في إطار جدلية المركز والأطراف، عبد الملك مرتاض، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي، دمشق، اتحاد الكتاب، 1979، ص. 17.

³ للمزيد حول التصورات السياسية ينظر:

محمد يحي ولد باباه، الفكر السياسي في موريتانيا قبل تسعمائة سنة: قراءة في كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

إذ ظل هذا الهاجس منطلقا خصباً للآراء الفقهية، ومحاولة طرحها سواء تشكلت في التنظير العام الواصف للحال والمعبر عنه بأدق الألفاظ عن الأزمات المعيشة، أو كان على مستوى التجارب الإمامية التي حاولت أن تؤسس للدولة الدينية الراجعة إلى الأصول المقدسة والخالية. من الشوائب والمعتقدات الأسطورية، وإن ظلت هذه التجارب محدودة في الإطار والزمان¹.

وانطلاقاً من هذا الداعي الزاهد والرافض لكل دعوة إمامية، قد تكون محل نقاش مستفيض نظراً للترتيبات التي ستتربط عليها من خلل وضعف وفساد، فالأمر السلطاني فرض كفاية في النهاية، لذا ظلت المقاربة الفقهية حذرة ومتجاهلة لكثير من القضايا التصريحية في خبر الإمام وضرورة قيامه²، بمقاربة تجنب المسلمين مفاصل قد تكون أعظم، وفي هذا الإطار ينتزل قول الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي "ت 1242 هـ": (ولم يزل الحازمون من أهل الدين والحصيات، يهربون من الولايات والتروس، إذ لا يركن إليها غالباً إلا شهواني أو مضيع للحزم " ويقول أيضاً: " وكل من تعرض لولاية من السالف، فإما انتهاضا لنصح المسلمين من نفسه بإفئامة الحق لنلا يضيع، وإما نزعة بشرية حركها سبب من الأسباب أما على الثاني فلا يقتدي به. وأما على الأول فيقتدي به من بلغ مقلده من التمكين والقوة والنزاهة، وفي مثل زمانه الصالح الذي

¹ للاستزادة يمكن الإطلاع على المراجع التالية:

جمال ولد الحسن، "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها في تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط، العدد الأول، 1989، ص. ص. 12-15.

عبد الودود ولد عبد الله، "دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتى نهاية القرن 18م"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، 1989، ص. 26 وما بعدها.

أحمد الشكري، "جهاد الحاج عمر في أعالي السنغال" ندوة دولية بعنوان "تذكرى مرور مائتي عام على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفتوي"، 14-19، 1988، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2001، ص: 50 وما بعدها.

² نقصد هنا الأحاديث التي وظفت في المجال الفقهي الشنقيطي والتي انبثت عليها كثير من الأحكام في هذا المجال، البخاري، صحيح البخاري، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع، (د، ت)، كتاب باب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم: 6541

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

لم يزل فيه الدين طربا والحق جليا والأعوان قائمين وأهل الباطل منهزمين، وهيهات ذلك من آخر الزمان الذي غلب فيه حب الدنيا واستولى على الناس فيه سلطان الهوى¹.

وغير بعيد من ذلك يتحدث الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل فيقول: "والأمر الثاني هو ما آل إليه أمر من حمل السلاح بنية صالحة فتخلف ظنه، فمن ذلك الرجل الذي اشتهر علمه صلاحه... حملته ليذب عنه، وقد علمت أنه ما مات حتى أرسل إلى والدنا أن الرائد لا يكذب أهله، وهو رائد الزوايا إلى السلاح وما ظهر له فيه إلا خزي الدنيا وعذاب الآخرة²".

ولعل من أبرز من تعرض لهذا الإشكال وأثره بحثا ونقاشا، من خلال الكتابات الفقهية والتنظير العام المفضي إلى وصف الحال أشعار وكتابات محمد المامي، الذي حاول تلمس الواقع الشنقيطي والأسباب التي حدثت من أي تحرك يتجه إلى تنصيب الإمام العادل في ثوبه الراشدي الناصع، إذ يقول:

ونحن في بلقع بيباب نرعى مع الوحوش والضباب

وألف ثعلب يقودها أسد خير من ألف أسد إن لم نقد³.

لقد شعر محمد المامي بهذا الهم، وألف فيه الكثير من المتون والتصانيف معبرا بأدق التعابير عن حال مجتمعه، وما عن لهم من مللمات إثر هذا الخلل الواضح والبين⁴، حيث آلت الأمور في نظره إلى درجة من الفساد لم تعد مقبولة ولا منطقية، فإذا لم يوجد الإمام الأعظم فإنه لا يوجد شخص يرجع الأمور إلى نصابها، ولو كان ذلك بصفة قسرية، إذ يقول: "أما من لا تنالهم الأحكام لبيادهم

¹ الشيخ سيد محمد ولد الشيخ سيد المختار الكنتي، فتاوى، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، ص. 52 وما بعدها.

² نقلا هذه الفتوى عن الموسوعة الإفتائية، ولد البراء، يحيى، المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل

غرب وجنوب غرب الصحراء، نواكشوط، الناشر الشريف ملاي الحسن بن المختار بن الحسن، 2009، ص. 116.

³ محمد المامي، مجموع مؤلفات، رد الضوال والهمل إلى الكروع في مباحث العمل؛ كتاب البانية؛ الجمان؛ الرسائل؛ الدلفين وشرحها؛ الميزابية في مصاب ظواهر الظنون الميزابية، تصحيح يابه بن محمادي، تقريظ

مجموعة من العلماء، زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط 2007، ص. 201.

⁴ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال

الجامعات البدوية المتنقلة المحاضر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987، ص. 311-312.

ولم يول فيهم زعيم، فإما أن يتغلب أحد فتجب طاعته، وهذا المتغلب في غياب الإمام يقوم مقامه، وإذا لم يوجد هذا المتغلب في غياب الإمام فإن هناك بديلا آخر هو الجماعة التي تقوم مقامه¹. ويذهب الشيخ محمد المامي أبعد من ذلك عندما يناقش مسألة الخطة والقضاء، بنفس متحسر على الواقع يتبعه أثر تحليلي للواقع المتسبب، وهي أدوار في النهاية تتعلق بوجود الحاكم الفعلي الباسط سطوته على المجال الجغرافي برمته، بقوله: "أما خطة القضاء قبلادنا خالية من حقيقتها لأن قضائنا وإن رفعوا الخلاف شرعا فالتنفيذ معدوم ولا يتم الحكم دونه أي لا تظهر له ثمرة إلا في الغصب أن من أخذ المال بعده ممن حكم له به يكون غاصبا وقد علمتم حكم المال المغصوب، هذا إن تمكن المدعي من الدعوى والترافع وإلا ضاع الترافع كما ضاعت الأحكام الكثيرة المنوطة بأرض الإمام فإننا لله وإنا إليه راجعون"².

ولعل الأفكار التي طرحها بوميه ولد أبياه في مقاله حول إسهامات الرجل في هذا المجال³، تبدو منطقية من أول وهلة حول مفهوم الجماعة الذي يود أن يطرحه بديلا عن السلطان إذ يقول: "إذا لم نطلع على مواصفات هذين النوعين عنده أي محمد المامي فإنه أخرج منها جماعة الزوايا وجماعة بني حسان، فيقول: "فإن قلت جماعة بني حسان تقوم مقام الإمام لأنها متغلبة، قلنا ذلك لو اتفقت كلمتها"⁴.

ولعل محمد اليدالي يذهب أبعد من ذلك، عندما يحاول البحث عن تاريخية الإمام، من خلال محاولة تقصيه للنماذج المقدمة في محيطه ردا ونفيا لإثبات أي سلطة واقعية بقوله: "مع أن ذلك البلد لم يكن فيه سلطان ولا وال قط.... إلا أن ملوكا من السودان كانوا في أرض بعيدة، وكانوا يخشون السبي والإغارة من تلك الملوك ويرتحلون إلى بلاد بعيدة خوفا منهم..."⁵.

¹ . محمد المامي، كتاب البادية، م، س، ص. 203

² . نفسه، ص 345

³ . بومية ولد أبياه، "مفهوم الدولة عند الشيخ محمد المامي"، مجلة الشعاع، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، ع4/1406هـ-1985م، ص. 43

⁴ . محمد المامي، كتاب البادية، م، س، ص. 347

⁵ . نفلا عن الموسوعة الإفتائية ليحيى بن البراء، م، س، ج1، ص. 120/1

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وفي نفس الإطار انطلق محمد محمود ولد حويل، يدعو إلى نصب الإمام والتأسيس لنمط سلطوي جديد، متأثرا بالتجارب أو النماذج الإمامية المعيشة في منطقته وفي الأطراف المحاذية لها¹، وهنا ينتزل مؤتمر تندوجه في نفس السياق العام الذي تقدم به الشيخ سيدي إلى السلطان المغربي سيد محمد بن عبد الرحمن من أجل إعانتته بالسلاح دفاعا وذبا عن المحيط وغيره على الأوضاع المعيشة².

وهو بذلك يقدم نظرة يمكن أن تكون من باب المثال الشامل للواقع المحلي لديه ولغيره من فقهاء مرحلته، خصوصا في الهاجس السلطوي لديه، مما يمكن إجمالاً وضعه في النقاط التالية:

■ الأوصاف التي أطلق الفقهاء على المنطقة، استنادا إلى الرأي القائل بمفهوم السبييه وأهل المنكب البرزخي، مما يعطى تصورا حول واقع معين ينبئ بغياب الإمام ودوره السلطوي الشامل، عندما حاول الشيخ محمد المامي أن يؤسس لهذا المقصد بقوله: "ونحن في فترة من الأحكام بين العمالتين الإسماعيلية والبوصيائية"³.

■ أما التجلي الثاني أو المقصد فيظهر جليا في نقاش السلطة الزمنية القائمة، على مدى انسجامها ضرورة مع التصورات الموضوعية من قبل الفقهاء، حول الأصول والمواقف من سلطاتها التقديرية، سواء انسجمت مع السلطة الزمنية القائمة بصيغة التعدد أو الاختلاف في النماذج المقدمة⁴.

والحق أن هذا الصراع سيكون صراعا مفاهيميا بالأساس، وسيرقى إلى استعادة وتوظيف الأصول لتبرير المواقف، أو لاستكناه معالم مستقبلية لصالح المجموع انطلاقا من التكيف مع الوقائع والأحداث.

¹ الشيخ سيديا، رسالة بشأن تطبيق الحدود، مكتبة أهل الشيخ سيديا، ص. 1-2.

² رسالة موجودة في مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت يبين فيها الواقع المحلي وتداعياته ينظر للاستزادة: الشيخ

سيديا بن المختار بن الهبييه، رسالة إلى ملك المغرب، موجودة في مكتبة أهل الشيخ سيديا، ص. 1.

³ محمد المامي بن البخاري، كتاب البادية، م، س، ص. 247 وفي نفس الإطار يعبر عن السلطة القائمة والأحوال

السياسية شعرا بقوله:

يا من لقطر به الأحكام ضائعة يكش في كل ظل منه نتين، نفس المرجع، ص. 202.

⁴ نشير هنا إلى الحضرة الكنتية في أدوارها الوظيفية مع الشيخ سيد المختار الكنتي أو غيره وما قامت به من أدوار تماثل إلى حد كبير دور السلطة السياسية. انظر للاستزادة حول اختلاف السلط وتعدد أصنافها، ناصيف نصار،

منطق السلطة، بيروت، دار أمواج، ص. 43.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وبغض النظر عن التفاعلات التي ستنتج النظام الأميري على الأقل في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني، فإن الصراع المشار إليه هنا سيكون فاعلا ومؤثرا، خصوصا في الدعوة الزاوية المتأسسة نظريا على المرتكز الديني أو الراجعة إليه في أصوله وقواعد تحركاتها حول الإمام الجامع وما له من أدوار.

فقد استطاع ناصر الدين أن ينطلق من رؤى إلهامية تحدد مسار دعوته الإمامية، انطلاقا من معرفته الغيب استنادا إلى خوارقه وبركاته، أو كان على مستوى الألقاب والأسماء التي سمي بها نفسه، وهي تعبير لا محالة عن تصور مرحلي للسلطة وفتراتها التي تعيش فيها الحركة.

وهو ما سترتب عليه قيام الحرب المعروفة بشر بيه، وما وضعته من ترتيبات للأدوار والوظائف للمجموع السكاني على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي¹، وعموما فإن هذا الصراع السلطوي بقدر ما كان تجليا لنقاش فقهي جاد بين النخبة المثقفة، أو إطارا مرجعيا لرصد التمثلات ومواقفاتها للواقع، فإن الاتجاه الغيبي الإلهامي كان حاضرا ومؤثرا بشكل كبير².

بل تجاوز الأمر حسب نظرنا تداول الغيبات إلى نقد الواقع السلطوي، وإن كانت الأحكام الفقهية ومنتجها متأثرين لا محالة بالواقع الأميري، واصل الأمر إلى المسائل الدينية في كبرياتها وشمولياتها، مما يبرر كثرة الإشكاليات حول الإمام والدعوات الصريحة لنصبه³.

ورغم كل هذه الآراء فيما للإمام من أدوار وبحث في المخيلة الإسلامية في هذا الإطار، فقد وجد القوم في مفهوم الجماعة ملجأ آمنا وركنا يمكن الاعتماد عليه في التأسيس لحال القوم وظرفياتهم.

ثانيا: الجماعة الشرعية بديلا عن مفهوم الإمام:

إثر الواقع المتميز بميزات فارغة جعلته استثناء كما أشرنا في بداية هذا العمل، لم يكن بد من وضع طرائق آخر من أجل انسيابية أحوال الناس وأنماط عيشهم، ولعل المبدأ الشرعي ينطلق من

¹ محمد المختار ولد السعد، حرب شريبه، أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1995، ص.ص. 118-125

عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، م، س، ص. 165²

³ تكثر الأشعار حول الإمام وضرورة قيامه في العمل المتميز الذي قام به الخليل النحوي، ينظر للاستزادة الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، م، س، ص. 113 وما بعدها

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فكرة مرنة وفقها تفهم الآراء التي كتبت عن الموضوع، ونظرت له من خلال الرجوع إلى كتاب الدرر النثير وآراء صاحبه، إذ يقول في باب الغصب "...أن جماعة العدول تنوب في البلاد السائبة عن السلطان، وحيث يتعذر الانتهاء إلى السلطان تقوم مقامه في كل حكم حتى في الحدود والقصاص..."¹.

وينفس المنطلق سيوظف نص الطرطوشي كثيرا في العلاقة الدقيقة بين جدلية الفوضي والإمام حتى في استبداده أو تفرده بالحكم حيث يقول: "... ومثال السلطان القاهر لرعيته ورعية بلا سلطان، مثال بيت فيه سراج منير وحوله قيام من الناس يعالجون صنائعهم، فبينما هم كذلك إذ طفئ السراج فقبضوا أيديهم في الوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه... فدبت العقرب من مكنها وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحية من معدنها، وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث من حقارته فتعطلت المنافع واستطالت فيهم المضار... كذلك السلطان إذا كان قاهرا لرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهبيها محقونة والحُرْم في خدورهن مَصُونَة، والأسواق عامرة والأموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهرا..."².

من هذا الداعي طفق فقهاء القرن الثالث عشر يستأنسون وينطلقون من هذه الفكرة في فهم الواقع الشنقيطي والعمل على وضع قواعد سياسية واجتماعية في آن تحفظ للقبيلة عصبيتها وألفتها ويقائنها خلوا من الغرباء وحفظ الأنفس والأموال، إذ يذهب الشيخ سيديا في هذا المجال إلى القول بأن من فرق بين قبيلة وقطع نظامها، فقد برئ من ذمة الله ولو رضي أهل الحل والعقد بذلك، لأنهم رضوا بما لا يجوز..."³.

لقد كانت الإشكالات في أصلها تتحدث عن كيفية القضاء على هذه الظاهرة واستئصالها من خلال مجموعة من المفاهيم، لعلها تتضح أكثر في الرسالة التي وجهها الشيخ سيدي إلى محمد محمود

¹. نقلا عن يحيى بن البراء، الفقه والسلطة والمجتمع، م، س، ص. 68.

². أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، بيروت، دار صادر، ط 1، 1995م، ص. ص. 109، 110.

³. الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة، فتاوى، مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت، ص. 5.

بن حبيب عندما هم بإقامة الحدود وتغيير المنكرات" من لم تكن له شوكة ظاهرة وقوة قاهرة وأراد تغيير المنكر بالسلاح فقد تعرض لما لا يطيق وأهلك نفسه، وكان زيادة في الفساد...¹.

ولا يخفى من خلال هذه الفتوى وفي غيرها من الفتاوى المذهب المتأسس على النظر إلى اللحمية الاجتماعية، وانتفاء بعض الأحكام الشرعية لفقدانها الأسباب الكفيلة بتحقيقها، وهذا الإشكال إشكال السببية هو ما جعل الكثير من الفقهاء على سبيل المثال لا التعدد، يميلون إلى التثبت بالجماعة والقبيلة بديلاً عن السلطة خاصة أن هذه الجماعة تقوم عادة على نفوذ روحي ومركزي يتمثل في الشيخ، ويعضد هذه الآراء قول الشيخ سيدي المختار الكنتي: "إن الجماعة إذا كانت على أمر واحد، وهي أهل وفاق فمن أراد أن يخرج على مواساتها بلا سبب فلا يجوز له ذلك، ولو قال أنه يعطى لجماعة أخرى؛ لأن ذلك يؤدي إلى الخلل في الجماعة، وكل ما يؤدي إلى الخلل فلا قائل به، والقاعدة الشرعية مبنية على جلب المصالح ودفع المضار، ومعلوم أن تفرق الشمل مما يجنب الخلل، ويظهر الهرج ويذهب بالدول، وأن الله تعالى يقول: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"².

ونجد الشيخ سيدي في فتوى أخرى يؤكد هذا المنزع بقوله: "وحوطوا جماعتكم بالنصيحة و العدل، وأنزلوا الناس منازلهم لتكونوا من أهل الحق والفضل، واعلموا أن عمارة الأرض لا سيما عمارة أرض الزوايا لا تكون إلا بالاجتماع والتوافق والثبات فيها، ومواساة من تنفع فيه المواساة، واقتفاء من لا تنفع فيه إلى أهله وجماعته فترفع إليهم الشكوى منه..³".

على أنه دون كبير عناء يمكن أن يستشف من هذه الفتوى ومن غيرها من الفتاوى السابقة الذكر أن مفهوم القبيلة والجماعة صار بديلاً عن الدولة فله قواعده وأسسه المبني عليها، والتي يلتزم بها جميع أبناء القبيلة ممن جمعهم الولاء أو العصبية. وإثر هذا الحال صارت كل جماعة لها مفهومها المستقل وشخصيتها المتميزة بأعرافها وعاداتها والنظر المميز لها عن غيرها، ولعل المسألة تتحدد أكثر من خلال فتوى لمحمد بن مآلى يجيب فيها السائل عن قبيلة هل يثبت عرف بعضها

¹ الشيخ سيدي، رسالة بشأن تطبيق الحدود، م، س، ص. 3

² نقلاً عن محمد محفوظ ولد أحمد، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية، ط1، 1996م، ص. 297

³ هارون ولد الشيخ سيدي، كتاب الأخبار، المدون في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة

بهم، ط1، 1998، ص. 2/ 58

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

على بعض أم لا؟ فأجاب: "أنه لا يثبت حتى يجتمعوا عليه، ويستمر فعله فيها، وكل فخذ لا يلزم عرفه الآخر، حتى يجتمعون على أن يكون عرفهم واحد..."¹.

ولعل المعطي هنا يتعلق بالدور الوظيفي المقام به من طرف القبيلة والمتمثل في القضايا التالية إجمالاً:

إرث من لا وارث له؛

القيام على الإصلاح والوساطة بين المتخالفين داخل وخارج القبيلة؛

القبض على يد المفلس والغارم؛

خطة الحسبة؛

التزكية والجرح؛

تدريس الناشئة؛

حفر الآبار وإعمار الأرض؛

القيام في مصالح اليتامى والأرامل؛

تسيير المال المتعلق بالأحباس والزكوات؛

تحمل ما عجز عنه أهله من دين وتبعات².

وعلى الرغم من تكريس الفقهاء لهذا المذهب والتأسي به ووضع الأسس الكفيلة لاستمرارية هذا النوع من الانسجام الاجتماعي، حتى تم وضع آراء وأحكام تؤيد وتؤكد الزامية البقاء في هذا الفضاء من خلال الزواج والأعطيات والصدقات والمداراة وغيرها، فإن ثمة آراء أخرى شذت عن هذه القاعدة واعتبرتها تقييداً للمرء باعتبارها غير منسجمة مع حرية المرء ومسؤوليته الفردية المحددة في قوله تعالى "ولا تزر وازرة وزر أخرى"³.

وختاماً فأني أردت من هذه العجالة إثارة الموضوع فحسب لا إثراء له بالغوص في مختلف أغواره ومضامينه، وعموماً فقد ظل الخطاب السياسي قبل تشكل الدولة الحديثة مرهونا ومطبوعاً بطابعين اثنين نحسبهما على قدر كبير من الأهمية في التحليل المشار إليه هنا:

¹ محمذن فال بن متالي، أجوبة محمذن فال بن متالي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص. 3.

² يحيى بن البراء، الفقه والسلطة والمجتمع، م، س، ص. 69 وما بعدها.

³ سورة النجم، الآيتان رقم: 38-39.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

• الولاء الجغرافي والقبلي النابع من مصالح الفرد في إطار المجموع لأبناء محيطه ممن جمعهم الولاء والعصبية، ذبا لمصالحهم ودفاعا عنها أمام النوايب والمستجدات، لذا ظل الدعم أو السند القبلي واجدا الأرضية الملائمة لتحركه ودعمه من قبل جماعة الحل والعقد ممن انطوى تحت لوائها الفقهاء وأهل الرأي.

على أن المسألة المشار إليها في التحليل تفيد بفرضيات وصياغات أنتجت مفهوما مقابلا للدولة من جهة، وإن غاب الأصل في انسيابيته وحركيته، فظلت البلاد تعيش أزمت مفاهيمية، وحاجة ماسة إلى تحديدها، لتشكل مصطلحات من قبيل "الإجماع" و "القبيلة" و "فقه الضرورة" مفاهيم تتناسب فقه المرحلة، ليتأسس عليها الوعي في ثوبه الباحث عن رؤية سياسية وفقها تسير الأحوال ويعاش في المجال الجغرافي، وعلى أساس منها تؤسس الدراسات والمنطلقات الثقافية في فهم تاريخية البلاد والمحطات الفاصلة لتتناسب الظرفيات مع المطالب والمستجدات المناطقية والمجالية ولتعداد صياغة التاريخ. وفق هذه المنطلقات.

• التأسيس المقاصدي الشرعي دعما لفرضية المجال المفتوح، ودفاعا عن أساسات شرعية من قبيل البلاد السائية، والتي لا سلطان فيها المنعدم فيها الدرهم والدينار في إشارات ذكية كلها من علماء وفقهاء المنطقة تشير إلى فهم معين للأحوال والقياسات التي يتشرك وفقها وتسن التشريعات¹، والحق أن هذا الخطاب كان ملفتا للانتباه بكثرتة وتنوعه ورجوعه إلى المصادر السلطانية في تأسيساتها، وكأن الملاحظ أو القارئ لتلك المرحلة يلاحظ خلا منهجيا واضحا بكثرة المؤلفات والمتون رغم انعدام المسببات في التفسير والتحليل في الواجب السلطاني، وهو أمر يفسره ضرورة الخلل القائم في النظر إلى الدولة المعاصرة، مما سيكون محل نقاش مستفيض في بحوث مستقبلية.

¹ الاتجاهات الفروعية والنظر إلى النوازل بمنطق التكيف مع الوقائع والأحوال.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

I. المصادر:

أ. المخطوطات:

- ابن الشيخ سيد المختار الكنتي، الشيخ سيد محمد، فتاوى، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.
- ابن الشيخ سيديا، باب، فتوى بشأن الاستعمار، مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت.
- ابن المختار بن الهيبه، الشيخ سيديا، رسالة بشأن تطبيق الحدود، مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت.
- ابن المختار بن الهيبه، الشيخ سيديا، فتاوى، مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت.
- ابن المختار بن الهيبه، الشيخ سيديا، رسالة إلى ملك المغرب، موجودة في مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت.
- ابن متالي، محمذن فال، أجوبة محمذن فال بن متالي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي.
- الولاتي، محمد يحي، فتوى حول التلغراف، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

ب. المصادر المنشورة:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل صحيح البخاري، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع، (د، ت).
- ابن البخاري، محمد المامي، رد الضوال والهمل إلى الكروع في حياض العمل؛ كتاب البادية؛ الجمان؛ الرسائل؛ الدلفين وشرحها؛ الميزابية في مصاب ظواهر الظنون الميزابية، تصحيح يابه بن محمادي، تقرير مجموعة من العلماء، زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط 2007
- ابن الشيخ سيديا، هارون، كتاب الأخبار، المدون في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، ط1، 1998م.
- الحضرمي، المرادي، الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1981م.
- الطرطوشي، أبو بكر، سراج الملوك، بيروت، دار صادر، ط1، 1995م.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار العلوم العربية، ط 1، 1987 م.

II. المراجع

- ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000 م.
- الجابري، محمد عابد، العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الله إبراهيم ناصف، السلطة السياسية، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، 1982 م.
- كارادفو، البارون، مفكرو الإسلام، ترجمة عادل زعتر، القاهرة، الدار المتحدة للنشر، 1979 م.
- ما كيفر، روبرت م، تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب، بيروت، دار العلم للملايين، 1966 م.
- مرتاض، عبد الملك، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1979 م.
- النحوي، خليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة المحاضر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987
- نصار، ناصيف، منطق السلطة، بيروت، دار أمواج، (د. ت).
- ولد أحمد، محمد محفوظ، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظية، ط 1، 1996 م.
- ولد البراء، يحيى، المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، نواكشوط، الناشر الشريف ملاي الحسن بن المختار بن الحسن، 2009.
- ولد البراء، يحيى، الفقه والسلطة والمجتمع، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1994 م.
- ولد السالم، حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005 م.
- ولد السعد، محمد المختار، حرب شريبه، أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1995.
- ولد باباه، محمد يحيى، الفكر السياسي في موريتانيا قبل تسعمائة سنة: قراءة في كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

- ولد شعيب، إسماعيل، الخطاب السياسي لدي الحضرمي الأزوكي دراسة تحليلية نقدية مقارنة في فكر أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، نواكشوط، المطبعة الوطنية، 1997م.
- ولد عبد الله، عبد الودود، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2015م.

المقالات والندوات العلمية

- الشكري، أحمد، "جهاد الحاج عمر في أعالي السنغال" ندوة دولية بعنوان "تذكرى مرور مائتي عام على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفتوي"، 14-19، 1988، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2001م.
- ولد أبيب، بومية، "مفهوم الدولة عند الشيخ محمد المامي"، مجلة الشعاع، المعهد العالي للدراسات والبحوث، ع4/1406هـ-1985م.
- ولد الحسن، جمال، "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها في تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الأول، 1989م.
- ولد الحسين، الناني، "جوانب من حياة قاضي المرابطين، الإمام الحضرمي"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 6، 1999م.
- ولد عبد الله، عبد الودود، "دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتى نهاية القرن 18م"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، 1989م.

نشأة الاستعمار وتطوره

آدب ولد سيد امحمد

قسم التاريخ

جامعة العيون

يرجع اهتمامنا بظاهرة الاستعمار ونشأته إلى أنه كان عنوان مادة تدريسنا لطلبة قسم التاريخ والحضارة بجامعة نواكشوط لعدة سنوات، والكلام عن الاستعمار حديث ذو شجون، ومن المعروف أنه بعد انحسار القرون الوسطى التي امتدت إلى القرن الخامس عشر الميلادي دخلت أوروبا وخاصة الأجزاء الغربية منها في عصر جديد أصطلح على تسميته بعصر النهضة، الذي امتد ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر عندما دخلت أوروبا العصر الاستعماري الرأسمالي لشعوب القارات المغلوبة على أمرها وغيّرت وجه التاريخ العالمي من خلال تقدمها العلمي والتكنولوجي وما تبعه من تغيير في أنماط السلوك والأخلاق والقيم الاجتماعية.

تعتبر ظاهرة الاستعمار ظاهرة بشرية بامتياز فقد لازمت التاريخ الإنساني منذ بدايته¹، وهو ما نجده عند الجماعات البشرية الأولى في بحثها عن أسباب العيش ووسائله، والاستعمار كلمة محدثة مشتقة من فعل عمر² واستعمره في المكان أي جعله عامرا أي أهلا، ومنه قوله تعالى: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} (هود: 61) فالأصل اللغوي يفيد معنى طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، لكن الواقع لا علاقة له بالمعنى اللغوي فالاستعمار هو ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها من أجل استغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والاستعمار حسب ما جاء في المعجم الوسيط³ هو استيلاء دولة أو شعب على دولة

¹ - عبد الجليل علي مصطفى الخليل، حركات التحرر الوطني في العالم الثالث، الجامعة المفتوحة، طرابلس

الغرب، ط1، 2000م، ص21.

² - مجموعة من المؤلفين، معجم المنجد الإحصائي، دار المشرق، لبنان، ط5، 1987م، ص36.

³ - مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، القاهرة، 2010م

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أخرى وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقاته وأفراده والعمل على استثمار مرافقه المختلفة، وهذا التعريف يشمل أنواع مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، فمن أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار، وقد تعددت التعريفات للاستعمار، وقد عرفه كوامي نكروما بأنه سيطرة دولة على دولة أخرى واستخدام هذه الدولة المستعمرة قوتها الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب آخر، واستغلاله اقتصادياً¹، ولعل تعريف الأستاذ الدكتور (محمد عوض محمد) هو أكثر هذه التعريفات شمولاً فقد عرف الاستعمار بأنه: "العمل أو مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو على سكان تلك الأرض أو على الأرض والسكان في آن واحد"². ويرجع الاستعمار الحديث إلى إفرازات ونتائج النهضة الأوروبية ولا بد من التوقف عند بعض العوامل التي أدت إلى نهضة أوروبا.

1 - عوامل قيام النهضة الأوروبية

ترجع النهضة الأوروبية في حد ذاتها إلى جملة من العوامل المتشابهة التي يصعب الفصل بينها³. فهي التي هيأت الظروف الملائمة وخلقت الأرضية الصلبة فبعد أن عانت أوروبا من سيطرة الكنيسة على الروح العلمية والثقافية وسيطرة النظام الإقطاعي على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ظهر فكر جديد، ومفاهيم جديدة تدعو إلى التحرر والتخلص من قيد كنسي وإقطاعي عنيف جنم على كل مظاهر الحياة الأوروبية في العصور الوسطى. ويمكن أن نميز عدة أنواع من العوامل التي أدت إلى قيام هذه النهضة وهي عوامل داخلية وعوامل خارجية وسنذكر مثالاً لكل منهما.

¹ - كوامي إكروما، نحو تحرير المستعمرات، ترجمة عبد العزيز عتيق، 1958م، ص48

² - محمد عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، القاهرة، 1957م، صص 38-39

³ - عبد الفتاح حسين أوعليه، إسماعيل أحمد باغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، ط3،

الرياض، 1993م، ص21

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وتتحدد العوامل الداخلية في العديد من المظاهر والتجليات ومن هذه المظاهر قيام المدن.

أ - ظهور المدن:

تعد المدن عاملاً مهماً وأساسياً في قيام النهضة الأوروبية فداخل هذه المدن تجمع المفكرون والتجار والحرفيون فنشأت بذلك طبقة اجتماعية جديدة لا تعتمد على الأرض بشكل كبير وإنما تعتمد على التجارة والصناعة فقد كان النظام الإقطاعي في العصور الوسطى يعتمد على القرى والأرياف فكانت القرية هي الوحدة السكنية والاقتصادية والاجتماعية وكانت العلاقات الاجتماعية القائمة هي علاقات سادة وعبيد.

بينما أدت نشأة المدينة الأوروبية على خلفية نمو التجارة والصناعة إلى قطيعة بين الفرد والمجتمع وسيطرة طبقة النبلاء والإقطاع وأصبحت المدينة مركزاً للإشعاع الثقافي والحضاري، وقد ظهرت هذه التطورات أولاً في المدن الإيطالية كجنوة وفلورنسا والبندقية وروما وبعد ذلك تبلورت أكثر في كل من إسبانيا والبرتغال اللتين قامتا بالاستيلاء على التراث الإسلامي العربي في الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م، ونتيجة لنشأة المدن الحديثة في أوروبا فقد حدثت منافسة فكرية إيجابية خاصة بين المدن الإيطالية كان الهدف منها دراسة المخطوطات الإغريقية والمخطوطات القديمة، ونادى البعض منهم أن الفرد لا يمكن أن يتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع ما لم يكن على حظ وفير في هذه الدراسات، وكانت الكنائس والأديرة تزخر بعدد كبير من المخطوطات، وقد أطلق مصطلح جديد "الدراسات الإنسانية" على كل من يهتم بالحركة الفكرية والتراث الإنساني (الأوروبي) القديم أي الدراسات الإغريقية واللاتينية¹.

ب - أثر الحضارة الإسلامية:

وهو من أهم العوامل الخارجية التي ساهمت في النهضة الأوروبية الحديثة، ومما لا شك فيه هو إسهام الحضارة الإسلامية في نهضة الأوربيين كثيراً من التراث الإسلامي والعربي في الأندلس بعدما سقطت غرناطة في أواخر القرن 15م مما جعل الجزيرة الأيبيرية تضع يدها على أغلب المخزون الثقافي والعلمي الكبير الذي كانت تضمه الحواضر الإسلامية في الأندلس والذي يشمل

¹ - شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة وحتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م، ص 13.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كل الفنون من طب وهندسة وعلوم فلك وفلسفة يونانية، وتعد الحضارة العربية الإسلامية هي المؤسس لمعظم العلوم العصرية التي قامت على أكتافها الحضارة الغربية باعتراف جهابذة علماء الغرب ومفكره¹، ومما لا ريب فيه أن مراكز الشرق الأدنى الإسلامية التي تعرضت للحملات الصليبية كان لها دور كبير في الصلات الثقافية بين أوروبا والحضارة العربية الإسلامية وهو ما ساعد الأوروبيين على الاطلاع على تقدم المسلمين في مختلف أنواع العلوم والفنون من رياضيات وجغرافيا وتاريخ وفلك².

ونتيجة لهذا الاحتكاك والاتصال بين العالم الإسلامي وأوروبا حصل التلاقح والتأثر، وفي هذا السياق يورد مؤلف كتاب "تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر"³ شهادة في هذا الصدد للمؤرخ الغربي "هربرت جون ويلز" الذي ألف كتابا موجزا عن تاريخ العالم يقول فيه: "وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذي بدأه الإغريق لأول مرة عاد سيرته الأولى في ثنايا النهضة المدهشة التي عرفها العالم الإسلامي لقد تم للعرب (المسلمين) في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم، فنبتت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا واستعملت علامة الصفر لأول مرة، ولا يخفى أن اسم (الجبر) نفسه عربي وكذلك كلمة (كيمياء) ثم إن أسماء نجوم كنجم الغول والدبران والعواء تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى...".

ولا تقتصر عوامل النهضة الأوروبية على هذا فقط بل إنها تشمل العديد من الأفكار والآراء لا يتسع الحديث لذكرها في هذا البحث نتيجة لإكراهات المنهجية المتبعة.

ولما كانت البرتغال وإسبانيا في منأى عن الصراعات الأوروبية سارعوا إلى حركة الكشف الجغرافية وهي أولى حلقات الاستعمار الأوروبي لشعوب العالم، لقد أدت هذه المرحلة إلى الحصول على الكثير من الأموال والرياح وجمع العديد من المعلومات الجغرافية والعلمية عن إفريقيا والعالم الجديد والشرق.

¹ - ضمد كاظم وسمي، النهضة الأوروبية وقضية الحرية، منتديات ليل الغربية، 2009م، ص 10.

² - عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1999م، ص 7.

³ - عبد الفتاح حسين أوعليه، إسماعيل أحمد باغي، مرجع سابق، ص 18.

والكشف الجغرافية لا تخرج بأي حال عن كل ذلك في أي مجهود كشفي قامت به الأمم الأوروبية أكان ذلك للقارة الإفريقية أم لآسيا بل وحتى مناطق الهند الحمر المعروفة الآن بالولايات المتحدة الأمريكية¹، علما أن أوروبا قامت بالكشف الجغرافي والاستعمار والاستيطان في عصور نهضتها القديمة إبان الحضارة الرومانية واليونانية وغيرها².

وإذا نظرنا إلى النتائج العامة لكل الكشف الأوروبية في العالم نجدها تشمل ثلاثة جوانب هي:

1 - تلبية معظم الحاجات التي خرج الكشافون من أوروبا لأجلها مثل إشباع الغرائز الشخصية كحب المغامرات والحاجات ذات الطابع الاقتصادي كالذهب والحجارة النفيسة وتأمين طرق تجارية بعيدا عن العثمانيين ومعرفة منابع الأنهار وخلافها.

2 - معرفة أراضي جديدة هي أستراليا والأمريكتين والقارة القطبية الجنوبية وبعض أجزاء إفريقيا برأس رجائها الصالح الذي حل إشكال الطريق إلى شرق آسيا، وتبعاً لذلك تغيرت الخرائط القديمة وعرف الأوروبيون تفاصيل الأجزاء الداخلية للقارات وخاصة قارة إفريقيا.

3 - الفوائد العلمية التي أدت إلى توسيع المعرفة الجغرافية ورسم الخرائط وتصحيح القديمة منها كالتي تتعلق بالرياح التجارية والرياح العكسية، وقد عرف الأوروبيون نباتات وحيوانات ما كانوا يعرفونها من قبل، كما أفادوا من كل العلوم التي وجدوها في كل البلاد المكتشفة ونشروا ما عندهم من تقنيات ولغات ومهارات اقتضتها حركتهم لتحقيق أهدافهم³.

كان لحركة الكشف الجغرافية الأوروبية نتائج عكسية على شعوب قارات العالم حيث أدت إلى الاستعمار التجاري أو الماركنتيلي وهو أولى حلقات وفصول مسلسل الاستعمار الحديث، حيث صارت مستعمرة من قبل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا والبرتغال مع أن الأخيرة هي السابقة منذ أمد بعيد في الكشف والاستيطان، ويمكن القول إن الكشف الجغرافية هي الوجه المضيء للنهضة الأوروبية بينما الاستعمار هو الوجه القبيح لهذه النهضة⁴.

1 - مصطفى محمد علي، الكشف الجغرافية الأوروبية للقارة الإفريقية، جامعة جوبا، بدون تاريخ طبع، ص 2.

2 - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، 2000م، ص 34.

3 - مصطفى محمد علي، مرجع سابق، ص 13.

4 - شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مرجع سابق، ص 22.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وتمتاز المرحلة الأولى من الاستعمار بكونها مرحلة تجارية وكشفية لم تسجل فيها توغلات كثيرة إذا استثنينا مراكز تجارية ساحلية كبعض الشواطئ الإفريقية والخليجية والعالم الجديد المكتشف. وقد بلغت النزعة الماركنتيلية أوجها في هذه المرحلة حيث تنافست فيها اسبانيا والبرتغال على الحصول على العديد من الثروات من الذهب والفضة والرقيق خصوصا من السواحل الإفريقية. لقد أدت الأرباح الطائلة التي جنتها البرتغال واسبانيا من هذه المرحلة إلى دخول دول أوربية جديدة مثل هولندا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا وبلغ التنافس ذروته واستخدم السلاح والقوة العسكرية في بعض فصول هذا التنافس.

لقد تسارعت وتيرة التصنيع في أوربا وخصوصا مع الثورة الصناعية التي بدأت في بريطانيا فازداد الطلب على المواد الأولية من أجل تزويد المصانع وتطورت الأفكار الاقتصادية وظهرت الرأسمالية الحديثة التي تهدف إلى الحرية التجارية القائمة على تنمية رؤوس الأموال والبحث عن أسواق حرة لتصريف البضائع ومع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م تراجعت قوة البرتغال واسبانيا وانفردت دول جديدة مثل فرنسا وبريطانيا بالسيطرة الاستعمارية وسيبلغ معهما الاستعمار الحديث ذروته وأوجه، لقد بدأت مرحلة جديدة من الاستعمار بلغ فيها الاستغلال واستنزاف خيرات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حدا منقطع النظير وفي هذه المرحلة ازدادت النزعة الاستهلاكية في البلدان المستعمرة وأصبحت البضائع الأوربية جزءا لا يتجزأ من العادات الغذائية في هذه البلدان وارتبطت ارتباطا وثيقا بالرأسمالية العالمية وأصبحت دول العالم الثالث مجرد سوق استهلاكية كبرى لأوربا وخزانا هائلا للمواد الأولية، فازداد اندفاع فرنسا وبريطانيا إلى استعمار بلدان جديدة وتحت دوافع وأسباب مختلفة.

2 - أسباب ودوافع الاستعمار الحديث:

مع أن الاستعمار الحديث بدأ في القرن الخامس عشر، إلا أن الأوربيين لم يتوغلوا في المناطق العالمية أكثر إلا في القرن التاسع عشر، وقبل نهاية القرن على وجه الخصوص ظهرت دوافع وأسباب جديدة أدت إلى النهم الاستعماري فأخذت الدول الأوربية تتوغل داخل بلدان العالم، وأراد بعض ساسة أوربا أسسا تتحرك في إطارها هذه الدول لمد نفوذها، وقد تعددت دوافع الاستعمار

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

وتشابكت وتعقدت حتى صعب معها أن تميز أي دافع دون غيره، حيث تدخل الدافع الاقتصادي بالاستراتيجية وتحت إطار الدين ونشر الحضارة والثقافة في بعض الأحيان ومن أهم هذه الدوافع:

أ - الأهداف السياسية:

وتتمثل الأهداف السياسية في تحسين مركز الدولة الاستعمارية في التنافس على المراكز المتقدمة على سلم القوى الدولي إذ أن بقاءها متفوقة على المسرح العالمي مرتبط بما تملكه من مستعمرات، ويجعلها أكثر قدرة على التحكم في القرارات الدولية وتوجيهها لصالحها، ويمكن اعتبار مؤتمر برلين عام 1884م مؤشراً على ذلك، فقد عقد هذا المؤتمر بسبب الصراع بين الدول الاستعمارية على مناطق النفوذ. ويفسر العالم الأمريكي هانس مورغانثو الامبريالية بأنها " سياسة تستهدف قلب الوضع القائم والقيام بمراجعة علاقات القوى بين دولتين أو أكثر من أجل تحقيق تفوق محلي أو إقامة إمبراطورية قارية أو تحقيق هيمنة عالمية ويرى أن الدول كالأفراد لديها " شهوة القوة " أي الرغبة في تحسين وضعها باستمرار، من غير الاقتناع بالوضع القائم.

ولكي تتمكن الدول الاستعمارية من تعزيز مركزها الدولي في إطار هذا التنافس، لا بد لها من زيادة مواردها، وهو أمر يستدعي البحث عن موارد خارج حدودها، فقامت هذه الدول بالإجراءات الآتية:

- تمويل بعثات الاستكشافات الجغرافية التي تستهدف البحث عن مناطق غنية بالموارد أو يمكن الاستثمار فيها، ومن أمثلة ذلك تمويل رحلة فاسكو دي غاما البرتغالي الذي اكتشف الطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في رحلته التي دامت من (1497-1498) وتمويل الأسبان لبعثة كريستوفر كولومبوس الذي اكتشف السواحل الأمريكية (البهاما) عام (1492) وتمويل بعثة ماجلان الذي وصل إلى سواحل أميركا الجنوبية عام (1519)، وعبر الباسيفيكي (الهادي) إلى الفلبين حيث قتل هناك، واكتشاف شبه القارة الاسترالية، وتواصلت هذه الحملات حتى القرن التاسع عشر من بعثات بريطانية وفرنسية وألمانية... الخ.

- الاحتلال العسكري المباشر للمناطق الغنية بالموارد، وإرسال موجات من المستوطنين في بعض الأحيان إلى المناطق التي تمت السيطرة عليها.

ومن أمثلة الاحتلال العسكري المباشر: الاحتلال البرتغالي لبعض شواطئ الخليج العربي بقيادة القائد البوكيرك وشواطئ المحيط الهندي، الاحتلال البريطاني لعدن عام (1839)، ولمصر (1882)

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والاحتلال الفرنسي للجزائر عام (1830) والاحتلال الإسباني لمناطق من المغرب 1912، أما المناطق التي عرفت استعماراً استيطانياً فمن أمثلتها: الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وشيئاً الجزائر والاستيطان الأوربي في جنوب إفريقيا وفي أستراليا ونيوزلندا.

- السيطرة على المواقع: يستدعي تعزيز المركز الدولي للدولة الاستعمارية سيطرتها على المواقع التي تمثل مراكز، يمكن منها السيطرة على طرق المواصلات أو التحكم بمنابع بعض الأنهر أو مجاريها، أو منع تشكيل أحلاف متصلة جغرافياً مع بعضها.

- استخدام بعض المناطق المستعمرة لإجراء التجارب النووية: أجرت فرنسا تجربتها النووية الأولى في الصحراء الجزائرية عام (1960).

ب- الدافع الديني:

لقد انتهى الصراع بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أيبيريا بخروج المسلمين نهائياً منها سنة 1492م، فأصبحت الأندلس بالنسبة للمسلمين الفردوس المفقود، وبعد الانتصار المسيحي اتجهت القوات البرتغالية والإسبانية إلى الساحل الإفريقي المقابل، وحملت البرتغال لواء حركة دينية سميت بحركة الاسترداد المسيحي¹.

في الوقائع المسلم بها أن عمليات التنصير أو التبشير ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالاستعمار وواكبته واستمدت منه كل عون وتأييد وسعت لتثبيت نفوذها وانتشارها من خلاله، وقد أخذ الاستعمار يعمل بواسطة مدارسه اللادينية والتبشيرية على بث سموم الميوعة والإلحاد والانحلال في نفوس الشباب، وبذل مجهودات جبارة لتربيتهم على السخرية بمقدسات الأجداد والتقاليد الموروثة ليخلق جيلاً يؤمن بأوروبا وحدها ويقلدها تقليداً أعمى²، وقد انطلقت أوروبا من نظرية مفادها أنها هي مركز العالم الحضاري والديني، وأن عليها رسالة حضارية خالدة يجب أن تنتشرها وتبثها في بلدان العالم الغير أوربي المتخلف والجاهل والهمجي البربري، وقد ارتبط عدد من الحملات الاستعمارية من البرتغال وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا بوجود بعثات وإرساليات تبشيرية دينية، وقد نجح عدد منها في تنصير

¹ - فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا، 1997م، ص 159

² - محمد فاضل علي باري، سعيد إبراهيم كردية، المسلمون في غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007م،

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قطاعات من سكان المستعمرات، وكان أبرز حالات النجاح في هذا المجال في الدول الإفريقية مثل جنوب السودان وجنوب إفريقيا.

ويرى العديد من الباحثين أن الدافع الديني ما هو إلا غطاء من أجل التستر على الوجه الاستعماري الحقيقي المتمثل في البحث عن الثروات والخيرات بغية استنزافها ووضع اليد عليها ولتحقيق هذه الأهداف الكبرى وضعت الدول الاستعمارية سياسات خاصة تهدف إلى إحكام السيطرة على هذه البلدان وتسهيل الاستعمار وانسيابيته، والعامل الديني الذي تسابقت إليه الجمعيات المسيحية لم يكن إلا وسيلة لتبرير الاستعمار¹.

ج - الدافع الاقتصادي:

يعتبر الدافع الاقتصادي من أهم الدوافع بالنسبة للأوروبيين ويكاد يكون هو الدافع الأوحد للاستعمار، وذلك لأن أوروبا كانت تعرف نهضة صناعية كبيرة وما يتطلب ذلك من حصول على المواد الأولية، بغية السيطرة على التجارة العالمية والبحث عن المعادن النفيسة والأسواق، وقد واجهت أوروبا عدة صعوبات منها:

- 1 - اتضح للدول الصناعية حاجتها المواد الخام التي تدخل في الصناعة
 - 2 - أدت الثورة الصناعية إلى تركيز الصناعات في المدن مما أدى إلى هجرة الفلاحين وحدوث نقص في المواد الغذائية لسكان المدن الصناعية الذين تزايد عددهم
 - 3 - أدى استعمال الآلات الحديثة إلى حدوث إنتاج كبير أكثر من حاجة الدول المنتجة فكان لابد من وجود أسواق محتكرة وعملاء تجاريين في الخارج لبيع المصنوعات.
- ولقد وجدت الدول الأوروبية حل هذه الصعوبات في إفريقيا وآسيا حيث تتوفر المواد الخام من مطاط وبتروول وذهب وقطن وحديد ونحاس ومنغنيز وغير ذلك من المواد الخام، كما توجد أسواق لاستهلاك الفائض من الإنتاج وكان أصحاب رؤوس الأموال يطالبون بالحاح شديد في امتلاك المستعمرات².

وقد تمكنت الدول الأوروبية من التوغل بعيدا واستعمار واكتشاف مناطق جديدة لاستعمارها.

¹ - فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 160

² - نفس المرجع، ص 160 - 161.

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

د- الدافع الاستراتيجي:

الإستراتيجية في الأصل مصطلح يوناني يدل على فن العلوم العسكرية والخطط الحربية فكثير استعماله وأصبح يدل على الشيء المهم يقال بموقع إستراتيجي أي موقع له أهمية خاصة وتتحدد طبيعة هذه الأهمية تبعاً لمعطيات جغرافية أو اقتصادية أو حضارية¹.

ويعتبر الدافع الإستراتيجي أحد الدوافع المهمة في عملية الاستعمار، فالسيطرة على المواقع المهمة تسهل العملية الاستعمارية، فالأماكن المرتفعة والواقعة على المحيطات والسواحل والأنهار هي مواقع إستراتيجية ومهمة للدولة الاستعمارية ويكمن ذلك في سهولة الوصول إليها وتميز خطوط الإمداد إليها كما قد تمكن هذه المواقع الإستراتيجية من استعمار مناطق جديدة والتحكم في التجارة العالمية وقد سيطرت فرنسا في إفريقيا على مناطق إستراتيجية فالجزائر مثلاً وهي تواجه الساحل الفرنسي على البحر الأبيض المتوسط، كانت نقطة تنافس بين فرنسا وإنكلترا، لأن الأخيرة فإن لها نفوذ في تركيا ومصر ومنطقة الشرق البحر المتوسط وكانت تريد الانطلاق من الجزائر، ولذلك سارعت فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830م، كما سيطرت بريطانيا على أهم المضائق العالمية كقناة السويس وخليج عدن وباب المندب وجبل طارق.

ولا تقتصر دوافع الاستعمار على الديني والاقتصادي والاستراتيجي فقط، فقد روج الاستعمار للدفاع عن حقوق الإنسان باعتبارها من أهم المبادئ التي ينادي بها.

هـ- الدافع الإنساني:

اعتقد بعض الأوروبيين أن من واجبهم أن يأخذوا بأيدي الإفريقيين والآسيويين المتخلفين وأن يغيروا نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يسايروا ركب المدنية الحديثة، وذهب البعض إلى القول بأن الاستعمار مادام ينعم على المتخلفين بالمدنية ونظمها وقوانينها فعلى الأوروبيين أن يضحوا براحتهم لنشر هذه النعم بين المحكومين وقد أطلق على هذه الفكرة مسؤولية أو عبء (الرجل الأبيض)، وقد كان الدافع الإنساني الذي في جوهره إلغاء تجارة الرقيق ما هو إلا ذريعة وستار أُنْخِذَ لإخفاء المقاصد الفعلية للاستعمار، وإلا فكيف يفسر مشاركة أوربا قبل ذلك في تجارة

¹ - مجموعة من المؤلفين، معجم المنجد الإعلامي، مرجع سابق، ص34

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرقيق، ألم يكن هناك دافع إنساني آنذاك عندما أخذ الإفريقيون قسرا من بلادهم وبيعوا في أسواق
تجارة الرقيق في أوروبا.

الخاتمة

كان للنهضة الأوروبية وما أنتجته من كشوفات جغرافية نتائج عكسية على شعوب قارات العالم حيث
أدت إلى الاستعمار التجاري أو الماركانتيلي وهو أولى حلقات وفصول مسلسل الاستعمار الحديث،
حيث صارت مستعمرة من قبل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا والبرتغال مع أن
الأخيرة هي السابقة منذ أمد بعيد في الكشف والاستيطان، لقد بنت أوروبا عالمها المتطور ولكن على
حساب الشعوب المغلوبة على أمرها التي تعرضت للنهب والسلب.

حوايل كلىة الآداب والعلوم الإنسانىة

قائمة المصادر والمراجع

- عبد الجليل على مصطفى الخليل، حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث، الجامعة المفتوحة، طرابلس الغرب، ط1، 2000م.
- مجموعة من المؤلفين، معجم المنجد الإعدادى، دار المشرق، لبنان، ط5، 1987م.
- كوامى إكروما، نحو تحرير المستعمرات، ترجمة عبد العزيز عتيق، 1958م
- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، القاهرة
- محمد عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، القاهرة، 1957م.
- عبد الفتاح حسين أوعلى، إسماعيل أحمد باغى، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، ط3، الرياض، 1993م.
- شوقى عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوربا من النهضة وحتى الحرب الباردة، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م.
- ضمد كاظم وسمى، النهضة الأوربية وقضية الحرية، منتديات ليل الغزىة، 2009م.
- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربى الحديث، دار الفكر العربى، مدينة نصر، 1999م.
- مصطفى محمد على، الكشف الجغرافىة الأوربية للقارة الإفريقية، جامعة جنوبا، بدون تاريخ طبع.
- عيسى على إبراهيم، الفكر الجغرافى والكشف الجغرافىة، دار المعرفة الجامعية، 2000م
- فصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا، 1997م.
- محمد فاضل على بارى، سعيد إبراهيم كرىة، المسلمون فى غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007م.